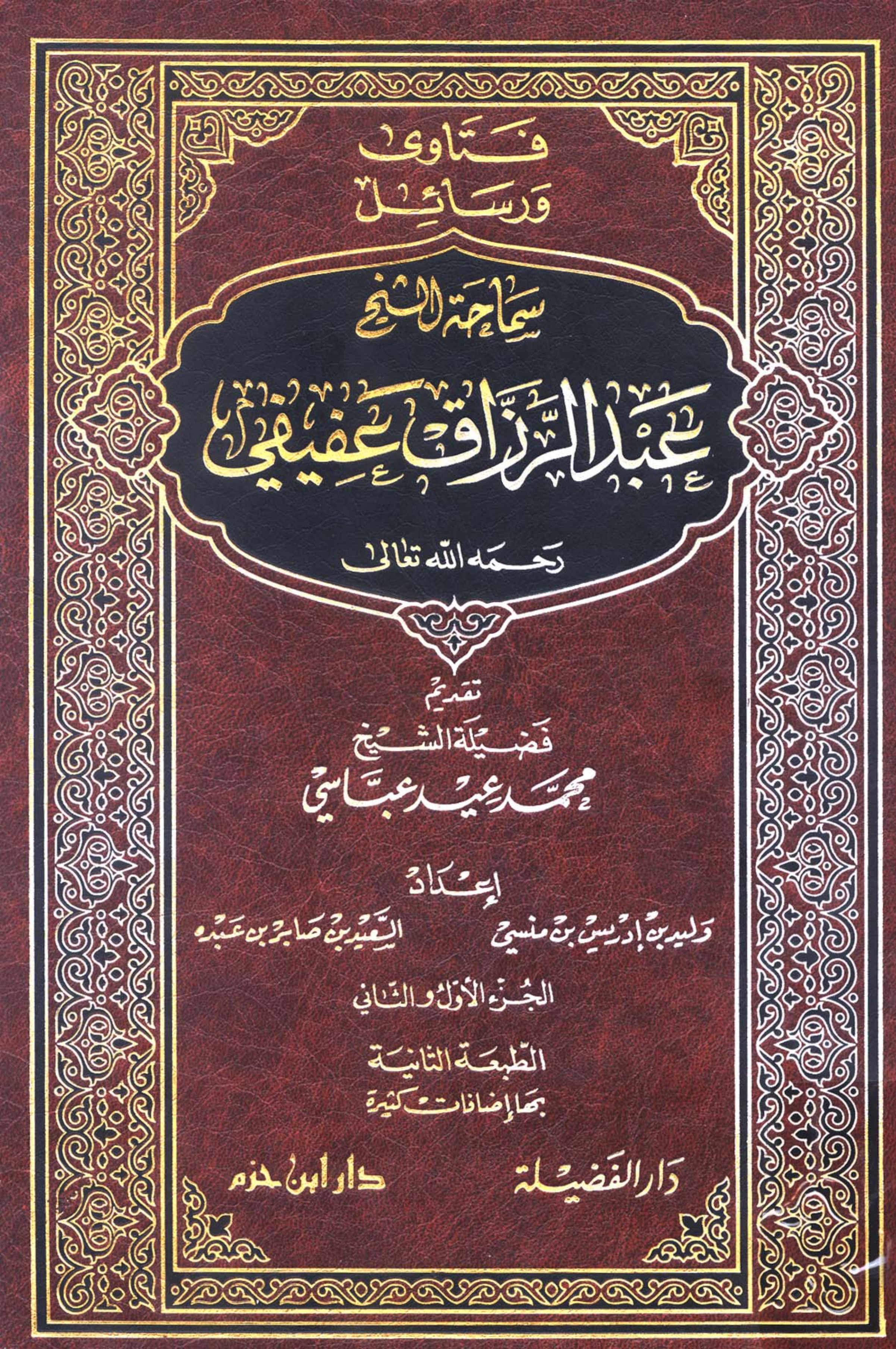

فتاوى
ورسائل
سماحة الشيخ
عبد الرزاق عفيفي
رحمه الله تعالى
تقديم
فضيلة الشيخ
محمد عيد عباسي
إعداد
وليد بن إدريس بن منسي
السعيد بن صابر بن عبده
الجزء الأول والثاني
الطبعة الثانية
بها إضافات كثيرة
دار الفضيلة
دار ابن حزم

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٤٣٣ - ص.ب ١٠٣٨٧
تليفاكس: ٢٣٣٣٠٦٣

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

المقـــدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد:

فقد اشتدت الحاجة في وقتنا الحاضر إلى تيسير العلم، وتعريف الناس بالأحكام الشرعية، وتقريبها لهم، ليعبدوا الله مخلصين له الدين، وفق ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وحَسْبُ العلم فضلاً أن مجالسه تحفها ملائكة الله، وتنزل عليها السكينةُ، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في الملأ الأعلى. **يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -** أيها الناس عليكم بطلب العلم، فإن لله رداء محبة، فمن طلب باباً من العلم ردّاه الله بردائه ذاك[1].

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: نعم المجلس تنشر فيه الحكمة، وترجى

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٥٩.

فيه الرحمة[١]. يعني مجلس العلم.

وقال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقه، وبذله لأهله قربه، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والنصير على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند القرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة وأئمة يقتفى أثارهم، ويقتدى بهم، أدلة في الخير تقتفي آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنتها تمسحهم، لهم كل رطب ويابس ليستغفر لهم، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها . . . **إلى أن قال:** به يطاع الله وبه يعبد، وبه يوحد، وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يُلهمه السعداء ويُحرمه الأشقياء.[٢]

وإنه مما يعلمه المسلم العاقل أن أفضل وأصح الطرق الموصلة للصلاح والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، هو الحرص على العلم النافع الذي يقول عنه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: حياة القلوب ونورهاومتى فاتها شقيت في الدارين الدنيا والآخرة.

أخي القارئ: العلماء هم نبراس الحياة بين الناس وامتداد لحبل الله بين عباد الله على مر الزمان.

وانطلاقًا من هذا المفهوم كان حرصنا على نشر العلم النافع فمنَّ الله علينا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٥٠.

(٢) نقلاً من كتاب: [مكانة العلم والعلماء في الإسلام] للأستاذ الدكتور سيد محمد ساداتي الشنقيطي [تحت الطبع].

بمجموعة علمية فريدة لعالم من علماء الأمة المعاصرين، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه، وترك خلفه ثروة علمية تدل على سعة علمه، ودقة نظره وشمول معارفه، إنه سماحة **الشيخ المحقق العلامة المدقق عبدالرزاق عفيفي الأثري السلفي [المصري نزيل الرياض]** عضو هيئة كبار العلماء، ونائب رئيس اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية، الذي وهب حياته لبيان الحق للناس وإفادة طلاب العلم بل والعلماء، فهو لا يخفى على من له صلة بالعلم والعلماء ـ. **أنه كان على قدم راسخة في أنواع العلوم الشرعية من العقائد، والفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والآثار، والعلوم العربية وأنواعها، بالإضافة إلى الاطلاع الواسع على واقع المسلمين وواقع العالم المعاصر**، كما أوتي ذكاءً وقّاداً وذاكرةً قويةً، وفهماً ثاقباً ساعده على التحقيق في الأمور المعضلة، والفصل في الأمور المشكلة، فلم يكن جماعاً للمعرفة فقط، وإنَّما كان محققاً كالقلة من العلماء الذين كانوا يخوضون في لجج العلم، ويستخرجون منها كنوز الفوائد ونفيس الفرائد.

ويكفي ما وصفه به **شيخنا العلامة الألباني حفظه الله تعالى بأنه: [من أفاضل العلماء، ومن القلائل الذي نرى منهم سمت أهل العلم وأدبهم، ولطفهم، وأناتهم وفِقْهَهُم]**[١].

ولما كان باب الإفتاء من أعظم المسائل، وأخطرها على الناس أجمعين رأينا نشر هذا المجموع الذي هو أثر من آثار هذا العلامة ـ رحمه الله فهو **مجموعة من الرسائل والفتاوى المتنوعة** والتي أجاب عنها الشيخ **بأسلوب يتدفق حيوية مستدلاً بالقرآن والسنة، وإجماع الأمة، برفق الداعية، وعلم المفتي**، ليهتدي بها الحائرون الَّذين كثيراً ما تخبطوا في ظلمات الجهل بسبب من أفتوا بدون دليل، ولا حق من التنزيل، فضلوا وأضلوا، ولو قالوا: لا أدري لأصابوا.

(١) مجلة الأصالة، العددان الثالث عشر والرابع عشر.

وأسأل الله أن يكثر في الأمة الإسلامية أمثاله ويخلفها خيراً منه، فإنه كما هو معروف أن موت العالم ثَلمة لا تسد، وكما ذكر النبي ﷺ في حديثه: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»**[1].

فلله در أقوام، أعظم الله لهم الثواب، وطابت الدنيا بذكراهم بعد الممات، أحياء غير أموات.

علمًا بأنني جمعت هذا المجموع من أماكن متفرقة، ومواضع متباعدة، فمن بين رسالة مطبوعة، وفتوى مخطوطة، ومقالة مسطورة في مجلة من المجلات، وبين شريط مسموع لجلسة من الجلسات أو محاضرة من المحاضرات، وغير ذلك من المصادر المتنوعة التي يسرها الله لي.

بالإضافة إلىٰ مجموعة الفتاوىٰ التي دونها الأخ وليد بن أدريس من جلسات الشيخ بمنزله، وعندما كنت أعمل بالجمع والترتيب علمت من الأخ وليد أنه يكتب ترجمة مفصلة للشيخ رحمه الله تعالىٰ، وأن لديه مجموعة من فتاوىٰ الشيخ التي أجاب عنها في منزله.

فطلبت منه أن يصدر هذا المجموع بما كتبه من ترجمة حتىٰ لا يكرر العمل، وتضاف الفتاوىٰ التي كتبها من إملاء الشيخ إلىٰ المجموع الذي جمعته من الرسائل والفتاوىٰ وترتب ترتيبًا فقهيًا حتىٰ يستفيد منها الناس فرحب بذلك جزاه الله خيراً.

وكان عملي في هذه الطبعة كالآتي:

١ - قرأت المادة العلمية المجموعة، واستبعدت المكرر منها واصلاح ما وقع

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

في المطبـوع منهـا سـابقـاً من أخـطاء، وهـذا مما تمتـاز به هذه الـطبـعـة، **بالإضافة إلى الزيادات الجديدة والكثيرة من المباحث والفتاوى.**

ولابد من الإشارة هنا إلىٰ أن بعض أعمال **سماحة الشيخ** ـ رحمه الله ـ قد طبع ولكن تحت مسميات مختلفة .

٢ - قمت بتـخريج الأحاديث الواردة في هذا الكتـاب، واكتفيت بالعزو إلىٰ الصـحيحين، أو أحدهـما إن لم يكن فيـهـما جـميعًـا، ومـا لم يكن في أحـدهـمـا اجتهدت في تخريجه من بقية كتب السنة مع ذكر أقوال الأئمة الحفاظ .

٣ - رتبت المادة العلمية التي تجمعت لدي علىٰ الأبواب الفقهية . وقد راعيت في هـذا الترتيب البـدء بالأبحـاث ، أو المبـاحـث الـتي وقـفت علـيـهـا **للشيخ عبدالرزاق** رحـمـه الله تعالىٰ، ذات الـصلة بالباب، ثم بعـد ذلك أتبـعتـهـا بالفتـاوىٰ والاستفسارات التي تخصه .

وعلىٰ هذا فـالبـاب له بداية ونهـاية . والبـداية هي الأبحـاث أو المبـاحث ، والنهاية هي الفتاوىٰ . إلا في حالة نادرة اقتضتها علاقة الفتوىٰ بجزء من الباب مما يساعد علىٰ فهم إجابات الشيخ .

٤ - وضـعت بعض العناوين للفـقـرات التي تضـمنتـهـا بعض المبـاحث حتىٰ يسهل علىٰ القاريء الوصول إلىٰ مبتغاه بأسهل طريق ، وفي أسرع وقت ، وبأقل جهد .

٥ - وضعت فـهرس إجـمالي للمـوضوعات والمباحث والأبواب الرئيسة في الكتاب .

٦ - وضعت فهرسًا تفصيليًا لجزئيات الكتاب وفتاويه .

وقد قسمت الكتاب إلى قسمين:

١ ـ **القسم الأول**: سيرة الشيخ رحمه الله تعالى و [هي من إعداد الأخ الفاضل وليد ادريس] .

٢ ـ القسم الثاني: الرسائل والفتاوى: ويشتمل على عشرة فصول وكل فصل يحتوي على مباحث.

أولا : رسائل ومباحث العقيدة

- علم التوحيد
- مسائل علم التوحيد
- الرسالة ومباحثها
- منهج الرسل في الدعوة إلى الله
- الإيمان بالبعث
- مبحث في وجود الجنة والنار الآن وبقائهما أبداً
- مبحث في العرش والكرسي وإثبات صفة العلو لله
- رسالة في الحكم بغير ما أنزل الله
- رسالة في الدفاع عن السنة ورد شبهات المغرضين
- وجوب تقديم النص على العقل عند التعارض
- وجوب التزام عقيدة السلف
- وجوب محبة أصحاب رسول الله ﷺ والرد على مبغضيهم
- التعريف بأهل السنة (أ) ، (ب)
- الفرق التي شذت عن أهل السنة
- الخوارج وما تشعب منها
- الشيعة وما تشعب منها
- فتاوى العقيدة

ثانيا : مباحث الفقه وفتاويه

- فتاوىٰ الطهارة
- فتاوىٰ الآذان
- فتاوىٰ الصلاة
- فتاوىٰ الصيام
- فتاوىٰ الاعتكاف
- فتاوىٰ الزكاة
- مباحث الحج
- فتاوىٰ الحج
- مباحث البيوع (بحث في الربا)
- فتاوىٰ البيوع
- فتاوىٰ النكاح والرضاع
- فتاوىٰ الطلاق

ثالثا : مباحث في القرآن

- القرآن وكيف نقل إلينا
- نقله متواتراً حفظا
- نقله متواتراً خطا وكتابة
- جمع القرآن في عهد أبي بكر
- نسخ المصاحف في عهد عثمان
- فضل كلام الله وفضل تلاوته
- التكبير عقب قصار المفصل
- الاجتماع والدعاء عند ختم القرآن
- حكم القراءة بالأحرف السبعة

رابعا : أبواب التفسير

- تفسير الفاتحة
- تفسير سورة المائدة
- الكلام على مقاصد سورة الأنبياء
- تفسير سورة الانفطار
- آيات من سورة الأعلى
- تفسير مختصر لسورة الكوثر
- فتاوى التفسير

خامسا : الحديث النبوي

- حديث الحلال بين والحرام بين
- حديث المسلم من سلم المسلمون
- دعاء الكرب

سادسا : فتاوى الحجاب واللباس والتصوير

سابعا : مباحث الدعوة والعلم

- الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله [١ ، ٢ ، ٣ ، ٤]
- الدعوة إلى العلم والعمل
- ذم الغرور الفكري
- فتاوى الباب

ثامنًا : ذم البدع

تاسعًا : فتاوى متفرقة

عاشرًا : نظرة إلى واقع المسلمين

وإني لأرجو من طلاب العلم الناصحين، والتمس النصيحة بملحوظة أو

اقتراح أو توجيه في هذا الكتاب

فإذا رأيت عيبًا فسدَّ الخللا   جل من لا عيب فيه وعلا

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب مصنفه، وخادمه، وناشره. وقارئه، وأن يجعله ذخرًا للجميع في الدنيا والآخرة، إنه جواد كريم . وكما قال النبي ﷺ **«من لم يشكر الناس لا يشكر الله»**، فإنني أتوجه بالشكر لكل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب، وأخص بالذكر الأخ الفاضل السيد أبو عمة الذي قام بتصحيح الكتاب وتخريج بعض الأحاديث التي لم تخرج، فجزاه الله خير الجزاء، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أبو عبدالله السعيد بن صابر بن عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَــدّمَة

بقلم / أبي خالد وليد بن ادريس

الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلىٰ الهدىٰ وينهونه عن الردىٰ ، وينفون بسنة رسوله ﷺ الجهالة والردىٰ .

فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ! فما أحسن آثارهم علىٰ الناس وما أقبح آثار الناس عليهم ! (١) .

والصلاة والسلام علىٰ إمام العلماء وقدوتهم القائل : « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء** » (٢) .

أما بعد :

فما أعظم فجيعة العالم الإسلامي يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وأربعمائة وألف للهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم . وما أفدح خسارته يومئذ ! وهو اليوم الذي قبضت فيه روح الإمام العلاَّمة الفقيه الأصولي المفسر النحوي البارع في جميع العلوم الزاهد الورع الشيخ أبي أحمد عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية النوبي الشنشوري المالكي الأزهري السلفي عن اثنين وتسعين عاماً قضىٰ شطرها بمصر وشطرها بنجد ينشر العلم ويفتي المسلمين ويدعو إلىٰ الله تعالىٰ في البلدين كليهما ويخرج علىٰ يديه أكابر العلماء يواصلون مسيرته في الدعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة .

وقد كان رحمه الله شديد الغيرة علىٰ عقيدة السلف الصالح حريصاً علىٰ

---

(١) هذه الافتتاحية مقتبسة من رسالة السنة للإمام أحمد التي أرسلها إلىٰ مسدد بن مسرهد ونص الرسالة بترجمته في طبقات الحنابلة لأبي يعلىٰ .

(٢) رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

نشرها بكل سبيل والدفاع عنها بكل سلاح ، ويزين ذلك كله بتواضعه الجم وزهده في حطام الدنيا وسخائه بما في يده . لذلك عظم المصاب به ولله در شيخنا العلامة صالح بن فوزان ـ وهو أحد تلاميذ المترجم ـ حيث يقول :

« إن شيخنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي يرحمه الله شخصية علمية فذة ، فهو شيخ المدرسين وقدوة العلماء السلفيين في هذا الوقت ، فله الفضل بعد الله على كل متعلمي هذا الجيل ممن تخرجوا في الدراسات الشرعية في التفسير والحديث والعقيدة والأصول . . . إلى أن يقول : . . . والآن وقد لقي ربه من ذا سيسد ثلمته ؟

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر » [١] .

وقد كنت وأنا بالأسكندرية قبل قدومي إلى المملكة أسمع الثناء العطر على الشيخ عبد الرزاق رحمه الله من تلاميذه هناك خاصة شيخنا **الشيخ عبد العزيز بن على البرماوي** رحمه الله ، الذي كان لا يفتأ يحدثني عن جهاد الشيخ عبد الرزاق في نشر السنة والعقيدة السلفية بالأسكندرية مدة مقامه بها ، وكيف أنه كان يذهب إلى مساجد الصوفية يأمرهم بالتوحيد واتباع السنة وينهاهم عن الشرك والبدع مما جعله لا يسلم من أذاهم حتى وصل الأمر إلى أن رفعوا شكاوى ضده إلى المحاكم .

ثم إني عندما عزمت على القدوم إلى المملكة أرسل معي الشيخ البرماوي رحمه الله رسالة إلى الشيخ عبد الرزاق ، وأعطيته الرسالة ، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ١٤١٠هـ ، قرأها متهلل الوجه ثم طفق يسألني عن أحوال الشيخ البرماوي وأحوال الدعوة بالأسكندرية وأظهر لي من الحفاوة والإكرام ما يليق به ـ وإن لم أكن له بأهل ـ ثم ردَّ إليَّ الرسالة ولازلت محتفظاً بها ، ثم إن

---

(١) من مقالة للشيخ صالح بن فوزان .

الشيخ عبد الرزاق الحّ عليَّ أن أتغدىٰ عنده ، وكان معي أحد إخواني فقال : أنت وصاحبك ، فقلت له : إني راجع متأخراً من الدوام ، والمسافة بعيدة فقال : ولو ! سوف أنتظركما ، فلما كان من الغد قدمنا علىٰ الشيخ فإذا به قد فتح باب منزله وجلس علىٰ كرسي قريباً من الباب ، والطعام بالداخل معد علىٰ المائدة ، فقابلنا بالترحيب كعادته ، ولم تخل جلسة الطعام من فائدة علمية ، وذلك أن الشيخ ناول كلاً منا طبقاً ليغرف فيه وغرف الشيخ لنفسه طبقاً ثالثاً ، فسألته هل يحصل فضل الاجتماع علىٰ الطعام الوارد في قوله ﷺ : « **خير الطعام ما تكاثرت عليه الأيدى** »[١] . وإن لم يكن الاجتماع علىٰ نفس الإناء . فأجاب قائلاً : المقصود بالحديث الاجتماع علىٰ مائدة واحدة ولا يشترط الاجتماع علىٰ نفس الطبق .

ثم إني طلبت من الشيخ أن يحدد لنا موعداً نزوره فيه ، فحدد لنا يوم السبت بعد صلاة المغرب من كل أسبوع .

فكنت أتردد علىٰ الشيخ رحمه الله في هذا الموعد مع بعض إخواني يشرح لنا فيه عبارة غامضة في كتاب ، أو يجيب علىٰ استفتاءاتنا ، وقد طلبت من الشيخ أن أقرأ عليه في كتاب معين . فقال : الأحسن أن تقرأ أنت وحدك ، وما غَمُضَ عليك أشرحه لك ، فلازمت الشيخ ـ رحمه الله ـ نحو أربع سنوات يتخللها انقطاعات بسبب سفر الشيخ ومرضه ، وغير ذلك .

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ . وإنما الذي وقفت عليه ما رواه أبو يعلىٰ في مسنده (٢٠٤٥) وفي اسناده عبد المجيد بن أبي رواد وفيه ضعف وقد وثق . وابن جريج وأبي الزبير المكي وكلاهما مدلس وقد عنعن ولفظه « إن أحب الطعام إلىٰ الله ما كثرت عليه الأيدي » وقد عزاه المنذري فى الترغيب والترهيب (٣/ ١٣٤) إلىٰ الطبراني وأبي الشيخ . وللحديث شاهد عن وحش بن حرب مرفوعاً ولفظه « اجتمعوا علىٰ طعامكم واذكروا الله عليه يبارك لكم فيه » والحديث اسناده ضعيف وقد رواه أحمد (٣/ ٥٠١) وأبو داود (٣٧٦٤) . وابن ماجه (٣٢٨٦) وقد حسنه الألباني بالطريقين في السلسلة الصحيحة (٨٩٥) .

وقد كنت حريصاً على تسجيل هذه الجلسات المباركة مع الشيخ - رحمه الله - تسجيلاً صوتياً على شريط إلا أن الشيخ رحمه الله رفض ذلك رفضاً قاطعاً ولم يأذن لنا فيه ، فكنت أكتب خلفه الفتاوى المهمة فكان كثيراً ما ينهاني أيضاً عن الكتابة خلفه ، **ويقول** : لقد كان الإمام ابن حزم ينتقد الإمام ابن القاسم ؛ لأنه كان يكتب كل ما يقوله الإمام مالك ، وكان ينبزه بقوله هو حمار مالك يكتب كل ما يقول ، إلا أن الشيخ - رحمه الله - كان يعقب على هذه الحكاية بقوله : كان ابن حزم بذئ اللسان يقع في العلماء .

وبالرغم من هذا فإني كنت أكتب خلف الشيخ أحياناً كثيرة حتى تجمعت لدى مجموعة كبيرة من فتاوى الشيخ الخاصة ، والشيخ - رحمه الله - كان يتميز بدقة العبارة والتأني في الإجابة بحيث إن إجابته كانت إجابة من يملي إملاءً مما يسهل على من يرغب في الكتابة خلفه أن يكتب بيسر مع المحافظة على عبارة الشيخ غالباً .

وبعد وفاة الشيخ عبد الرزاق - رحمه الله - ترجم له جماعة من تلاميذه تراجم موجزة في هيئة مقالات ، في الصحف ، والمجلات ، أو محاضرات ألقوها ، أو تراجم خاصة أرسلوها إلى ولده الأستاذ محمود - حفظه الله - الذي أعطاني نسخة منها ، بالإضافة إلى عدد من الحكايات التي سمعتها مشافهة من الشيخ عبد الرزاق نفسه ومن بعض تلاميذه .

فرأيت أنه من الوفاء للشيخ - رحمه الله - والعرفان لجميله أن أجمع شتات ذلك في كتاب واحد بعد ترتيبه وتهذيبه ، فاستخرت الله تعالى وشرعت في هذا العمل ؛ إذ لم يشكر الله من لا يشكر الناس ، وأولى الناس بالشكر هم الأنبياء وورثتهم من علماء الأمة ، فلهم منَّة قد طوَّقوا بها رقاب الخلق ، ومما شجعني على مواصلة هذا العمل ، رغبة **الأخ السعيد بن صابر بن عبده الذي أخذ على عاتقه نشر تراث الشيخ رحمه الله.**

ومما شجعني على ذلك أيضاً أني وجدت كثيراً من الفضلاء قد أمَّلوا هذا الأمل واستنشدوا من كان لديه شيء من تراث الشيخ أن ينشره لتعم به الفائدة .

فمن ذلك ما قاله الشيخ الدكتور محمد لطفي الصباغ في آخر ترجمته الخطية للشيخ عبد الرزاق :

إن حياة شيخنا المباركة تستحق أن تكتب فيها مؤلفات ، ولست أدعي أن هذه الكلمة قد وفت فقيدنا العظيم حقه من الترجمة ، ولكنها كلمة وفاء وعرفان بالجميل ، رحمه الله وغفر له ، وأحسن جزاءه .

ومن ذلك أيضاً : ما قاله الشيخ يوسف المطلق لمجلة الدعوة [العدد ١٤٥٨] قال - حفظه الله - :

« وإننا نرجو أن تنشر فتاويه الخاصة في سجل يُستفاد منه زيادة على فتاوى مشايخنا ، وعلمائنا ، **وعلى رأسهم سماحة عالم الأمة الشيخ عبد العزيز بن باز و﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾** ا . هـ .

ومن ذلك أيضاً : ما قاله الأستاذ محمد عبد الله الشريف عضو مجلس الشورى في جريدة الرياض الصادرة يوم ١/ ٤/ ١٤١٥ هـ :

« إن من حق الشيخ عبد الرزاق عفيفي على طلبته الذين تتلمذوا على يديه ونهلوا من معرفته وعلمه ، أن يقوموا بجمع تراثه العلمي ، ومؤلفاته ، ورسائله، وفتاويه ، وسيرته ، وينقحوها ويطبعوها ليستفيد منها كل طالب علم لأنه رحمه الله كان يتصف حتى بالزهد في طباعة المؤلفات » ا . هـ .

وتحقيقاً لبعض ما رغب فيه هؤلاء الأفاضل ، شرعت في هذا العمل مستعيناً بالله تعالى على إتمامه ، وعلى أن يخرج بالصورة اللائقة بالمترجم .

وقد قسمت هذا الكتاب إلى قسمين :

أ ـ قسم للترجمة ، جعلته مرتباً على فصول كما ستجده ـ إن شاء الله ـ .

ب ـ وقسم للفتاوى الخاصة وقد طبع بمفرده في الطبعة الماضية . **أما في هذه الطبعة فسوف يطبع ضمن مجموع الرسائل والفتاوى التي جمعها الأخ السعيد لكي يرتب الكتاب ترتيبًا علميًا.**

والجدير بالذكر أني لم أذكر في قسم الفتاوى إلا ما سمعته من الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ بأذني ، وكتبته عنه بقلمي ، ولم أكتب فيه شيئاً لم أسمعه بنفسي من فم الشيخ عبدالرزاق عليه سحائب الرحمة .

وقد أوردت عقب هذه المقدمة ، صورة ورقة بخط المترجم ـ رحمه الله ـ **يوصي فيها بقبول شهادة العبد الفقير كاتب هذه السطور لتحصل الثقة ـ إن شاء الله ـ فيما أرويه عن الشيخ من الفتاوى .**

وأختم هذه المقدمة بنداء أوجهه إلى طلبة العلم في هذا العصر الذي ابتلينا فيه بظاهرة غريبة ، لا نظير له في أي عصر من العصور السابقة وهي إهمال الترجمة ، والتأريخ للمعاصرين ، ولمشايخهم إهمالا عجيباً رغم أن أسلافنا قد دأبوا على تصنيف تواريخ خاصة بكل بلد على حدة كتاريخ دمشق ، وتاريخ بغداد ، وتاريخ نيسابور ونحوها ، وتواريخ عامة للقرون كخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، وطبقات للحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، والحنابلة ، والقراء ، والنحاة مما يطول ذكره .

ثم يجيء مَنْ بَعْدَهم فيذيِّل على تواريخهم وطبقاتهم ، لكنه من المؤسف الآن أنك ترى مئات من الأعلام في أنحاء العالم الإسلامي تقبض أرواحهم هذا مقرئ ، وهذا محدث ، وهذا نحوي ، وهذا زاهد عابد ، فتموت معهم أخبارهم ، ولا يجدون من تلاميذهم ، ومحبيهم من يتصدى لنشر فضائلهم حتى إن المرء ـ ومن جرَّب عَرَف ـ يعاني الأمرَّين حين يبحث ـ في الأسانيد المتأخرة وتلاميذه ولو أن كل طالب علم ذكر ما يعرفه عن أحوال مشايخه لتجمع من ذلك ما يكمل بعضه بعضاً وتتم به الفائدة .

فإن قال القائل : ما فائدة التراجم ، والتعرف علىٰ سير الرجال ؟ قلت : لها فوائد كثيرة ، منها :

١ - حصول الثقة لدىٰ من يأتي بعدهم في علومهم ومؤلفاتهم وفتاواهم .

٢ - تثبيت قلوب المؤمنين بسماع قصص أتباع الرسل كما ثبت الله تعالىٰ رسوله بأن قصَّ عليه من قصص الرسل ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ (١) .

٣ - الاقتداء بهم والسير علىٰ طريقهم .

٤ - الوفاء لهم وشكر إحسانهم بالتسبب في الترحم عليهم ، والانتفاع بعلمهم عملاً بقوله ﷺ « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » (٢) . وقوله ﷺ : « **من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله** » (٣) .

٥ - التعريف باتصال الأسانيد المارة بهم ، وصحتها سواء أسانيد القرآن الكريم وقراءاته ، أو أسانيد الحديث النبوي ، أو أسانيد غيره من العلوم والكتب .

وأختم مقدمتي هذه بحمد الله تعالىٰ ، والصلاة والتسليم علىٰ رسوله الأمين وعلىٰ آله ، وصحبه ، ومن سار علىٰ نهجه إلىٰ يوم الدين .

وكتبه

أبو خالد وليد بن إدريس بن

عبد العزيز بن منيسي الإسكندري الحنبلي

عفا الله عنه

الرياض ١٠/ ١١/ ١٤١٧هـ

---

(١) سورة هود ، الآية : ١٢٠ .

(٢) رواه أبوداود ، والترمذي . انظر : صحيح أبي داود للشيخ الألباني ، الحديث رقم ٤٠٢٦ .

(٣) رواه مسلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة [٦٧٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

نشهد نحن الموقعين أدناه .

أن الأخ / عبدالحميد عثمان رجل فاضل وعلى خلق و ولده بالمستشفى يحتاج إلى عناية خاصة بالصدر ويحتاج إلى مساعدة مالية

١- وليد إدريس عبدالعزيز

٢- عادل مرسي رفاعي

٦/٩/١٤١٠

عبد الرزاق عفيفي

الشاهدان المذكوران من إخواني السلفيين الثقات الصادقي اللهجة والمعروفين لديَّ بالخير ، والمعروف ، فأرجو أن يقبل قولهم وتحقق رغبتهم فيما شهدوا به .

والله الموفق ؛ ؛ ؛ ٦/ ٩/ ١٤١٠ هـ .

كتبه وشهد به

عبد الرزاق عفيفي

ترجمة سماحة الشيخ

عبدالرزاق عفيفي رحمه الله تعالى

[١٣٢٣هـ - ١٤١٥ هـ]

الفصل الأول

سيرته بمصر

المرحلة الأولى : في شنشور .
المرحلة الثانية : في القاهرة .
المرحلة الثالثة : في شبين الكوم .
المرحلة الرابعة : في الإسكندرية .

الفصل الأول

سيرته بمصر

اسمه ونسبه : هو أبو أحمد عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية النوبي الشنشوري المالكي الأزهري السلفي .

قضى الشيخ رحمه الله نصف عمره تقريباً بمصر ، ويمكن تقسم حياته بمصر إلى أربع مراحل :

١ ـ **المرحلة الأولى** : من مولده سنة ١٣٢٣ هـ إلى حين حصوله على الثانوية الأزهرية ، وقد قضى هذه المرحلة في قريته شنشور .

٢ ـ **المرحلة الثانية** : بعد حصوله على الثانوية سافر إلى القاهرة للدراسة في الأزهر ، وظل هناك حتى حصل على شهادة العالمية سنة ١٣٥١ هـ ، ثم شهادة التخصص في فقه المالكية والأصول سنة ١٣٥٥ هـ ، وشهادة العالمية (بكسر اللام) تعادل في وقتنا هذا (البكالوريس أو الليسانس) ، وشهادة التخصص تعادل (الماجستير أو الدكتوراه) .

٣ ـ **المرحلة الثالثة** : بعد حصوله على شهادة التخصص ، عين مدرساً بالمعهد الأزهري بشبين الكوم سنة ١٣٥٦ هـ ، وظل الشيخ مقيماً بشبين الكوم بضع سنوات .

٤ ـ **المرحلة الرابعة** : انتقل الشيخ إلى الإسكندرية وعمل بها مدرساً بالمعاهد الأزهرية إلى جانب رئاسته لجماعة أنصار السنة بالأسكندرية نائباً عن الشيخ حامد الفقي الرئيس العام للجماعة ، ثم تم اختياره رحمه الله رئيساً عاماً لجماعة أنصار السنة خلفاً للشيخ حامد الفقي رحمه الله ، وظل الشيخ عبد الرزاق بالإسكندرية يدعو إلى التوحيد، والسنة ، ويحارب البدع وأهلها إلى أن قدم إلى

المملكة العربية السعودية **في عهد الملك عبد العزيز** ليواصل سيرته في الدعوة إلى الله تعالى ، ونشر العلم النافع .

وسوف ننقل في هذا الفصل نبذاً من سيرته ـ رحمه الله ـ بكل مرحلة من هذه المراحل عمن عاصر الشيخ فيها .

المرحلة الأولى

في شنشور

شنشور هي القرية التي ولد فيها الشيخ عبد الرزاق عفيفي بن عطية النوبي ، وهي قرية تابعة لمركز أشمون بمحافظة المنوفية بمصر .

وكانت ولادته ـ رحمه الله ـ سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة ، وممن ينتسب إلى شنشور من الأعلام خطيب الجامع الأزهر الشيخ عبد الله بن محمد الشنشوري شارح الرحبية ، المتوفى سنة ٩٨٣ أو ٩٩٩ هـ .

وأسرة الشيخ أسرة كريمة تعد من أعيان البلد ، وأفاضلها تعرف بعائلة النوبي .

وقد ذكر الشيخ محمد لطفي الصباغ أن الشيخ عبد الرزاق حدثه حديثاً طويلاً عن والده ـ رحمه الله ـ وما كان يتحلى به والده من الصفات الكريمة .

وقد درس الشيخ في قريته شنشور المرحلتين الابتدائية الأزهرية ، والثانوية الأزهرية حتى نهايتها .

ومن المعروف أن الدراسة في الأزهر في عهد الشيخ ، كانت تنقسم إلى المرحلة الابتدائية ، ثم الثانوية ، ثم الجامعية . وكان يشترط للالتحاق بالأزهر في عهد الشيخ ، حفظ القرآن الكريم كاملاً حفظاً متقناً ، ثم يظل يمتحن في القرآن إلى نهاية دراسته ، ويبدأ في المرحلة الابتدائية بحفظ متون متنوعة في جميع العلوم ، منها : ألفية ابن مالك يبدأ في حفظها بالصف الأول الابتدائي .

ثم يدرس قطر الندى ، وشذور الذهب في النحو في الصفوف التالية ، ثم شرح ابن عقيل ، ثم الأشموني .

وكانت دراسة الفقه كذلك ، تتدرج مع الطالب حسب المذهب الفقهي الذي

يختاره، فينتقل من كتاب مختصر إلىٰ كتاب أوسع فأوسع ، وهكذا في كل العلوم فلا يكاد الطالب يتخرج من المرحلة الثانوية الأزهرية في ذلك العهد إلا وقد صار متبحراً في جميع الفنون حافظاً لعدد كبير من المتون المعتمدة في كل علم.

ثم توالت المؤمرات علىٰ الأزهر بدعوىٰ تيسير المناهج ، وإدخال العلوم الدنيوية علىٰ حساب العلوم الشرعية حتىٰ صار المستوىٰ إلىٰ ما هو عليه الآن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المرحلة الثانية

في القاهرة

انتقل الشيخ ـ رحمه الله ـ بعد إتمامه المرحلة الثانوية إلىٰ القاهرة للدراسة بالقسم العالي بالأزهر .

وممن التقىٰ به من العلماء في هذه الفترة **العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر ، والشيخ حامد الفقي ، وغيرهما .**

وذكر الشيخ عبد الله بن جبرين ـ حفظه الله [١] ـ أن الشيخ عبد الرزاق أدرك الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد رشيد رضا .

قلت : أما محمد عبده . فلم يدركه الشيخ عبد الرزاق قطعاً حيث توفي محمد عبده في السنة التي ولد فيها الشيخ عبد الرزاق سنة ١٣٢٣ هـ [٢] .

وأما الشيخ رشيد رضا فتوفي ١٣٥٤ هـ ، وكان عمر الشيخ عبد الرزاق وقتها إحدىٰ وثلاثين سنة ، وكانا مقيمين بالقاهرة . والله أعلم .

هذا ، وقد حدثني الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ عن شيخه الشيخ عبد المجيد الشرنوبي [٣] وقال لي : هو صاحب أخصر شرح علىٰ ألفية ابن مالك ،

---

(١) في مجلة الدعوة ، العدد ١٤٦١ تاريخ ١/ ٥/ ١٤١٥ .

(٢) الأعلام للزركلي ، ج٦ ، ص ٢٥٢ .

(٣) هو عبد المجيد الشرنوبي المالكي الأزهري المصري أبو محمد ، ولد في شرنوب التابعة لدمنهور ، وأخذ عن إبراهيم السقا ، ومحمد عليش ، وحسن العدوي ، وعبد الرحمن الشربيني ، والشمس الإمبابي . من مؤلفاته : إرشاد السالك إلىٰ ألفية ابن مالك ، وشرح العشماوية في فقه المالكية ، وشرح رسالة ابن أبي يزيد القيرواني . توفىٰ رحمه الله سنة ١٣٤٨ هـ . له ترجمة في : شجرة النور الزكية ، والأعلام الشرقية لزكي مجاهد ص ٣٤٥ ، جـ ٢ ، والأعلام جـ ص ٤ ص١٤٩ .

وأنه من أساتذته الذين استفاد من علمهم أثناء دراسته بالأزهر .

ومما حدثنيه الشيخ عبد الرزاق عن فترة دراسته في القاهرة ، أنه كان طالباً في القاهرة أيام الحرب العالمية الأولىٰ ، فكان الطلبة يهجمون علىٰ محلات الصاغة اليهود بالقاهرة ، وكان اليهود في هذا الوقت أذلاء ما يجرؤ أحدهم علىٰ الجلوس أمام محله بل يهربون إلىٰ بيوتهم ، ويغلقون الأبواب عليهم ، وكان هذا في عهد الملك فؤاد واستمر كذلك إلىٰ عهد فاروق .

قال الشيخ عبد الرزاق رحمه الله : كان اليهود أسياداً مادياً لكنهم أراذل أخلاقيا يمكنون الفساق من نسائهم ليكسبوا مالاً . ا . هـ .

وقد ظل الشيخ بالقاهرة حتىٰ حصل علىٰ شهادة العالمية سنة ١٣٥١ هـ ثم شهادة التخصص في فقه المالكية والأصول سنة ١٣٥٥ هـ .

وإليك صورة عن هاتين الشهادتين :

بسم الله الرحمن الرحيم

براءة بمنح شهادة العالمية

من فؤاد الأول ملك مصر بعناية الله تعالى

لحضرة الشيخ عبد الرزاق عفيفي عطية النوبي المالكي من شنشور بمركز أشمون بمديرية المنوفية

رفع إلينا صاحب العزة وزير الأوقاف مذكرة مجلس الأزهر الأعلى في ١٤ ربيع الثاني ١٣٥١
(١٦ أغسطس ١٩٣٢) عن نجاحكم في امتحان شهادة العالمية الذي أجري بالجامع الأزهر في ١٣٥٠
فلذلك أنعمنا بمقتضى إرادتنا الملكية هذه من جلالتنا بمنحكم شهادة العالمية مع حقوقها التي تخولها لكم القوانين
والنظم المتبعة. نرجو الله أن ينفع بعلمكم ويوفقكم لما فيه الخير

تحريرًا بسراي عابدين الملكية بالقاهرة في اليوم الثالث والعشرين من شهر المحرم سنة ألف وثلاثمائة واثنين وخمسين
من هجرة سيد المرسلين.

سجل برقم ٢٧٥٦

صدر بأمر مولاي الملك المعظم
رئيس ديوان جلالته العالية

براءة بمنح شهادة التخصص في فقه المالكية والأصول

من فاروق ملك مصر بعناية الله تعالى

إلى حضرة العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي عطية النوبي المالكي من شنشور

بمركز أشمون بمديرية المنوفية

رفع إلينا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ما أقره المجلس الأعلى للأزهر

في ١٤ رمضان ١٣٥٥ (٢٨ نوفمبر ١٩٣٦) من نجاحكم في الامتحان النهائي لقسم التخصص بالجامع الأزهر الذي أجري في

١٣٥٥ واستحقاقكم لشهادة التخصص في فقه المالكية والأصول

لذلك أصدرنا براءتنا الملكية هذه من ديواننا بمنحكم هذه الشهادة مع حقوقها التي تخولها إياكم

القوانين واللوائح المتبعة نفع الله بكم المسلمين ووفقكم لما فيه الخير

تحريرا بسراي عابدين الملكية بالقاهرة في اليوم الثامن من شهر ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين

من هجرة سيد المرسلين .

مجلس الأوصياء

بأمر مجلس الأوصياء الموقر

رئيس ديوان جلالة الملك بالنيابة

تسجل برقم: ٢٨٦

عبد الرزاق عفيفي عطية

صورة شهادة التخصص

المرحلة الثالثة

في شبين الكوم

وممن كان معاصراً للشيخ عبد الرزاق بشبين الكوم في هذه الفترة : الشيخ مناع خليل القطان الذي كان تلميذاً للشيخ في معهد شبين الكوم الأزهري ، وها هو يصف هذه الفترة من حياة الشيخ قائلاً :

عُيِّنَ شيخنا مدرساً بالمعهد الديني بشبين الكوم التابع للأزهر سنة ١٩٣٧م = سنة ١٣٥٦هـ .

توثقت علاقته بمدير العهد آنذاك « الشيخ عبد الجليل » فكان موضع مشورته .

قام بتدريس مادة الحديث المقررة في المرحلة الثانوية **« صفوة صحيح البخاري»** فكان أستاذاً متميزاً بترتيب الموضوع ، وجودة العرض ، وحسن التعليق ، ورجاحة العقل ، ويسجل النابهون من طلابه إضافاته العلمية على هامش الكتاب المقرر .

اتفقت معه الجمعية الشرعية بشبين الكوم برئاسة الشيخ أحمد الزيات على أن يلقي درساً أسبوعاً منتظماً في مسجدها ، فكان هذا الدرس مدرسة يجتمع فيه الجم الغفير للاستماع والنقاش والحوار .

كان يغشى المساجد الأخرى من وقت لآخر لإلقاء دروس فيها :

وأخذ يجول في البلاد المتعددة لأداء رسالته . وحيث كانت معظم المساجد لا تخلو من البدع ، ويجهل عامة الناس مسائل العقيدة الصحيحة ، فقد ركز ـ غفر الله له ـ على الجوانب العقدية والعودة إلى منابع أصولها الصافية ، والتمسك بالسنة الصحيحة ، وما كان عليه أمر المسلمين في القرون المشهود لها بالخير ، وإذا تعذر عليه التغيير سعى إلى إقامة مسجد خاص يقوم عليه من هداهم الله ويتخذون منه منطلقاً للدعوة ، وله في هذا مواقف شتى .

المرحلة الرابعة

في الإسكندرية

وممن كان معاصراً للشيخ عبد الرزاق بالإسكندرية في هذه الفترة ، الشيخ حسن محمد إسماعيل - من علماء الأزهر - وكان تلميذاً للشيخ في المعهد الأزهري بالإسكندرية .

ومما قاله في وصف سيرة الشيخ عبد الرزاق :

كان يمشي في الطرقات فيجد البناء يرتفع عن الأرض فيذهب إلى صاحب البيت ، ويطلب أن يشاركه في المصاريف مقابل أن يجعل الدور الأرضي في البناء مسجداً ، وبهذا كان يبني في المهد دعاة ، ويبني في الشارع مساجد .

وكان يوم من أيام صيف عام ١٩٤٢م = ١٣٦١هـ مَرَّ **فضيلة الشيخ برجل** يبني بيتاً كبيراً وفي أول دور فقال له : شيخنا بعد أن بدأه محيياً مجيباً بالسلام : هل لك شريك في هذا العمل - يقصد بناء البيت - ؟ . فقال الرجل : هو لي وحدي ورثت الأرض عن أبي وأقوم الآن بالبناء ، **فرد عليه الشيخ** : هل تسمح لنا بتأجير الدور الأرضي لنتخذه مسجداً على أن نعطيك ما تشاء ؟ فقال الرجل - وكان كبير السن وقوراً - : أن لا أمانع في ذلك أبداً ، وبدون أجر البتة ، بل وسأرعى هذا بنفسي . وكان الرجل يدعى الحاج عبده ، وكان رجلاً فاضلاً ، ولقد صدق الحاج فأكمل البناء ، وأدخل الماء ، والكهرباء ، وبنى بالمسجد كل ما يلزم ، وبعد إتمام بناء المسجد افتتح الشيخ المسجد بصلاة العصر ، وكان هذا المسجد أقرب المساجد من ورشة أبي فسهل لي الذهاب والإياب ، وبعد انتهاء صلاة العصر الأولى بالمسجد أخذ فضيلة الشيخ يعطينا التوعية اللازمة ، وقص علينا قصة إسلام سلمان الفارسي وجعلها نبراساً لنا يضيء لنا الطريق . وفي هذا اليوم ختم الدرس قائلا : استمعتم إلى قصة سلمان الفارسي الذي كان صغيراً ولم يقتنع بما

يعبد أبواه ؛ إذ كانا من المجوس يعبدون النار . **فقال الشيخ** : أنتم أسعد حظاً من هذا ، وهو غلام . وقال لنا : ولدتم على الإسلام وتربيتم على الإسلام ، والآن تدرسون الإسلام ، فما مدى هذه السعادة التي أعطاكم الله إياها ! ألا تحسون من قولي هذا أنكم محظوظون في جميع أطوار حياتكم ؟

إذاً فلا بد من أن تكرسوها للدعوة إلى عبادة من وهبكم كل هذه النعم .

وفي هذا الأسبوع الذي افتتح فيه المسجد ، جاء من القاهرة خبرٌ أثلج صدرونا جميعاً وزاد من فرحتنا ، وذلك أن اللجنة المركزية لجماعة أنصار السنة المحمدية اجتمعت في القاهرة واختارت بإجماع الأصوات فضيلة الشيخ الفاضل عبدالرزاق رئيساً لجماعة أنصار السنة المحمدية بالقطر المصري ، وتوافدت الوفود على مدينة الإسكندرية تهنئ شيخنا الجليل بهذا المنصب الحبيب إلى نفوسنا جميعاً ، وسرَّنا جميعاً أن هذا الاختيار قد جاء بإجماع الأصوات ، وكانت الوفود القادمة من أنحاء القطر المصري تحمل الهدايا لفضيلة الشيخ الذي كان بدوره يقوم بتوزيعها على مستحقيها . ا.هـ.

نماذج من كتابات الشيخ

عبد الرزاق أثناء إقامته بالإسكندرية

وإذا كان الشيخ ـ يرحمه الله ـ من مواليد عام ١٩٠٤م = ١٣٢٣هـ ، وقد تخرج في الأزهر الشريف ، ومنح الشهادة العالمية عام ١٩٣٢م = ١٣٥١ هـ ، ثم منح شهادة التخصص في الفقه وأصوله ، وعمل مدرساً بالأزهر الشريف ، حتىٰ كان العدد الأول من المجلة حيث حرر فيه مقالين يستطيع القارئ أن يلمس في الشيخ ـ يرحمه الله ـ وهو لا يزال بعد شاباً في الثالثة والثلاثين من عمره ، يتمتع بالنظر الثاقب ، والفهم الدقيق، والأسلوب المعبر ، فهذه كلمات يصف بها علماء السلف من هذه الأمة ، وإني لأرجو أن تكون تلك الكلمات وصفاً له ـ يرحمه الله تعالىٰ ـ .

قال ـ يرحمه الله ـ :

« فالعالم منهم يجد نفسه ـ وقد أنعم الله بنعمة العلم ، وعهد إليه أن يبلغه الناس ـ مضطراً إلىٰ القيام بهذا العبء فلا يعتريه في نشر الثقافة الدينية ، والمبادئ الإسلامية فتور ولا خور ، ولا يقعده عن البلاغ رغبة ولا رهبة ولا خوف من سلطان ، لأن القلب الذي أشرب حلاوة الإيمان يكتسب قوة روحية ، وحصانة دينية ، ونوراً ربانياً ، فلا يجد أحد إلىٰ إغوائه سبيلاً . فمهما جاهد الشيطان هذا المخلص فلن يتاح له أن يوهن عزيمته أو يمس عقيدته ،وإن قلبا قد صبغ بصبغة الله وتشبع بتعاليم الإسلام حتىٰ ملكت سويداءه ، ليأبىٰ أن يخضع لسلطة قاهر ، أو يرهب بطش جبار في الجهر بكلمة الحق ، بعدما خضع لسلطان ربه واشتد خوفه منه ، وعلم أنه مالك قهار جبار ، بيده نواصي العباد . وإن ذلك ليخلق منه سيفاً مصلتاً ، وناراً متأججة ، يقذف بها من عادىٰ الله وبارزه بعصيان لا يخاف في الله لومة لائم . كان العلماء بذلك قوامين علىٰ الدين حفظاً ، ونشراً ، وبلاغاً ، ونصيحة ، وإرشاداً ، وكانوا خير قدوة للناس ومثلاً عليا في إصابة الحق

وتأييده، وكشف الباطل وإزهاقه ، قولاً ،وعملاً ، يقصدهم الناس ، ليكشفوا لهم وجه الصواب ، بما ورثوه عن نبيهم ﷺ ، فيجدوا لديهم ما يروي غليلهم، ويزيل شبهتهم ، ويزيد يقينهم وإيمانهم وتعلقهم بشريعة سيد المرسلين »(١) .

(١) نقلاً عن مجلة التوحيد ، وجريدة المسلمون ، العدد (٥٠٣) .

الفصل الثاني

هجرته إلى المملكة العربية السعودية

أ ـ الأعمال التي قام بها في المملكة .

ب ـ دور الشيخ ـ رحمه الله ـ في هيئة كبار العماء واللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

هجرته إلى

المملكة العربية السعودية

قال الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهرى :

لا أزال أذكر احتجاج الإمام أبي محمد ابن حزم في رسالته الميزان التي فاضل بها بين الأندلس والقيروان ، وقد أوردها المقري كاملة في نفح الطيب ، وعَنْون لها بالوصف لا بالاسم على أنها في فضل أهل الأندلس ، ثم طبعها الدكتور المنجد عن هذا الأصل بهذا العنوان في رسالة مستقلة .

وقد احتج في هذا الفصل على أن من كان من غير أهل الأندلس وقد عاش فيها ومات بها فهم (أي الأندلسيون) أولى به ، وهو معدود من مفاخرهم ما دام من الأعلام الثقافية والعلمية .

ومن كان أصلاً من أهل الأندلس ثم استبدلها بدار أخرى عاش فيها ومات عندهم فهم أولى به .

قال أبو عبد الرحمن : وعلى هذا القانون تفخر سعوديتنا بعلاَّمتها سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، ولقاه ربه الروح والريحان ، والرضوان ، وأدخله فسيح جناته ، فقد اختار الرياض بلده ومثواه في النصف الأخير من عمره المبارك ، وهو النصف الناضج المليء بالعلم والعطاء .

ولم يأت الشيخ عبد الرزاق رحمه الله إلى المملكة ليكون سلفياً ، وليكون موظفاً . **بل كان منهجه العلمي في الرياض هو منهجه العلمي بمصر قبل أن يدور بخلده أنه يأتي للسعودية ، بل عندما كانت مصر أكثر خيراً وقبل أن تتدفق عندنا ينابيع الذهب الأسود .**

وكان نشر « العلو للعلي الغفار »[1] للحافظ الذهبي ـ من كتب السلف ـ من

(١) قلت : رجح شيخنا الألباني في مختصره الكتاب أن اسمه (العلو للعلي العظيم) . (العباسي).

أوائل تحقياقته المطبوعة القليلة ، وذلك عندما كان بمصر بشبين الكوم ، وكان زملاؤه من أمثال الشيخ محمد عبدالوهاب بحيري ، ومحمد بن راشد ، وابن يابس يقصون أخباره وهو بمصر يخرج التلاميذ أكثر مما يخرج الكتب ، فذكروا عنه علماً وعقلاً ، وعفة ، وسلفية .

ووصلت أخباره لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم فحرص على استقدامه .

وكانت السعودية مقر السلفية ، وناشرة علم ابن تيمية ، وزينتها الحرمان الشريفان فرغب الشيخ عبد الرزاق في السعودية لهذه الأشياء ، لأنه سلفي بعقله ووجدانه .

وجاء إلى السعودية على علمه وسجيته لم يجتذبه طمع في مال أو جاه أو منصب، وعلم الله نيته فانقادت له كل أسباب العز الدنيوي ، وهو لم يطلبها .

الأعمال التي قام بها

في المملكة العربية السعودية

جاء في مقدمة فتاوىٰ اللجنة الدائمة للشيخ أحمد بن عبد الرزاق الدويش في ترجمته للشيخ عبد الرزاق :

« ثم ندب للعمل بالمملكة العربية السعودية للتدريس بالمعارف السعودية عام ١٣٦٨ هـ ، ثم عمل مدرساً بدار التوحيد بالطائف ، ثم نقل منها بعد سنتين إلىٰ معهد عنيزة العلمي في شهر محرم عام ١٣٧٠هـ ، ثم نقل إلىٰ الرياض في آخر شهر شوال عام ١٣٧٠هـ للتدريس بالمعاهد العلمية التابعة لسماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، ثم نقل للتدريس بكليتي الشريعة ،واللغة العربية ، ثم جعل مديراً للمعهد العالي للقضاء عام ١٣٨٥هـ ، ثم نقل إلىٰ الرئاسة العامة لإدرات البحوث العلمية والإفتاء عام ١٣٩١ هـ ، وعُين بها نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية ،والإفتاء مع كونه عضواً في مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة .

وقد رزقه اللهالمواهب المتعددة ، ومن قوة الحافظة والملاحظة ، وفقه النفس ، وكان قد كرّس جهده لطلب العلم خارج أروقة الأزهر ، وعُني بعلوم اللغة ، والتفسير ، والأصول ، والعقائد ، والسنة ، والفقه ، حتىٰ أصبح إذا تحدث في علم من هذه العلوم ظن السامع أنه تخصصه الذي شغل فيه كامل وقته .

وقد كان له عناية خاصة في دراسة أحوال الفرق وهذه الأمور جعلت طلاب العلم يقصدونه في كل وقت ويسمعون منه ، وانتفع بعلمه خلق كثير ، وقد شارك في أعمال التوعية في مواسم الحج ، وكان رحمه الله يشرف علىٰ رسائل بعض الدارسين في الدراسات العليا ، كما كان يشترك مع لجان مناقشة بعض الرسائل ، ويلقي بعض الدروس في المساجد لطلبة العلم » .

ويقول الشيخ محمد بن لطفي الصباغ :

« ثم هاجر إلى المملكة العربية السعودية في سنة ١٣٦٨ هـ ، فدرَّس في المعارف ، ثم في دار التوحيد في الطائف ، وكان الملك عبد العزيز قد استدعى شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار ليكون مديراً له ، فعمل فقيدنا فيه ، ثم انتقل إلى نجد فدرَّس في الرياض ، وعنيزة ، ولما أنشئت كلية الشريعة في الرياض كلف القيام بالتدريس فيها ، ولما جئت للتدريس في كليتي الشريعة واللغة عام ١٣٨١ هـ - ١٣٨٢ هـ وكان لي شرف لقائه والاجتماع به ، وكان من أقدر الأساتذة على نقل المعلومات إلى أذهان الطلاب ، يبسط المسألة المعقدة ويوضحها ، وما ذلك إلا لتمكنه من العلم ؛ لأن الإنسان عندما تكون المعلومة واضحة في ذهنه يستطيع أن ينقلها بيسر إلى الآخرين مهما كانت دقيقة وصعبة .

ثم أنشئ المعهد العالي للقضاء في سنة ١٣٨٥ هـ ، وكان الشيخ من المخططين لمناهجه ، وعُيِّنَ مديراً له ، وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء .

ثم انتقل إلى دار الإفتاء عام ١٣٩١ هـ فكان عضواً في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية ، ونائباً لرئيسها وبقي فيها حتى وفاته ، رحمه الله رحمة واسعة . وكان أيضاً عضواً في هيئة كبار العلماء .

وقد أشرف على عدد من الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه وناقش عدداً آخر منها » .

ويقول الشيخ مناع بن خليل القطان :

« انتقل الشيخ من مصر سنة ١٣٦٨ هـ ، للعمل بالمعارف السعودية ، فدرَّس في عنيزة ، وفي دار التوحيد بالطائف ، وهي نواة التعليم الديني في المملكة العربية السعودية .

وحين عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ـ يرحمه الله ـ إلى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ بإنشاء الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية سنة ١٣٧٠ هـ ، وقع اختيار سماحته على فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ليسهم في ذلك بما عرف عنه من علم ، وثاقب رأي ، فقربه إليه وجعله موضوع مشورته .

وما لبث الأمر طويلاً حتى طُلبت بأمر خاص أنا والأستاذ الهراس سنة ١٣٧٣ هـ للتدريس في هذه المؤسسة العلمية التي بارك الله فيها ، وآتت أكلها الطيب ـ ولا تزال بحمد الله ـ باسم جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية .

وعندما توفرت الدواعي لإنشاء دراسات عليا ، ورفع مستوى القضاء أنشئ المعهد العالي للقضاء سنة ١٣٨٤ هـ ، وتولى الفقيد ـ غفر الله ـ إدارة المعهد ، ووضع مع لجنة متخصصة مناهجه ، وقام بالتدريس فيه ، وأشرف على رسائل طلابه .

وفي سنة ١٣٩١ هـ انتقل إلى إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، وصار عضواً في هيئة كبار العلماء ونائباً لسماحة والدنا وشيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز في رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

وكان ـ يرحمه الله ـ عضواً في اللجنة التي وضعت مناهج الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ـ كما كنت عضواً فيها ـ وسهرنا سوياً الليالي المتتابعة لإنجاز هذا العمل » . ويقول الشيخ زهير الشاريش :

« . . . وانتقل إلى السعودية ضمن بعثة علمية قام بإحضارها أستاذي العلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع رحمه الله ، وبعد سنتين اختاره مفتي البلاد الشيخ محمد بن إبراهيم ليكون معه في الرئاسة العامة للمعاهد ، والكليات .

ثم تولى رئاسة المعهد العالي للقضاء ، وبعدها انتقل إلى إدارة البحوث

العامة والإفتاء حيث كان الرفيق الأقرب إلىٰ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ حفظه الله ـ .

ووجوده في هذه اللجنة أثرىٰ ما أصدرت من فتاوىٰ » .

ويقول الدكتور صالح بن سعود آل علي عضو مجلس الشورى :

« جاء به الملك عبد العزيز مؤسس هذا الكيان وموحد هذه المملكة : جاء به مع علماء آخرين من داخل المملكة ، وخارجها لينفذ بهم ، ومن خلالهم سياسته الصارمة في محاربة الجهل واقتلاع جذروه بعد أن خيم ردحاً من الزمن علىٰ أرجاء هذه الجزيرة . فقد كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله ضمن مجموعة من العلماء الذين عملوا في دار التوحيد ، درس ، وحاضر ، ووعىٰ ثم لما أمر الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بفتح المعاهد العلمية ، كان الشيخ عبد الرزاق من أوائل من جاء للتدريس فيها ، وكان مع الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية آنذاك ، ومع الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم عليهم جميعاً رحمة الله ، كان معهم خير معين علىٰ السير بهذه المعاهد ، والكليات من بعد ذلك نحو تحقيق الرسالة المنوطة بها .

تولىٰ التدريس بعد دار التوحيد في المعاهد العلمية ثم في كلية الشريعة واللغة العربية بالرياض ، وكذا في المعهد العالي للقضاء الذي أسندت إليه إدراته فيما بعد ، إضافة إلىٰ التدريس فيه » .

وجاء في مجلة الفرقان ، [العدد ٥٤ ، ص١٩] :

« ثم انتدب للعمل في المملكة العربية السعودية منذ عام ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م وقد قام بالمشاركة مع الشيخ محمد علي عبد الرحيم ـ رحمه الله ـ الرئيس السابق لجماعة أنصار السنة المحمدية ، بتأسيس المعاهد بالمملكة ، ثم شارك في تأسيس كلية الشريعة واللغة العربية بالرياض ، ثم رأس المعهد العالي للقضاء ، وحين

تأسست هيئة كبار العلماء كان أحد أعضائها ثم أصبح نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة » .

ويقول الشيخ عبد الله الشهراني :

ثم في عام ١٣٦٨هـ ذهبت بعثة تابعة لمديرية المعارف برئاسة الشيخ (محمد ابن مانع) ـ رحمة الله عليه ـ للتعاقد مع بعض المدرسين للتدريس في المدارس السعودية التي افتتحت لتوها آنذاك . . **فكان صاحب الفضيلة الشيخ (عبد الرزاق عفيفي)** ـ رحمه الله ـ أحد أوائل من تم التعاقد معه ، وما ذلك إلا للسمعة الطيبة التي عُرف بها الشيخ ، فقد كان داعية من أبرز دعاة أنصار السنة المحمدية هناك ، مدافعاً عن عقيدة السلف الصالح ، محارباً للبدع .

وقدم ـ رحمه الله ـ إلىٰ هذه البلاد مع عدد من المشائخ ، منهم الشيخ (**محمد حسين الذهبي**) صاحب كتاب (**التفسير والمفسرون**) والشيخ (**عبد المنعم النمر**) ـ عليهما رحمة الله ـ والشيخ (**يوسف السبع**) أستاذ اللغة العربية في (جامعة أم القرىٰ سابقاً) .

وكانت أول مدرسة درَّس فيها هي (دار التوحيد) بالطائف ، وقد استمر فيها سنتين إلىٰ أن فتح (معهد عنيزة العلمي) فانتقل إليه عام ١٣٧٠ هـ في شهر محرم ، ثم لما كان في شهر شوال من العام نفسه انتقل إلىٰ (المعاهد العلمية بالرياض) إلىٰ أن افتتحت (كلية الشريعة) فيها وفي (كلية اللغة العربية) وهكذا ظل يدرّس فيهما حتىٰ أنشئ (المهد العالي للقضاء) عام ١٣٨٥ هـ ، فكان أول مدير له ، ويشرف عليه ، ويلقي فيه محاضرات ودروساً ، ويشرف ـ كذلك ـ علىٰ بعض الرسائل العلمية التي يتقدم بها طلاب المهد .

ثم في عام ١٣٩١ هـ انتقل إلىٰ (الرئاسة العامة للإفتاء) حيث عُيّن نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء التي تم تشكيلها برئاسة فضيلة

الشيخ (إبراهيم بن محمد إبراهيم) ـ حفظه الله ـ ثم برئاسة سماحة الشيخ (عبد العزيز بن عبد الله بن باز) المفتي الحالي للمملكة ـ حفظه الله وأمدَّ في عمره ـ ونفع به الإسلام والمسلمين ، وفي الوقت نفسه كان عضواً في (هيئة كبار العلماء) ، وإضافة إلى ذلك كان يشرف على كثير من الرسائل الجامعية » ا. هـ .

دور الشيخ عبد الرزاق عفيفي

في هيئة كبار العلماء

واللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

لقد كان للشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - دور بارز في هيئة كبار العلماء منذ تأسيسها . فقد كان الشيخ - رحمه الله - رئيساً لهيئة كبار العلماء بالمملكة في بعض الدورات كما يتضح من توقيعه الذي أوردنا صورته ص [٥٥] نقلاً عن مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٨ ص ٣٢٢ .

كذلك كان للشيخ - رحمه الله - وجهات نظر على بعض قرارات الهيئة فكان يبديها ويسجلها كما يتضح من توقيعه الذي أوردنا صورته ص [٥٢] نقلاً عن مجلة البحوث الإسلامية العدد ٣١ ، ص ٣٨٠-٣٨٢ .

وقد حدثني الشيخ عبد الرزاق - رحمه الله - أنه كان يرى بدعية افتتاح المجلس بالقرآن ، وأنه لفت نظر أعضاء الهيئة إلى ذلك عندما افتتحوا جلسة لهم بالقرآن الكريم .

كما كان الشيخ - رحمه الله يعد بعض الأبحاث التي تقدم للهيئة لتناقشها وتصدر حولها ما تراه من قرارات ، ولعل من أنفس البحوث التي قدمها الشيخ ، بحثه حول البورصة حيث شرح فيه أنظمة البورصة ، ومعاملاتها ثم ألحق دقائق مسائلها بأشباهها ونظائرها في كتب الفقه الإسلامي بما يدل على متانة فقهه ، وسعة إحاطته بالمعاملات العصرية .

وكذلك في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، كان الشيخ نائباً لرئيس اللجنة لسماحة الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، ثم نائباً لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، وواحداً من أربعة أعضاء شاركوا في إصدار

آلاف الفتاوىٰ وعشرات الأبحاث بحيث يصح أن ننسب للشيخ عبد الرزاق ربع ما صدر عن اللجنة من أبحاث ، وفتاوىٰ في غاية النفاسة وقد عم النفع بها جميع أرجاء العالم الإسلامي .

وقد حدثني الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ أنه كان يختلف مع أعضاء اللجنة في مسائل قليلة منها مسألة إدراك الركعة مع الإمام بإدراك الركوع فكان الشيخ عبد الرزاق يرىٰ أن المأموم لا يدرك الركعة مع الإمام إلا بالفاتحة كما هو مذهب الإمام البخاري وغيره . فكان الشيخ عبد الرزاق لا يوقع علىٰ الفتاوىٰ الصادرة من اللجنة في هذه المسألة .

وحدثني الشيخ عبد الرزاق أيضاً أنه قد كتب مقالاً في هذه المسألة قديماً بمجلة الهدي النبوي انتصر فيه لعدم إدراك الركعة بالركوع ، وإليك نماذج من مشاركات الشيخ في هيئة كبار العلماء .

نماذج من مشاركات

الشيخ في هيئة كبار العلماء

« . . . . بيع الليرة السورية ، أو اللبنانية بريال سعودي ، ورقاً كان ، أو فضة، أو أقل من ذلك ، أو أكثر ، وبيع الدولار الأمريكي بثلاثة أريلة سعودية ، أو أقل أو أكثر ، إذا كان ذلك يداً بيد ، ومثل ذلك في الجواز بيع الريال السعودي الفضة بثلاثة أريلة سعودية ورق أو أقل أو أكثر يداً بيد لأن ذلك يعتبر بيع جنس بغير جنسه ولا أثر بمجرد الاشتراك في الاسم مع الاختلاف في الحقيقة .

ثانياً : وجوب زكاتها إذا بلغت قيمتها أدنى النصابين من ذهب ، أو فضة ، أو كانت تكمل النصاب مع غيرها من الأثمان والعروض المعدة للتجارة إذا كانت مملوكة لأهل وجوبها .

ثالثاً : جواز جعلها رأس مال في السَّلم والشركات .

والله أعلم ، وبالله التوفيق ، و صلى الله محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وجهة نظر [١]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وسلم ، وبعد :

فلما كانت الأوراق النقدية لا قيمة لها في نفسها ، ولم تكن قيمتها مستمدة من مجرد إصدار الدولة لها وحمايتها إياها وإنما قيمتها فيما أكسبها ثقة الدول بها، وجعلها مع سن الدولة لها قوة شرائية ، وأثماناً للسلع ، ومقياساً للقيم ، ومستودعاً عاماً للادخار ، ولما كان الذي أكسبها ذلك وجعلها صالحة للحلول محل ما سبقها من العملات المعدنية هو ما استندت إليه من الغطاء ذهباً ، أو فضة، أو ما يقدر بهما من ممتلكات الدولة ، أو إنتاجها ، أو احتياطها ، أو أوراق مالية ، أو أوراق تجارية . . لما كان الأمر كذلك كانت الأوراق النقدية بدلاً عمّا حلت محله من عملات الذهب ، أو الفضة التي سبقتها في التعامل بها ، وكانت تابعة لهما فما كان منها متفرعاً عن ذهب فله حكم الذهب ، وما كان منها متفرعاً عن فضة فله حكم الفضة ، وعلى هذا تجب فيها الزكاة كأصلها ، ويقدر فيها النصاب بما قدر به في أصلها ويجري فيها الزكاة كأصلها ، ويجري فيها ربا الفضل ، والنسيئة مع اعتبار أن ما كان منها متفرعاً عن فضة حسب الأصل جنس، وما كان متفرعاً عن ذهب في الأصل جنس ، ولا يجوز بيع الورقة النقدية لما تفرعت عنه من الذهب أو الفضة . . مع التفاضل ويعتبر قبض الأوراق النقدية في حكم قبض ما حلت محله من الذهب ، أو الفضة ، هذا وليس بلازم أن يكون في خزينة الدولة ذهب أو فضة بالفعل ما دامت خاماتها ، وسائر إمكانياتها التي تقدر بوحدتها السابقة من الذهب ، أو الفضة قائمة محققة تقوم مقامها في استمرار الثقة بالأوراق النقدية في دولة الإصدار وغيرها من الدول ، وليس بلازم أيضاً أن تسلم مؤسسة النقد ذهباً أو فضة لحامل الورقة النقدية مقابل

---

(١) انظر : مجلة البحوث الإسلامية العدد ٣١ ، من ص٣٨١ ـ ٣٨٢ .

ما فيها ما دامت الأوراق النقدية تؤدي وظيفتها وتقوم بما أنشئت من أجله ، فإن لولي الأمر أن يتصرف في غطاء الأوراق النقدية أياً كان الغطاء فيما يعود على أمته بالمصلحة من وجوه تنمية الثروة ، والترفيه عن الرعية حتى لا تبقى معطلة في خزينة الدولة أو معرضة للتبديد والتهريب في أيدي الأفراد .

وبهذا يعرف أن عدم وجود الغطاء في خزينة الدولة بالفعل ، وعدم رد المقابل لحاملها لا يعتبر إلغاء للغطاء ولا إبطالاً له ما دام الغطاء الذي هو روح العملة وسر الثقة بها موجوداً قائماً ممثلاً فيما يثبت ملاءة الدولة وقوة إمكانياتها ، ويكسب الثقة بها قبل إصدار الأوراق النقدية ، وإن وجود وحدة متفق عليها كالذهب مثلاً تقاس بها موجودات وإمكانيات الدول ليعرف بها مدى ملاءة كل دولة بالنسبة للأخرى ينافي وجود غطاء لأوراق الدولة النقدية وإن تنوع ، كما أنه لا ينافي وجود وحدة خاصة بكل دولة تتصل بعملتها المعدنية السابقة ـ وقد سئل سعادة محافظ مؤسسة النقد أسئلة منها ما هو في الموضوع ومن اختصاصه كالأسئلة المتعلقة بالغطاء ، وبالسر في ارتفاع سعر العملة وانخفضها فسلم وجود الغطاء ، وإن تنوع وأن من الدول ما لها احتياطي ، ومنها ما ليس لها احتياطي أو لها احتياطي ضعيف ، ومنها ما ليس من اختصاصه بل من اختصاص الهيئة كالسؤال : هل الأوراق النقدية عملة قائمة بنفسها أو بدل عن غيرها ، فإن الجواب عن هذا السؤال من اختصاص الهيئة بعد سؤالها عن مقدمات اقتصادية ينبنى على الجواب عنها حكم الهيئة بأن الأوراق النقدية عملة قائمة بنفسها أو بدل عن غيرها حالّة محلها .

وهناك أسئلة أخرى لم توجه إلى سعادة محافظ المؤسسة إما لضيق الوقت وقد كان من الممكن أن يستدعى في جلسة أخرى ، وإما لاكتفاء الأكثرية بالإجابة عن بعض الأسئلة ، وبالرجوع إلى ما كتب الأعضاء من الأسئلة ، وجعل عند فضيلة الأمين ، والمقارنة بينها ، وبين الأجوبة يتبين ما ذكرت من عدم توجيه كل

الأسئلة لسعادة المحافظ . . والله الهادي إلى سواء السبيل . وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم في ١٦/ ٤/ ١٣٩٣ هـ .

عضو هيئة كبار العلماء

عبد الرزاق عفيفي

نموذج من توقيع الشيخ

وهو رئيس لإحدى دورات هيئة كبار العلماء

قرار هيئة كبار العلماء

رقم ٢ وتاريخ ١٣٩٢/٨/١٣ هـ

في مسألة اعتبار اختلاف مطالع الأهلة من عدمه

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وعلى اله وصحبه، وبعد :

فبناءً على خطاب المقام السامي رقم ٢٢٤٥١ وتاريخ ٦/ ١١/ ١٣٩١ هـ المتضمن إحالة موضوع الأهلّة إلى كبار العلماء نظراً إلى أن الموضوع عند دراسة مجلس رابطة العالم الإسلامي في جلسته المنعقدة في ١٥ شعبان عام ١٣٩١ هـ واطلاعها على قرار اللجنة الفقهية المنبثقة من المجلس قررت الموافقة على القول بعدم اعتبار اختلاف المطالع إلا أن بعض أعضاء المجلس التأسيسي رأى التريث في الأمر وزيادة البحث والتقصي في هذا الموضوع .

وبناء على ذلك عرض على مجلس هيئة كبار العلماء في دورتها الثانية المنعقدة في شهر شعبان ١٣٩٢ هـ ما أعدته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في موضوع إثبات الأهلة المشتمل على الفقرتين التاليتين :

أ- حكم اعتبار المطالع وعدم اعتباره .

ب- حكم إثبات الهلال بالحساب .

وكذا قرار رابطة العالم الإسلامي الصادر منها في دورتها الثالثة عشرة

---

(١) انظر : مجلة البحوث الإسلامية ، العدد ٢٨ ، من ص ٣٢١ ، ٣٣٣ .

المنعقدة في شهر شعبان عام ١٣٩١ هـ ، ومرفقة ببحث اللجنة الفقهية المشكلة من بعض أعضاء مجلس الرابطة في الموضوع ، وبعد دراسة المجلس للموضوع وتداول الرأي فيه قرر ما يلي :

أولا : اختلاف مطالع الأهلة من الأمور التي علمت بالضرورة حساً وعقلاً ولم يختلف فيها أحد ، وإنما وقع الاختلاف بين علماء المسلمين في اعتبار اختلاف المطالع من عدمه .

ثانياً : مسألة اعتبار اختلاف المطالع من عدمه من المسائل النظرية التي للاجتهاد فيها مجال ، والاختلاف فيها وفي أمثالها واقع ممن لهم الشأن في العلم والدين ، وهو من الخلاف السائغ الذي يؤجر فيه المصيب أجرين : أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة . ويؤجر فيه المخطئ أجر الاجتهاد ، وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين :

فمنهم من رأى اعتبار اختلاف المطالع .

ومنهم من لم ير اعتباره واستدل كل فريق بأدلته من الكتاب والسنة ، وربما استدل الفريقان بالنص الواحد كاشتراكهما في الاستدلال بقوله : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ (١) . وبقوله ﷺ : « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته...** » (٢) الحديث . وذلك لاختلاف الفهم في النص وسلوك كل منهما طريقاً في الاستدلال به ، وعند بحث هذه المسألة في مجلس الهيئة ، ونظراً لاعتبارات قدرتها الهيئة ، ولأن هذا الخلاف في مسألة اعتبار اختلاف المطالع من عدمه ليس له آثار تخشى عواقبها . وقد مضى على ظهور هذا الدين مدة أربعة عشر قرناً لا نعلم منها فترة جرى فيها توحيد الأمة الإسلامية على رؤية

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

(٢) أخرجه البخاري [١٩٠٩] ، ومسلم [١٠٨٠] .

واحدة . . . فإن أعضاء الهيئة يرون بقاء الأمر على ما كان عليه وعدم إثارة هذا الموضوع وأن يكون لكل دولة إسلامية حق اختيار ما تراه بواسطة علمائها من الرأيين المشار إليهما في المسألة ؛ إذ لكل منهما أدلته ومستنداته .

ثالثا : أما ما يتعلق بإثبات الأهلة بالحساب فبعد دراسة ما أعدته اللجنة الدائمة في ذلك ، وبعد الرجوع إلى ما ذكره أهل العلم فقد أجمع أعضاء الهيئة على عدم اعتباره لقوله ﷺ : « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته** .. » (١) الحديث . ولقوله ﷺ : « **لا تصوموا حتى تروه ولا تفطروا حتى تروه** ... » (٢) الحديث .

وبالله التوفيق ، وصلى الله عليه نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٦) ، ومسلم (١٠٨٠ ، ١٠٨١).



الفصل الثالث

منزلته عند أعلام عصره وثناؤهم عليه

أما منزلة الشيخ عند علماء مصر قبل قدومه إلىٰ المملكة العربية السعودية فيكفي في ذلك أن الشيخ عبد الرزاق رحمه الله كان من المؤسسين لجماعة أنصار السنة بمصر ، وكان نائباً للشيخ محمد حامد الفقي من سنة ١٣٦٥ هـ ، وكانت له عنده المنزلة الأثيرة ، وبعد وفاته انعقدت آراء علماء أنصار السنة علىٰ اختيار الشيخ عبد الرزاق رئيساً للجماعة سنة ١٣٧٩ هـ .

وقد كان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ قد اختير عضواً في هيئة كبار العلماء التي أنشأتها جماعة أنصار السنة بمصر قديماً ، وكان من أعضاء هذه الهيئة العلامة المحدِّث الفقيه الشيخ أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ والشيخ محمد عبد الحليم الرمالي ، والشيخ حامد الفقي . . وغيرهم من الأعلام .

وبعد قدوم الشيخ عبد الرزاق رحمه الله إلىٰ المملكة كانت له منزلة لا تدانيها منزلة عند سماحة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله (١٣١١ ـ ١٣٨٩ هـ) وقد حدثني شيخنا صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ نائب وزير الشئون الإسلامية والأوقاف أن جده الشيخ محمد كان يقول **عن الشيخ عبد الرزاق : « هذا الرجل ذهب خالص »** ، وأنه كان يعرض القضاة قبل تعيينهم علىٰ الشيخ عبد الرزاق فإن رأىٰ الشيخ عبد الرزاق أهليتهم للقضاء عينهم الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وإلا فلا .

وقد ذكر الشيخ عبد الله بن قعود ـ عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة سابقاً ـ أن الشيخ عبد الرزاق أول قدومه إلىٰ المملكة أعطاه الشيخ ابن إبراهيم كتاب الإنصاف للمرداوي في الفقه الحنبلي ، وطلب من أن يقرأه فقال الشيخ عبد الرزاق : لقد قرأته فلم أر مؤلفه ذكر النبي ﷺ من أول الكتاب إلىٰ آخره إلا

ثلاث مرات، فكانت هذه الحادثة من أسباب إعجاب الشيخ ابن إبراهيم بالشيخ عبد الرزاق - رحمهما الله تعالىٰ - .

ويقول الشيخ الدكتور محمد لطفي الصباغ مبينا منزلة الشيخ عبد الرزاق عند الشيخ ابن إبراهيم :

وكان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله مفتي المملكة يقدره ويستشيره ، ويعتمد عليه في كثير من الأمور تقديراً لعلمه الواسع ، ورأيه الصائب ، وإخلاصه الجم .

والفضلُ يعرفُه ذووه ، وكذلك كان الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله وأطال عمره [١] .

ويقول الشيخ الدكتور عبد الله التركي - وزير الأوقاف والشئون الإسلامية والأوقاف - :

لقد فقدنا عالماً فاضلاً ، مربياً لأجيال من العلماء وطلاب العلم ، إنه شيخنا فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، والذي توفي يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ١٤١٥ هـ - رحمه الله وأكرم مثواه - .

لقد فقدنا بفقده عالماً فاضلاً ، قضىٰ كل حياته في سبيل العلم تحصيلاً وتعليماً ، نفع الله به عدداً كثيراً من الطلاب الذين تتلمذوا عليه ، أو تتلمذوا علىٰ طلابه .

لقد عاصر - رحمه الله - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، منذ نواتها الأولىٰ ، واستمر عطاؤه لها إلىٰ أن توفاه الله يوم الخميس الماضي ، وكان من أبرز الذين أفادوا الجامعة في كلياتها ومعاهدها .

---

(١) عن ترجمة خطية عند الأستاذ محمود بن الشيخ عبد الرزاق .

ولقد أدرك سماحة شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله رئيس الكليات والمعاهد ، ومؤسسها بثاقب نظره ، وبقدرته في معرفة الرجال ما يتصف به هذا العالم الفذ الشيخ عبد الرزاق عفيفي من علم ، وبُعد نظر وقدرة على معالجة الأمور فقربه وعرف مكانته ومكّن له لإفادة الباحثين والعلماء منه .

ولقد استمر عطاؤه في الكليات والمعاهد بعد وفاة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ عليه رحمة الله ـ ، ثم في مجال الإفتاء ، والدعوة في رئاسة البحوث العلمية ، والإفتاء ، والدعوة ، والإرشاد ، وكان فيها من المقربين لسماحة والدنا وشيخنا عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله ، ومد في عمره في نشر العلم والدعوة إلى الله والدفاع عن دينه [١] .

ويقول الشيخ صالح الأطرم ـ عضو هيئة كبار العلماء ـ :

وكان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمة الله عليه ـ يعتمد رأيه في المناهج وفي الكتب المقررة [٢] .

يقول الشيخ الدكتور عبد الله العجلان ـ وكيل الرئيس العام لتعليم البنات لشؤون الكليات الجامعية ـ :

إن الفقيد يحتل الصدارة بين أساتذة الكليات والمعاهد العلمية بالمملكة وذلك بعلمه ، وأدبه ، وأخلاقه ، وسداد رأيه ، وحسن تعامله ، وكونه قدوة حسنة قولاً وعملاً . . وقد عرفته صديقاً حميماً ومستشاراً مخلصاً لمفتي المملكة السابق الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، كما عرفته أستاذاً ماهراً ، وبحراً زاخراً بمختلف علوم التفسير ، والعقيدة ، والفقه ، والأصول ، وغيرها من جوانب العلوم الشرعية ، واللغة العربية . . وعرفته كذلك محدثاً واعظاً ، ومرشداً جم

---

(١) جريدة الجزيرة ، بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٢) مجلة الدعوة ، العدد ١٤٦٠ تاريخ ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

المعرفة ، غزير العلم ، متواضعاً كثير الزهد والتقشف ، مقبلاً على الله في جميع أقواله وأعماله .

وإن كان يرحمه الله لم يترك لنا آثاراً علمية تتفق مع مقامه الرفيع وعلمه الغزير فإن يعتبر أستاذ جيل كامل من علماء المملكة (١) .

وحول منزلته عند سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ المفتي العام للمملكة ـ يقول الشيخ أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهري :

« وكان سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز أكثر تعلقاً به لما جربه من غزير علمه، ورجاحة عقله ، وعفته وتورعه ، فلم يأذن له بالاستراحة وقد أناف على التسعين واحتنكته أمراض عديدة ، فالتزم الشيخ عبد الرزاق جانب الحسبة ما دامت قوته العقلية لم تضعف ، فكان يذهب إلى المملكة يدف على العجل » (٢) .

منزلته عند الشيخ الألباني :

ويكفي ما وصفه به شيخنا العلامة ناصر الألباني حفظه الله تعالى بأنه : (من أفاضل العلماء ، ومن القلائل الذي نرى منهم سمت أهل العلم وأدبهم ، ولطفهم وأناتهم وفقههم) (٣) .

وقد كان للشيخ عبد الرزاق منزلة كبيرة عند الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله :

وكان للشيخ ـ يرحمه الله ـ أيام الملك عبد العزيز درس كل يوم أربعاء ، وكان الملك يحضره ، وكان الشيخ يستخدم ذلك الدرس في النصح الطيب للملك ويسعد الملك بذلك » (٤) .

---

(١) جريدة عكاظ ٢٧/ ٣/ ١٤١٥ هـ .

(٢) جريدة عكاظ ١٢/ ٤/ ١٤١٥ ه .

(٣) المسلمون ١٨/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٤) مجلة الأصالة ، العدد الثاني عشر والرابع عشر .

والشيخ ـ رحمه الله ـ كان داعية متميزاً يحرص على حضور دروسه ومجالسه الكثير ومما يذكر أنه كان للشيخ أيام الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ درس كل يوم أربعاء ، وكان الملك يحضره [١] .

وحول منزلته لدى الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله يقول أبو عبد الرحمن بن عقيل :

« وأبى الملك فيصل رحمه الله إحالة أمثال الشيخ عبد الرزاق عفيفي إلى التقاعد وأوصى بأن يظل منبعاً ثراً مدى حياته » [٢] .

ويقول الشيخ زهير الشاويش ـ صاحب المكتب الإسلامي للنشر ـ :

عرفت أستاذنا وفقيد الأمة الإسلامية قبل خمسين سنة ، وتوثقت صلتي به منذ أربعين سنة على أمتن ما تكون الصلة ، عرفته بفضله وكرمه ، تغمده الله برحمته .

ومنذ عرفته حتى يوم فقدته ما رأيت منه إلا العلم الغزير والأخلاق السامية ، والنبرة الصادقة ، والألفاظ العطرة ، والعقل الراجح والورع الحقيقي والترفع عن سفاسف الأمور ، والصبر عند الملمات ، مما لا تكاد تجده مجموعاً عند غيره من الرجال .

كان عالماً عاملاً بنشر العقيدة الصحيحة ، والتربية السليمة والأخلاق المحمدية فكان مدرسة فريدة في جمع الناس على الخير » [٣].

ويقول الشيخ الدكتور محمد لطفي الصباغ :

« . . . وإني منذ طفولتي إلى هذه الساعة وأنا أعاشر العلماء ، أتتلمذ على

(١) الفرقان ، العدد ٥٤ .

(٢) الجزيرة ١٢/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٣) جريدة السبيل ، العدد ٤٦ ، تاريخ ١٣ أيلول ١٩٩٤ م .

أيديهم ، وأتلقىٰ منهم وأباحثهم ،ولا والله لم ألق عالماً في سَعَة اطلاعه ، ودقة استحضاره وحفظه ، وسلامة منهجه ، واستقامة حياته ، وجولان ذهنه وقدرته علىٰ إعطاء الحكم الدقيق في المسألة المطروحة ، ومعاصرته لأحداث زمانه » .

ويقول الشيخ مناع خليل القطان :

عُرِفَ بسعة علمه ، وعمق فهمه ـ فكان زملاؤه المدرسون يعتبرونه مرجعاً لهم .

ويقول الشيخ عبد الله بن حافظ الحكمي ـ مدير مكتب المفتي العام ـ :

« وإن من آخر من فقدتهم الأمة الإسلامية الوالد الشيخ عبد الرزاق عفيفي عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية سابقاً ونائب رئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، ولست بصدد الترجمة له فقد كفيت ذلك ولكن للتعريف ببعض سيرته ـ رحمه الله ـ من واقع اتصالي به قيض لي العمل قريباً منه في رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ سابقاً ـ كما شرفني ـ رحمه الله ـ بالإشراف عليّ في المرحلة الأولىٰ من رسالتي لنيل درجة الدكتوراه قبل أن تنتابه الأعراض المرضية والمتاعب الصحية في آخر حياته .

لقد عرفت في فضيلته الدقة العلمية والمتابعة والاستيعاب الواسع لجوانب المباحث المطروحة متميزاً ـ رحمه الله ـ بدقة فهمه لمختلف مسائل العلم الشرعية واستيعابه للأصول والقواعد التي تصدر عنها الأحكام ، وسرعة استحضاره لكلام أهل العلم من قراءاته في المراجع المختلفة »[١] .

ويقول الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ ـ عضو هيئة كبار العلماء ـ :

« الشيخ أحد الأعلام الفضلاء الذين هيأ الله لهم فرصة تربية الأجيال ، وهو

---

(١) مجلة الدعوة ، ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

أحد العلماء الذين عرفوا بالجد والاجتهاد والإخلاص في أداء الواجب ، وهو ذو علم واسع وله اطلاع في الحديث ، والتفسير ، والفقه وأصوله ، واللغة العربية ، وقد تخرج على يديه أفواج كثيرة ، ويذكر له طلابه إخلاصه ومحافظته على أداء الواجب وجده واجتهاده .

ولقد كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي يلقي دروساً بعد العشاء في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم في التفسير ، وكانت دروسه نافعة وتوجيهاته قيمة ، وعرف بسعة علمه ، وحسن تربيته وتوجيهه وإخلاصه وهو رحمه الله مثال للعالم العامل . فالشيخ غفر الله له عرف بتوجيهه وتأثيره وعظته وبخاصة في التعليم ، فما زال طلابه الذين تلقوا العلم على يديه يعرفون له جده واجتهاده ، وقدرته على إيصال المعلومة لأذهان الطلاب مما يدل على تمكنه وحرصه غفر الله لنا وله ولجميع موتى المسلمين (١) .

ويقول الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ - وزير العدل سابقاً - :

« الشيخ - يرحمه الله - ممن عرف علمه وفضله وورعه ، وهو أول من عمل في المعاهد العلمية ، وكان وجوده فيها كسباً لها من سعة علم واطلاع وخبرة وفهم ، وهي الآن خسرت خيرة الرجال والعلماء في الداخل والخارج ، وقد لازمت الشيخ طويلاً واستفدت منه كثيراً » (٢) .

ويقول الشيخ عبد العزيز بن عبد المنعم - أمين هيئة كبار العلماء - :

« درّسني الشيخ في دار التوحيد عام ١٣٦٨ هـ ، ثم درست في المعهد العالي للقضاء عندما كان مديراً له ، وعملت معه في التدريس بالمعاهد ، وكان - برحمه الله - مثالاً للعالم الباذل لجهده وفي دقته في الفتاوىٰ ، والبحوث العلمية ، كما

---

(١) المسلمون ٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ ، عكاظ ٢٧/ ٣/ ١٤١٥ هـ .
(٢) المسلمون ٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

كان دمث الأخلاق طيباً والكل يألفه ويحبه ، ومن حسن خلقه نال ثقة الشيخ محمد بن إبراهيم وكان يأنس برأيه فيما يتعلق بالمناهج »[١] .

ويقول د . صالح بن غانم السدلان :

« كنت معجباً جداً بطريقة الشيخ عبد الرزاق في التدريس ، حيث المادة العلمية لديه ـ يرحمه الله ـ خالية من الحشو ، مرتبة ، مركزة ، متسقة ، معروضة بأسلوب شيق قشيب »[٢] .

ويقول الشيخ علي الرومي ـ رئيس محكمة التمييز ـ :

« كان الشيخ أول من باشر التدريس في المعهد العلمي بالرياض منذ أول يوم لافتتاحه في عام ١٣٧١ هـ وله اطلاع واسع ـ يرحمه الله ـ في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ ،وله علم في الجغرافيا وغيرها »[٣] .

ويقول معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش ـ الرئيس العام لتعليم البنات ـ :

« إن الأمة الإسلامية فقدت برحيل فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي واحداً من علمائها الأجلاء الذين أثروا بغزير علمهم المكتبة الإسلامية مشيراً أن فضيلته درس العلم من منابعه حتىٰ نال الشهادة العالمية من الأزهر ، وتدرج في سلك التدريس بدءاً بدار التوحيد بالطائف ثم في كليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض قبل أن يعين مديراً للمعهد العالي للقضاء .

وأضاف : أن فضيلته كان زميلاً لوالدي ـ يرحمه الله ـ الذي كان كثيراً الثناء عليه مشيداً بعلمه الغزير »[٤] .

---

(١) المسلمون ، ٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) عكاظ ، ٢٧/ ٣/ ١٤١٥ هـ .

ويقول الشيخ محمد السبيل ـ الرئيس العام لشؤون الحرمين ـ :

والفقيد الراحل ليس خسارة على المملكة فحسب ، إنما لكل الأمة الإسلامية. وها هو يرحل عنا بعد سنوات طويلة قضاها في نشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . . وقد تعلم على يده العديد من طلبة العلم ، وكان حليماً وقوراً مجلسه من طلبة العلم »[١] .

ويقول الشيخ بن عبد الرحمن الأطرم :

« صفات الشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ صفات العلماء الأفذاذ الذين مضوا وسجل التاريخ لهم ما يبقى من المحاسن إلى يوم القيامة والذين شملهم قول الرسول ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة** »[٢] لأنهم ورثة الأنبياء والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، تعليماً وتدويناً .

والشيخ عبد الرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ جمع العلم والعقل فيا سعادة من جمع العلم والعقل ، إذ لا يستغني بأحدهما عن الآخر ، فالعقل يزن به ما يقول ويفعل، ويتأمل في العواقب ، والعلم الشرعي يعرف به أحكام الشرع في التصرفات والأقوال والأفعال . والشيخ عبد الرزاق نفع الله به في جميع مستويات الدراسة النظامية منذ أن بدأت النهضة العلمية النظامية في المملكة العربية السعودية مع أنه شارك في حلق التدريس في مسجد سماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ أول ما قدم إلى الرياض في سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف ، وعند الملك عبد العزيز غفر الله له وأصلح عقبه »[٣] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المناقب (٣٦٤٠، ٤٧٥٩) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٣) الدعوة ، ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

الفصل الرابع

شهادة العلماء له بسعة

علمه وتبحره في جميع الفنون

يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

« وكان إذا تكلم في فنّ من فنون العلم ظنَّ السامع أنه لا يحسن غيره ، وأنه متخصص فيه وحده كان موسوعي المعرفة . كان محدثاً كبيراً قل أن يخفى عليه حديث ، وكانت له مقدرة متميزة في تخريج الحديث والحكم عليه ، وقد ترى في بعض الأحاديث من الرأي الصحيح ما لاتجده عند غيره سواء في تحديد درجته أم في فهمه والوقوف على دلالاته .

وله عناية خاصة بكتب الرجال ، وقد بلغ من عنايته أنه فقد جزءاً من كتاب من كتب الرجال فكتبه بخطه وجلده ، ولما رآه بعض الولوعين بحفظ آثار عظماء العلماء استهداه هذا الجزء فأهداه إياه بحضوري .

وكان مفسراً عظيماً ، **وإنْ أنس لا أنس** دروسه الرائعة في تفسير القرآن التي كان يلقيها في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم في دخنه في الرياض ، وكنت ملازماً لها ، وذلك من فضل الله عليَّ . . لقد كان يغوص بين تلك المعاني العميقة في الآية ويذكر ارتباطها بما قبلها وما بعدها ، ويصل بين تلك المعاني وبين حياة الناس ، ويشير إلى أسرار البلاغة ونواحي الإعجاز فيها ،وكان لا يرضى تأويل المتأخرين ولا المعاصرين المفتونين بحضارة الغرب الذين تزعزعت عندهم الغيبيات فراحوا يؤولون النصوص تأويلا متكلفاً بعيداً .

وكان فقيهاً مجتهداً ، وما كان يرضى التعصب لمذهب من المذاهب مع إحاطة بها إحاطة لم أر مثلها ، بل كان يمشي مع الدليل . وقد تكونت لديه ملكة فقهية

عظيمة .

وكان إذا سئل لا يتسرع بالإجابة ، بل يسأل عن دقائق الموضوع المطروح حتى يستوعبه ويكون عنده تصور صحيح دقيق للموضوع ثم يجيب .

وكان أصولياً متبحراً في هذا العلم العظيم : علم أصول الفقه ، واقفاً على دقائقه، مطلعاً على كتبه مستحضراً لما فيه ، فإذا سألته عن كتاب من كتب الأصول ذكر لك خصائصه ومزاياه وطريقته ،والمآخذ التي قد تؤخذ عليه ،وقد كان معجباً بكتاب « المستصفى » للغزالي وبكتاب « الموافقات » للشاطبي .

وكان من كبار علماء التوحيد على مذهب السلف ـ رحمهم الله ـ يعرض القضايا الدقيقة فيه بأسلوب مُيَسَّر واضح ، وقد كان ـ رحمه الله ـ واقفاً على كلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في هذا العلم . ولقد استطاع أن يردَّ ما جاء في شرح الطحاوية وهو مقتبس من كلام ابن تيمية وتلميذه إلى مواضعه في كتبهما ، وقد تضمنت طبعة المكتب الإسلامي الأخيرة للكتاب هذه الإحالات .

وكان في علوم العربية متمكناً ، فقد كان في النحو مرجعاً تراه يورد في حديثه القاعدة النحوية إذا اقتضاه التوضيح أن يوردها وكأنه من المتخصصين في النحو ، وكان ذواقة للنصوص الجميلة وهذا يدل على موهبة بيانية أكرمه الله بها وعلى تمكنه من علوم البلاغة .

وكان في الكتابة ذا أسلوب متين جزل بليغ ، لا يقل عن أساليب كبار الكتاب والأدباء ، تتصف عباراته بالإيجاز ، والإحكام ، والبيان ، والوضوح ، والجزالة . ولديَّ عدد من رسائله الشخصية إليَّ وهي نماذج على ذاك الأسلوب العالي .

وكذا ذا بيان مشرق متدفق إذا تكلم أو درس ، لا يتلعثم ولا يتوقف ولا يلحن . وكان مناظراً قوي الحجة مستحضر الدليل يحيط بأطراف الموضوع الذي يناقشه .

وكان مدرساً ناجحاً سواء كان درسه في الجامع أو في الجامعة ، فلقد كان له درس أسبوعي في مسجد الشيخ محمد كما ذكرنا آنفاً ، ثم لما انتقل إلىٰ بيته في شارع الخزان كان يؤم الناس في المسجد الذي يقابل بيته وكان يلقي بين الفينة والأخرىٰ دروساً تأخذ بالألباب في روعتها وعمق معانيها وغزارة أدلتها .

وكانت إحاطته بمفردات اللغة العربية تكاد تكون إحاطة شاملة ، فلقد كان يصحب القاموس المحيط ، وقد حدثني أنه يجد متعة في قراءة مواده . والناس عادة لا يرجعون إلىٰ القاموس إلا عندما يريدون معرفة معنىٰ كلمة ، أما الشيخ رحمه الله فقد كان يقرأ فيه كما يقرأ أي كتاب من الكتب .

أما فهمه لعبارات الأقدمين في كتبهم فقد كان شيئاً مدهشاً حقاً ، وبعض العبارات بالغة التعقيد بسبب الرغبة عند هؤلاء المتقدمين في تحميل الألفاظ القليلة المعاني الكثيرة . . . لقد كان ينظر في العبارة العويصة نظرة فيحلها ويشير إلىٰ مراميها ومقاصد كاتبها ، علىٰ نحو لا تجده إلا عند قليل من أهل العلم .

ومهما يكن من أمر ، فإني لا أستطيع أن أنقل للقراء صورة حقيقية لعلم الرجل الواسع في هذه الكلمة .

ويقول الشيخ عبد الله الحكمي :

« أقول : رحم الله الوالد الشيخ عبد الرزاق ، فقد كان بحر علم زاخراً صدر عنه الكثير من طلبة العلم الشرعي ، ولا سيما في هذه البلاد بخاصة .

كما كان في علم الفقه سريع الاستحضار للأحكام الشرعية محيطاً بأدلتها عالماً بقواعدها ، وأصولها مدركاً لأشباه المسائل ونظائرها سديد الرأي ، صائب الاجتهاد ، يفتي السائل علىٰ حسب حالته ومستواه من الجهل والعلم »[1] .

---

(١) الدعوة ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

ويقول الشيخ عبد الله بن جبرين :

« أما علمه فهو بحر لا ساحل له في أغلب العلوم التي يتناولها بالبحث والشرح ، فلقد عرفته لأول مرة عام ١٣٧٤ هـ ، وكان يزور بعض المشايخ كالشيخ عبد العزيز بن محمد الشتري ، ونقرأ عليه في المجلس حديثاً من أول صحيح البخاري فيشرحه شرحاً موسعاً بحيث يستغرق شرح الحديث الواحد أكثر الجلسة ، وعرفته في أحد الأعوام يفسر سورة سبأ في مسجد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ فكان يبقىٰ في تفسير الآيتين نحو ساعة أو أكثر ، ويستنبط من الآيات فوائد ، وأحكاماً ، وأقوالاً ، وترجيحات يظهر منها عظمة القرآن وما فيه من الاحتمالات والفوائد ، ومما يدل علىٰ موسوعية الشيخ وسعة اطلاعه وكثرة معلوماته »[1] .

ويقول الشيخ الدكتور حمد الجنيدل :

« كان شيخنا ـ يرحمه الله ـ من العلم بمكان ، وله طريقة متميزة في إلقاء الدروس ، وتأثير عجيب علىٰ مستمعيه بأسلوب سهل متين ، وعلم جم ، وجوامع كلم ، يتقن عدة علوم ، من أبرزها : علم التفسير ، والعقيدة ، والفقه ، وأصوله وعلم المنطق ، وشيئاً من علم الحديث ، كان في علم التفسير أستاذاً وفي كل ما أشرت إليه قمة يتمنىٰ كل طالب علم أن يسمع له ، وكان لا يدرس من كتاب بل له حافظة قوية جداً »[2] .

ويقول الشيخ الدكتور صالح بن سعود آل علي ـ عضو مجلش الشورى ـ :

« . . وكان رحمه الله ذا باع طويل في علوم الشريعة ، له القدح المعلىٰ في تفسير وعلوم القرآن ، وقل أن يوجد له نظير في التوحيد وعلوم العقائد والمذاهب

---

(١) الدعوة ١/ ٥/ ١٤١٥ هـ .

(٢) المسلمون ٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

والملل والنحل . أما في علم أصول الفقه ، فهو علم من أعلامه له في ميدانه اليد الطولىٰ . وأما الفقه فإليه المنتهىٰ »[١] .

ويقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري :

« وكان هو والعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي فرسي رهان ويظل لكل واحد منهما ميزته .

والشيخ له باع في المنطق والعقليات وعلم الكلام ، وعلىٰ علم ودراية بمواقع الضعف في كتب العقيدة التي تدرس خارج المملكة علىٰ أسلوب المتكلمين كالسنوسية . بل كان الشيخ ذا عناية بالنَسَفية قبل أن يصل إلىٰ السعودية ، إلا أن سماحته لا يتظاهر بعلمه ، ولكنه إذا سُئل ، أو ناقش أو طلب منه الدليل والتأصيل كانت فتواه عن علم مؤصل لا يملكه إلا خاصة من الأسلاف جمعوا بين المعقول والمنقول ، حديثاً وتفسيراً ، وأصولاً ولغة ومنطقاً .

وتعليقاته القليلة علىٰ بعض الكتب مثل الكتاب الفحل إحكام الآمدي في الأصول ، كانت قليلة وكانت لمحة عالم »[٢] .

ويقول الشيخ صالح الأطرم :

« درسنا الشيخ عبد الرزاق في معهد الرياض العلمي ، وفي كلية الشريعة ، وفي المعهد العالي للقضاء في التفسير ، وفي توحيد العبادة ، وفي العقيدة ، وفي الفقه وفي البلاغة ، وفي النحو ، وفي أصول الفقه فما درس مادة إلا أبدع فيها»[٣] .

---

(١) عكاظ ٢٨/ ٣/ ١٤١٥ هـ .

(٢) الجزيرة ١٢/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٣) الدعوة ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

عقيدته السلفية

لقد كان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ من أئمة الدعوة السلفية وأعلامها في هذا العصر وكان ـ رحمه الله ـ مدافعاً عنها بيده ولسانه في جميع مراحل حياته .

فهو في مصر كان رئيساً لجماعة أنصار السنة المحمدية التي أسست لنشر التوحيد الخالص ، ومحاربة القبوريين ، وأهل البدع ، فكان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ كما سبق أحد المؤسسين لهده الجماعة مع الشيخ حامد الفقي حيث كان نائباً له ، ثم رئيساً للجماعة من بعده .

وما بقى من آثار الشيخ عبد الرزاق المكتوبة كلها يشهد له بصفاء عقيدته في جميع أبواب الاعتقاد ، فمن ذلك حاشيته على تفسير الجلالين التي نبه فيها إلى ما وقع في الكتاب من تأويلات أشعرية ، وحواشيه على التدمرية ، والحموية ، والتبوكية وهي تحت الطبع الآن يظهر منها بجلاء أن الشيخ عبد الرزاق رحمه الله كان يسير على منهج شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، وعلى منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله ، وهو المنهج السلفي القويم الحري بالاتباع .

وقد شهد للشيخ بسلفيته كل من عرفه من علماء عصره وسوف أنقل لك بعضاً من أقوالهم في ذلك :

يقول الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرم :

كانت عقيدة الشيخ عبد الرزاق في أسماء الله وصفاته وتوحيد العبادة عقيدة السلف الصالح فيفسر « لا إله إلا الله » بلا معبود بحق إلا الله ، وهذ التفسير هو الحق . وفي الأسماء والصفات كان على طريقة السلف الصالح فهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل على حد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١ .

وكان كثيراً ما ينبهنا على دقائق ولطائف ، فمن ذلك أن أحد مدرسي التفسير أثنى على تفسير الفخر الراز ي ، وكان عند أحد الكُتْبيين في الرياض منه نسختان، فسارعت لشراء واحدة وقرأت فيه ثم ذهبت إلى الشيخ عبد الرزاق وأثنيت على ذلك التفسير ، وقلت له : لكني لم أسمع مشايخنا يذكرونه أو يقرؤونه على الناس ، فقال لي بغضب : ألا تدري لماذا ؟ ثم قال : ألا تعرف منهج مشايخك ؟ . وكنت إذ ذاك لم أسمع لفظة منهج ، ثم قال : مشايخك مشايخ عقيدة سلفية ، وتفسير الفخر الرازي فيه شوك لا يصلح أن يقرأ على العامة، ولا يصلح للمبتدئين في التعليم ، فاستفدت من هذه اللفتة من الشيخ اختلاف المنهجيات وبيان المراد بها »[١] .

ويقول الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي :

لقد امتاز ـ رحمه الله ـ عن غالب زملائه وأقرانه الذين درسوا في الأزهر وفي غيره من المؤسسات العلمية ، بشدة متابعته لسلف الأمة الصالح ،وتركيزه في آرائه وتدريسه على العقيدة الإسلامية الصافية ، المرتبطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولقد كان يقوِّم كل بحث أو رأي في ضوء الأسس والأصول الصحيحة التي إلتزمها السلف الصالح ،والأئمة الكبار حينما واجهوا الفلسفات المادية في الأصول والفروع »[٢] .

ويقول الشيخ عبد الله بن حافظ الحكمي :

« . . . ولقد كان ـ رحمه الله ـ واسع العلم بمسائل العقيدة شديد التمسك بمذهب السلف الصالح مع المعرفة التامة بالملل والنحل المختلفة وأصولها التي

(١) الدعوة ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٢) الجزيرة ١٢/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

تصدر عنها عالماً بعوارها ومواطن دحضها .

لقد كان ـ رحمه الله ـ شديد الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيمية كثير الرجوع إلىٰ مؤلفاته ، وكان مما سمعته منه قوله : « لم أر لدىٰ أكثر المؤلفين في العصور المتأخرة جديداً بل تكرار لما ذكره من سبقهم سوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فإنك تجد في مؤلفاته الكثير من العلم مما لم يسبق إليه » [(١)] .

ويقول الدكتور محمد لطفي الصباغ :

وكان تغمده الله بالرحمة سلفي العقيدة ، يدعو إلىٰ الحق علىٰ بصيرة ، وكان رئيس جماعة أنصار السنة في الإسكندرية ، يوم أن كان في مصر » [(٢)] .

ويقول الشيخ مناع خليل القطان :

« . . كان منهجه السلفي سمة بارزة فيه بأسلوب شائق جذاب يدعمه الدليل والحجة ، ولا يمس أحداً بتجريح ، مما جعل استجابة الناس له عن حب وقناعة » [(٣)] .

ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

« . . وتعرفت علىٰ بعض مراجعه في الدراسة ، وإعجابه ببعض العلماء وبعض الأئمة في بعض الأمور ، كان تلميذاً مخلصاً علىٰ مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية قرأ إنتاجهما العلمي قراءة مكررة حتىٰ وعىٰ ما فيها عن قناعة وتشرب فقههما ومنحاهما في الاجتهاد واستقلالهما في أخذ الأحكام من الأدلة الشرعية ، وهو يظهر الإعجاب بهما ولا يخفىٰ علىٰ مجالسه

---

(١) الدعوة ٢٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

(٢) ترجمة خطية .

(٣) ترجمة خطية .

تقديره لهذين الأمامين الجليلين ، كما لا يخفي عليه إعجابه بحركة الإصلاح والتجديد في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في الدعوة وحسن معالجته للمشكلات التي كانت تواجه دعوته . . .

ويظهر بجلاء احترامه وتقديره لكثير من علماء المملكة العربية السعودية ، وفي مقدمتهم الشيخان الجليلان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ عبد العزيز بن باز في علمهما وعملهما وذكر لي الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي وكان يثني عليه ثناءً لعصره بحراً في علمه سديداً في توجيهه »(١) .

وليس أدلَّ على صفاء عقيدته السلفية من أن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز كان يعهد إليه ببعض الكتب التي فيها مخالفات لمعتقد السلف طالباً منه أن ينبه على مواضع المخالفة .

وإليك صورة مكاتبة بين الشيخ عبد الرزاق ، والشيخ عبد العزيز بن باز حول كتاب الاعتقاد للإمام البيهقي حيث طلب الشيخ عبد العزيز من الشيخ عبد الرزاق تقريراً حول كتاب الاعتقاد للإمام البيهقي ، فأجاب الشيخ عبد الرزاق بما نصُّه :

---

(١) ٢٦/ ١٤١٥٣ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

الرقم ____
التاريخ ____
المرفقات ____

الموضوع : ـــ

سماحة الرئيس العام لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،

فبناء على كتاب سماحتك رقم   في   /   / ١٤٠٢ الذى تطلب فيه تقريرا عن كتاب الاختصار للسنوسي(؟)

قرأت الكتاب فوجدته موافقا للسلف في مواضع كثيرة ومخالفا لهم في مواضع اخرى وسأجمل لك فيما يلي مايؤخذ عليه مما خالف فيه السلف في العقيدة :ـ

١ـ يصف الله وأسماءه بالقدم ، ويسميه القديم ،كما يتبين مما تحته خط في الصفحات التالية
٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٦٠ ، ٦١

٢ـ استدل على حدوث الكونيات بانها محل للحوادث كسائر الأشعرية ، فلزمهم بذلك نفي قيام الصفات الفعلية بالله والتزموا تأويل النصوص المثبتة لصفات الافعال بما يسمونه قديما ، كما تبين ذلك بالرجوع الى ماتحته خط في ص ٧

٣ـ تأول اسم الله ـ الرحمن ـ بالمريد لرزق كل حي في الدنيا ، واسمه ـ الرحيم ـ بالمريد لاكرام المؤمنين في الجنة وقال : " فيرجع معناهما الى صفة الارادة التي هي صفة قائمة بذاته تعالى " ويعني بالارادة ـ الارادة الكونية الازلية ، لا الارادة الدينية التي بمعنى المحبة يتبين ذلك مما تحته خط من ص ١٥ ـ ١٩ وبيان أن هذه البدعة على اختراع الأشاعرة(؟)

٤ـ ذهب في صفة الكلام الى مذهب الكلابية ، كسائر الاشعرية ،فجعلها صفة نفسية ذاتية قديمة قائمة بذات الله تعالى ، ورد صفة الحكم المفهومة من اسم الله الحكم وقال " وقد يكون بمعنى حكمه للواحد بالنعمة وللآخر بالمحنة فيكون من صفات فعله "
وقال مثل ذلك في اسم الله ـ الشكور ـ وفي اسمه العدل ـ يتبين ذلك مما تحته خط من ص ١٦

٥ـ فسر اسم الله ـ العلي ـ بالعالي القاهر ، وبالذى علا وجل من ان يلحقه صفات الخلق وقال : هذه صفة يستحقها بذاته .
وتأول محبة الله عباده ، بارادته رحمتهم ومدحهم ، وقال : فيرجع معناه الى صفة الارادة والكلام بمعنى الارادة الكونية ، والكلام النفسي ، وقال : وقد يكون بمعنى انعامه وافضاله عليهم فيكون من صفات الافعال .
كما تقدم بيانه يتبين ذلك مما تحته خط من ص ١٧ ـ ١٩

٦ـ قال في اسم الله " المتعالي " هو المنزه عن صفات الخلق ، وهذه صفة يستحقها بذاته وقد يكون العالي فوق خلقه بالقهر " ا . هـ .
وهذا فرار من اثبات علو الله على خلقه بذاته ص ١٧ ـ ١٩

٧ـ بعد ان فسر أسماء الله الحسنى وذكر ما رآه فيها من احتمال ووجوه قال : وهذه الوجوه التي في معانيها كلها صحيح ، وربنا جل جلاله ، وتقدست اسماؤه متصف بجميع ذلك ، فله الاسماء الحسنى ، والصفات العلى ، لا شبيه له في خلقه ، ولا شريك له في ملكه "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" ا . هـ ص ٢١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

الرقم ——————
التاريخ ——————
المرفقات ——————
الموضوع : ——————

-٢-

ايضا

٨- قال في ص ٢١ : فلله عز اسمه اسماء وصفات ، واسماؤه صفاته ، وصفاته أوصافه " ا . هـ .
فجعل اسماءه صفاته ، ومعلوم ان الاسم يتضمن الصفة ، وانها بعض مفهومه لا انه الصفة

٩- في ص ٢١-٢٢ قسم صفات الله قسمين ، صفات ذات وصفات افعال ، وقسم صفات الذات قسمين ، عقليا وهو ما كان طريق اثباته ادلة العقل مع ورود السمع به ، فاذا دل وصف الواصف به على الذات فالاسم عين المسمى مثل شيء ، ذات ، موجود ، جليل ، عزيز ، عظيم متكبر وان دل وصف الواصف به على صفات زائدة على ذاته قائمة به مثل حي ، عليم ، قادر سميع بصير متكلم فالاسم في هذا لا يقال : انه هو المسمى ولا انه غير المسمى .
واما السمعي فما كان طريق اثباته السمع فقط كالوجه واليدين والعين ، وهذه ايضا صفات قائمة بذاته ، لا يقال فيها : انها هي المسمى ولا غير المسمى ، ولا يجوز تكييفها ، فالوجه صفة وليست بصورة ، واليدان له صفتان ، وليستا الجارحتين ، والعين له صفة ، وليست بحدقة ...
الى آخر ما ذكره في ص ٢٢- ٤٤
ولا يخفى ما في هذا من المخالفة للسلف اهل السنة والجماعة ، اذ فيه نفي تفصيلي ، والسلف على خلافه ، وانما يمنعون الخوض في الكيف ويقولون : انه مجهول او غير معلوم ، ويفوضون علمه الى الله تعالى . كما يمنعون عموما الخوض فيما لم يخوضوا فيه نفيا واثباتا .

١٠- قال في صفات المعاني السبعة القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام : انها زائدة على الذات فاثبات بها ليرد على المعتزلة ، وقال انما قال : النبي صلى الله عليه وسلم " اعوذ بكلمات الله التامة .. " على طريق التعظيم . ا . هـ يعني ان الجمع للتعظيم لا لكونه كلامه تعالى متعددا بل هو شيء واحد هو الكلام النفسي الازلي ، يتبين ذلك مما كتبه خطأ في ص ٢٥ حتى ٢٩ وفي ص ٣٢ حتى ص ٣٢

١١- ذكر في الاستواء طريقتين : طريقة التفويض في معناه مع نفي الكيفية وطريقة حمله على وجه يصح استعماله في اللغة واتبع ذلك نفيا تفصيليا للكيفية في الاستواء وفي النزول وفي المجيء والاتيان ... الخ ص ٤٤ واحال في ذلك على كتابه - الاسماء والصفات .

١٢- احسن في اثبات رؤية الله تعالى في الآخرة بالابصار ، وفي اقامة الادلة على ذلك ، وفي رده على منكري رؤيته تعالى ، لكنه يرى ان الله عز وجل لا يرى في جهة ، بل يراه الراؤون في جهاتهم كلها ، لانه يتعالى عن جهة ص ٥١

١٣- قال في افعال العباد انها كسب لهم على معنى تعلق قدرتهم بها فيرتبهم التي هي اكسابهم ، ووقوع هذه الافعال او بعضها على وجوه تخالف قصد مكتسبها يدل على موقع اوقعها كما اراد غير مكتسبها والله ربنا ، خلقنا وخلق افعالنا .. الخ ص ٦٠ ، ٦١
وهذا الى القول بالجبر اقرب منه الى القول باثبات الاختيار للعبد في افعاله .

١٤- وفسر ما جاء في الحديث من ان قلوب العباد بين اصبعين من اصابع الرحمن " بان المراد به كون القلب تحت قدرة الرحمن " .

١٥- الخطأ في تفسير آيات في المشيئة ص ٧١ .

١٦- ذكر كثيرا من الاحاديث ولم يبين درجتها من الصحة والضعف والمقام مقام الاستدلال في العقيدة
وبالجملة فالكتاب نافع ، وفيه خير كثير ، ويمكن التعليق عليه في مواضع الخطأ ، او التنبيه على ذلك في مقدمة له وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

كتبه : عبد الرزاق عفيفي

« سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فبناء على كتاب سماحتك رقم في / / ١٤٠٤ هـ الذي تطلب فيه تقريراً عن كتاب الاعتقاد للبيهقي .

قرأت الكتاب فوجدته موافقاً للسلف في مواضع كثيرة ومخالفاً لهم في مواضع أخرى ، وسأجمل فيما يلي ما يؤخذ عليه مما خالف فيه السلف في العقيدة :

١ - يصف الله وأسماءه بالقِدَم ، ويسميه بالقديم ، كما يتبين مما تحته خط في الصفحات التالية ٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٧ ، ٦٠ ، ٦١ .

٢ - استدل على حدوث الكونيات بأنها محل للحوادث كسائر الأشعرية ، فلزمهم بذلك نفي قيام الصفات الفعلية بالله والتزموا تأويل النصوص المثبتة لصفات الأفعال بما يسمونه قديماً ، كما يتبين ذلك بالرجوع إلى ما تحته خط في ص٧ .

٣ - تأول اسم الله - الرحمن - بالمريد لرزق كل حي في الدنيا ، واسمه - الرحيم - بالمريد لإكرام المؤمنين في الجنة ، وقال : « فيرجع معناها إلى صفة الإرادة التي هي صفة قائمة بذاته تعالى » ويعني بالإرادة - الإرادة الكونية الأزلية ، لا الإرادة الدينية التي تعني المحبة ، يتبين ذلك مما تحته خط من ص ١٥ - ١٩ ، وتأويل الإلهية بالقدرة على اختراع الأعيان .

٤ - ذهب في صفة الكلام إلى مذهب الكُلاَّبية ، كسائر الأشعرية ، فجعلها صفة نفسية ذاتية قديمة قائمة بذات الله تعالى ، ورد صفة الحكم المفهومة من اسم الله الحكم وقال : « وقد يكون بمعنى حكمه لواحد بالنعمة والآخر لواحد بالمحنة

فيكون من صفات فعله » .

وقال مثل ذلك في اسم الله ـ الشكور ـ وفي اسمه العدل ـ يتبين ذلك مما تحته خط من ص١٦ .

٥ ـ فسَّر اسم الله ـ العلي ـ بالأعلىٰ القاهر ، وبالذي علا وجل عن أن يلحقه صفات الخلق وقال : هذه صفة يستحقها بذاته .

وتأول محبة الله عباده بإرادته رحمتهم وبمدحهم ،وقال : فيرجع معناه إلىٰ صفة الإرادة والكلام بمعنىٰ الإرادة الكونية ، والكلام النفسي ، وقال : وقد يكون بمعنىٰ إنعامه عليهم فيكون من صفات الأفعال .

كما تقدم بيانه يتبين ذلك مما تحته خط من ص ١٧ ـ ١٩ .

٦ ـ قال في اسم الله « المتعالي » هو المنزَّه عن صفات الخلق ، وهذه صفة يستحقها بذاته وقد يكون العالي فوق خلقه بالقهر » ا . هـ .

وهذا فرار من إثبات علو الله علىٰ خلقه بذاته ص ١٧ ـ ١٩ .

٧ ـ بعد أن فسر أسماء الله الحسنىٰ وذكر ما رآه فيها من احتمال ووجوه قال : وهذه الوجوه التي في معانيها كلها صحيح ، وربنا جل جلاله ، وتقدست أسمائه متصف بجميع ذلك ، فله الأسماء الحسنىٰ ، والصفات العلىٰ ، لا شبيه له في خلقه ،ولا شريك له في ملكه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ا. هـ . ص ٢١ .

٨ ـ قال في ص ٢١ أيضاً : فلله عز اسمه أسماء وصفات ، وأسماؤه صفاته وصفاته أوصافه » ا. هـ .

فجعل أسماءه صفات ، ومعلوم أن الإسم يتضمن الصفة ، وأنها بعض مفهومه لا أنه الصفة .

٩ - في ص ٢١ - ٢٢ قسم صفات الله ، قسمين : صفات ذات وصفات أفعال ، وقسّم صفات الذات قسمين : عقلياً وهو ما كان طريق إثباته أدلة العقل مع ورود السمع به ، فإذا دل وصف الواصف به على الذات فالإسم عين المسمى مثل شيء ، ذات ، موجود ، جليل ، عزيز ، عظيم ، متكبر ، وإن دلَّ وصف الواصف به على صفات زائدة على ذاته قائمة به مثل حي ، عليم ، قادر ، سميع، بصير ، متكلم ، فالإسم في هذا لا يقال : إنه هو المسمى ولا أنه غير المسمى .

وأما السمعى فما كان طريق إثباته السمع فقط كالوجه ،واليدين ،والعين ، وهذه أيضاً صفات قائمة بذاته ، لا يقال فيها : إنها هي المسمى ولا غير المسمى ، ولا يجوز تكييفها ، فالوجه صفة وليست بصورة ،و اليدان له صفتان ، وليستا الجارحتين ، والعين له صفة وليست بحدقة . . . إلى آخر ما ذكره في ص ٢٢ - ٤٤ .

ولا يخفى ما في هذا من المخالفة للسلف من أهل السنة والجماعة ، إذ فيه نفي تفصيلي ،والسلف على خلافه ،وإنما يمنعون الخوض في الكيف ويقولون : إنه مجهول أو غير معلوم ، فيفوضون علمه إلى الله تعالى ، كما يمنعون عموماً الخوض فيما لم يخوضوا فيه نفياً وإثباتاً .

١٠ - قال في صفات المعاني السبعة القدرة والإرادة ،والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام : إنها زائدة على الذات قائمات بها ، ليرد على المعتزلة ، وقال : إنما قال النبي ﷺ : « **أعوذ بكلمات الله التامة** »[1] على طريق التعظيم . ا.هـ . يعني أن الجمع للتعظيم لا لكون كلامه تعالى متعدد بل هو شيء واحد هو الكلام النفسي الأزلي ، يتبين ذلك مما تحته خط في ص ٢٥ حتى ص ٢٩ ، وفي ص ٣٢ حتى ص ٣٧ .

١١ - ذكر في الاستواء طريقتين : طريقة التفويض ، وطريقة حمله على وجه

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . ومسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السُّلَمِيَّة رضي الله عنها .

يصح استعماله في اللغة ، وأتبع ذلك نفياً تفصيلياً للكيفية في الاستواء وفي النزول وفي المجيء والإتيان . . إلخ ص ٤٤ ، وأحال في ذلك على كتابه ـ الأسماء والصفات .

١٢ ـ أحسن في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة بالأبصار ، وفي إقامة الأدلة على ذلك ، وفي رده على منكري رؤيته تعالى ، ولكنه يرى أن الله عز وجل لا يرى في جهة ، بل يراه الراءون في جهاتهم كلها ، لأنه يتعالى عن جهة ص ٥١ .

١٣ ـ قال في أفعال العباد : إنها كسب لهم على معنى تعلق قدرتهم بمباشرتهم التي هي إكسابهم ، ووقوع هذه الأفعال أو بعضها على وجوه تخالف قصد مكتسبها يدل على مُوقع أوقعها كما أراد غير مكتسبها والله ربنا خلقنا وخلق أفعالنا . . إلخ ص ٦٠ ، ٦١ .

وهذا إلى القول بالجبر أقرب منه إلى القول بإثبات الاختيار للعبد في أفعاله .

١٤ ـ وفسر ما جاء في الحديث من أن « **قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن** » بأن المراد به كونه القلب تحت قدرة الرحمن [1] .

١٥ ـ أخطأ في تفسير آيات في المشيئة ص ٧١ .

١٦ ـ ذكر كثيراً من الأحاديث ولم يبين درجتها من الصحة ، والضعف ، والمقام مقام الاستدلال في العقيدة ، والجملة فالكتاب نافع ، وفيه خير كثير ، ويمكن التعليق عليه في مواضع الخطأ ، أو التنبيه على ذلك في مقدمة له ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

كتبه

عبد الرزاق عفيفي

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٤) ، وأحمد (٢/ ١٦٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .



الفصل السادس

حكمته في الدعوة إلى الله

ومنهجه في التعليم

لقد كان الشيخ عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ حكيماً في دعوته إلىٰ الله تعالىٰ ، وفي تعليم الناس ممتثلاً قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [1] فكان يترفق بالجاهل ويتواضع للمتعلم ويلتمس أفضل السبل لتوصيل دعوته ، وقد أثابه الله تعالىٰ علىٰ حسن صنيعه فكان لدعوته أبلغ الأثر ولتعليمه أكبر النفع ، ولا غرابة حينئذ أن يشهد له طلابه بأنهم لم يروا في معلميهم أحسن منه تعليماً .

وقد ذكر شيخنا عبد الله بن قعود ـ حفظه الله ـ أنه كان أحد ثمانية طلاب هم الدفعة الأولىٰ بالمعهد العالي للقضاء أول افتتاحه حيث كان الشيخ عبد الرزاق مدير المعهد وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي مدرساً فيه ، وهؤلاء الطلاب هم الآن من أعمدة هيئة كبار العلماء .

فيذكر الشيخ ابن قعود أنه بالرغم من سعة علم شيخهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، فإن معظم استفادتهم وتكوينهم العلمي كان علىٰ يد الشيخ عبد الرزاق بسبب أن الشيخ محمد الأمين كان كثير الاستطراد فيخرج كثيراً عن موضوع الدرس إلىٰ أبحاث لغوية ، أو أصولية ، أو غيرها مما يقطع تسلسل المعلومات ، بخلاف الشيخ عبد الرزاق الذي كان يلخص لهم موضوع الدرس في نقاط مرتبة مسلسلة فلا ينتهي الدرس إلا وقد حفظه الطلاب أو كادوا ـ رحمة الله علىٰ الجميع ـ **ويذكر الشيخ ابن قعود حفظه الله** أيضاً أنه في بعض الأحيان كان

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

يتغيب بعض المدرسين فيدخل الشيخ عبد الرزاق ويسألهم ما درسكم اليوم : فيقولون : درس كذا في أي علم من العلوم ، فيشرحه الشيخ عبد الرزاق بدون إعداد شرحاً أفضل من شرح المدرس الأصلي .

وقد سمعت الشيخ عبد الرزاق رحمه الله وقد سأله سائل : بماذا تنصح لطلبة العلم والدعاة ؟ فأجاب قائلاً :

« الدعاة يدعون إلىٰ ما تعلموا ، ويبدؤون بالتدريج بالأهم فالأهم ، فالعقيدة قبل الفروع كما فعل الرسل وينتهز الفرص ، كذلك طلبة العلم كما يبدؤون غيرهم بالدعوة إلىٰ التوحيد ، ويبدؤون بتعلم التوحيد قبل الفروع . والرسل لم يتعرضوا للفروع في أول الأمر إلا الفروع الشديدة التي تتفشىٰ فيها المخالفة ، فشعيب عليه السلام حذر من نقصان الكيل ،ولوط عليه السلام حذر من الفاحشة ، وهذان الأمران يتصلان بالأخلاق والأخلاق قرينة التوحيد .

وفي الفروع يتدرج ، فالربا لم ينزل تشريعه إلا في آخر التشريع ،وشرب الخمر كان تركه صعباً فتأخرت الدعوة إلىٰ تحريمه .

وفي الدعوة للعقيدة تدرج فالرسول ﷺ لم ينه الصحابة عن الحلف بغير الله إلا مؤخراً إلا من باب الوسائل ، وفي هذه الحالة إذا رأىٰ منكراً لم يأت الوقت لبيان حكمه يسكت ولكن لا يدعو إلىٰ المنكر » أ . هـ .

وقد حدثني الشيخ عبد الرزاق رحمه الله أنه كان يخطب في مسجد أنصار السنة في مصر أيام الملك فاروق عن قصة موسىٰ عليه السلام ، ويحض من خلالها علىٰ اتباع داعية الحق ، ويلمح تلمحيات يفهمها الحاضرون ، وفي نفس الوقت لا يمكن أن تؤخذ عليه ، وقد ذكر جماعة من تلاميذ الشيخ مواقف رأوها منه تتجلىٰ فيها حكمته في الدعوة .

فمن ذلك : ما سبق نقله في الفصل الأول عن سيرته بمصر في المرحلة الرابعة

بالأسكندرية . ارجع إليها ففيها أمثلة عظيمة على حكمته في الدعوة والتعليم .

وإليك بعض ما كتب في ذلك :

يقول الدكتور ـ محمد لطفي الصباغ :

وقد حدثني رحمه الله أنه أراد أن يحذر إخوانه في مصر من دجل الدجالين من القصاص والوعاظ الذين يأتون في دروسهم بالأقاصيص الممتعة التي تشد السامعين ، وتمتعهم وتستحوذ على إعجابهم ولا أصل لها ، والعامة هذا شأنهم في أغلب البلاد ، فألقى عليهم درساً ملأه بمثل تلك الأقاصيص الغريبة فأعجبوا بالدرس واستمتعوا فلما رأى ذلك بادياً على وجوههم سألهم : ما رأيكم ؟ أهذا الدرس أحسن أم الدروس السابقة ؟ قالوا : بل هذا . إنه درس جميل ممتع . فقال لهم : هذا غير صحيح . وما كنا عليه في دروسنا السابقة هو الصواب .

فأفهمهم بهذه الطريقة العملية أنه ليس عاجزاً عن أن يأتي في دروسه بما يستحوذ على إعجابهم ،ولكن الحق هو الذي ينبغي أن يكون رائد الموجه والعالم .

إن العالم ينبغي أن يكون مربياً مرشداً يقول الحق ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، لا يداري ولا يتكلف التأويل ليسوغ للناس ما يحبون من الخرافات والأباطيل .

وقد ابتلى المسلمون من زمن بعيد بالقصاص الذين يملؤون مواعظهم بالأحاديث الموضوعة والواهية ، ويأتون بالقصص الغريبة ولو كانت باطلة ليجعلوا الناس يقبلون عليهم فكان الشيخ رحمه الله يحذر الناس من الوقوع في أحابيلهم .

وكان حكيماً في تصرفاته يفرض احترامه على الآخرين مهما كان رأيهم فيه ، فما كان يقدم على تصرف يُعرضه إلى الحرج أو الانتقاد .

وكان بعيداً عن المراء والجدل الذي لا طائل من ورائه ، ولا يخوض في الموضوعات التي لها حساسية ويتركها للآخرين .

وكانت له آراء خاصة في بعض المسائل العلمية لا يذكرها إلاَّ للخاصة من أصحابه ، ولا يسؤوه أن يكون هناك من يخالفه فيها ، وإذا ذكرت الآراء المخالفة له أمامه لا ينفعل ولا يتشنج لأنها تخالفه بل يقول : لكل رأيه ، وهذا خلق عظيم ما أحوج العلماء إليه .

لماذا نمنع أن يكون للعالم المؤهل للاجتهاد والنظر آراء تخالفنا ؟ إن الحق ليس مقصوراً على مذهب معين ، ولا يحتكره ناس معينون ، وقد يدرك المتأخر أمراً لم ينتبه إليه المتقدم .

ويقول الشيخ يوسف المطلق :

وكان يحذر من البدع ودعوته دائماً ترىٰ فيها الحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا رأىٰ أحداً متلبساً بمنكر في لباسه أو هيئته قام بنصح عام بالتلميح ، وضرب المثل حتىٰ لا يدرك الحاضرون أنه يعني شخصاً بعينه ، بينما المقصود بالنصيحة يدركها ويخرج شاكراً مستيفداً .

وعُرف الشيخ بالحياء والصمت إلا في حقه وكان طلابه يهابونه حياء ويقدرونه في أنفسهم .

ويقول الشيخ صفوت نور الدين ـ رئيس جماعة أنصار السنة بمصر ـ :

ولقد كان الشيخ ـ برحمه الله ـ مثالاً يحتذىٰ في الفتاوىٰ دقة والتزاماً ، فقد جالسته سائلاً مستفتياً كثيراً في مواسم الحج لأعوام متعددة ، فكان يختار من الألفاظ المعبرة ، ثم يبين التغير في المعنىٰ إذا اختير غير هذا اللفظ ، ولقد كان بالغ العناية باحترام أقوال إخوانه العلماء ، فإذا صدرت الفتوىٰ في مسألة ، وله رأي مخالف ، وسأله أحد عن هذه الفتوىٰ أفتىٰ بقول جماعة العلماء ، ولو لم يكن

هو رأيه ، بل وجدته يحبس رأيه عن المستفتين إذا وجد أن هذا الرأىٰ قد يحدث بينهم شقاقاً ،ولا يبرزه إلا لطلبة العلم الذين يعرفون الأدب عند الاختلاف وتوقير العلماء ، وذلك هو شأن السلف الصالح ، كقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « **حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله** »(١) .

ويقول أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري :

وكان رحمه الله منصفاً في جدله العلمي يفرق بين صحة الدعوىٰ ذاتها أو فسادها وبين صحة أو فساد البرهان المستدل به علىٰ الدعوىٰ ، ويرىٰ أن فساد حجة ما لا يعني فساد المدعىٰ ،ولهذا تراه يناقشك في أدلتك أو اعتراضاتك ، ثم يهلهلها مع أنه يوافقك في المدعىٰ .

وتكوينه العلمي يعلِّم طلابه الحرية الفكرية . ولهذا فهو يرىٰ النقاش في الدرس والأطروحات وسيلة للاستقلال الفكري بأن يكون الطالب قادراً علىٰ الاحتجاج والاعتراض . . أما صحة المذهب في ذاته فأمر مردود لاجتهاد طالب العلم خارج أسوار المعهد وفق ما لديه من حصيلة علمية وفطرية فكرية ونزاهة خلقية .

ويقول الشيخ يوسف الأطرم :

أما منهجيته فتمتاز بوضوح الكلام وقلته وتكييف المادة بحيث تصل إلىٰ الأذهان من أول وهلة ، بديع في تفكيك عبارة المؤلفين باختلاف المواد وإذا استغربنا ما سمعناه من المعاني التي لا ندركها بمجرد قراءة الكتاب وسألناه من أين هذا ؟ قال : هذا من كتابكم لم آت بغريب .

وكانت دراسته في الفقه لىٰ مذهب مالك ويدرسنا في المقنع علىٰ مذهب أحمد بكل سهولة ، وكان للخلاف في الفقه عندنا روعة واستعظام حتىٰ سألناه

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً .

من أين تأتي بهذا الكلام ؟ فقال : ما قرأت غير كتابكم الذي بين أيديكم وهو المقنع . ثم أخذ يشرح لنا فقال : التدريس فهم الكتاب ، وأهدافه ، ومنهجيته ، وأصول مذهبه . وضرب لنا مثلاً في القصاص من السكران عند قول المؤلف : «وفي القصاص من السكران روايتان إذا تعمد السكر ، فعند من قال فيه القصاص لاحظ أنه تعمد إزالة عقله ، ومن قال : إنه ليس فيه قصاص ؛ الحقه بمن زال عقله بعذر ومن هنا نشأ الخلاف » ، ثم قال رحمه الله : هكذا كل خلاف يكون له مأخذان من الأدلة ، والتنفيذ يكون حسب ما مشت عليه دارسة الفقيه في البلد من المذاهب الفقهية .

الفصل السابع

إدراك الشيخ لواقعه

وما فيه من مذاهب واتجاهات

لقد كان الشيخ رحمه الله مدركاً لما يموج به عصره من آراء واتجاهات بما يمكنه من الحكم الدقيق عليها ، وله أسوة في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي كان يعرف من تفاصيل مذاهب خصومه من فلاسفة ، ومتصوفة ، ورافضة وغيرهم أكثر مما يعرفونه هم عن مذاهبهم كما يتضح هذا بجلاء لمن قرأ في كتبه .

فمن ذلك أني سألته عن رأيه في جماعة الإخوان المسلمين ورأيه في اتهام بعض قادتهم بأنهم كانوا من الماسونية فأجاب :

التشكيك في شخصية البنا والهضيبي غلط ، فهذا ظن سوء ليس له أساس فهما ضد الماسونية ، والعيب الموجود في الإخوان أنهم لا يمسون تفاصيل الدين ، فكل حديثهم عن جمال الإسلام وسماحته ، وهدفهم تجميع الناس على الإسلام لا على الماسونية ، ولا يتصور أنهم يمهدون لتوجيه الحركة الإسلامية لأن حسن البنا رحمه الله مات فهل كان يهدف إلى التوجيه بعد مماته ؟ والإخوان هم الذين حاربوا اليهود تطوعاً .

وسألته أيضاً عن رأيه في منهج الدكتور عمر عبد الرحمن فأجاب :

منهجه ليس بسليم من ناحية الجرأة أكبر من القوة التي أعدها ، وضررهم أكبر من نفعهم ، وقد ذكر الله قاعدة ﴿ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [1] فعليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان ، ولا يجوز لهم تغيير منكرات يترتب عليها منكر أشد ، الرسول ﷺ لِمَ لَمْ يقم الجهاد في مكة وأخره حتى ذهب إلى المدينة ؟

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩ .

لماذا عاهد جماعة من الأنصار في مكة على أن يحموه ، وهاجر إليهم بناءً على هذا العهد ؟ هذا كله تمهيد لكسب القوة في التطبيق ، وهاجر ليمنع الإثارة حوله، وليهدأ الجو حتى تتاح الفرصة للجهاد بالسيف ، فنظام الإسلام أن الدعوة بالتدريج ، والحالة في مصر الآن أردى من العهد المكي فالتبرج والسفور بالصورة الحالية في مصر ، لم يكن في مكة قبل الهجرة ، وكانت دعوة الرسول ﷺ في مكة باللسان لم يستعمل يده حتى خرج من مكة فالدعوة الآن في مصر يجب أن تكون باللسان .

١ ـ يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

لقد كان الشيخ رحمه الله يعيش عصره ، ويدرك بعمق شراسة الغزو الفكري والاستعماري للمسلمين ، ويعرف التيارات الفكرية ،والسياسية التي تسود العالم وتغزو بلاد المسلمين يعرفها تمام المعرفة ، وهذه صفة لم تكن موجودة في كثير من علماء عصره .

وكان بعيد النظر ، عميق الفكر ، له جولات نقدية موجزة يدركها الواعي من جلسائه ، ولا يُذكر في مجلسه أحدٌ بسوء .

وكانت معرفته بالرجال المعاصرين من الأعلام معرفة دقيقة ، وكان حكمه عليهم حكماً سديداً . يعرف أوضاعهم الاجتماعية وعادات بيئاتهم ومدى تأثرهم بذلك كله .

٢ ـ ويقول الدكتور حبيب بن مصطفى زين العابدين ـ وكيل وزارة الأشغال العامة بالمملكة ـ

أكتب اليوم عن بعض جوانب حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفي التي عرفتها كتلميذ له ، واكتشفتها من خلال لقاءات علمية عديدة جمعتني به ، لقد كان ـ يرحمه الله ـ رحب الصدر ، عميق الفكر ، واسع المدارك ، عالماً بعصره وما يدور

فيه ، ولهذا كانت فتاواه وإجاباته عن أسئلة تلامذته أقرب للواقع والعصر الذي نعيشه ، وكان يستشيره عدد من كبار علمائنا الأفاضل ويأخذون برأيه في المسائل المختلفة وخاصة تلك التي تمس التجارب والخبرات ، والمسائل التي تتعلق بما ظهر في عصرنا ، وعالمنا من أمور حديثه .

وفي جلسة حوار دارت حول تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي بينه وبين عدد من خبراء الاقتصاد الذين ينشدون السعي لتطوير النظام الاقتصادي الإسلامي ، سئل الشيخ عبد الرزاق عفيفي عن إمكانات عديدة تسمح بالتدرج في تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي وعدم التشديد والتضييق أول الأمر .

فأجاب ـ يرحمه الله ـ بقوله : يجب ألا نكتفي بالأسئلة النظرية التي ليس لها أي مردود علمي . وأردف قائلاً : لقد درسنا كثيراً من الأمور النظرية ، بل قدمنا فيها الفتوىٰ المناسبة بهدف أن نجد التطبيق العلمي لها ، وإذا بها تتعثر لعدم وجود الدعم الكافي لها ، أو أن الكثير تخطاها بفتاوىٰ تجاوزت الحدود الإسلامية المقبولة .



الفصل الثامن

عبـادتـه

يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

وكان يحج كل عام منذ أن هاجر إلى المملكة . ويدرس في الحرم ويفتي الناس في شؤون دينهم ولا سيما في أمر المناسك . وله اقتراحات نافعة أُخذ ببعضها بالنسبة إلى الضحايا والهدي . وقد حججت معه مرات ، وأشهد أنه كان في المواقف ولا سيما في عرفات كثير التضرع ، يدعو ربه ويجتهد في الدعاء والدموع تنهمر على لحيته يسأل الله المغفرة والرضوان وإصلاح أحوال المسلمين ويطيل في ذلك . وقد حجَّ في هذا الموسم الأخير على الرغم من ضعفه بسبب الشيخوخة وإصابته ببعض الأمراض .

ويقول الشيخ يوسف المطلق :

وبلغني من عبادته أنه كان أشد الناس محافظة على السنة والعمل بها .

قلت : ومن ذلك محافظته رحمه الله على صلاة الجماعة في المسجد حتى وهو في أصعب الظروف الصحية ، وقد رأيته رحمه الله وهو يذهب إلى المسجد متكئاً على العصا والجدار تارة ، ومتكئاً على كتف ابنه تارة ، ثم رأيته وهو يذهب إلى المسجد مدفوعاً على العربة بعد أن عجز عن المشي في آخر عمره ، وكان رحمه الله مبكراً إلى المسجد محافظاً على السنن القبلية والبعدية .

وقد كان رحمه الله محافظاً على الهدي النبوي الظاهر من إعفاء لحيته البيضاء الكثَّة وتقصير ثوبه فوق الكعبين .

وكان من عاداته رحمه الله التداوي بالحبة السوداء لما ثبت فيها من الحديث .

الفصل التاسع

كرمه وجوده

من مكارم الأخلاق التي كان يتحلى بها الشيخ رحمه الله خلق الكرم والجود متمثلاً قوله ﷺ : « **إن الله كريم يحب الكرماء جواد يحب الجَوْدة** »[١] .

وقد شهد له بذلك كل من عرفه .

١ ـ فمن مظاهر كرمه أثناء إقامته بمدينة شبين الكوم ما ذكره الشيخ مناع خليل القطان حيث يقول :

استأجر بيتاً لسكناه (وهو عزب) فأسكن معه طلاب بلدته « شنشور ـ منوفية» .

ثم تزوج وسكن في بيت مستقل ، ولكنه كان يدعو طلابه إلى بيته . ويرعاهم كما يرعى الأب أبناءه .

٢ ـ ويقول الدكتور محمد لطفي الصباغ :

كان مما يمتاز به سعة صدره ، وبعد نظره ، وزهده في الدنيا ومتاعها ، وحبه الخير للناس جميعاً ، وبذله جاهه في مساعدة الآخرين .

وكان كريماً كرماً أصلياً لا يتكلف يريد المباهاة والمفاخرة ، بل يقدم ما تيسر وما كان أعده لنفسه ، وكان بذلك قادراً على أن يقيم في كل يوم وليمة ، وكان إذا علم بمجيء عالم يعرفه دعاه إلى الطعام ، وقد حضرت كثيراً من هذه الولائم ، وبيته مفتوح كل ليلة للزائرين ، وطلاب العلم ، والمستفتين ، و الذين يبغون الشفاعة في أمر من أمورهم .

---

(١) حديث صحيح رواه الحاكم (١/ ٤٨) وصححه .

٣ ـ ويقول الشيخ عبد الله بن جبرين :

كما أنه يكرم من زاره ويقدم ما حضر بدون تكلف ، ويجود بما يقدر عليه دون أن يمن بما أعطاه ، أو يرد من سأله وهكذا دأبه مع العلماء ، وطلبة العلم، والأصحاب والزملاء الأقدمين فهو جواد كريم بما اعتاده ، ومجيب لمن دعاه بدون تكلف أو تشدد .

٤ ـ ومن مظاهر كرمه العظيمة أثناء تدريسه بالمعهد العالي للقضاء ما ذكره الشيخ أبوعبد الرحمن بن عقيل الظاهري حيث يقول :

ومع أنه اكتفي برويتبه وبقي في فُلَيْلَة بحارة شعبية لا تليق بأصغر تلامذته ، فإنه لم يدخر من هذا الرويتب شيئاً ، فقد كان يوزعه على أسر فقيرة في مصر ، وكان له صدقات في رمضان سخية على بعض المستحقين بالمملكة . وعندما كنت بالمعهد العالي للقضاء كان هناك مكافآت للطلاب المغتربين تتأخر عليهم فكان يقرضهم ، وكان يتنازل عن حقه لدى هذا ويأخذ بعض حقه من ذلك .

٥ ـ ومن أبرز مظاهر جوده

أنه كان يمتلك داراً بمكة المكرمة فوقفها على دار الحديث الخيرية لتكون له صدقة جارية وفي هذا يقول منسوبو دار الحديث الخيرية في كلمتهم التي نشرت بصحيفة الندوة عدد ١٠٨٨٣ بتاريخ ١٣/ ٤/ ١٤١٥ هـ :

ولقد كان رحمه الله حدباً على دار الحديث الخيرية ومنسوبيها ، عطوفاً عليهم ، قوي الصلة بهم ، ولا أدل على ذلك من أنه أوقف داره بمكة المكرمة على هذه الدار ، مما يترجم عن عظيم حبه وتقديره لهذه الدار المباركة .

الفصل العاشر

تواضعـــــه

ومن مكارم أخلاقه التواضع عملاً بقوله ﷺ : « **من تواضع لله رفعه** »[١] .

وقوله ﷺ : «**يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم**»[٢] .

١ ـ يقول الشيخ عبد الله بن حافظ الحكمي :

وكان ـ رحمه الله ـ في أخلاقه محل القدوة والأسوة ، شديد التواضع تغلب عليه البساطة في مجلسه إذا ارتاح لمحدثه استرسل في ذكر بعض الأحداث والمواقف ونزل معه علىٰ قدره صغيراً كان في سنه أو منزلته ، ولذا كان ـ رحمه الله ـ محبوباً من كل من يعرفه ممن عمل معه أو تتلمذ عليه ، محل الإجلال من الجميع والتقدير .

٢ ـ ويقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

وعلىٰ الرغم من تلمذتي عليه ما كان يعاملني إلا علىٰ أني زميل له تواضعاً منه وكرماً ، أحسن الله إليه وجزاه عنا الخير .

وكان يعرف للناس أقدراهم ولا سيما إن كانوا غرباء ، وكان متواضعاً يكرم الصبيان والفتيان ، ولا يدعوهم إلاّ بألقاب التكريم ، ويتودد إليهم . وقد رأيته يوم أن جاء الشيخ حسن حنبكة أحد كبار علماء بلاد الشام لزيارة مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم رأيته في قمة التواضع ، إذ كان يؤثر الكثير علىٰ الجلوس

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ [وما تواضع أحد لله إلا رفعه » رقم (٢٥٨٨) وأحمد في المسند (٢/ ٣٨٦) والترمذي (٢٠٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩) عن عبد الله بن عمرو ، والترمذي في السنن (٤/ ٥٦٥) رقم (٢٤٩٢) وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠) .

في المقاعد المتقدمة مع أنه أجدر منهم بهذا التقديم .

٣ ـ ويقول الشيخ مناع القطان :

أضفىٰ عليه تواضعه حلة من زيادة التقدير والاحترام لدىٰ كل من عرفه .

الفصل الحادي عشر

حلمه وسعة صدره

ومن مكارم أخلاقه الحلم وسعة الصدر والحلم خلق يحبه الله تعالى كما جاء في قوله ﷺ (لأشج عبد القيس) : « **إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة** »[(١)] .

١ - يقول الشيخ عبد الله بن جبرين :

أما أخلاقه فقد عرف منه لين الجانب ، وطلاقة الوجه ، وحسن الملاطفة فهو أمام الزوار ، والتلاميذ ، والزملاء دائماً يُظهر الفرح والسرور ، والانبساط في الكلام والإجابة على الأسئلة بدون غضب أو ملل أو تبرم أو رد شديد للسائل . فجليسه يلقى منه كل المؤانسة والتبسم بحيث لا يمل جليسه ولا يزال يتلقى عنه أنواعاً من الفوائد واللطائف وغرائب المسائل .

٢- ويقول الدكتور محمد لطفي الصباغ :

وكان يتصف بسعة الصدر وحسن المناقشة والحلم وإلانة القول لمن يسأله ويناقشه ، **فقد ذكر لي الشيخ ناصر الدين الألباني أنه في أول** قدمة جاء فيها المملكة من بضع وأربعين سنة قابل عدداً من المشايخ وذاكرهم في مسألة قررها شيخ الإسلام ابن تيمية وهي مُشْكَلة في نظره ، وقد أنكرها ، فاشتدوا عليه إلا واحداً وكان هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي الذي تلطف به وناقشه في الموضوع ، وكان الشيخ الألباني يذكر هذه القصة مشيداً بالصفات الكريمة التي تميز بها الشيخ رحمه الله .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧ ، ١٨) وأبو داود رقم (٥٢٢٥) وأحمد (٣/ ٢٣) ، والنسائي (٨/٣٠٦) .

٣ ـ ويقول الشيخ يوسف المطلق :

وكان يخصص وقته بين إجابة السائل شخصياً ، أو تحريراً ، وما كان يسأم من السائلين بل كان يبذل جهداً حتىٰ يفهم سائله .

٤ ـ ويقول الدكتور حبيب مصطفى زين العابدين ـ وكيل وزارة الأشغال ـ :

وذهبت مرة أستفتي أحد كبار العلماء الأفاضل في مسألة خاصة ، واستدعت الفتوىٰ أن أراجع هذا العالم الفاضل واستوضح بعض جوانب فتواه ، ولم يزد ذلك علىٰ سؤالين أو ثلاثة ، وبُهِتُّ عندما هب هذا العالم واقفاً وأقفل الحديث وخرج من المجلس ، ذهبت بعدها مباشرة إلىٰ الشيخ عبد الرزاق عفيفي وهو مريض علىٰ فراشه في غرفة نومه فأحسن استقبالي وأحضر لي الشاي وحاورته في مسألتي حتىٰ اتضحت لي الأمور، وغادرت بيته معجباً بعلمه ورحابة صدره وصبره ، وتمثلت فيه العالم القدوة ، ودعوت الله له دعوات حارة صادرة من أعماق قلبي . . ويكفي الشيخ فضلاً أن يذكر عنه وزير الأوقاف والشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد بالمملكة ، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً أنه ما من طالب درس بالجامعة ، أو أستاذ عمل بها إلا ويعد من تلامذة الشيخ .

الفصل الثاني عشر

رحمته بطلابه ونصحه لهم

كان الشيخ رحمه الله رحيماً بطلابه مشفقاً عليهم يسعىٰ في مصالحهم ويريد الخير لهم عملاً بقوله ﷺ : « **الراحمون يرحمهم الله . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** »[1].

وطالب العلم هو وصية رسول الله ﷺ فلذا صار دأب العلماء المخلصين العاملين الاحتفاء بطلابهم والحرص علىٰ إفادتهم وتعليمهم مستحضرين قوله تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾[2].

١ ـ يقول الشيخ مناع القطان :

كان يزن طلابه بميزان دقيق في الجوانب المتعددة ، ولا يخفي حبه لمن يتوسم فيهم الخير . فيعاملهم ـ وهم بمنزلة أبنائه ـ معاملة الأخ الأكبر لإخوانه الصغار .

٢ ـ ويقول الشيخ صالح السدلان :

ولا تكاد تجلس معه قليلاً من الوقت إلا وتخرج بفائدة علمية ، أو أدبية ، أو خلقية . . وأعرفه لا يحب الكلام في أحد كما تميز رحمه الله بوضوح العبارة ، ولم أر مدرساً مثله في إيصال المعلومات وقلة الحشو . .

ولم يكن يدرس مادة إلا وأكملها وكان رحمه الله من المفيدين في التدريس وغير المخوفين في الامتحانات . .

وكان ينصف الطلاب علىٰ مستوىٰ الدرجات العلمية ومن شدة دقته في

---

(١) أخرجه أبو داود (٥/ ٢٣١) ، رقم (٤٩٤١) والترمذي (٤/ ٢٨٥) رقم (١٩٢٣ ، ١٩٢٤) .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٩٤ .

التصحيح لم يكن يساوي بين طالبين بدرجة واحدة ، وكان يتميز بالثقة وقوة الإرادة .

٣ ـ ويقول الشيخ صالح الأطرم :

وقد اشتهر الشيخ عبد الرزاق بحبه للنفع وبذله للنصح ، فهو المستشار الناصح لكل من استشاره من مسؤول أو من سائر الأفراد ، وكان ثاقب النظر عارفاً بطلابه واتجاهاتهم ، من يصلح للقضاء أو للتدريس في حقول التعليم أو في الوظائف الإدراية ، وكان حريصاً على تأهيل من يتولون المسؤوليات من قضاء وتدريس وأعمال إدارية .

ومما استحضره من نصحه لما اقترح من اقترح اختبار نصف العام جاءت مشكلة المكفوفين فحل المشكلة بأن يختبروا شفوياً فكأن المكفوفين لم يرغبوا ، فما زاد على كلمة واحدة وهي قوله : إنه أرفق بكم ؛ فليس كل واحد سيجد كاتباً وبعد خروج النتيجة حصل الرضا فأدرك المكفوفين نصح الشيخ .

ومن نصحه لي شخصياً لما درست السنة الأولى في المعهد العالي للقضاء لم أدخل الاختبار فغلظ علي اللوم فاعتذرت بعدم المذاكرة ، فقال لي : ادخل الاختبار وأجب بما عندك ، فلم أفعل ، ولما بدأت الدراسة في العام الثاني بالمعهد العالي للقضاء أعاد علي النصح بمواصلة الدراسة فأبديت الرغبة واستشرت الشيخ عبد الرزاق عمن أذاكر معه ، وذكرت له شخصاً ، فقال :اعزم على مواصلة الدراسة ، وأنا أعرف من يناسبك وتناسبه في المذاكرة ، فحقق ما قال غفر الله له وجزاه الله عني والإسلام والمسلمين خيراً ، وكان نصحه مع كل واحد ولكني ذكرت نموذجاً مما يتصل بي .

٤ ـ ويقول الشيخ حسن محمد إسماعيل أحد تلامذه في المعهد الأزهري بالأسكندرية ١٣٦١ هـ .

وأمسكت بالقلم للكتابة وفكرت من أين أبدأ ، ورأيت أن من الواجب أن

أكتب من أول يوم تقابلت فيه مع الشيخ عندما ذهبت إلىٰ المعهد لتقديم أوراقي وإذا بفضيلة الشيخ يقدم لنا أسئلة شفوية لاختبار قدراتنا فأثنىٰ علىٰ بعضنا ، وقال للمسؤل خذ منهم فوراً ولا داعي لأن يعودوا غداً لأن الوقت كان قد انتهىٰ ، فشكرنا له حسن صنيعه وكيف أنه عاملنا هذه المعاملة الطيبة .

٥ ـ ويقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري حاكياً بعض ذكرياته عندما كان طالباً بالمعهد العالي للقضاء ، والذي كان الشيخ عبد الرزاق مديراً له ، ومدرساً به :

وقد زاملت في المعهد من هو في دور مشايخي ، وما دام التغابن في العلم من باب التنافس المحمود فما غبنني إلا جبهات وكتل من العقل البشري جاءت إلىٰ المعهد بعدي رتخرجت قبلي بسنين ، ومنهم من كان أول ممتازاً منذ بدأ إلىٰ انتهىٰ مثل أصحاب المعالي الدكاترة : عبد الله التركي ، وحمود الفايز ، وعبد العزيز الربيعة .

جئت إلىٰ المعهد وكان الشيخ عبد الرزاق يكن لي ذكريات حب ـ وإعجاب كما يفرح الأب بابنه النجيب ، إلا أنه وجدني علىٰ غير عهده ، إذ وجد شيئاً من الأناقة في الملبس والمظهر مع توسع الأدباء والظرفاء فلم يغسل يده مني لأنه يحس عندي عناصر من التأصيل الشرعي ، ولم يفرح بي كما يفرح بنجباء تلامذته الذين لا يزالون علىٰ سمتهم .

وقد فضحتني الصحافة أو فضحت نفسي بها بشيء من الترطيب الفني حيث إنني لم أبال بمشايخي في مقدمتي لكتيبي نظرات لاهية ، وكان إذا رآني وأحس بأن الساحة خلية من سامع رمىٰ كليمة من مثل قوله : « يا أبا عبد الرحمن لا تسقط الزنبيل » .

كأنه يريد أننا نريد رفعتك ، وأنت تأبىٰ إلا أن تتدلىٰ .

وعندما كنت طالباً في المعهد كنت أحمل شيئاً من الصلف الأبي والصحفي أمام جهابذة العلم ، وأحضر فصول الدراسة للاعتداد بنفسي أكثر من الاستفادة من مشايخي .

وقد نغصت على مشايخ لي من أمثال البجيري ، والدسوقي إلا أن الشيخ عبد الرزاق لم يترك مجالاً لفضولي مثلي لأنه يأسرني فكراً ، ووجداناً ، ولغةً إذا تحدث فأصغى للدرس وأستفيد على الرغم مني . ومن سخافاتي أنني أحضر للآية التي سيفسرها من أكثر من تفسير لأستدرك عليه شيئاً فاته فإذا شرع بدرسه تبخر كل شيء في جعبتي ، لأنه يتناول الموضوع تناول الخاصة من العلماء الذين جمعوا بين الحفظ والذكر فكانت مادته دسمة ، وكان قديراً على التوصيل لأنه كان جذاباً ومغرياً ، وما سمعت منه قط كلمة مؤذية ولكنه كان يفرض هيبته . وكان احترام الطلاب له تلقائياً وبشكل عجيب .

وانتهيت من المعهد بدرجة مقبول ، وكانت هذه الدرجة إنقاذاً منه لي وقد صرح أمام لجنة المناقشة أن انتشالي تقديراً لي وليس لبحثي إذن لم أنل من الشيخ عبد الرزاق شهادة علمية ، وإنما فزت منه بمنهج تربوي تعليمي كريم ، فعندما تأزمت لشيخي البجيري رحمه الله ، وتولى الإشراف على فترة قليلة ريثما أعادني إلى مشرفي الأول تخلقت منه بخلق علمي ، فكنت ألخص أقوال بعض العلماء بفهمي وأسلوبي فيطالبني بالتنصيص ثم يستعيد النص مني مراراً حتى يبين لي أن ما فهمته ولخصته كان فهماً خاطئاً .

وأحياناً أنقل نقلاً عن عالم ثم أحيل إلى أقوال آخرين ظاناً أن كلامهم كان واحداً فيطالبني بالتنصيص ثم يظهر لي فروقاً دقيقة يتضح بها أن كلامهم مختلف وليس واحداً . أ . هـ .

الفصل الثالث عشر

زهــده وورعــه

١ ـ يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

وكان الشيخ عبد الرزاق رحمه الله متواضعاً زاهداً في متاع الدنيا ومناصبها ، لا يغشىٰ منازل الوجهاء والأغنياء إلا إن دعي ، وكان يتعفف إن حضر ولا يقول إلا ما يرضي ضميره ، ولعل زهده هذا هو السبب في عزوفه عن إلقاء المحاضرات وحضورها .

وكان يبذل جاهه في خدمة الناس الصالحين ومعونتهم ، وكان لا يردُّ صاحب حاجةٍ يستطيع أن يقضيها له .

٢ ـ ويقول الشيخ عبد الله بن حافظ الحكمي :

كان شديد الزهد في أعراض الدنيا يلبس الخشن من الثياب في آخر حياته ويرتاح لذلك ويعلله بأنه يناسب بدنه صحياً .

٣ـ ويقول الشيخ يوسف المطلق :

ولقد كان مثالاً للإخلاص والقدوة الحسنة في زهده وورعه .

٤ ـ ويقول الشيخ مناع القطان :

وقد عاش الفقيد متقشفاً زاهداً بعيداً عن المظاهر العامة بمنأىٰ عن أضواء وسائل الإعلام .

٥ ـ ويقول الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي :

إن فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي يتصف بصفات يندر أن تجتمع في شخص : غزارة العلم ، ورجاحة العقل ، و الزهد في الدنيا ومظاهرها ، وحب

الخير للآخرين ، وبذل جاهه وماله في ذلك .

٦ ـ ويقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري :

والبرهان على أنه ليس طالب مجد دنيوي أنه ما التمس سبيلاً لازدياد كسب مادي غير رُوَيْتب تلقاء عمله الوظيفي الذي كّرس له كل وقته وما أكثر الكسب المادي لو أرادها .

وبعُدَ عن الإعلام والإعلامين بعدا لا هوادة فيه ، وما عُرفت من الشيخ عبد الرزاق حياة قط غير حياته بين طلابه في الصف ، أو بين مريديه في بيته يقرأون عليه ويسألونه ، أو في صميم عمله الوظيفي لدى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم يذاكره في العلم ويستفتيه في واقع الطلبة الذين يرشحون للقضاء والمناصب القيادية . وكان رحمه الله عمدة في ترشيح الخريجين وتزكيتهم .

ولما أحيل للتقاعد مرت سنون لم يراجع لاستلام استحقاقه ، لأنه وقلة من المشايخ خارج المملكة يتورعون عن التقاعد من دون أن يكتب فتوى في ذلك ، وإنما حمل نفسه على الأشد لأن كثيرين من السلف يتورعون عن بعض المباح وباب الزهد واسع عند الأسلاف .

الفصل الرابع عشر

صبـــره

١ ـ يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

وكان صابراً . . نزلت به كوارث شديدة فلم تضعضعه ولم تخرجه عن اتزانه وخلقه .

فقد أصيب في عام ١٣٧٦ هـ بشلل نصفي وعافاه الله منه ، وأصيب بعدد من الأمراض كان فيها نعم العبد الصابر ، وقتل ولده الكبير أحمد عاصم رحمه الله في حرب رمضان ١٩٧٣ م ، التي قامت بين اليهود ومصر ، فتلقىٰ الخبر صابراً محتسباً ، وكان في مجلسه يحمد الله ، ويحدث الحاضرين ، وإذا غلط أحد المعزّين في قول يجاوز به الحدَّ الشرعي أنكر عليه ذلك وردّه إلىٰ الحق .

ثم توفىٰ ولده الأصغر عبد الرحمن رحمه الله فكان كذلك في غاية الصبر والرضىٰ بقضاء الله وقدره .

ثم توفىٰ ابنه عبد الله في ٣٠/ ٦/ ١٤٠٣ هـ فجأة في جدة ، فكان أيضاً مثلاً في الصبر والاحتساب والتسليم .

وقد سافرت زوجته مرة إلىٰ مصر وعندما أرادت أن تعود إلىٰ الرياض إلىٰ زوجها وأولادها منعت من العودة مدة طويلة ، لمضايقة الشيخ وإيذائه ، فصبر وصابر حتىٰ أذن الله بالفرج وعادت إلىٰ بيتها .

٢ ـ ويقول الشيخ محمد سعد السعيد ـ إمام جامع سلطانة بالرياض :

وقد أصيب في عام ١٣٧٦ هـ بشلل نصفي وشفاه الله منه ، ثم أصيب مرة أخرىٰ بشلل نصفي عام ١٤١٣ هـ تقريباً وشفاه الله منه ، وقد أجرىٰ له قبل خمس سنوات تقريباً عملية في البروستات ، وعملية في العين بسبب انفصال في الشبكية

ومنذ فترة طويلة وهو مبتلىٰ بأمراض عدة كالتهاب المسالك البولية ، وتعطل إحدىٰ الكليتين ، وضعف الأخرىٰ ، والضغط ، والسكر ، ومع ذلك نراه صابراً محتسباً ، ولم يثنه ذلك عن طلب العلم ، وتعليمه ، والعناية به ، وإفادة الناس وتوجيههم وإرشادهم إلىٰ آخر أيام حياته .

٣ ـ ويقول الدكتور صالح بن سعود آل علي :

وقبل وفاته رحمه الله كان مبتلىٰ ، ابتلاه الله سبحانه بمصائب ولكنه كان الصابر المحتسب ، فإضافة إلىٰ الأمراض التي عرضت له في العقد الأخير من عمره أصيب بثلاثة من أبنائه ، وهم في ريعان الشباب : عبد الرحمن الذي كان يلازمه في شيخوخته كظله يخدمه ويساعده إذ به يفاجأ بوفاته بسبب انفجار أسطوانة غاز . وعبد الله بسكتة قلبية ، ومن قبلهما أحمد أكبر أبنائه الذي جاءه نعيه قتيلاً في حرب الدبابات مع إسرائيل في سيناء عام ١٩٧٣م .

ومما يلفت النظر في جلد هذا الشيخ وصبره أنه لما جاء خبر وفاة ابنه أحمد وهو مدير ومحاضر في المعهد العالي للقضاء لم يتوقف عن برنامجه اليومي ، فقد جاء إلىٰ طلابه في مرحلة الماجستير ـ وكنت واحداً منهم ـ وألقىٰ المحاضرة كالعهد به دون أثر أو تلعثم ، وكانت بعد العصر إلىٰ المغرب ، وكان الطلاب كعادتهم بعد أن ينتهي من المحاضرة يوجهون الأسئلة واحداً تلو الآخر ، وإذا به يجيب عنها دون أن يظهر عليه ما يلفت النظر . وبعد انتهاء المحاضرة خرج من القاعة ونحن وراءه ، وإذا بنا نحن الطلاب نفاجأ بطابور من الأساتذة وطلاب آخرين يقابلونه ويقبلونه معزين بوفاة ابنه . ولاتسأل عن ذهولنا نحن ليس من الوفاة ، ولكن لأن الشيخ لم يترك المحاضرة ، لا بل لأنه لم يخبرنا ، ولم يظهر عليه أي أثر للصدمة . فأقبلنا عليه مع غيرنا مواسين ومعزين فرحمه الله وغفر له .

الفصل الخامس عشر

مزاحـــــه

كان الشيخ رحمه الله يمزح ولا يقول إلا صدقاً كما كان هدي النبي ﷺ ، فكان يحب التعبير الطريف الصادق ، وكثيراً ما يروي بعض المواقف التي يتعجب لها مما مر به في عمره الطويل المبارك ، فمن ذلك أنه حدثني أن أحد زملائه المدرسين في المعهد كان كثير المزاح فجاء يوماً وقال لهم لقد جئت اليوم على سيارة فيها (ألف تيسٍ) فتعجبوا من ذلك إلى أن تبين أنه يقصد (الفتيس) وهو العصا التي تنقل الحركة من السرعة الأولى إلى الرابعة أو الخامسة بالسيارات .

وسئل الشيخ رحمه الله عن رجل رضع من امرأته بعد زواجه عدداً من الرضعات فقال لا تحرم عليه ،ولو تغذى على لبنها إلى أن يموت لأنه ليس في الحولين .

وسئل عن امرأة مسنة بقي من عدة وفاة زوجها خمسة أيام وتريد أن تخرج للحج فقال لا يجوز ولو كان عمرها عمرِ نوح عليه السلام .

يقول الدكتور حمد الجنيدل :

كما كانت له نكتة حلوة طريفة يعرفها كل من عاشره مع صراحة تامة ببراءة وطهر .

ويقول الشيخ عبد الله الحكمي :

وكان رحمه ـ الله ـ يقول في وصف تغير العصر وانقلاب المفاهيم « بعض الناس الآن كنبت البصل رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى » .

وسمعت منه في كلام في عدم الجهل بما يحل ويحرم وأن الإنسان يعرف ذلك غالباً من نفسه قال : « حتى الحيوان قد يدرك ذلك ألا ترى الهرة إذا ناولتها

قطعة اللحم أكلتها وهي بجوارك آمنة ، وإذا غافلتك وخطفتها من غير رضى منك هربت بها بعيداً عنك » .

ويقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

وكان ذا روح خفيفة قلما يخلو مجلسه من إلقاء نكتة مهذبة واقعية تنشط السامع وتسره ، وتؤدي غرضاً توجيهياً .

ويقول الشيخ صالح بن فوزان الفوزان :

وقد أعطاه الله القدرة على إيصال المعلومات إلى أذهان الطلاب بطريقة سهلة جذابة مع جدية حازمة ، وظرافة مليحة ، وحفظ للوقت ، وقد تأثر بهذه الطريقة كل من تتلمذ فصاروا يتميزون عن غيرهم من المدرسين .

الفصل السادس عشر

إعراضه عن اللغو

١ ـ يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

كانت حياته حافلة بالجد النافع من الأعمال ،فلم يكن يشغل الشيخ عن العلم والعبادة ولقاء الناس وتعليمهم شيء مما يشغل الآخرين ، فلم يكن الشيخ يسمع الإذاعة ولم يكن يرىٰ التلفاز ولم يكن يعنىٰ بقراءة الجرائد ، بل كان ينفق وقته كله في قراءة القرآن ومطالعة مسائل العلم . ونحسب أنه كان مما طال عمره وحسن عمله ولا نزكي علىٰ الله أحداً .

٢ ـ ويقول الشيخ عبد الله الحكمي :

وكان يكره الجدل والمراء وقل أن يسمح لمحدثه بالاستمرار في ذلك أو ينساق له .

٣ ـ ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

وكان يرحمه الله إذا نقد أحداً أو موقفاً أجمل في الكلام وقد يكتفي بإظهار عدم الرضا بنبرة أو كلمة مجملة أو إشارة ، وإذا أثنىٰ علىٰ شخص أو موقف فصل فيه وحدد وأبان ، وإذا تكلم استرسل في كلامه سواء كان في المحاضرة أو إلقاء الدروس أو كان في الحديث العام حتىٰ يستطيع السريع في الكتابة أن يكتب كل كلامه إذ أنه في الكلام كأنه يُملي .



الفصل السابع عشر

هيبته واحترام الناس له

١ ـ يقول الشيخ عبد الله العجلان :

وكان كثير الصمت يفرض احترامه على جليسه كثير التأمل شديد الملاحظة دقيق الفهم نافذ الفراسة ، ويلاحظ أن أسلوبه في الحديث والصمت مختلف باختلاف المجالس والحضور في كل جلسة ، وحسب الموضوعات التي يتبادلها الحضور بالبحث إلى أخبار وتحليلات وغيرها ، فهو ينطلق في الحديث في المسائل العلمية وفي تحليل بعض الظواهر الاجتماعية ، وهو يمسك عن الحديث إن كان الحديث في أمور الناس ، ودنياهم العامة والقضايا التي ليس له فيها دخل أو تأثير ، فكان مثالا في علمه وأدبه وأخلاقه وقدوة في تصرفاته ، ورعاً زاهداً متواضعاً يندر أن يوجد في الناس مثله .

٢ ـ ويقول الشيخ مناع القطان :

يهابُ الطلاب شخصيته ، وينصتون لسماع درسه ، ويحرصون على الاستفادة منه .



الفصل الثامن عشر

تلاميذه وأثره فيهم

يقول الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء :

إن شيخنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي - يرحمه الله - شخصية علمية فذة هو شيخ المدرسين ، وقدوة العلماء السلفيين في هذا الوقت ، فله الفضل بعد الله على كل متعلمي هذا الجيل ممن تخرجوا في الدراسات الشرعية في التفسير ، والحديث ، والعقيدة ، والأصول . فقد درَّس في كل مراحل التعليم الثانوي والعالي ، والتخصصي . وكانت طريقته في التدريس طريقة فذة نادرة ، سهلة جذابة مع جدية حازمة ، وظرافة مليحة ، وحفظ للوقت ، وقد تأثر بهذه الطريقة كل من تتلمذ عليه فصاروا يتميزون عن غيرهم من المدرسين ، ولقد أفنى عمره المبارك في التدريس ، و الإفتاء ، وعضوية هيئة كبار العلماء والدعوة إلى الله ، إذ لا يقتصر نشاطه على التدريس المنهجي ، بل كان يدرس في المسجد الحرام في أوقات المواسم وفي غيره من المساجد ويحضر دروسه الجم الغفير من الناس ، وكان يشارك بالقاء المحاضرات ، والندوات في مختلف الأماكن ، وكان يشرف على الرسائل العلمية في الماجستير ، والدكتوراه ، ويشارك في مناقشتها ، وهكذا كان كل وقته يصرفه في نشر العلم والإفادة - حتى في آخر أيامه وهو يعاني من المرض - كان يستقبل الزائرين ويجيب عن تساؤلاتهم ويرد على أسئلة المستفتين عن طريق الهاتف .

ويقول الشيخ عبد الله بن جبرين :

وقد تتلمذ عليه أكابر العلماء في هذه المملكة ، واعترفوا بفضل علمه ، وافتخروا بالانتماء إلى تعليمه في أغلب المراحل ، كما انتفع الكثير بالفوائد التي تلقوها عنه في دروسه في المسجد وغيره .

ويقول الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي :

ولا أبالغ إذا قلت : إن غالب منسوبي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من طلابه أو طلاب طلابه ، بل إن هذا الوصف ينطبق على غالب العلماء في المملكة سواء أكانوا في القضاء أم التدريس أم الإفتاء والدعوة .

ويقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري :

فكان في هذه المملكة أستاذ جيل بحق تتلمذ عليه أبناء ما بين السبعين إلى الثلاثين، ولا يزال تلامذته مربين للأجيال أهل منابر وحلقات وتدريس وتأليف .

ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إن معظم علماء المملكة اليوم هم إما من طلابه أو ممن استفادوا منه بوجه من وجوه الاستفادة وكلهم يحفظ له حقه ، وجهوده ، وتعتبر وفاته خسارة عظيمة إذ إنه من كبار حملة ميراث النبوة في هذه المملكة ومن دعاة الهدى وأئمة التوجيه الصائب .

ويقول الشيخ يوسف المطلق :

وإننا وطلابه الذين منهم الوزير ، والقاضي ، والداعية ، والأستاذ ، والإداري لا نقدر على مكافأته إلا بخالص الدعاء الصالح . فبارك الله في ذريته وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء والإحسان .

ويقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

صحبته ما يزيد عن اثنين وثلاثين عاماً ، ما تركتُ مجلسه في أسبوع إلا أن يكون أحدنا مسافراً ، وقلما كانت سفراتنا تطول . وقد جاورته سنين عديدة فكان نعم الأستاذ والجار . لقد تعلمت منه في هذه الصحبة أموراً كثيرة ، منها ما يتعلق بالناحية العلمية ، ومنها ما يتعلق بالناحية السلوكية ، ومنها ما يتعلق

بالناحية الشخصية . . . لقد كنت ألجأ إليه في كلِّ أمرٍ من هذه الأمور ، وكان يمدُّني بالرأي السديد ، والتوجيه القويم . لقد أكرمه الله بالعقل المسدَّد ، والعلم الواسع، والرأي المحكم .

ويقول الشيخ صالح بن سعود آل علي :

وقد شرفت بأن أكون أحد تلاميذه في كلية الشريعة ، ثم في المعهد العالي للقضاء ، وخبرته من قرب ، ورأيت فيه ما كنت أقرأ عن علماء السلف من العلم الجم والفقه في الدين والتحلي بمبادئ هذا الدين من تواضع ، وتقى ، وزهد ، وورع ، وصبر وحب لهذه الأمة ، وحرص على أن تظل كما هو مؤمل منها منارة هدى ومصدر إشعاع وموئل عز الإسلام والمسلمين .

ويقول الشيخ صفوت نور الدين :

ولقد كان الشيخ - يرحمه الله تعالى - وفي كبر سنه ، منظماً في علمه محافظاً على وقته بين الدروس والتدريس ، ومراجعة الرسائل العلمية ، وإعداد الأبحاث ، وتسطير الفتاوى ، لا تراه أبداً إلا في عمل مثمر نافع ، ولقد نفع الله بجهده فصار تلامذته من كبار العلماء والمعايشين له من الفقهاء ، فلقد كان الشيخ محمد علي عبد الرحيم - يرحمه الله - وهو أسن منه يراه شيخاً له وأستاذاً معلما .

ويقول الشيخ زهير الشاويش :

كان من تلامذته الدكتور عبد العزيز كامل ، والأستاذ عبد الرحمن الباني والدكتور محمد الصباغ ، والأخ مناع القطان وغيرهم ، ومجموعة من الإخوان الذين أخذوا فضائل كل جماعة وابتعدوا عن الغرور والتنطع والشذوذ والتفرد .

ويقول الشيخ مناع القطان :

وفي رحلته العلمية كانت عنايته الفائقة بتربية تلاميذه على العقيدة السلفية ،

ونبذ البدع والخرفات والأخذ بيدهم إلىٰ هدىٰ الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة، فاحتضن نخبة متميزة وتعهدها منذ الطفولة بالرعاية ، واصطحبها معه حتىٰ نمت وشبت عن الطوق ، ونهجت نهجه ولعلني كنت علىٰ رأس هذه النخبة وأحب تلاميذه إليه - ولا أزكي علىٰ الله أحداً .

ومن القرية تعهدني بها منذ الطفولة انتقلت معه طالباً في معهد شبين الكوم الديني ، أتلقىٰ من فيض علمه علىٰ مقعد الدرس ، وأزوره في بيته ، فيختار ما يشاء من الكتب لأقرأ عليه بعض الموضوعات التي يريدها ويقف عند كل فقرة شارحاً ومبيناً .

الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي :

لقد عرفته رحمه الله وأسكنه فسيح جناته منذ ستة وثلاثين سنة عاماً ، وتوطدت صلتي به في أثناء طلب العلم ، والدراسة في كلية العلوم الشرعية في الرياض ، ثم في المعهد العالي للقضاء ، ثم في حلقات المساجد والمحاضرات في الجامعات ، ومناقشة الرسائل الجامعية ، وازدادت معرفتي به حينما لازمته فترة إعداد بحثي في الماجستير ، حيث كان مشرفاً عليه ، فكان نعم الموجه والناصح ، يبذل وقته وجهده ويحرص علىٰ إفادة طالب العلم .

يقول الشيخ صالح السدلان :

إن كان لي من كلمة في أخص مشايخي الشيخ عبد الرزاق عفيفي فهي أنه قد درسني كثيراً في عدد من مراحل البكالوريوس في الحديث وأصول الدين ، وقام بتدريسي في المعهد العالي للقضاء لمادة أصول التفسير ودرسني الفقه في السنة الثانية بمعهد القضاء واعتبره كما يقول المثل : « **قلبه فوق لسانه** » فهو لا يتكلم إلا بعد معرفته ما يقول ، ويعتبر من العلماء الأوائل .

ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

لقد عرفت هذا الرجل أستاذاً في علوم الشريعة ، واستمعت لدروسه ، وتلقيت عنه في فترات مختلفة ، فأدركت مكانته العلمية وصدق لهجته ، وسداد توجيهه وجاورته في السكن فكان خير جار ، ورافقته في السفر فكان نعم الرفيق والمؤانس ، وجالسته فرأيت فيه حسن الأدب وصواب الرأي .

ويقول الشيخ سعود الفنيسان :

كان لي الشرف بأن قام الشيخ بالإشراف على رسالة الدكتوراه ، حيث استفدت منه في أثناء جلسات عدة معه من خلال ما لديه من معلومات وملاحظات ما لم أستفده في سني دراستي الجامعية كلها وما دونها وما بعدها ، وقد كان للشيخ فضل في توحيد وتأسيس منهج الدراسات العليا في الجامعة وبالأخص في تخصصي التفسير وأصول الفقه ، وكان من المقربين والمحبوبين جداً من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز إلى آخر لحظة في حياته .

ومما جاء في جريدة المسلمون بتاريخ ١٤١٥/٤/٤ هـ :

والجدير بالذكر أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي يعتبر شيخاً لجل كبار علماء المملكة كالشيخ عبد العزيز آل الشيخ ، والشيخ عبد الله بن غديان ، والشيخ صالح اللحيدان ، والشيخ صالح الفوزان ، والشيخ عبد الله بن حسن بن قعود ، والشيخ إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ عبد الله بن جبرين ، والشيخ صالح الأطرم ، والشيخ الدكتور عبد الله التركي ، والشيخ صالح السدلان ، والشيخ راشد بن خنين ، والشيخ على الرومي ، والشيخ مناع القطان ، وغيرهم كثيرون .

١٧ ـ ومن تلاميذ الشيخ عبد الرزاق أيضاً فضيلة الشيخ عبد الرحمن السديس إمام وخطيب الحرم المكي ، الذي درس على الشيخ في الجامعة ، وكان الشيخ عبد الرزاق مشرفاً على رسالته في الماجستير .

وقد ألقى الشيخ السديس محاضرة في مدينة جدة في رثاء الشيخ عبد الرزاق عقب وفاته رحمه الله .



الفصل التاسع عشر

مؤلفاته وموقفه من التأليف

لقد كان للشيخ رحمه الله موقف من تأليف الكتب في هذا العصر لا يوافقه عليه أغلب العلماء ، فقد كان يرىٰ أن تصانيف السلف فيها الكفاية ، وأنه لا حاجة للمزيد عليها ، وأن الأَوْلىٰ أن تنصرف الهمة إلىٰ دراسة كتب السلف ، وتدريسها بدلاً من الانشغال عنها بمؤلفات المعاصرين ، ولعل عذر الشيخ في ذلك أن أكثر المؤلفات في هذا العصر قليلة القيمة لا تعدو أن تكون تكراراً لكلام السابقين ، وليت هذا التكرار يسلم من التشويه ، والتحريف ، لكن لا ريب أنه ظهر في هذا العصر من المؤلفات العظيمة ما كانت المكتبة الإسلامية تفتقد إليه ، منه ما هو أبحاث في مسائل عصرية تحتاج إلىٰ تخريجها علىٰ أشباهها ونظائرها في كتب الفقه الإسلامي ، ومنها ما هو اختصار ، أو تهذيب لكتاب من كتب السلف ييسر تحصيل الفائدة منه عند أكبر عدد ، ومنه ما هو شرح يحل غوامض كتب السلف التي يتعذر علىٰ أكثر المبتدئين فهم عباراتها ، ومنها أعمال موسوعية تجمع شتات ما كتبه عالم في مكان واحد ، أو تجمع شتات ما كتب عن مسألة يثور حولها الجدل في مكان واحد ، ومنها ما هو تكميل لعمل بدأه أحد السلف ولم يكمله لعذر ما ، إلىٰ غير ذلك من فوائد التصنيف وهي كثيرة جداً ، ولكن علىٰ كل حال فهذه كانت وجهة نظر الشيخ ، وقد أخبرني الشيخ أنه لا يحب كتابة كلامه، وأنه استغنىٰ عن كثير من كتبه ، وأنه لا يكتب عليها من الهوامش إلا القليل ، وكان يقول لي : صاحب الكتاب خير من صاحب الكتب ، وكثرة الكتب عند الرجل علامة علىٰ جهله يقصد أن الذي يدرس كتاباً موسعاً في الفقه مثلاً ويظل دائماً يكرر قراءته ودراسته وتدريسه حتىٰ يحفظه خير من الذي يشتت نفسه في كتب كثيرة لا يتقن شيئاً منها . والله أعلم بالصواب .

يقول الشيخ عبد الله بن جبرين :

أما التأليف فلم يكن يرغب فيه ، ولا يحب الكتابة في أي فن من الفنون ، بل يرىٰ أن هذه الكتب والمؤلفات الحديثة لا فائدة فيها ، فيكتفي فيما يكتبه بما كتبه وجمعه العلماء السابقون حيث أنهم تطرقوا إلىٰ كل فن ، وأوضحوا ما يحتاج إلىٰ توضيح ، فمن جاء بعدهم لا يستطيع أن يضيف إلىٰ علومهم زيادة ، وأن المتأخرين إنما توسعوا في الكلام بما لا فائدة فيه ، وكان ينهي عن الانشغال بكتب المعاصرين التي كتبوها في الأصول ، أو التفسير ، أو الأدب ، والفقه ، ونحو ذلك ، حيث إنهم لا يزيدون علىٰ من سبقهم ، ومع ذلك فقد أشرف علىٰ رسالتي في أخبار الآحاد التي قدمتها لنيل درجة الماجستير ، وعلىٰ رسالة الدكتور عبد الله ابن عبد المحسن التركي وغيرهما ، وكان يولي التلميذ توجيهات ، ودلالة علىٰ المواضيع ، وأماكن البحث ، ونحو ذلك مما يدل علىٰ قدرته علىٰ الكتابة لو أراد ذلك فهو من حملة العلوم المتعددة ، وأي فن يتطرق إليه يوسعه بحثاً . فرحمه الله وأكرم مثواه ، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم .

ويقول الشيخ مناع القطان :

تميز الفقيد بتأصيل المسائل العلمية وتحليل فروعها ، وتحرير مواطن الخلاف فيها ، والترجيح السديد بين الآراء المتعددة ، ولم يكن يميل إلىٰ تأليف الكتب مع غزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، ويفضل أداء العلم تدريساً وبحثاً ، وقد أصدرت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء كثيراً من الأبحاث التي يرجع إليها طلبة العلم وينهلون من معينها العذب .

له من المؤلفات [1] : مذكرة في التوحيد ، وتحقيق وتعليق علىٰ كتاب

(١) وقد قمنا ـ بفضل الله ـ بجمع هذه المؤلفات وغيرها ، وما ألقاه من محاضرات ، وما سمعه منه كثير من تلامذته وسجلوه ، كل ذلك في هذا السفر الجامع لمؤلفاته رحمه الله تعالىٰ ، وهو السفر الذي بين يديك .

الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، وتعليق على الجزء المقرر في التفسير من الجلالين لطلاب المعاهد العلمية .

ويقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

والعلماء نوعان : علماء ينعزلون عن الناس ، ويتفرغون لكتابة الكتب والمصنفات ، وعلماء يعنون ببناء النفوس ، وتوجيه العامة وإرشادهم ، وبالإجابة عن أسئلتهم وحلّ مشكلاتهم ، وقد كان فقيدنا العظيم من النوع الثاني ، وقد انتفع بعلمه وتوجيهه خلق كثير ، وهناك عدد من مشايخنا كانوا من النوع الثاني وهم جبال من العلم ، وكذلك في العصور السابقة كان أكثر العلماء من هذا القبيل ، وأحسب أن فقيدنا كان يحمله على ترك التأليف عامل آخر وهو زهده في الشهرة والسمعة والمناصب .

وكان إذا رأىٰ كتاباً لأحد المحدثين ليس فيه صفة الأصالة ولا دقة ولا استيفاء قال : ياليته ما ألّف ! وياليته اقتصر علىٰ الانتفاع بما كتب الأئمة .

ويقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري :

والشيخ في جبلته يؤمن بتخريج الطلاب ، وتسهيل العلم الذي ورثناه عن الأسلاف دون حاجة إلىٰ مزيد من التأليف .

ولهذا نفع الله بدروسه وتلاميذه فكانت له في وسطنا العلمي بالسعودية بصمة متميزة تجمع بين المعقول والمنقول رحم الله الفقيد وجمعنا به في دار كرامته .

ويقول الشيخ زهير الشاويش :

الشيخ والتأليف : كان رحمه الله يرىٰ أن في ثروتنا العلمية التي تركها لنا الأجداد رحمهم الله ، ما يكفي وإذا كان ولا بد من مؤلف فيكون لسد الحاجات الطارئة علينا من أمور استجدت .

وقال لي مرة : يا زهير إن حُسْن إخراج الكتب وتحقيقها وحسن عرضها أفضل من التأليف .

ولذلك صرف جهوده إلىٰ وضع المناهج للجامعات ، والمعاهد ، ورسم الخطط لها من غير أن يؤلف كتباً .

وقام علىٰ تحقيق كتاب « إحكام الأحكام » للآمدي .

وبحكم تدريسه الطويل كان عنده أمال : في التفسير ، والحديث ، وأصول الفقه . . ما لو جُمع لكان كتباً نافعة وفي تعليقه علىٰ رسائل الدكتوراه التي أشرف عليها ـ ولعلها بلغت المئات ـ العلم الغزير النافع .

ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

وكان يخبر عن نفسه في أكثر من مناسبة بأنه في الفترة الأخيرة ما كان يعتني باقتناء الكتب الكثيرة في بيته ، وأنه يكتفي باقتناء عدد محدد من الكتب المنتقاة في كل فن من الفنون يرجع إليها عند الحاجة ، ويؤكد بأنه لا يوجد لديه مكتبة بالمعنىٰ المتعارف عليه بين طلاب العلم .

وكان له رآي في التأليف يذكره عندما يقال : لِمَ لَمْ تؤلف في العلم الفلاني من علوم الشريعة ؟! فيقول : نحن لسنا في حاجة إلىٰ التأليف بقدر ما نحن في حاجة إلىٰ الاطلاع علىٰ المؤلفات التي تزخر بها المكتبات ، وإن كثيراً من التآليف الحديثة في علوم الشريعة ، واللغة العربية ما هي إلا معلومات معادة وفي المكتبة ما هو آصل منها .

ويقول الشيخ حمد الجنيدل :

وعندي من إملائه ما يزيد عن مائة ورقة من التفسير كتبتها بقلمي في أثناء تدريسه لنا في المعهد العالي للقضاء اعتبرها أنفس ما لدي في مكتبتي الخاصة .

ولعل الله أن يسهل لنا إخراجها وطبعها .

قلت : ومما يبقىٰ من آثار الشيخ [(١)] :

١ ـ تعليقات علىٰ تفسير الجلالين من أول سورة غافر إلىٰ آخره .

٢ ـ وتعليقات علىٰ العقيدة الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٣ ـ وعلىٰ التدمرية أيضاً لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٤ ـ وعلىٰ الرسالة التبوكية للإمام ابن القيم .

٥ ـ وله حواش نفسية علىٰ ألفية العراقي في المصطلح .

٦ ـ وله بحث كبير في نحو ١٥٠ صفحة عن البورصة كان قد قدمه لهيئة كبار العلماء .

٧ ـ وله مذكرة في التوحيد (طبعت) .

٨ ـ وله تعليقات مطبوعة علىٰ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز .

٩ ـ وله مقدمة وتعليقات علىٰ كتاب الإحكام للآمدي .

١٠ ـ وله رسالة شبهات حول السنة .

١١ ـ وله رسالة في الحكم بغير ما أنزل الله ، وقد طبعت الآن بدار الفضيلة بالإضافة إلىٰ فتاويه الخاصة المتناثرة عند تلاميذه ومحبيه وهذه الأشياء تحت الطبع بدار الفضيلة للنشر وفقهم الله .

وقد علمت أن دار الفضيلة للنشر بالرياض جمعت مؤلفات الشيخ ونسخت أشرطة التسجيل المحفوظة بصوته ، ولديهم كتب للشيخ ، وفتاوىٰ ورسائل جاهزة للطبع الآن .

ويضاف إلىٰ هذا كله كما أسلفنا أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله كان واحداً من أربعة علماء هم أعضاء اللجنة الدائمة للبحوث ، والإفتاء اشتركوا في إصدار آلاف الفتاوىٰ وعشرات الأبحاث القيمة التي لا تقدر لنفاستها بثمن .

---

(١) وله رسالة « الحكمة من إرسال الرسل » .

الفصل العشرون

أسرته وأولاده

يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ :

وقد تزوج سيدة فاضلة من أسرة كريمة من الإسكندرية هي أسرة سالم ، وقد أنجب منها عدداً من البنين وهم المهندس الزراعي أحمد عاصم رحمه الله ، والأستاذ محمد نبيل حفظه الله [1] والأستاذ محمود حفظه الله ، والأستاذ عبد الله رحمه الله ، والأستاذ عبد الرحمن رحمه الله وأما البنات فثلاث وقد أكرمه الله بأصهار صالحين بررة .

وكان يهتم بتربية أولاده ، فكانوا مثالاً في الاستقامة والبر ، ولقد كان الأستاذ محمود منقطعاً لخدمة والده وضيوفه ، فكان هو الذي يصحبه إلى الصلاة ؛ ذلك لأن الشيخ في آخر حياته كان لا يقوى على المشي ، فكان يستخدم كرسياً طبياً ، وما كان الشيخ رحمه الله يترك صلاة الجماعة في المسجد في وقت من الأوقات الخمسة ، وكان الأستاذ محمود أحسن الله إليه يجلس معه يقوم بخدمة والده وتقديم الضيافة للضيوف وتنفيذ أوامر الشيخ . وكان يلازمه إذا مرض لا يتركه .

وقال الشيخ عبد الله بن جبرين :

كان من زملائه عبد الله بن يابس الذي أصله من بلاد القويعة ، وقد كان بينهما من المحبة ، والصحبة ، وقوة الأخوة مالا يوجد مثله إلا نادراً ، وكان زواجهما متقارباً في مصر من زوجتين صالحتين كالأختين ، وقد استضاف الشيخ

---

(١) يعمل الأستاذ محمد مراقباً مالياً للإدارات المالية وشؤون الموظفين بالخطوط السعودية حالياً .

عبد الله عند مجيئه من مصر لأول مرة ، واستزاره الشيخ عبد الله إلى بلاده ، ونال هناك حفاوة وإكراماً من قبيلة الشيخ عبد الله ،ولم يزالوا يوادون الشيخ عبدالرزاق ويتصلون به حتى توفى رحمه الله .

الفصل الحادي والعشرون

حفظه الله تعالى

عليه حواسه إلى آخر عمره

١ ـ قال الشيخ عبد الله الحكمي :

وإن كانت وفاته ـ رحمه الله ـ بعد أن جاوز التسعين عاماً فقد كان رغم ما توالى عليه في السنين الأخيرة من العلل والأمراض مع كبر سنه تام الحواس سليم الإدراك ، لم يتغير في علمه وقد يسر الله له الحج عام ١٤١٤ هـ آخر موسم قبل وفاته بصحبة سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز فكانت حجة وداع من خير ما ختم به أعماله .

٢ ـ وجاء في جريدة اليمامة بتاريخ ٢١ / ٥ / ١٤١٥ هـ :

كان مثالاً للأمانة والإخلاص لله ، والأمانة والإخلاص في حياته وعمله حتى أنه كان يذهب إلى عمله في آخر حياته ، وحتى في بعض الأيام التي لا يستطيع الذهاب إلى عمله بسبب سوء حالته الصحية كانت تأتي له أوراق الفتاوى إلى بيته ليجيب عنها .

٣ ـ وقال الشيخ عبد الله بن جبرين :

أما تدريسه فقد أفنى حياته في وظيفة التدريس في مصر ، ثم في المملكة ، في دار التوحيد بالطائف ، ثم في معهد الرياض العلمي ، ثم في كلية الشريعة وكلية اللغة العربية بالرياض ، ثم في معهد القضاء العالي مديراً ومدرساً حتى أحيل ألى التقاعد ، ثم عمل متعاقداً في رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بقية حياته حتى وافاه الأجل وهو على رأس العمل في هذه الرئاسة .

٤ ـ وقال الشيخ مناع القطان :

بقي أن نضيف أن الشيخ عبد الرزاق عفيفي بقي عضواً في هيئة كبار العلماء حتىٰ أعفىٰ لحالته الصحية التي فرضها كبر سنه قبل نحو عامين ، أما اللجنة الدائمة للإفتاء فلم يزل يشارك فيها منذ أقيمت بالرياض حتىٰ وفاته يرحمه الله ، بل لقد كان يباشر عمله مفتياً ومجيباً عن مسائل العامة ، وكان يذهب إلىٰ مكتبه بإدارة البحوث العلمية والإفتاء مدفوعاً بالعربة لصعوبة المشي عليه .

الفصل الثاني والعشرون

حسن خاتمته ووصف جنازته

جاء في جريدة المسلمون بتاريخ ١٤١٥/٤/٤ هـ :

وكان الشيخ عفيفي ـ يرحمه الله تعالىٰ ـ قد أدخل المستشفىٰ العسكري بالرياض الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الثلاثاء الموافق ١٦/ ٣/ ١٤١٥ هـ في قسم العناية المركزة ، ثم أخرج من ذلك القسم في يوم الأحد ٢١/ ٣/ ١٤١٥ هـ وهو يعاني من ألم شديد في الكبد ، وضعف في الكلىٰ ، ووجود سوائل في الرئتين وهبوط في ضربات القلب ، وظل بالمستشفي حتىٰ وافاه الأجل المحتوم في يوم الجميس ٢٥/ ٣/ ١٤١٥ هـ في حوالي الساعة السابعة صباحاً ، وكان ـ يرحمه الله ـ قبل وفاته ـ كما يروي ابنه محمد ـ في كامل وعيه وفي حالة ذكر لله عز وجل حتىٰ ازداد ضيق نفسه ، وهبط الضغط لتخرج روحه إلىٰ بارئها ، وقد صلىٰ علىٰ جنازته عقب صلاة الجمعة ٢٦/ ٣/ ١٤١٥ هـ في جامع الإمام تركي بن عبد الله (الجامع الكبير) بالرياض ، وقد صلىٰ عليه جمع غفير من الناس ، ويقول الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ، والشيخ محمد السعيد : إنه كان يوماً عظيماً مشهوداً امتلأ الجامع الكبير إلىٰ آخره ، وهي من المرات القلائل التي يمتلأ فيها الجامع ، وقد ازدحمت المواقف والشوارع المؤدية إلىٰ المقبرة بالسيارات خصوصاً بعدما انطلق الناس بسياراتهم، ومشياً علىٰ الأقدام مشيعين له ، وحضر دفنه بمقبرة العود بالرياض عدد هائل من البشر غالبيتهم من المشايخ والعلماء ، وطلبة العلم وتلاميذ الفقيد يغمرهم الحزن علىٰ فراقه داعين له بالمغفرة والرحمة .

وهذا الحزن من الناس ، والجمع الغفير من المشيعين يدل بوضوح علىٰ ما للشيخ من مكانة وقدر في نفوس الناس وتلامذته الذني لا يحصون لكون الشيخ درس في أماكن كثيرة ومتعددة طوال ثلاثين عاماً قضاها في التدريس بالمملكة ،

وبرغم أن الشيخ تلقىٰ تعليمه بعيداً في الأزهر بالقاهرة ، إلا أنه سرعان ما نال مكانته ، وقدره بين علماء المملكة بعد أن جاء به الملك عبد العزيز آل سعود ـ يرحمه الله ـ مع علماء آخرين من داخل المملكة وخارجها ـ لينفذ من خلالهم سياسته الصارمة في محاربة الجهل واقتلاع جذروه ، ونشر العلم في ربوع المملكة، وخاصة العلم الشرعي ، وما زالت هذه المكانة تتعاظم حتىٰ انتهت بالشيخ عبد الرزاق عفيفي عضواً في هيئة كبار العلماء ، ونائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

ولا غرابة في أن يتوافد أبناء عاصمة المملكة إلىٰ المسجد الكبير في مدينة الرياض من كل حدب وصوب وأن تكتظ بهم شوارع العاصمة ، وأن يضيق بكثرة المصلين علىٰ سعته وساحاته علىٰ امتدادها ، والشوارع المحيطة به علىٰ طولها .

وأن يمشي أبناء مدينة الرياض في تشييع جنازته زرافات ، ووحداناً ، شيوخاً، وشباباً حتىٰ ضاقت بهم شوارع العاصمة علىٰ سعتها ، وغصت المقبرة بالمشيعين والطرقات المؤدية إليها ، كل منهم يريد أن يلقي علىٰ هذا الفقيد نظرة أخيرة ويقول له وداعاً أيها الإمام وموعدنا معكم في الجنة إن شاء الله .

إن هذا المشهد العظيم الذي عاشته عاصمة المملكة في توديعها هذا العالم يدل علىٰ وعي هذه الأمة ، وتقديرها للمخلصين من رجالها ، والعلماء العاملين بعلمهم من أبنائها .

ويقول الشيخ صالح السدلان (بجريدة عكاظ ٢٧ / ٣) :

وكان محبوه كثيرين ولم نكن نتصور أن يكون الحضور بهذا الحجم الكبير ومن كافة الفئات في جنازته . . أسأل الله له الرحمة وأن يسكنه فسيح جناته ، وأن يلهم أهله ومحبيه الصبر والسلوان .

ويقول الشيخ محمد سعد السعيد في مقالة بجريدة الجزيرة :

أدخل المستشفى العسكري بالرياض الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الثلاثاء الموافق ١٦/ ٣/ ١٤١٥ هـ في قسم العناية المركزة ، ثم أخرج من ذلك القسم في يوم الأحد ٢١/ ٣/ ١٤١٥ هـ وهو يعاني من ألم شديد في الكبد ، وضعف في الكلى ، ووجود سائل في الرئتين ، وهبوط في ضربات القلب ، وظل بالمستشفى حتى وافاه الأجل المحتوم في يوم الخميس ٢٥/ ٣/ ١٤١٥ هـ في حوالي الساعة السابعة صباحاً ثم صلى على جنازته عقب صلاة الجمعة ٢٦/ ٣/ ١٤١٥ هـ في الجامع الكبير بالرياض وقد صلى عليه خلق كثير لا يحصى وقد ازدحمت المواقف ، وكذلك الشوارع المؤدية إلى المقبرة بالسيارات خصوصاً بعد ما انطلق الناس بسياراتهم للمقبرة ومن المشيعين من ذهب إلى المقبرة مشياً على الأقدام خوفاً من الزحام ، حيث حضر دفنه بمقبرة العود بالرياض عدد هائل من البشر غالبيتهم من المشايخ ، والعلماء وطلبة العلم ، وتلامذة الفقيد يغمرهم الحزن على فراقه داعين له بالمغفرة والرحمة .

وهذا الجمع الغفير من مشيعيه يدل دلالة واضحة على محبتهم له ، وإن العالم الإسلامي فعلا قد فقد عالماً جليلاً وشيخاً فاضلاً ، وعلماً من أعلام الأمة ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، ورحمه وغفر له ، وأسكنه فسيح جناته ، وجمعنا به في دار كرامته ، ومستقر رحمته ، وجبر الله مصيبتنا ومصيبة أهله فيه ، ورزقنا وإياهم الصبر والسلوان و ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [1] .

وجاء في مجلة الفرقان :

هذا وقد شهدت الرياض يوم دفنه الجمعة ٢٦ ربيع الأول يوماً متميزاً حيث وفد الآلاف من طلبة العلم ، ومحبي الشيخ لمواراته الثرى ، وقد امتلأت بهم

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٦ .

الطرقات والمقبرة ، والله نسأل أن يسكن شيخنا الفردوس الأعلىٰ ، وأن يجعل قبره روضه من رياض الجنة ، وأن يجمعنا معه في الجنة مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

قلت : وقد شهدت الصلاة علىٰ الشيخ رحمه الله بالجامع الكبير بمدينة الرياض ، وكان إمام الناس في الصلاة فضيلة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ إمام الجامع الكبير ، ثم شهدت جنازته ، ودفنه رحمه الله ، فكانت كما وصفها الواصفون الذين نقلت كلامهم ، وهذا الجمع الغفير من العلامات التي يرجىٰ للفقيد حسن الخاتمة . قال الإمام أحمد رحمه الله : « **بيننا وبينهم أيام الجنائز** » .

الفصل الثالث والعشرون

تفجع المسلمين عليه وتألمهم لفقده

لقد كانت وفاة الشيخ عبد الرزاق رحمه الله فجيعة كبيرة تألم لها المسلمون في أرجاء العالم الإسلامي وإليك بعض ما كتب في ذلك .

يقول الشيخ صالح بن فوزان الفوزان :

والآن قد لقيٰ ربه من ذا سيسد ثلمته :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

إن مصابنا فيه كبير ، وواجبنا أن نقول ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون** ﴾ [1] رحم الله شيخنا أبا أحمد ، وأسكنه فسيح جناته ، وألهم أولاده وأهله الصبر واحتساب الأجر .

ويقول الدكتور محمد لطفي الصباغ :

فُجع العالم الإسلامي بوفاة العالم العامل ، والعلامة الداعية إلىٰ الله علىٰ بصيرة الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، وذلك في صباح يوم الخميس الواقع في ٢٥/ ربيع الأول سنة ١٤١٥ هـ (الموافق ١/ ٩/ ١٩٩٤ م) ودفن في الرياض بعد صلاة الجمعة .

بلغني الخبر المؤلم وأنا في عمَّان ، فآلمني ذاك الخبر إيلاماً شديداً ، وشعرت بعظم الكارثة علىٰ وجه أكبر مما كنت أتوقع .

يالله !! مات العالم الذي قل نظيره في العلماء . . لقد أذهلني الخبر حقاً .

أشهد أني قد جزعتُ لذاك النبأ جزعاً لم أجزعه إلاَّ يوم وفاة والدي رحمه

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٦ .

الله . والشيخ عبد الرزاق عفيفي كان لي بمثابة الوالد . . ثم تماسكت وتصبرت وتذكرت الآيات القرآنية التي تقرر أن الموت سبيل كل حيٍّ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (١) ، وأن الأجل إذا جاء لا يؤخر ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) ، ومرت بخاطري كلمة عمر بن عبد العزيز :

(ما الجزعُ ممَّا لا بدَّ منه ؟ وما الطمع فيما لا يُرجىٰ ؟ وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنَّما الشيء من أصله ، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنَّما النَّاس في الدنيا أغراضٌ فيهم المنايا ، وهم فيها نهبٌ للمصائب ، مع كل جرعة شرق ، وفي كلِّ أكلة غصص) .

فاسترجعت قائلاً : **إنا لله وإنّا إليه راجعون ، غفر الله له ، وأكرم نزله ، وعوضه الجنة وعوض المسلمين خيراً .**

وجاء في جريدة الرياض بتاريخ الثلاثاء غرة ربيع الآخرة ١٤١٥ هـ ما نصه :

خادم الحرمين ، وسمو ولي العهد ، وسمو النائب الثاني يعزون الشيخ ابن باز في وفاة الشيخ عبد الرزاق عفيفي .

تلقىٰ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود برقية من سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء هذا نصها :

حضرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، وفقه الله لما فيه رضاه ونصر به دينه أمين .

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد

---

(١) سورة الزمر الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٣٤ .

ففي صباح يوم الخميس الموافق ٢٥/ ٣/ ١٤١٥ هـ توفي صاحب الفضيلة العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي : عضو مجلس هيئة كبار العلماء ، ونائب رئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، عن عمر جاوز التسعين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فأقول أحسن الله عزاءكم فيه ، وجبر مصيبتكم ، وأصلح ذريته ، وكان ـ رحمه الله ـ من خيرة العلماء عقيدة ، وعلماً ، ودعوة ، وتعليماً مضىٰ عليه في ذلك ما يقارب خمسين عاماً ضاعف الله حسناته ، وخلفه علىٰ المسلمين بأحسن الخلف ، وفسح في أجلكم علىٰ خير عمل وبارك في أوقاتكم، وأعمالكم إنه جواد كريم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته / . .

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء

وإدارة البحوث العلمية والإفتاء

وجاء في جريدة الرياض أيضاً ما نصه :

وقد وجه الملك المفدىٰ يحفظه الله البرقية الجوابية التالية لسماحته :

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

مفتي المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء ـ حفظه الله ـ

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته . . وبعد

فقد كدرنا نبأ وفاة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي عضو هيئة كبار العلماء ونائب رئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، وإننا إذ نعرب لسماحتكم

عن تعازينا ومواساتنا ونأمل إبلاغ ذلك لأسرته وذويه لنسأل الله جل وعلا أن يتغمده بواسع رحمته ، ومغفرته ، ويسكنه فسيح جنته ، وأن يعوض المسلمين عنه خيراً والحمد لله على قضائه وقدره . . إنا لله وإنا إليه راجعون . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

فهد بن عبد العزيز

ويقول الشيخ عبد الله العجلان :

ولقد وقع نبأ وفاته رحمه الله على نفوس أبنائه ومحبيه وعارفي فضله ـ وما أكثرهم ـ بل وعلى الأمة كلها موقعاً عظيماً فيه بعظم الخسارة ، وفداحة الخطب ، وشدة المصاب لكن الكل وهم مؤمنون بالله وراضون بقضائه وقدره ، ويعلمون أن الموت حق ، وأنه مصير كل حي قالوا بصوت واحد ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ ودعوا الله بصادق الدعاء وخالص الرجاء بأن يسكنه فسيح جناته ، ويغفر له ، ويعفو عنه ، وأن يعوض الله هذه الأمة فيه خيراً .

ويقول الشيخ صالح بن سعود آل علي ـ عضو مجلس الشورى ـ :

ومن أجل هذا أصيب الوسط العلمي ، والعام ، من علماء ، ومتعلمين ، بالذهول يوم الخميس ٢٥/ ٣/ ١٤١٥ هـ عندما فاضت روح علم من أعلام هذه البلاد وواحد من أكبر علمائها وهو فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي عليه من الله الرحمة والرضوان .

أصيب الناس بالحزن والأسى لفقد هذا العالم الذي كان ـ يرحمه الله ـ وحداً قل من يناظره في الشريعة وعلومها .

وجاء في جريدة الندوة

بتاريخ ١٣/ ٤/ ١٤١٥هـ على لسان منسوبي دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة قولهم :

وقد تلقت مدرسة دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة ممثلة في جميع منسوبيها . نبأ وفاة الشيخ عبد الرزاق عفيفي بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره .

وقد آلمنا فراقه وعز علينا رحيله ،ولكن تلك سنة الله في خلقه ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾ (١) .

(١) سورة فاطر الآية : ٤٣ .

الفصل الرابع والعشرون

ما رُثِيَ به الفقيد رحمه الله من الشعر

عقب وفاة الشيخ رحمه الله رثاه بعض الشعراء منهم العبد الفقير مؤلف هذه الترجمة ، فقد هاجت نفسي تأثُراً لوفاته فرثيته بقصيدة عينية من البحر الطويل رغم كوني مقلاً من الشعر جداً .

ومنهم الأستاذ محمد بن سعد المشعان الذي رثى الشيخ رحمه الله بقصيدة همزية بارعة من البحر الطويل أيضاً ، وقد نشرت بجريدة الرياض العدد ٩٥٧٣ بتاريخ ٤/ ٤/ ١٤١٥ هـ .

وهذه مرثية الفقيد العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - المتوفى يوم الخميس ٢٥/ ٥/ ١٤١٥ هـ . عن اثنين وتسعين عاماً رثاه بها تلميذه أبو خالد وليد ابن إدريس بن عبد العزيز منيسي - المدرس بالرياض - .

هوىٰ نجمُ عَبْدٍ في الأنامِ فَأُفْجِعـوا
وذا الخطبُ جَلٌ والُمصابُ مُروِّعُ
فلله نَعْشٌ شَيَّعوه عشيـــــــــــة
به الحلمُ والعلمُ الذي كان يُتْبَـعُ
فيا عبدَ رزَّاقِ البرايا تركتنــــــــا
ومنا قُلوبٌ للفراقِ تُصَــــــدَّعُ
فتسعون عاماً قد قضيت مجيــدةً
بمصرٍ ونجدٍ فالبلاء مُـــــــوَزَّعُ
وفي أزهرٍ حزت العلوم بِعَرْشِ مَذْ
هَبِ المالكينَ الكرامِ تربَّـــــعُ

لقد كنت ردءاً للفَقِيِّ[1] بمصرنـــا
وقد كنتما حرباً على مَنْ تَبَدَّعُــوا
فكم قد نصرتم سُنَّةً لنبيِّنـــــــا
وفي أزمُنٍ عزَّ النصيرُ المُشَجِّـــعُ
فَظَلْتُمْ بأرضِ مصرَ نوراً فَقُمْتُــم
بِنَشْرِ الفنونِ بين قومٍ تَطَلَّعـــوا
مع النفر الأُلَى إليهم يشار بالْــــ
بنان بنيتمو معاهدَ تُرْفَـــــعُ
مع ابن حُمَيْدٍ والأمينِ وحَبْرِنـــا
وأعنى ابنَ بازٍ عطركم يَتَضَوَّعُ[2]
وفي هَيئةِ الكبارِ صُلْتُمْ وجُلْتـــم
وفي لجنة الفتوى قُلوبٌ وأَضْلُـعُ
عزَا أهلِ مصرَ فيكم أن تركتـــم
وُ عُبَيْدَ العزيزِ حَبْرُ بِرْمَا المُفَزَّعُ[3]
وأما بنجدِكم شهابٍ أفضــــتم
عليهم سُيوبَكُمْ فأرووا وأرتعـــوا
وتلميذك المحزون يأسى لفقدكـم
وكم من محبٍ قلبُه يتوجـــــعُ

---

(١) إشارة إلى دور الشيخ عبد الرزاق في مناصرة دعوة الشيخ حامد الفقي ، وتأسيس جماعة أنصار السنة بمصر ، والتي كانت امتداداً لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

(٢) إشارة إلى دور الشيخ عبد الرزاق في نشأة المعاهد الشرعية ، والمعهد العالي للقضاء ، ومع أقرانه الشيخ عبد الله بن حميد ، والشيخ محمد الشنقيطي ، والشيخ ابن باز .

(٣) إشارة إلى أجل تلامذته بمصر العلاّمة الشيخ عبد العزيز علي البرماوي أحد علماء الأزهر ، وأنصار السنة بالأسكندرية ، وكان حياً آنذاك رحمه الله .

شعر الأستاذ / محمد بن سعد المشعان

إلى روح فقيد العلم الشرعي الشيخ الجليل / عبد الرزاق عفيفي يرحمه الله رحمة واسعة .

وقفتُ لكي أرثيْ « العفيفي » فَصَدَّني
وجومٌ ـ وقد حَلَّ النوَىٰ ـ وبُكـاءُ
وقمتُ أعزِّي فيه من رام علمَـــــــهُ
فقالوا : وهل يُسليك عنه « عزاءُ » ؟
فَعُدْتُ أُناجيْ ذكريـات ترحَّلَـــــتْ
وقد ضَمَّني و « الشيخَ » ثمَّ لقـــاء
وأبصرت فيها الشيخ يرقي بعلمـــــه
وعانيت فيها الشيخ وهو بهـــاء
وناجيتُ فيها الشيخ فازورَّ طيفُـــــهُ
وما في ازورار الطيف منه جفـــاءُ
لقد سار في درب الشَّـريعـة يافعــا
يطير به عـزمٌ لـه وإبـــــاءُ
وأَنْفَقَ في بسط الشريعة عُمْــــرَهُ
يســيرُ به خوفٌ لـه ورجـــاءُ
(ثمانون) [١] عاماً والحياة مصاعـــد
وللشيخ فيها منهجٌ وسنـــاءٌ

(١) قلت هكذا ذكر الشاعر (ثمانون) وحيث إن الشيخ رحمه الله توفي وعمره اثنان وتسعون عاماً فينبغي تعديل البيت (فتسعون) عاماً علماً بأن وزن البيت لا يختل بهذا (وليد) .

إذا المحفلُ الراقي تناظر جمعُــــهُ
رأيتَ مقالِ الشيخ فيه سخـــــاءُ

شواهدُه الآياتُ جل دليلهـــــا
وحشدُ أحاديثِ لهنَّ صفـــــاءُ

يُسربل بالإقناع كلَّ مقالـــــه
فيُصغى لهُ الكُتَّابُ والخطبـــــاءُ

إلى عَرَصات الخلد يا وافر النُّهى
لعلَّكَ عند الله حيث تشـــاءُ

وإنَّ قَصيْديْ حينَ يَنْدَى بذكْركُــمْ
حَريٌّ بأنَّ يندَى به الشُّعَــراءُ

خاتمة

وإلى هنا توقف القلم ، وهذا الذي ذكرته ليس إلا غيضاً من فيض شمائله وقطرة من بحر محاسنه ، ولا يستطيع مثلي أن يحيط بمناقب الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله ، أو أن يفيه حقه ، ولا أملك إزاء هذا إلا أن أدعو له أن يتقبل الله منه أحسن ما عمل ، وأن يتجاوز له عن سيئاته ، وأن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، وأن يلحقنا به في الصالحين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من جمع هذه الترجمة بمدينة الرياض يوم الاثنين الخامس عشر من ذي القعدة

سنة سبعَ عشرةَ وأربعمائة وألف للهجرة النبوية

على صاحبها صلوات الله وتسليمه

أبو خالد وليد بن إدريس بن عبد العزيز

ابن منيسي السلمي الإسكندري الحنبلي

ـ عفا الله عنه ـ

أولاً

مباحث وفتاوى العقيدة

١ـ علم التوحيد

١ ـ تعريف علم التوحيد :

التوحيد لغة : جعل المتعدّد واحداً ، ويُطلق علىٰ اعتقاد أن الشيء واحد متفرّد ، ويطلق شرعاً علىٰ تفرّد الله بالربوبية والإلهية ، وكمال الأسماء والصفات .

وعلم التوحيد يبحث عما يجب لله من صفات الجلال والكمال ، وما يستحيل عليه من كل مالا يليق به ، وما يجوز من الأفعال ، وعما يجب للرسل والأنبياء ، وما يستحيل عليهم ، وما يجوز في حقّهم و ما يتصل بذلك من الإيمان بالكتب المنزلة ، والملائكة الأطهار ، ويوم البعث والجزاء ، والقدر والقضاء ، وفائدته تصحيح العقيدة ، والسلامة في العواقب ، ونيل السعادة في الدّارين ، واسمه : « **علم التوحيد ، وعلم أصول الدين** » .

٢ـ بيان الحكم وأقسامه :

الحكم إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه . مثاله : محمد رسول الله ومسيلمة ليس برسول .

وينقسم إلى ثلاثة أقسام : عقلي ، وشرعي ، وعادي .

* فالعقلي إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه بناء علىٰ تفكير دون توقف علىٰ شرع ، ولا تجربة أو تكرار . مثاله : الله موجود ، لا إله إلا الله .

* **والشرعي** إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه بناء علىٰ وحي من الله مثل الصلوات الخمس فريضة علىٰ المكلفين ، ولا يجوز شرب الخمر .

* **والعادي** إثبات أمر لأمر ، أو نفيه عنه بناء علىٰ تجربة أو تكرار مثل : الأمطار تكثر بالشواطئ .

**** وينقسم الحكم الشرعي إلى تكليفي** : كوجوب الزكاة ، وتحريم القمار ، واستنان ركعتي الفجر ،وكراهية الأكل باليسار ، وإباحة الطيبات من الطعام ، والشراب ، واللباس ونحوها .

ووضعي : كسببية دخول الوقت لوجوب الصلاة ، وشرطية الطهارة لصحتها، وكمنع الجنون من وجوبها ، والحدث من صحتها ، ومن ذلك : الصحة ، والفساد ، والرخصة ، والعزيمة .

**** وينقسم العادي إلى أربعة أقسام** :

ربط وجود بوجود ، كربط الشبع بالأكل ،**وربط عدم بعدم** : كربط عدم المطر بعدم السّحاب ، وربط **وجود بعدم** : كربط البرد بعدم اللباس والغطاء ، **وربط عدم بوجود** : كربط عدم الصحة بوجود ميكروب المرض .

**** وينقسم الحكم العقلي إلى ثلاثة أقسام** : الوجوب ، الاستحالة ، والجواز .

فالواجب : هو الثّابت الذي لا يقبل الانتفاء لذاته : كثبوت العلم ، والقدرة، والمحبّة ، والرِّضا ، والوجه ،واليدين ، ونحوها من الكمالات لله ، فإنها صفات ثابتة له ـ تعالىٰ ـ لا تقبل الانتفاء .

والمستحيل : هو المنفي الذي لا يقبل الثبوت : كشريك الباري ،والجمع بين النقيضين ، ورفعهما ، والجمع بين الضّدّين .

والجائز : يقال له : « **الممكن** » هو ما يقبل الوجود والعدم : كالمخلوقات التي نشاهدها ، فإنها كانت معدومة فقبلت الوجود ، ثم بعد وجودها فهي قابلة للعدم. « وقد يطلق الواجب علىٰ الأمر الثابت من حيث تعلق علم الله بثبوته ، وإن كان ممكناً في ذاته » . ويسمّىٰ الواجب لغيره ، كوجود إنسان علىٰ كيفية معينة في عصر معين ، فإن وقوعه علىٰ تلك الصفة في ذلك العصر واجب ، باعتبار تعلّق علم الله به كذلك ، وإن كان ممكناً في ذاته .

وقد يُطلق المستحيل على أمر معدوم يجوز أن يوجد لكنه امتنع وجوده لتعلّق علم الله ببقائه على العدم ، **ويقال له** : المستحيل لغيره .

والذي يحتاج إليه من أقسام الحكم في مباحث التوحيد ، وعليه تدور مسائله ، الحكم العقلي .

أما الشرعي : فيُبحث عنه في علم الفقه ، وأصوله ، وفي الأخلاق ، وآداب السلوك .

وأما العادي : فله اتصال وثيق بالكونيَّات ، وسنن الله فيها ، وما يُجريه البشر عليها من التّجارب ، وما يُستفاد منها بالتّكرار .

ومعنى كون الوجوب والاستحالة والجواز حكماً عقلياً أنها لازمة لما حكم بها، لا تقبل التخلف عنه ولا الانفكاك ، **فقولنا** : الله عليم وحكيم ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، والضّدان لا يجتمعان ، قضايا لا تختلف أحكامها كما تختلف الأحكام العادية إكراماً من الله لأوليائه ، أو إثباتاً لرسالة رسله ، وكما تختلف الأحكام الشرعية الفرعية بنسخ أو استثناء ، وليس المراد أنها تثبت بالعقل دون نصوص الشرع ، فإن نصوص الشرع قد جاءت بأصول الدين ، وكشفت للعقل عما خفي عليه ، وقصر عن إدراكه من تفاصيل عقائد التوحيد ، وسلكت به طريق الحق ، وهدته إلى سواء السبيل .

ولولا ما جاء فيها من البيان لارتكَسَ العقل في حمأة الضلالة ، وقام للناس العذر ، وسقط عنهم التكليف ، وقال الله ـ تعالى ـ : **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** (١) . وقال : **﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** (٢) . وقال : **﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾** (٣) . بل جاءت الرّسل بما تحار في إدراك حقيقته العقول ، وتعجز عن فهم كُنْهِهِ الأفكار : كسؤال الميت في

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٥ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ١٦٥ .
(٣) سورة طه ، الآية : ١٣٤ .

قبره، ونعيمه ، وعذابه ، وحياة أهل النار في النار ، ولكنها لا تحيله ، ولا تقوىٰ علىٰ ردِّه ، ولا تجد لديها من الأدلة الصحيحة ما ينقضه ، بل وصلت العقول بتيسير الله لها ، وهدايته إياها إلىٰ ما يصدق هذا ، وأمثاله مما جاءت به الرسل، ووقفت بما أتاح الله لها من الوسائل ، وسخرت لها من الكون ، وهداها إليه من التجارب علىٰ حقائق سبق أن أنكرتها ، وسخرت ممن تحدث بها ، وربما رمته بالسحر ، والكهانة ، أو الخيال ، والجنون .

وليس ذلك لشيء أكثر من أنها لم تقع تحت حسها ، ولم تكن من إلفها ، ومعهودها ، فوجب أن تعترف بقصورها ، وأن تقرّ بأن لإدراكها غاية لا تعدوها ، وحدّا تقف عنده ، وتؤمن بما صح من وحي الله لرسله ، وأن تسلم وجهها إلىٰ الله ، فإن اتهمت فلتتّهم نفسها بالقصور والتَّقصير ، دون أن تتَّهم الله ورسله ، فإنها بذلك أولىٰ ، وهي به أقعد .

قال تعالىٰ ـ : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (١) .

فإن حجب الإنسان بعد ذلك ركوبه لرأسه ، لجهالة ، أو كبر ، أو هوىٰ في نفسه ، وحاول بالباطل ليدحض به الحق ، غُلب علىٰ أمره ، ودارت عليه الدوائر . قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة فصلت ، الآيات : ٥٣ـ٥٤ .

(٢) سورة غافر ، الآيات : ٥٦ـ٥٧ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

مسائل في علم التوحيد

المسألة الأولى

إثبات أن العالم ممكن

إن ما شاهدناه في ماضينا من الكائنات ، وما نشاهده منها في حاضرنا ممكن : أي جائزالوجود ، والعدم ؛ وذلك لأنَّا نراه يتحول من عدم إلىٰ وجود ، ومن وجود إلىٰ عدم ، وهذا التغير والتحوُّل دليل إمكانه ، إذ لو كان واجباً لما سبق وجوده العدم ، ولما لحقه فناء ، ولو كان مستحيلاً لما قبل الوجود لأن المستحيل لذاته لا يوجد ، وحيث إننا قد شاهدناه موجوداً بعد عدم ثبت أنه ممكن .

المسألة الثانية

الممكن محتاج إلى موجد ومؤثر

وحيث ثبت أن العالم ممكن ، والممكن ما استوىٰ طرفاه ـ الوجود والعدم ـ بالنسبة إلىٰ ذاته ، فوجوده ليس من ذاته ، وعدمه بعد وجوده ليس من ذاته ، إذن لابد له من سبب يرجح وجوده علىٰ العدم ، إذ لو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته للزم ترجيح أحد المتساويين علىٰ الآخر بلا مرجح ، وهو باطل ، ولو أوجد الممكن نفسه للزم من ذلك أن يكون متقدماً علىٰ نفسه باعتباره خالقاً لها ، ومتأخراً علىٰ نفسه باعتباره مخلوقاً لها ، وتقدّم الشيء علىٰ نفسه ، وتأخّره عنها محال بالضرورة لما فيه من التناقض الواضح ، فثبت أن الممكن لابد له من مُوجد غير ذاته وحقيقته ، يوجده ويدبر شئونه في كل أحواله ، هذا المغاير : إما المستحيل ، وإما الواجد ،ولا جائز أن يكون موجده هو المستحيل ، لأن المستحيل غير موجود فلا يؤثر ، ولأن فاقد الشيء لا يُعطيه . فثبت أن

مُوجده هو الواجب ، وهو الله ـ تعالىٰ ـ .

وقد أرشدنا الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم .

قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (١) .

فقد أنكر ـ سبحانه ـ أن يكونوا قد خُلقوا بلا خالق ، وأن يكونوا قد خَلقوا أنفسهم ، فإذن لابد لهم من خالق موجود مغاير لهم وهو الله ـ تعالىٰ ـ .

ومن ذلك يتضح اتفاق الفطرة ، والعقل السليم والسمع ، علىٰ أن العالم محتاج إلىٰ صانع ، ومستند إلىٰ موجد أوجده .

المسألة الثالثة

إثبات وجوب الوجود لله ـ سبحانه وتعالى ـ

إن لفظ الوجود ، ومعناه المطلق ، يشترك فيهما كل من الممكن والواجب ، والحادث والقديم الأزلي . فالله يُوصف بأنه موجود ، والحادث يُقال له ـ أيضا ـ : إنه موجود ، ولكن للممكن وجود يخصّه ، فإنه حادث سبق وجوده عدم ، ويلحقه الفناء ، وهو في حاجة دائمة ابتداءً ، ودواماً ، إلىٰ من يكسبه ، ويعطيه الوجود ، بل يحفظه عليه . ولله ـ تعالىٰ ـ وجود يخصّه ، فهو ـ سبحانه ـ واجب الوجود لم يسبق وجوده عدم ، ولا يلحقه فناء ، ووجوده من ذاته لم يكسبه من غيره .

وذلك لأنه ـ تعالىٰ ـ الغني عن كل ما سواه ، وبذلك جاءالسمع ، وشهد العقل . أما السمع : فمنه قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾(٢) .

وأما العقل : فبيانه أنه ـ تعالىٰ ـ لو كان مستحيل الوجود لم يصح أن يستند

(١) سورة الطور ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

إليه الممكن في حدوثه بداهة ، لأن المستحيل ما لا يتصور في العقل وجوده ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

ولو كان ممكناً لافتقر في حدوثه إلىٰ من يرجّح وجوده علىٰ عدمه لما تقدّم ، فإن استمرت الحاجة ، فاستند كل في وجوده إلىٰ نظير له من الممكنات لزم إما الدور القبلي [1] ، وإما التسلسل في المؤثرات إلىٰ ما لا نهاية ، وكلاهما محال . وإذا انتفىٰ عنه الإمكان . والاستحالة ثبت له الوجوب ضرورة . لأن أقسام الحكم العقلي ثلاثة ، وقد انتفىٰ اثنان ، فتعين الثالث ، وهو الوجوب فالله ـ تعالىٰ ـ واجب الوجود .

---

(١) الدور السبقي : ويقال له القبلي : وهو توقف الشيء علىٰ ما توقف عليه ، وهما قسمان : مصرح ، ومضمر .

فالمصرح ما كانت الواسطة فيه واحدة ، مثاله كأن يقال مثلاً : خالد أوجد بكراً ، وبكر أوجد خالداً ، فبكر متوقف في وجوده عن خالد ثم خالد توقف في وجوده علىٰ بكر والواسطة واحدة وهي بكر .

ويقال له : هذا دور بمرتبة . فإن تعددت المراتب كانت بحسبها ، وهذا الدور باطل لما يلزمه من التناقض ، إذ يلزمه أن يكون الشيء سابقاً لا سابقاً مؤثراً لا مؤثراً إلخ . بل يلزم أن يكون الشيء نقيض نفسه ضرورة المغايرة بين المتقدم والمتأخر ، والأثر والمؤثر .

أما الدورالمعي مثل توقف الأبوة علىٰ النبوة ، والنبوة علىٰ الأبوة ، فجائز . لأنه من باب الإضافات ،وهي اعتبارية لا وجود لها ، والتسلسل هو ترتب أمور بعضها علىٰ بعض بحيث يكون كل متأخر منها يتوقف في وجوده علىٰ سابق عليه . يكون علة له في وجوده إلىٰ غير نهاية. ويسمىٰ هذا النوع التسلسل في العلل ، وفي المؤثرات ، وهو باطل باتفاق العقلاء لما يلزمه من عدم وجود شيء من الحوادث ، وهذا باطل بالمشاهدة .

وقد عرف السعد في « شرح المقاصد » الدور ، والتسلسل بعبارة جامعة لهما فقال : هما أن يتوالىٰ عروض العلية والمعلولية لا إلىٰ نهاية ، بأن يكون كل ما هو معروض للعلية معروضاً للمعلولية ، ولا ينتهي إلىٰ حالة تعرض له العلية دون المعلولية ، فإن كانت المعروضات متناهية ، فهو الدور بمرتبة إن كان اثنين ، وبمراتب إن كانت المعروضات فوق اثنين ، وإلا فهو التسلسل .

وقد أرشدنا الله إلىٰ ذلك في كثير من الآيات .

منها قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وهذه الآية ، وإن سيقت للاستدلال علىٰ توحيد الألوهية الذي تقدم قبلها في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) . إلا أنها تدل دلالة قاطعة علىٰ توحيد الربوبية ، فإن استحقاقه ـ تعالىٰ ـ للعبادة ، واختصاصه بها فرع عن وجوده ، وانفراده بالخلق ، والتدبير ، والتصريف ، والتقدير .

ومنها قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (٣) .

فهذه الآيات ، وإن ذكرت لتنزيه الله ـ تعالىٰ ـ وتقديسه عما ظنه به منكرو البعث ، وسيقت لإثبات قدرته علىٰ المعاد . كما يرشد إليه ما قبلها من الآيات ، فهي دليل ـ أيضاً ـ علىٰ وجوب وجوده ـ تعالىٰ ـ لاستناد ما ذكر في الآيات من المخلوقات إليه . وحدوثه بقدرته ، ولا يعقل ذلك إلا إذا كان واجب الوجود .

فمن نظر إلىٰ ما ترشد هذه الآيات ، ونحوها من سنن الله في العالم نظراً ثاقباً ، وفكر في عجائب خلقها ، وحسن تنسيقها ، وشدة أسرها تفكيراً عميقاً ،

(١) سورة البقرة ، الاية : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة ، الاية : ١٦٣ .

(٣) سورة الواقعة ، الآيات : ٥٨ : ٦٥ .

وبحث في أحكامها ، وبديع صنعها بحثاً بريئاً من الهوىٰ ، والحمية الجاهلية ، وأنصف مناظره من نفسه ، فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق ، والإذعان له كبر يرديه ، ولا عناد يطغيه ، اتضح له طريق الهدىٰ .

واضطره ذلك أن يستيقن النتيجة ، ويؤمن من أعماق قلبه ، بأن للعالم ربًّا خلاَّقاً فاعلاً مختاراً حكيماً في تقديره ، وتدبيره أحاط بكل شيء علماً ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

ومع قيام الدليل ، ووضوح السبيل ، تعامىٰ فرعون موسىٰ عن الحق ، وتجاهل ما استيقنته نفسه ، وأنكر بلسانه ماشهدت به الفطرة ، ودلَّ عليه العقل من وجود واجب الوجود ، فأقام موسىٰ عليه الحجة ، بدلالة الأثر علىٰ المؤثر ، والصنعة علىٰ الصانع ، ووجود العالم ، وعظم خلقه علىٰ وجود الخالق ، وعظيم قدرته ، وسعة علمه ، وكمال حكمته ، فغلبه بحجته .

وذلك بيِّن واضح فيما حكاه الله عنهما من الحوار ، والسؤال ، والجواب :

قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (١) .

فانظر كيف وقف موسىٰ موقف من يصدع بالحق ، ويقيم عليه البرهان ؟

وكيف وقف فرعون من موسىٰ موقف السفهاء، لا يملك إلا الشتم ، والسباب ، والسخرية ، والاستهزاء ، والتهديد بأليم العذاب ؟!! .

وقال ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٣ـ٢٩ .

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ (١) .

وقال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وإن فرعون حينما أخذته الحجة ، وانتصر عليه موسىٰ ، لم يبق بيده سلاح إلا التمويه علىٰ قومه ، وإنذار موسىٰ ، ومن آمن به أن يذلّهم ، ويذيقهم العذاب الأليم .

وأنّىٰ له ذلك ! والله من ورائهم محيط ؟! وقد كتب علىٰ نفسه أن يجعل العاقبة للمتقين .

وقال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ (٣) .

وقد ورث ذلك الزيغ ، والإلحاد أناس ظهروا في عصور متعاقبة بأسماء مختلفة ، واشتهروا بألقاب متنوعة .

فتارة يسمون بالدهريين : وأخرىٰ برجال الحقيقة ، ووحدة الوجود . وأحياناً بالشيوعيين ، وأخرىٰ بالوجوديين . (اللقب الجديد) وآونة بالبهائيين .

إلىٰ غير ذلك من العبارات التي اختلفت حروفها ومبانيها ، وائتلفت مقاصدها ، واتحدت معانيها ، فكلها ترمي إلىٰ غرض واحد ، وتدور حول محور واحد ، هو أنه ليس للعالم رب يخلق ويدبر ، وليس له إله يُعبد ويُقصد .

وبما تقدم من دليل حاجة الممكن إلىٰ موجد ، ودليل وجوب وجوده ـ تعالىٰ ـ يظهر لك فساد مذهبهم ، وخروجه عن مقتضىٰ النظر ، وموجب العقل ، وما

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) سورة النمل ، الآيات : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ١٠٣ .

يصدّق ذلك ، ويؤيده من أدلة السمع .

فإن زعم زاعم منهم بعد ذلك ، أن وجود العالم وليد الصدفة والإتفاق .

أو أنه نشأت أطواره عن تفاعل بين عناصر المادة ، فتفرقت إلىٰ وحدات بعد اجتماع ، أو اجتمعت ، وائتلفت بعد تفرق ، واختلاف .

وصار لتلك الوحدات ، أو المركبات من الخواص ما لم يكن لها قبل هذا التفاعل ، وبذلك تجددت الظواهر ، وحدث ما نشاهده من تغيير ، وآثار مع جريانها علىٰ سنة لا تتبدل ، وناموس لا يختلف ، ولا يتغير .

قيل له : من الذي أودع تلك المادة طبيعتها ، وأكسبها خواصها ، فإنها إن كانت لها من ذاتها ، ومقتضىٰ حقيقتها لم تقبل التغير والزوال لأن ما بالذات لا يتخلف ولا يزول ، وقد رأيناها تتبدل ، فلابدّ لها من واهب يهبها ، وفاعل مختار حكيم عليم يدبّرها ، ويضعها في محالّها ، وليس ذلك من المادة وحدها ، ولا من خواصها ، أو طبيعتها القائمة بها ، فإنها ليس لها من سعة العلم ، وكمال الحكمة ، وشمول المشيئة ، وعظيم القدرة ما ينتظم معه الكون علىٰ ما نشاهد من إحكام تبهر العقول دقّته وجماله ، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب ما فيه من شدة الأسر ، وقوة الربط بين وحداته ، كمال التناسب ، والتكافؤ بين أجزئه ، وقيام كل من الآخر مقام الخادم من سيده ، والراعي من رعيته .

ألا إن الطبيعة صمّاء لا تسمع ، بكماء لا تنطق ، عمياء لا تبصر ، جاهلة لا تعلم ، مسخّرة لمن أودعها المادة ، خاضعة لتصريفه وتقديره ، سائرة علىٰ ما رُسِمَ لها من سُنن لا تعدوها ، ونواميس لا تخرج عنها ، فأنىٰ يكون لها خلق وإبداع أو إليها تنظيم وتدبير أو منها وحي وتشريع ؟ ! إنّما ذلك إلىٰ الله وحده ، تعالىٰ الله عمّا يقول الملحدون : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (١) .

---

(١) سورة الإنسان ، الاية : ٢٨ .

﴿ تبارَكَ الَّذي بيَده الْمُلْكُ وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ . الَّذي خلَقَ الْمَوْتَ والْحَيَاةَ ليَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

ولا يعيب الحق بعد ذلك أن يتنكب طريقه من مسخت فطرته ، واتَّخذ إلهه هواه ، وأضله الله علىٰ علم ، وختم علىٰ سمعه ، وقلبه ، وجعل علىٰ بصره غشاوة ، ولا يضير الدعاة إلىٰ الحق أن عدل عن طريقه المستقيم من انحرف مزاجه ، أو غلبته شهوتُه ، فخشي أن تحدّ الشريعة من نزعاته الخبيثة ، وتحول دون وصوله إلىٰ نزواته الدنيئة ، أو أطغاه كبره وسلطانه ، وخاف أن تذهب الشريعة بزعامته الكاذبة ، وسلطانه الجائر ، فوقف في سبيلها ، ولج في خصامها بغياً وعدواناً . فإن الله ناصر دينه ، ومؤيِّد رسله ، وأوليائه .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) .

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٣) .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الملك ، الآيات : ١ـ٥ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة محمد ، الآية : ٧ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧ .

المسألة الرابعة

فى أنواع التوحيد

أنواع التوحيد ثلاثة :

١ـ توحيد الربوبية .

٢ ـ توحيد الأسماء والصفات . ويقال له أيضاً : توحيد الخبر ، وتوحيد المعرفة والإثبات .

٣ ـ توحيد العباد ويسمىٰ ـ أيضاً ـ : توحيد الإلهية ، وتوحيد الإرادة والقصد، وتوحيد الطلب .

توحيد الربوبية

أما توحيد الربوبية : فهو توحيد الله ـ تعالىٰ ـ بأفعاله . والإقرار بأنه خالق كل شيء ومليكه ، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير .

فهو الذي يُحيي ويُميت ، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو الذي يرسل الرسل ، ويشرّع الشّرائع ، ليُحق الحقّ بكلماته ، ويُقيم العدل بين عباده شرعاً وقدراً إلىٰ غير ذلك مما لا يحصيه العدّ ، ولا تُحط به العبارة . وهذا النوع من التوحيد قد أقرت به الفطرة ، وقام عليه دليل السمع والعقل ، ولم يعرف عن طائفة بعينها القول بوجود خالقين متكافئين فى الصفات والأفعال . ومن نقل عنهم من طوائف المشركين نسبة شىء من الآثار والحوادث لغير الله ، كقوم هود ، حيث قالوا فيما حكاه الله عنهم :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (١) . فإن ما نسبوه إلىٰ آلهتهم إنما كان

---

(١) سورة هود ، الآية : ٥٤ .

لزعمهم أنها وثيقة الصلة بالله ، وأنها شفيعة لمن عبدها ، وتقرّب إليها بالقرابين عند الله ، في جلب النفع له ، ودفع الضرر عنه .

ومن أجل هذه الشائبة من الشرك في الربوبية نبَّه الله على بطلانه ، وأنكر على من زعمه فقال ـ تعالى ـ : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

فبيَّن ـ سبحانه ـ أنه لو كان معه إله يشركه في استحقاقه العبادة لكان له خلق ، وملك ، وقهر ، وتدبير . إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، ليرجى خيره ونفعه ، فيطاع أمره ، وينفذ قصده ، ويخشى بأسه وبطشه . فلا يُعتدى على حدوده ، ولا يُنتهك حماه ، ولو كان له خلق ، وتدبير ، وملك ، وتقدير لعلا على شريكه ، وقهره إن قوي على ذلك ليكون له الأمر وحده ، ولذهب بخلقه ، وتفرَّد بملكه دون شريكه . إن لم يكن لديه القوة والجبروت ما يفرض به سلطانه على الجميع . فإن من صفات الرب ـ تعالى ـ كمال العلو ، والكبرياء ، والقهر ، والجبروت . وفي معنى هذه الآية قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٢) .

* إذا كان المعنى المراد لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته . وقيل : المعنى لاتخذوا سبيلاً إلى عبادته ، وتأليهه ، والقيام بواجب حقه وابتغوا إلى رضاه سبيلاً . كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات : ٩١ـ٩٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٤٢ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٥٧ .

* وقد استخلص بعض العلماء من ذلك دليلاً سموه : دليل التمانع ، استدلوا به على توحيد الربوبية . قالوا : لو أمكن أن يكون هناك ربَّان يخلقان . ويدبران أمر العالم لأمكن أن يختلفا بأن يريد أحدهما وجود شيء ، ويريد الآخرعدمه ، أو يريد أحدهما حركة شيء ، ويريد الآخر سكونه ، وعند ذلك إما أن يحصل مراد كل منهما ، وهو محال . لما يلزمه من اجتماع النقيضين ، وإما أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر فيكون الذي نفذ مراده دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون ربًا .

توحيد الأسماء والصفات

* وأما توحيد الأسماء والصفات : فهو أن يسمى الله ويوصف ، بما سمى ووصف به نفسه ، أو سمَّاه ، ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ، ولا تأويل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل .

ومن تبصر في العالم ، وعرف شئونه وأحواله تبين له كمال تعلقه خلقًا وأمرًا بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وارتباطه بها أتم ارتباط ، وظهر له أن الوجود كله آيات بينات ، وشواهد واضحات على أسماء الله ، وصفاته .

وقد ذكر (ابن القيم) في : « مدارج السالكين » طريقين لإثبات الصفات :

الإحسان ، والنفع ، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه ، وإحسانه ، ووجوده ، وما فيه من آثار الكمال يدل على أن خالقه أكمل منه ، فمعطي الكمال أحق بالكمال .

وخالق الأسماع ، والأبصار ، والنطق أحق أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً .

وخالق الحياة ، والعلوم ، والقدر ، والإرادات أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه ، فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء على إرادة الرب ـ سبحانه ـ ومشيئته ، وحكمته التي اقتضت التخصيص ، وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب على الوجه المطلوب دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات ، وعلى سمعه لسؤال عبيده ، وعلى قدرته على قضاء حوائجهم ، وعلى رأفته ورحمته بهم ، والإحسان إلى المطيعين ، والتقرب إليهم ، والإكرام لهم ، وإعلاء درجاتهم يدل على محبته ورضاه . وعقوبته للعصاة ، والظلمة ، وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب . والسخط ، والإبعاد والطرد ، والإقصاء يدل على المقت ، والبغض .

* فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل ، ولهذا دعا ـ سبحانه ـ عباده إلىٰ الاستدلال بذلك علىٰ صفاته . فهو يثبت العلم بربوبيته ، ووحدانيته ، وصفات كماله بآثار صنعته المشهودة ، و القرآن مملوء ، فيظهر شاهد اسم الخالق من المخلوق نفسه ، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق ، والمرزوق ، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة فىٰ العالم ، واسم المعطىٰ من وجود العطاء الذىٰ هو مدرار لا ينقطع لحظة ، واسم الحليم من حلمه علىٰ الجناة ، والعصاة ، وعدم معاجلتهم بالجزاء ، واسم الغفور ، والتواب من مغفرة الذنوب ، وقبول التوبة ، ويظهر اسم الحكيم من العلم بما فىٰ خلقه ، وأمره من الحكم ، والمصالح، ووجود المنافع .

* وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنىٰ له شاهد فىٰ خلقه وأمره . يعرفه من عرفه ، ويجهله من جَهِلَه . فالخلق ، والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته . وكل سليم العقل ، والفطرة يعرف قدرة الصانع ، وحذقه علىٰ غيره ، وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوىٰ والسفلىٰ ، وهذه المخلوقات من بعض صنعه ، وإذا اعتبرت المخلوقات ، والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة علىٰ النعوت ، والصفات ، وحقائق الأسماء الحسنىٰ ، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمىٰ ، ومكابرة، ويكفىٰ ظهور شاهد الصنع فيك خاصة ، كما قال ـ تعالىٰ ـ :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب ـ جلّ جلاله ـ ونعوته ، وأسمائه ، هي كلها تشير إلىٰ الأسماء الحسنىٰ ، وحقائقها ، وتنادىٰ بها وتدل عليها ، وتخبر بها بلسان النطق والحال كما قيل :

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

تأمل سطور الكائنات فإنهـــا من الملك الأعلىٰ إليك رسائـل

وقد خط فيها لو تأملتهـــــا ألا كل شيء ما خلا الله باطـــل

تشير بإثبات الصفات لربهـــا فصامتها يهدىٰ ومن هو قائـــل

فلست ترىٰ شيئًا أدل علىٰ شيء من دلالة المخلوقات علىٰ صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلاً، وحسًا، وفطرة، ونظرًا، واعتبارًا. ا. هـ.

توحيد الإلهية

وأما توحيد الإلهية : فهوإفراد الله بالعبادة : قولاً ، وقصدًا ، وفعلاً ، فلا يُنذر إلا له ، ولا تُقرَّب القرابين إلا إليه ، ولا يُدعىٰ فىٰ السَّراء والضراء إلا إياه، ولا يُستغاث إلا به ،ولا يُتوكّل إلا علهي ، إلىٰ غير ذلك من أنوع العبادة.

وهذا النوع هو الذىٰ من أجله بعثت به الرسل ،وأنزلت به الكتب ، وبدأ به كل رسول دعوته ، ووقعت فيه الخصومة بينه وبين أمته .

وهو الذي من أجله شرع الجهاد ،وقامت الحرب علىٰ ساقها بين الموحدين والمشركين .

والطريق الفطرىٰ لإثبات توحيد الإلهية الاستدلال عليه بتوحيد الربوبيَّة . فإن قلب الإنسان يتعلق أولاً بمصدر خلقه ، ومنشأ نفعه وضره ، ثم ينتقل بعد ذلك إلىٰ الوسائل التىٰ تقربه إليه ، وترضيه عنه ، وتوثق الصلات بينه وبينه ، فتوحيد الربوبية باب لتوحيد الإلهية .

من أجل ذلك احتجّ علىٰ المشركين ، وأرشدهم رسوله إلىٰ هذه الطريقة ، وأمره أن يدعو به قومه ، قال ـ تعالىٰ ـ :

﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (١) .

فقد استدل بتفرده بالربوبية ، وكمال التصرف ، وحمايته ما يريد أن يحميه علىٰ استحقاقه وحده للعبادة ، ووجوب إفراده بالإلهية قال ـ تعالىٰ ـ :

(١) سورة المؤمنون ، الآيات : ٨٤ـ٨٩ .

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) . فأخبر بأن البعث

استدل - سبحانه - على قدرته على البعث ، وتفرده باستحقاقه بآياته الكونية ، فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢) .

إلى قوله - تعالى - : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣) .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ . إلى أن قال : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) . فجعل - سبحانه - تفرده بالربوبية خلقًا للحاضرين والسابقين ، وتمهيده الأرض ، ورفعه السماء بغير عمد يروها ، وإنزاله الأمطار ليحيي بها الأرض بعد موتها ، ويخرج بها رزقًا لعباده بابًا إلى توحيد الإلهية وآية بيّنة على استحقاقه وحده العبادة . وقال - تعالى - :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ . إلى أن قال : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٥) .

فقرّرهم - سبحانه - بما لا يسعهم إنكاره ، ولا مخلص لهم من الاعتراف به من تفرده بالرزق ، والملك ، والتدبير ، والإحياء ، والإماتة ، والبدء ، والإعادة

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١ .
(٢) سورة النحل ، الآيات : ٤-٥ .
(٣) سورة النحل ، الآيات : ١٧-٢٢ .
(٤) سورة البقرة ، الآيات : ٢١-٢٢ .
(٥) سورة يونس ، الآيات : ٣١ - ٣٥ .

، والإرشاد ، والهداية ليقيم به عليهم الحجة في وجوب تقواه دون سواه .

وينكر عليهم حكمهم الخاطئ ، وشركهم الفاضح ، وعكوفهم على من لا يملك لهم ضراً ولا نفعًا ، ولا حياة ولا نشوراً . قال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

فأنكر ـ سبحانه ـ أن يكون معه من خلق ،ودبَّر ، أو صرف ، وقدَّر ، أو يُجيب المضطرّ إذا دعاه ، ويكشف السّوء ، أو يولّي ، أو يعزل ، وينصر ، ويخذل ، أو يُنقذ من الحيرة ،ويهدئ من الضلالة ، أو يبدئ ويعيد ، ويبسط الرزق لمن يشاء ،ويَقْدِر . إلى غير ذلك مما استأثر الله به .

وهذا مما استقرّ فى فطرتهم ، ونطقت به ألسنتهم ، وبه قامت الحجة عليهم فيما دعتهم إليه الرسل من توحيد العبادة . وما ذكر من الآيات قليل من كثير .

ومن سلك طريق القرآن فى الاستدلال ، واهتدى بهدى الأنبياء فى الحجاج اطمأنت نفسه ،وقوى يقينه ، وخصم مناظره (أي انتصر) عليهم . فإن في ذلك الحجة ، والبرهان من جهتين :

الأولى : أنه خبر المعصوم .

والثانية : أنه موجب الفطرة ، ومقتضى العقل الصحيح .

---

(١) سورة النمل ، الآيات : ٥٩ـ ٦٤ .

المسألة الخامسة

في الفرق بين النبي والرسول

وبيان النسبة بينهما

النبيّ : مشتقٌّ من النبأ ، بمعنىٰ : الخبر ، فإن كان المراد أنه يخبر أمته بما أوحىٰ الله إليه ، فهوفعيل ، بمعنىٰ : فاعل ، وإن كان المراد أن الله يخبره بما يوحىٰ إليه ، فهو فعيل ، بمعنىٰ مفعول ، ويصحّ أن يكون مأخوذًا من النبء (بالهمزة وسكون الباء) ، أو النبوة ، أو النباوة (بالواو) ، كلها بمعنىٰ : الإرتفاع والظهور ، وذلك لرفعة قدر النبىٰ ، وظهور شأنه وعلوّ منزلته .

والفرق بين النبي والرسول : أن الرسول من بعثه الله إلىٰ قوم ، وأنزل عليه كتابًا ، أو لم ينزل عليه كتابًا لكن أوحىٰ إليه بحكم لم يكن في شريعة من قبله ؛ والنبيّ من أمره الله أن يدعو إلىٰ شريعة سابقة دون أن ينزل عليه كتابًا ، أو يوحي إليه بحكم جديد ناسخ أو غير ناسخ ، وعلىٰ ذلك ، فكل رسول نبي ، ولا عكس ، وقيل : هما مترادفان ، والأول أصح .

٢ ـ الرسالة

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الدين ، فلا يستقيم لأحد دين ولا يُقْبلُ منه عمل إلا إذا أيقن برسالتهم ، وأذعن لكل ما جاؤا به من الشرائع كل حسب طاقته وبقدر ما بلغه من ذلك إجمالا أو تفصيلا ، قال تعالى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) ، وفي الحديث **«أن جبريل سأل النبي ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عن الإيمان ، فبينه بقوله : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره »** (٢) .

بيان كفر من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض

ومن زعم أنه آمن ببعض الرسل دون بعض لم يقبل منه ذلك ، وكان في حكم من كفر بالجميع ، وذلك لأمرين :

الأول : أن من تقدم من الرسل قد بشر بمن تأخر منهم ، وأُخذ عليه وعلى من تبعه العهد والميثاق إن أدركهم أن يؤمنوا به وينصروه ، وأن من تأخر منهم مصدق لمن بين يديه ، فمن كفر بواحد منهم تقدم أو تأخر فهو كافر بجميعهم .

الثاني : أن الأمر الذي ثبت به رسالة من آمن به منهم ، ومن آجله صدقه ، وهو المعجزة ، قد أجرى الله مثله على يد من كفر به من الأنبياء تصديقاً لهم في دعوى الرسالة ، قال ﷺ **« ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**(٣) ، فكان إيمانه بمن آمن به ، وكفره بغيره منهم اتباع للهوى لا لدليل

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٨) .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٧٤) ومسلم رقم (١٥٢) .

النبوة وإلا لآمن بالجميع ، ومن كان إيمانه تبع هواه ولو تغير هواه لتغير إيمانه فليس بمؤمن في حكم الشريعة ، قال تعالىٰ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (١) .

والقول في رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام يتشعب شعبا كثيرة ويرجع إلىٰ مباحث عدة ، يرجع إلىٰ إمكان أن يوحي الله إلىٰ بعض من يصطيفه من عباده بشريعة ليهدي بها أمته سواء السبيل ، ثم إلىٰ حاجة العالم إلىٰ هذه القيادة الرشيدة والشريعة المستقيمة ليكون إرسالهم علىٰ مقتضىٰ الحكمة وموجب العدالة الإلهية ، ثم إلىٰ بيان ما يؤيدهم الله به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي تدل علىٰ صدقهم فيما ادعوه من الرسالة والبلاغ عن الله لتقوم بذلك الحجة وينقطع العذر ، ثم إلىٰ بيان ما يتعلق بذلك من تنوع المعجزات وحكمته ، وبيان الفوارق بين المعجزات والسحر والكهانة ، وبيان ما يُعِدُّ الله به رسله قبل الرسالة من السيرة الحميدة والأخلاق الفاضلة ؛ ليكون ذلك أقرب إلىٰ أن تستجيب لهم أممهم ، وتتقبل عنهم ما دعوهم إليه .

وقد تكفل الله ببيان ذلك كله خبراً وعقلا وفطرة فيما أنزل علىٰ رسله ، فعلمهم سبحانه طريق الحجة والبرهان التي يخضع لها العقل الصريح ، وسلك بهم الطريقة المثلىٰ التي لا يرتاب فيها إلا من سفه نفسه وأنكر فطرته .

وإليك تفصيل ذلك ؛ لتعلم أن الشرائع الإلهية تعتمد في أصولها الحجة والإقناع ، وإن جاء في فروعها وتفاصيل أصولها ما قد يعجز العقل عن إدراك حكمته ، فطريقه ثبوت مثل هذا الخبر عن المعصومين عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) سورة النساء، الآية : ١٥٠ ، ١٥١ .

مباحث الكلام على الرسالة

المبحث الأول

١ـ إمكان الوحي والرسالة

لا يبعد في نظر العقل ، ولا يستحيل في تقدير الفكر أن يختص واهبُ النعم ومفيض الخير ـ سبحانه ـ بعض عباده بسعة في الفكر ، ورحابة الصدر ، وحسن قيادة ، وكمال صبر ، وسلامة في الأخلاق ؛ ليعدهم بذلك لتحمل أعباء الرسالة ، ويكشف لهم عما أخفاه عن غيرهم ، ويوحي إليهم بما فيه سعادة الخلق وصلاح الكون رحمة للعالمين ، وإعذاراً إلى الكافرين ، وإقامة للحجة على الناس أجمعين ، فإنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء وهو الفاعل المختار ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وهو على كل شيء قدير .

وآية ذلك : أنا نشاهد أن الله سبحانه خلق عباده على طرائق شتى في أفكارهم ومذاهب متابينة في مداركهم ، فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه واطلع من الكون على كثير من أسراره ، حتى وصل بما منحه الله من ثاقب الفكر ، ويسر له من التجارب إلى أن اخترع للناس ما رَفَع إليه من أجله أولو الألباب رؤوسهم إعجاباً به ، وشهادة له بالمهارة ، وأنكره عليه صغار العقول ، وعدوه شعوذة وكهانة أو ضربا من ضروب السحر ، ولم يزالوا كذلك حتى استبان لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفي عليهم فأذعنوا له وأيقنوا بما كانوا به يكذبون .

ومنهم من ضعف عقله ، وضاقت مداركه فعميت عليه الحقائق واشتبه عليه الواضح منها ، فأنكرت البديهيات ، ورد الآيات البينات ، ومنهم من انتهى به انحراف مِزاجه واضطراب تفكيره إلى أن أنكر ما تدركه الحواس كطوائف

السوفسطائية [١] .

وكما ثبت التفاوت بين الناس في العقول والأفكار بضرورة النظر وبديهة العقل ، ثبت التفاوت بينهم - أيضاً - في قوة الأبدان وضعفها ، وسعة الأرزاق وضيقها ، ونيل المناصب العالية والاستيلاء على زمام الأمور وقيادة الشعوب ، والحرمان من ذلك إما للعجز وإما للقصور أو التقصير وإما لحكم أخرى يعلمها بارئ الكائنات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ، وربما كُشِفَ الغطاءُ عن الكثير منها لمن تدبر القرآن وعرف سيرة الأنبياء وتاريخ الأمم وما جرى عليها من أحداث .

فمن شاهد ما مضت به سنة الله في عباده من التفاوت بينهم في مداركهم وقواهم وإرادتهم ، وغير ذلك من أحوالهم لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع ، ويستقين أن الله ينبئ من شاء من خلقه ويصطفي من أراد من عباده ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٢] ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٣] ، ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ

---

(١) السوفسطائية : هم قوم مجادلة يجادلون ويتلاعبون بالألفاظ فيثبتون ما يريدون اثباته بالجدل الباطل ، وينفون ما يريدون نفيه بالباطل وهم ثلاث فرق :
العنادية : وهي التي تنكر حقائق الشياء الحسية ، والعقلية وتكذب حواسها وعقلها فيما تشاهد . أو تدرك ، وتراه وهما وخيالا .
الثانية : اللأدرية وهي التي تشك في حقائق الأشياء وتتردد فيها فتقول : لا أدري ألها وجود أم لا ؟ .
الثالثة : العندية وهي التي ترى أن ليس للأشياء حقيقة ثابتة في نفسها ، بل تتبع إدراك من أدركها وعقيدة من خطرت بباله ، وهذه مذاهب باطلة بضرورة الحس ، والعقل . والقائلون بها قد سقطوا عن رتبة البحث والمناظرة .
(٢) سورة النساء ، الآية : ١٦٥ .
(٣) سورة القصص ، الآية : ٦٨ .

قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] .

بل هذا الحوار وأمثاله مما دار بين الرسل وأممهم يدل على أنهم لم يكونوا ينكرون أصل الرسالة ، ولم يكونوا يستبعدون أن يصطفي الله روحا طيبة لوحيه ، أو يختار نفسا طاهرة لتبليغ رسالته وهداية خلقه ، لكنهم استبعدوا أن يكون ذلك الرسول من البشر ، وظنوا خطأ أنه إنما يكون من الملائكة ، زعما منهم أن البشرية تنافي الرسالة ، فمهما صفت روح الإنسان وسمت نفسه واتسعت مداركه فهو في نظرهم أقل من أن يكون أهلا لأن يوحي الله إليه ، وأحقر من أن يختاره سبحانه لتحمل أعباء رسالته . وقد ذكر الله عنهم هذه الشبهة ، وردها بما لا يسع العاقل إلا قبوله والإذعان له ، ومن نظر في الكتب المنزلة وتصفح ما رواه علماء الأخبار مما دار بين الأنبياء وأممهم من الجدال والحجاج اتضح له ذلك ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الآيات إلى قوله ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [2] ، فانظروا كيف فروا من ميدان المناظرة إلى استعجال الهلاك ، وطلبوا ذلك من نوح ، فبين لهم أن ذلك إلى الله لا إليه ، إن عليه إلا النصح والبلاغ المبين وإقامة الحجة والبرهان ، وقال تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[3]، فذكر

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة هود ، الآيات : ٢٥ ـ ٣٣ .

(٣) سورة القمر ، الآيات : ٢٣ ـ ٢٦ .

شبهتهم ثم ردها بما آتاه من المعجزة الدالة على صدقه ، وبنصره وإهلاكهم ؛ فإن العاقبة للمتقين .

وقال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾(١) ، وقال تعالى ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، إلى غير ذلك من الآيات التي دلت على إنكار الأمم لم يكن لأصل الرسالة إنما كان لبعث رسول إليهم من جنسهم .

ولو قال قائل : إن أئمة الكفر وزعماء الضلالة كانوا يوقنون بإمكان أن يرسل الله رسولا من البشر ، غير أنهم جحدوا ذلك بألسنتهم حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، وتمويهاً على الطغام من الناس وخداعاً لضعفاء العقول ، وتلبيسا عليهم خشية أن يستجيبوا إلى مقتضى الفطرة ، ويسارعوا إلى داعي الدين ومتابعة المرسلين ـ لو قال ذلك قائل ـ ما كان بعيداً عن الحقيقة ولا مجافيا للصواب ، بل بدرت منهم البوادر التي تؤيد ذلك وتصدقه ، وسبق إلى لسانهم ما يرشد البصير إلى ما انطوت عليه نفوسهم من الحسد والاستكبار أن يوتى الرسل ما أوتوا دونهم ، وأن ينالوا من الفضيلة وقيادة الأمم إلى الإصلاح ما لم ينل هؤلاء ، قال تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٣) ، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

(٢) سورة إبراهيم ، : الآيات : ١٠ـ١١ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٤ .

عَظِيمٍ ﴾[١] ، و قال ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[٢] .

هذا وليس بدعا أن يختار الله نبياً من البشر ، ويبعث إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، بل ذلك هو مقتضى الحكمة وموجب العقل وما جرت به سنة الله في أنبيائه .

فإن الله سبحانه قد مضت سنته في خلقه أن يكونوا أنواعاً مختلفة على طرائق شتى وطبائع متباينة ، لكل نوع غرائزه وميوله ، أو خواصُّه ومميزاته التي تقتضي الأنس والتآلف بين أفراده ، وتساعد على التفاهم والتعاون بين جماعاته ، ليستقيم الوجود ، وينتظم الكون ، فكان اختيار الرسول من الأمة أقرب إلى أخذها عنه وأدعى إلى فهمها منه وتعاونها معه لمزيد التناسب وإمكان الإلف بين أفراد النوع الواحد ، ولو كان عمار الأرض من الملائكة لاقتضت الحكمة أن يبعث الله إليهم ملكاً رسولا ، وقد أرشد الله إلى ذلك في رده على من استنكر أن يُرْسَلَ إلى البشر رسول منهم ، قال تعالى ﴿ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[٣] ، ولكن شاء الله أن يجعل عمار الأرض من البشر ، فاقتضت حكمته أن يرسل إليهم من أنفسهم ، بل اقتضت حكمته ما هو أخص من ذلك ليكون أقرب إلى الوصول للغاية ، وتحصيل المقصود من الرسالة فكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه ، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة الزخرف ، الآيات ٥١ ـ ٥٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآيات: ٩٤ ـ ٩٥ .

بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

ولو قدر أن الله أجاب الكفار إلىٰ ما طلبوا من إرسال ملكٍ لجعل ذلك الملك في صورة رجل ؛ ليتمكنوا من أخذ التشريع عنه والاقتداء به فيما يأتي ويذر ، ويخوض معهم ميادين الحجاج والجهاد ، وإذ ذاك يعود الأمر سيرته الأولىٰ ، كما لو أرسل الله رسوله من البشر ، ويقعون في لبس وحيرة ، جزاءً وفاقاً ، قال تعالىٰ ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (٢) .

ومن نظر في آيات القرآن ، وعرف تاريخ الأمم تبين له أن سنة الله في عباده أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ، قال تعالىٰ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالىٰ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (٤) ، وفي ذلك الرد الواضح علىٰ من زعم منافاة البشرية للرسالة ببيان سنة الله في رسله وحكمته في اختيارهم علىٰ نحو يكفل المصلحة وينتهي بالأمة إلىٰ المقصود (٥) .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآيات : ٨ ـ ٩ .

(٣) سورة النحل ، الآيات : ٤٣ ـ ٤٤ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية : ٢٠ .

(٥) لمزيد من الفائدة في عدم تنافي البشرية مع الرسالة راجع تفسير سورة الأنبياء للشيخ عبد الرزاق عفيفي ضمن هذا المجموع .

المبحث الثاني

٢ـ حاجة العالم إلى الرسالة

الأفعال الاختيارية منها ما تحمد عاقبته ، فيجمل بالعاقل فعله والحرص عليه، ولو ناله في سبيل تحصيله حرج ومشقة ، وأصابه منه في عاجل أمره كثير من الآلام . ومنها ما تسوء مغبته ، فيجدر بالعاقل أن يتماسك دونه ، وأن يتنكب طريقه خشية شره ، وطلباً للسلامة من ضره وإن كان فيه ما فيه من اللذات العاجلة التي تغري الإنسان بفعله ، وتخدعه عما فيه سلامته .

غير أن العاقل قد يَقْصر في كثير من شئونه عن التمييز بين إدراك ما قصر عنه إدراكه . وقد يعجز كلياً عن العلم بما يجب عليه علمه ؛ لأنه ليس في محيط عقله، ولا دائرة فكره ، مع ما في علمه به من صلاحه وسعادته ، وذلك كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلا ، فكان في ضرورة إلىٰ من يهديه الطريق في أصول دينه ، وقد يتردد في أمر إما لعارض هوىٰ وشهوة أو لتزاحم الدواعي واختلافها ، فيحتاج إلىٰ من ينقذه من الحَيْرة ، ويكشف له عن حجاب الضلالة بنور الهدىٰ ، فبان بذلك حاجة العالم إلىٰ رسول يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ، ويكلمهم بمعرفة ما قصرت عنه أفهامهم ، ويوقفهم علىٰ حقيقة ما عجزوا عنه ، ويدفع عنهم آلام الحيرة ومضرة الشكوك .

أضف إلىٰ ذلك : أن تفاوت العقول وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب ، وذلك يفضي إلىٰ سفك الدماء ونهب الأموال والاعتداء علىٰ الأعراض وانتهاك الحرمات ، وبالجملة ينتهي إلىٰ تخريب وتدمير لا إلىٰ تنظيم وحسن تدبير ، ولا يرتفع ذلك إلا برسول يأتي بفصل الخطاب ، ويقيم الحجة ، ويوضح المحجة ، وينشر العدل ، فاقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب رحمة بعباده وإقامة للعدل بينهم ، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم ، وإعانةً لهم علىٰ أنفسهم ، وإعذارا إليهم ؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل

وأنزل الكتب ، ففي الحديث أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : **«تعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الجنة »** [١] .

ومما تقدم يعلم أن إرسال الله للرسل مما يدخل في عموم قدرته ، وتقتضيه حكمته فضلا من الله ورحمة ، والله عليم حكيم ، وهذا هو القول الوسط والمذهب الحق .

وقد أفرط المعتزلة فقالوا : إن بعثة الرسل واجبة على الله إبانة للحق ، وإقامة للعدل ورعاية للأصلح ، وهذا مبنى على ما ذهبوا إليه من القول بالتحسين والتقبيح العقليين وبناء الأحكام عليهما ـ ولولم يرد شرع ـ وهو أصل فاسد .

وتطرف البراهمة [٢] ، فأحالوا أن يصطفي الله نبياً ويبعث من عباده رسولا ، وزعموا أن إرسالهم عبث ، إما لعدم الحاجة إليهم اعتماداً على العقل في التمييز بين المصالح والمفاسد ، واكتفاء بما يدركه مما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد ، وإما لاستغناء الله عن عباده ، وعدم حاجته إلى أعمالهم ، خيراً كانت أو شراً ؛ إذ هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ، ولا يتضرر بمعصيتهم .

وقد سبق بيان عدم كفاية العقل في إدراك المصالح والمفاسد ، وحاجة العالم إلى رسالة تحقيقاً لمصالحهم ، مع غنى الله عن الخلق وأعمالهم ، فليس إرسالهم عبثا ، بل هو مقتضى الحكمة والعدالة .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٨٤٦ ، ٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩) . وأحمد في المسند (٤/ ٢٤٨) كلهم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله نه .

(٢) البراهمة : هم جماعة من حكماء الهند تبعوا فيلسوفا يسمى برهام فنسبوا إليه ، وقيل إنهم طائفة عبدت صنما يسمى برهم فنسبت إليه . والقصد بيان مذهبهم في الرسالة والرد عليه بما يدفع شبهتهم ، مع أن بعضهم قد اعترف برسالة آدم . وآخرين اعترفوا برسالة إبراهيم عليهما السلام .

المبحث الثالث

٣- طريقة الرسل في إثبات توحيد الألوهية و العبادة

لم يَدْعُ الأنبياء أممهم إلى الإيمان بما جاءوا به من الشرائع دون بينة أو برهان يكون شاهدَ صدقٍ على إثبات أن ما دعوهم إليه وحي من الله وشرعه الذي ارتضاه لعباده دينا ، ولم يلزموهم بذلك دون إقناع تقوم به الحجة ويسقط به العذر، بل تحدى كل رسول أمته بما آتاه الله من الآيات البينات ، والمعجزات الباهرات التي يخضع لها العقل السليم ، وتتصاغر أمامها قوى الشر ، وطلب منهم أن يأتوا بمثل ما ظهر على يده من خوارق العادات - وأنى لهم ذلك وهو من اختصاص واهب القوى والقدر - فلما عجزوا عنه كان دليلا واضحاً على صدقهم في دعوى الرسالة ، وأن ما جاءوا به شرع الله ودينه الحق .

فإن لله سبحانه من كمال الحكمة والعدالة وسعة الرحمة والجود وسابغ الكرم والإحسان ما يمتنع معه أن يؤيد متنبئاً كذابا يخدع العباد ويفسد عليهم أمر دينهم ودنياهم ؛ بل يستحيل في حكمه وعدله أن يبقى عليه أو يهمله ؛ لما في ذلك من التلبيس والتضليل وفساد الكون وتخريبه ، وهو شر محض ، والشر ليس إليه سبحانه ، ففي الحديث « **الخير كله بيديك والشر ليس إليك** » (١) .

وقد بين سبحانه أنه بالمرصاد لمن افترى عليه كذبا ، أو قال أُوحِيَّ إليَّ ولم يوحَ إليه شيء ، فقال تعالى ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ (٢) .

وإذا أبت حكمة الله وسعة رحمته أن يترك عباده سدى فلا يرسل إليهم

---

(١) حديث صحيح : رواه مسلم (٧٧١) . والنسائي ٢٠/ ١٣٠) ، وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً .

(٢)سورة الحاقة ، الآيات : ٤٤ - ٤٧ .

رسولا يأمرهم وينهاهم ، ويبين لهم معالم الهدىٰ وشرائع الحق ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حَيَّ عن بينة ، فأولىٰ في حكمه العدل ورحمته الواسعة أن يقضي علىٰ المتنبئين كذبا وافتراء ، وأن يعاجلهم بالعقوبة والهلاك رحمة للعالمين وتمييزا بين رسله الصادقين والمتنبئين الكاذبين .

المبحث الرابع

٤ـ الفرق بين المعجزة والسحر

كل ما لم تبلغه طاقة البشر ولم يقع في دائرة قدرتهم فهو معجز ، وقد تطلق المعجزة على ما خرج عن طاقة العامة من الخلق دون الخاصة ، كبعض المسائل العلمية المشكلة ، واختراع بعض الآلات والأجهزة الحديثة ونحوها مما لا يقوى عليه إلا الخواص من الناس ، كالغوص والسباحة وحمل الأثقال ، وهذا عجز نسبي يكون في مخلوق دون آخر .

* **والمراد من المعجزة** : هذا الأمر الخارق عن سنن الله العامة في خلقه الذي يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقاً له في دعواه وتأييداً له في رسالته مقروناً بالتحدي لأمته ومطالبهم أن يأتوا بمثله ؛ فإذا عجزوا كان ذلك آية من الله على اختياره إياه وإرساله إليهم بشريعته .

* **أما السحر** : فهو في اللغة كلّ ما دق ولطف وخفي سببه ، فيشمل قوة البيان وفصاحة اللسان ؛ لما في ذلك من لطف العبارة ودقة المسلك ، ويشمل النميمة ؛ لما فيها من خفاء أمر النمَّام وتلطفه في خداع من نَمَّ بينهما ليتم له ما يريد من الوقيعة ، ويشمل العزائم والعقد التي يعقدها الساحر وينفخ فيها مستعيناً بالأرواح الخبيثة من الجن ليصل بذلك في ـ زعمه ـ إلى ما يريد من الآحداث والمكاسب .

ويتلخص الفرق بين المعجزة والسحر فيما يأتي :

أ ـ المعجزة ليست من عمل النبي وكسبه ، إنما هي خلق محض من الله على خلاف سننه في الكائنات ، وقد طُلِب من محمد ﷺ آية ، فقال بإرشاد مولاه ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ [(١)] ، وقال لمن استعجلوا ما توعدهم به من أمر ربه ﴿مَا

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٩ .

عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴿٥٧﴾ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ (١). أما السحر فمن عمل الساحر وكسبه سواء أكان تعويذات أم بيانا أم نميمة أم غير ذلك ، وله أسبابه ووسائله التي قد تنتهي بمن عرفها ومهر فيها وعمل بها إلىٰ مسبباتها ، فليس خارقاً للعادة ولا مخالفاً لنظام الكون في ربط الأسباب بمسبباتها والوسائل بمقاصدها .

ب ـ المعجزة تظهر علىٰ يد مدعي النبوة ، لتكون آية علىٰ صدقه في دعوىٰ الرسالة التي بها هداية الناس من الضلالة وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور ، والأخذ بأيديهم إلىٰ ما ينفعهم في عقائدهم وأبدانهم وأموالهم . والسحر خلق ذميم أو حرفة أو صناعة يموه بها الساحر علىٰ الناس ويضللهم ، ويخدعهم بها عن أنفسهم وما ملكت أيديهم ، ويتخذها وسيلة لكسب العيش من غير حلِّه ، ويفرق بها بين المرء وزجه والصديق وصديقه ، وبالجملة يفسد بها أحوال الأمة في خفاء ، والناس عنه غافلون .

جـ ـ سيرة من ظهرت علىٰ يده المعجزة حميدة وعاقبته مأمونة ، فهو صريح في القول والفعل ، صادق اللهجة ، حسن العشرة ، سخي كريم عفيف عما في أيدي الناس . يدعو إلىٰ الحق وينافحُ (٢) عنه بقوة وشجاعة أما الساحر فسيرته ذميمة ومغبتة وخيمة ، خائن خدَّاع سيِء العشرة ، يأخذ ولا يعطي ، يدعو إلىٰ الباطل ، ويسعىٰ جهده في ستره خشية أن يفتضح أمره ويكشف سره فلا يتم له ما أراد من الشر والفساد .

د ـ من ظهرت علىٰ يده المعجزة يقود الأمم والشعوب إلىٰ الوحدة والسعادة ، ويهديها طريق الخير ، وعلىٰ يده يسود الأمن والسلام وتفتح البلاد ، ويكون العمران . والساحر آفة الوحدة ونذير الفرقة والتخريب والفوضىٰ والاضطراب .

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات : ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) ينافح : يدافع .

المبحث الخامس

٥ـ تنوع المعجزة مع بيان الحكمة في ذلك

آيات الأنبياء التي أيد الله بها رسله قد اختلفت أنواعها ، وتباينت مظاهرها وأشكالها إلا أنها تجتمع في أن كلا منها قد عجز البشر عن أن يأتوا بمثله منفردين أو مجتمعين ، فكانت بذلك شاهدَ صدقٍ على الرسالة وحجة قاطعة تخرس الألسنة وينقطع عندها الخصوم ، ويجب لها التسليم والقبول .

ويغلب أن تكون معجزة كل رسول مناسبة لما انتشر في عصره وبرز فيه قومه، وعرفوا بالمهارة فيه ؛ ليكون ذلك أدعى إلى فهمها ، وأعظم في دلالتها علي المطلوب ، وأمكن في الإلزام بمقتضاها .

ففي عهد موسى انتشر السحر ، ومهر فيه قومه حتى أثروا به على النفوس ، وسحروا أعين الناظرين ، وأوجس في نفسه خيفة منه من شهده وإن كان عالي الهمة قوي العزيمة ، فكان ما آتاه الله نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدرة ، وما يدرك بالأسباب والوسائل ، وقد أوضح الله ذلك في كثير من الآيات ، قال تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (١) ، ولهذا بهت السحرة وبطل ما جاءوا به من التمويه والتخييل وامتاز الحق من الباطل ، قال تعالى في بيان ذلك في المباراة التي كانت بين موسى عليه السلام والسحرة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة طه ، الآيات : ١٧ ـ ٢٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٤٦ ـ ٤٨ .

وفي عهد المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام برع بنو اسرائيل في الطب ، فكان مما آتاه الله أن يصور من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتىٰ بإذن الله ، إلىٰ غير ذلك من الآيات التي ثبت بها رسالته ، وقامت بها الحجة علىٰ قومه .

وفي عهد محمد ﷺ كان العرب قد بلغوا الغاية في الفصاحة وقوة البيان ، وجرت الحكمة علىٰ ألسنتهم ، حتىٰ اتخذوا ذلك ميداناً للسباق والمبارة ، فأنزل الله القرآن علىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام ، فكانت بلاغته وبيانه وما تضمنه من الحكم والأمثال إلىٰ جانب ما كان من تأبيد إعجازه كان ذلك من الأدلة والآيات التي تدل علىٰ صدقه في نبوته ورسالته قال ﷺ « **ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة** » [1] .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٧٤) . ومسلم (١٥٢) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المبحث السادس

٦ـ معجزات الأنبياء لا تنحصر فيما تحدى به كل نبي قومه

وليست معجزات موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام قاصرة علىٰ ما ذكر ، وإنما ذلك بيان لما تحدىٰ به كل منهم قومه ، وجعله قاعدة يبنىٰ عليها دعوته ، ويثبت بها شريعته وإلا فلهؤلاء وغيرهم من الأنبياء كثير من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات التي دلت علىٰ صدقهم سوىٰ ما تحدىٰ به كل نبي قومه ، منها ما يرجع إلىٰ سيرتهم قبل الرسالة ، فإن الله قد أعدهم لتحمل أعباء رسالته ، ومنها ما يرجع إلىٰ ثبات جأشهم وقوة بأسهم في مقام الدعوة والجهاد في سبيل الله نصرة للحق ونشراً له بأنفسهم وبمن آمن معهم ، وهم الأقل عدداً والأضعف جاها ، مع غنىٰ خصومهم وكثرة عددهم وعُدَدِهم وقوة سلطانهم ، إلىٰ غير ذلك مما يدل علىٰ صدق الداعي في دعوته ، وكمال يقينه بها، ومنها ما يرجع إلىٰ سلامة الشريعة التي يدعون إليها ، وحكمتهم في حمل الناس عليها ، وقوة حجاجهم في الدفاع عنها ، وما شوهد من آثارهم في صلاح من اهتدىٰ بها من الأمم في الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب وغير ذلك من أحوال الشعوب ، حتىٰ إذا حرفوها عن مواضعها وتأولوها علىٰ غير وجهها أو أعرضوا عنها وتركوا العمل بها دالت دولهم وساءت حالهم ، فإن العاقبة للمتقين ، والخيبة والخسران علىٰ المفسدين .

ومن ذلك يتبين أن الرسالة ليست شعوذة ولا كهانة ، فإن الرسل عُرفوا بالصدق والأمانة ، والشياطين إنما تنزل علىٰ من يجانسهم في الكذب والافتراء والإفك والبهتان ، قال تعالىٰ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (١) ، ولو لمست الشياطين السماء استراقا للسمع أو طلباً للوحي ما وجدوا إلىٰ ذلك سبيلا ، قال تعالىٰ في شأن القرآن

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(١) .

وليست الرسالة أيضاً من جنس ما تجود به قريحة الشعراء ، وتمليه عليهم مما تهواه نفوسهم ، فإن الشعراء - إلا من عصم الله - يغلب عليهم أن يسلكوا كل فج ، ويضربوا في كل وادٍ ، ومن سلك سبيلهم كان على شاكلتهم في الغي والفساد .

أما الرسل فقد جاءوا بالهدى ودين الحق ، ومن سلك سبيلهم كان على بصيرة في عمله وبينة من أمره واستقامة في سيره ، قال تعالى ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾(٢) .

ومن المعجزات ما يرجع إلى آيات حسيه أكرم الله بها رسله ومن آمن بهم من تفريج كربة وإزالة شدة ، أو خوارق عادات طلبتها الأمة بغياً وعنادا ، كانشقاق القمر ، فأجيبت إليها دفعاً للحرج عن الرسل وزيادة في التثبيت لهم والإعذار إلى من كفر بهم ، ومنها ما يرجع إلى تعليم الصناعات وتيسير طريقها ، كإسالة عين القطر وإلانة الحديد لداود عليه السلام على خلاف السنة الكونية ، ليكون ذلك آية له وكرامة ، ليكون سعة للعباد ورحمة لهم ، وكتسخير الريح والطير والجن لسليمان عليه السلام ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا الله ، ومن اطلع على قصص الأنبياء في القرآن وكتب السير وجد الكثير من ذلك ، وسأذكر جملة منها بعد ترشد إلى ما واءها مما لم يذكر إن شاء الله .

وقد بين سبحانه لرسوله محمد ﷺ في كثير من قصص القرآن الطريقة المثلى التي يثبت بها رسالته ويحاج بها أمته ، وأرشده إلى كون ذلك القصص آية بينة توجب عليهم أن يستجيبوا لما دعاهم إليه من التصديق برسالته ، والإيمان بسائر ما جاءهم به من عند الله .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ٢١٠ - ٢١٢ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٢٤-٢٢٧ .

قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

وكيف أنها من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

إن هذه القصة فيها كثير من العجائب والعبر والعظات والأحكام والأخلاق وألوان الابتلاء والامتحان والفضل والإحسان ، والذي أقصد إليه من مباحثها أمرين لمزيد اتصالهما بما أنا بصدد الكلام عليه . الأول : كيف كانت هذه القصة معجزة لرسول الله محمد ﷺ ، والثاني : كيف كانت دليلاً على أن الله يُعِدُّ رسله في حياتهم الأولى قبل الرسالة لتحمل أعبائها حين إرسالهم إلى أممهم .

أما الأول : فإنه تعالى ذكر قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في القرآن مفصلة ؛ لتكون آية ، بل آيات على نبوة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، وبيان ذلك : أنه كان أمياً لم يقرأ شيئاً من كتب الأولين ، ولا درس شيئا من تاريخهم ، ولاخط من ذلك شيئا بيمينه حتى يرتاب في أمره ويتهم بأنه تكلم بما قرأ أو درس ، قال تعالى **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾** (١) ، بل كان من الغافلين عن قصة يوسف وأمثالها، لم تخطر له ببال، ولم تقرع له سمعا قبل أن يوحي الله بها إليه ، ويذكرهم له في محكم كتابه، قال تعالى في مطلع سورة يوسف **﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾** (٢) ، وقال بعد ذكر يوسف لرؤياه وعرضها على أبيه ووصية أبيه له **﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾** (٣) .

ولم تكن قصة يوسف بالأمر الذي اشتهر في العرب ، وتناولوه بالحديث فيما بينهم ، بل كانت غيباً بالنسبة إليهم ، ولا كان محمد مع يوسف وإخوته ،

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨ .

(٢) سورة يوسف الآيات : ١ ـ ٣ .

(٣) سورة يوسف الآية : ٧ .

ولا شهد مكرهم به ، ولا كيدهم له فيتهم بأنه تكلم بأمر شهده أو انتشر بين قومه ، قال تعالىٰ لنبيه محمد في ختام قصة يوسف عليهما الصلاة والسلام ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١) .

ولا يسع أحداً أن يقول إنه عرف تفاصيل القصة من اليهود ، فإن السورة مكية ، واليهود كانوا يعيشون بالشام والمدينة وما حولها ، ولم يُعرف عنه أنه اتصل بهم قبل الهجرة ، ولا دارسهم شيئا من العلوم ، ولو كان تم شيء من ذلك لانكشف أمره لطول العهد وكثرة الخصوم وحرج قومه من دعوته ، وسعيهم جهدهم في الكيد له والصد عنه وحرصهم علىٰ تشويه سمعته والقضاء عليه وعلىٰ دعوته حتىٰ رموه بالسحر والكهانة والجنون ، واتهموه زورا بالكذب ، وهو في قرارة أنفسهم الصادق الأمين ، وتبادلوا الرأي فيما يوقعونه به من حبسه أو طرده من بينهم وتشريده ، وانتهىٰ أمرهم بالاتفاق علىٰ قتله ، فأنجاه الله من كيدهم ، وكتب له الهجرة إلىٰ المدينة حيث عز الإسلام وقامت دولته ، قال تعالىٰ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢) ، فقومٌ هذا شأنهم معه لا يخفىٰ عليهم أمره وهو يعيش بين أظهرهم وهو له بالمرصاد ، فلو وجدوا سبيلاً عليه باتصاله باليهود والأخذ عنهم لسارعوا إلىٰ فضيحته ، والتشنيع عليه بذلك ولم يضطروا إلىٰ الافتراء عليه ، ولا إلىٰ التفكير في قتله أو تشريده ولا إلىٰ نشوب الحرب بينه وبينهم سنين طويلة ولم يلجئوا إلىٰ اتهامه تهمة تحمل ردها في طيها ، فقد اتهموه برجل أعجمي بمكة وادعوا أنه يعلِّمه ، فسفه الله أحلامهم وألقمهم الحجر ، قال تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (٣) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠٢ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ١٠٣ .

وليست قصة يوسف خبراً مقتضبا عبر عنه بالجملة أو الجملتين ، فيقال إن صدقه في الحديث عنها وليد الصدفة والاتفاق ، بل هي قصة كثيرة العجائب متشعبة الموضوعات ، وقعت بين أطراف مختلفة في أزمان متباعدة ، فمن رؤيا صادقة إلىٰ مؤامرة ، ثم نجاة يتبعها بيع ، ثم إيواء . . . إلىٰ مراودة يتبعها هم ، ثم عصمة من الفحشاء . . . إلىٰ سجن فيه دعوة إلىٰ التوحيد مع رفق وحسن سياسة وتأويل للرؤيا أصدق تأويل ، يتبع ذلك خروجه عليه السلام من السجن بريئاً من التهمة ، وتوليه شئون الدولة واجتماع إخوته به مع معرفته لهم وإنكارهم إياه ، وما أكثر ما دار بينه وبينهم من الأحاديث وما جرىٰ من الأحداث . . . إلىٰ أن انتهىٰ ذلك بتعريفه لهم بنفسه وعفوه عنهم ،وحضور أبويه إليه علىٰ خير حال إلىٰ غير ذلك من التفاصيل التي يعرفها البصير بكتاب الله . وقد سيقت القصة مفصلة في جميع نواحيها مستوفاة في جميع فصولها في أدق عبارة وأحكم أسلوب . أفيعقل بعد ذلك أن يقال إن صدقه عليه الصلاة والسلام فيما سرده من قضاياها ووقائعها وعجائبها علىٰ هذا النهج الواضح والطريق السوىٰ وليد الصدفة والاتفاق .

وختم سبحانه سورة يوسف بمثل ما بدأها به من الإرشاد إجمالاً إلىٰ القصد الذي من أجله سيقت القصة ، وهو أن تكون آية علىٰ نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما جاء به من التشريع ، وأن قصة يوسف ونحوها مما نزل به الوحي مستقىٰ من المشكاة التي أخذ منها الأنبياء ، فليس حديثاً مفترىٰ ولكنه تصديق لما بين يديه من كتب المرسلين ، وتفصيل لما يحتاج إليه المكلفون من التشريع في معاشهم ومعادهم ، وجماع الهداية والرحمة لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد .

أفيمكن أن تكون هذه القيادة الرشيدة بهذا التشريع المستقيم من إنسان أمي عاش في أمة أمية من عند نفسه دون وحي من الله ؟ كلا إنها العناية الربانية والرسالة الحقة ، والوحىٰ الصادق المبين ، نزل به الروح الأمين علىٰ قلب محمد

ﷺ ليكون رحمة للعالمين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وأما الثاني : فإن في تفاصيل القصة كثيراً من الأسرار والعجائب التي أيد الله بها رسله ، وهيء بها أنبياءه لقيادة الأمم وسياسة الشعوب من أخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وقوة عزيمةٍ وعقائد صحيحة ، وبيان ذلك من وجوه كثيرة :

أ ـ منها صفاء روح يوسف ، ونقاء سريرته ، وهذا واضح من الرؤيا الصادقة التي رآها في صغر سنه ، وأول نشأته ، فتحقق تأويلها بسجود أبويه وإخوته له في كبر سنه وختام حياته ، ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ (٣) .

ب ـ ومنها ما خصه الله به من الميزات التي زادت تعلق والده به وحبه له ، وحملت إخوته على التآمر عليه والكيد له ، فأشار بعضهم بقتله ليخلوا لهم وجه أبيهم وتطيب لهم الحياة مع أبيهم من بعده ، ورأى آخرون أن في إبعاده عن أبيه الكفاية ، فلما أجمعوا أمرهم على ذلك ، ورموه في غيابة الجب ، أوحى الله إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، إيناساً له وإزاحة للغمة عن نفسه ، وهيأ له من أخرجه من البئر ، لكنهم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، فرعاه الله وجعله عند من يكرم مثواه ، ومكن له في الأرض ، وعلمه من تأويل الأحاديث ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

جـ ـ ومنها الحلم والصفح الجميل وسعة الصدر والصبر على البلاء ، فإنه بعد

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١١١ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٤ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ١٠٠ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٢١ .

أن مكن الله له وجعله على خزائن الأرض ، واجتمع بإخوته لم ينتقم لنفسه ، بل صفح عن الزلة ، وعفا عند القدرة ، واكتفى بالإشارة في إشعارهم بما سبق من سوء صنيعهم معه ، ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

د ـ ومنها عفة فرجه ونزاهة نفسه مع توفر دواعي الشهوة وتهيء أسباب الجريمة ، من تكرار الخلوة بامرأة العزيز ، ومزيد الخلطة ، ودعوتها إياه للفاحشة ، وحياته معها في بيتها ، وأخذها الحيطة بإغلاق الأبواب . لقد كان يوسف من المخلصين لله الواثقين به ، فاستعاذ بربه ولاذ بجنابه ، واستقبح أن يقابل جميل من أحسن مثواه بخيانته في عرضه ، وذكر ما يصيب الظالمين في العواقب من الدمار والخسارة ، وبذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء ، وأظهر براءته على رؤوس الأشهاد ، ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) ، إلى أن قال تعالى حكاية عن عزيز مصر بعد الشهادة عنده ببراءة يوسف ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٣) ، إلى أن قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز مع النسوة اللاتي عيرنها بشغفها ، وتعلقها بيوسف ﴿رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٤) .

لقد عرف يوسف عليه الصلاة والسلام طريق الخلاص ، ففزع إلى من بيده

(١) سورة يوسف ، الآيات : ٨٩ ـ ٩٢ .
(٢) سورة يوسف ، الآيات : ٢٣ـ٢٤ .
(٣) سورة يوسف ، الآية : ٢٩ .
(٤) سورة يوسف ، الآية : ٣٢ .

القلوب ومقاليد الأمور يصرفها كيف يشاء ، وتبرأ من حوله وقوته إلىٰ حول الله وقوته حينما سمع إنذارها له بالسجن إن لم يكن عند رغبتها ويحقق لها ما تريد ، وسأل ربه أن يعصمه من الزلل ، ويصرف عنه كيد أولئك النسوة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(١) ، وما كان الله ليرد عبداً اتقاه ، وأخلص له الدعاء ، وكان السجن أحب إليه من الفحشاء ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(٢) .

هـ ـ ومنها أنه لم يشغله ما أصيب به من تتابع البلاء عن ربه ودينه والدعوة إلىٰ ما ورثه من التوحيد عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ، فانتهز حاجة من معه في السجن إليه في تأويل ما رأياه في منامهما ، فبدأ بالحديث عن نفسه تعزيزاً لمركزه حتىٰ يقبل عنه قوله ، ثم نصح لهما في التوحيد وزينه ، وحذرهما عن الشرك وقبحه ، وأقام علىٰ ذلك الحجة مع لطف وتذكير بالصحبة في البلاء ، كل ذلك قبل تأويل الرؤيا ليكون أدعىٰ إلىٰ الإصغاء والقبول وأبعد عن الإعراض ، وقد أطال في ذلك وجعله المقصود ، ثم ختم بتأويل الرؤيا لهما في آية قصيرة ، قال تعالىٰ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٣٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات : ٣٤ ـ ٣٥ .

﴿الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [1] ، فانظر إلى سلامة فطرته وصحة عقيدته وتناسيه البلاء ، وذكره لأسلافه وأمجاده الطاهرين المصلحين ، ليتخذ منهم قدوة له في التوحيد والدعوة إليه والحذر من الشرك وبيان فساده بالحجة والبرهان ، وانظر إلى كرم خلقه مع صاحبيه حتى شهدا له بالمعرفة والفضل والإحسان ، وإلى حسن سياسته معهم في الدعوة إلى الله وإيثارها على ما سألاه عنه دون تضييع لما تعلقت به نفوسهما من تأويل الرؤيا ، وبلا مجابهة بالمكروه لمن دلت رؤياه على سوء عاقبته بل أبهم الأمر ، فقال : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ ، وقد حقق الله ما قال فصار كل منهما إلى ما ذكر له في تأويل رؤياه .

و ـ ومنها أن يوسف مع ثقته بربه وتوكله عليه أراد أن يأخذ بأسباب الخلاص مما أصابه من البلاء ، وليس في ذلك ما يعيبه أو يغض من توكله على الله ، فإنه قد زُجّ به في السجن ظلماً وعدوانا بشهادة خصومه ـ ودفع الظلم مشروع بل قد يكون واجبا ـ فقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، ولكنّ الله أراد أن يزيده تمحيصا وصدقاً في التوكل عليه وقوة في الصبر على البلاء ، فأنسى الشيطان ذلك الفتى أن يذكر يوسف لربه [2] بالخير ، فلبث في السجن بضع سنين ، ثم اختار الله له طريقاً إلي الخلاص خيراً من الطريق التي رسمها لنفسه كما سيأتي .

ز ـ ومنها أن الله سبحانه شاء أن تكون نجاته بما آتاه من العلم والحكمة وعلمه من تأويل الأحاديث ، لا بشفاعة أحد ، ولحاجة الأمة إليه راعيها ورعيتها دون

---

(١) سورة يوسف ، الآيات : ٣٦ ـ ٤١ .

(٢) أي سيده (الملك) .

حاجته إليهم ، ليكون ذلك أكرم لنفسه وأعز لها ولئلا يكون لأحد عليه سوى الله منة ، فهيأ له السبيل لذلك ، ورأى ملك مصر رؤيا هاله أمرها ، وعجز أشراف قومه عن تعبيرها ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [1] ، ولما انتهى أمر الرؤيا إلى يوسف أولها أصدق تأويل، وبين أنها كشفت للأمة عن مستقبلها في رخائها وشدتها أربع عشرة سنة ، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [2] ، فأخذ ذلك التعبير من قلب الملك مأخذه ، ولم يسعه إلا أن يرسل بإحضار يوسف إليه ، فأبى حتى ينظر في قضيته مع النسوة ، فإنه قد زجَّ به في السجن من أجلهن ، ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [3] ، ففعل الملك ، وظهرت براءة يوسف ، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [4] ، ولما طلبه الملك بعد ذلك وحضر عنده ، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[5] ، ثقة منه بنفسه ، وعلماً منه بأنه ليس في الأمة من يصلح لتدبير شئون الدولة الاقتصادية وتصريف أمورها على وجه يحفظ كيانها سواه ، فطلب ذلك لمصلحة الأمة لا لحظ نفسه ، فاستجاب له الملك لعلمه وصدقه وأمانته ، وأتم الله

---

(١) سورة يوسف ، الآيات : ٤٣-٤٤ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات: ٤٧ -٤٩ .

(٣) سورة يوسف . الآية : ٥٠ .

(٤) سورة يوسف ، الآيات : ٥١-٥٢ .

(٥) سورة يوسف ، الآية : ٥٥ .

ليوسف ما شاء من نعمنه ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

وبذلك يتبين أن الله محصَ يوسف ورعاه بتتابع البلاء والإنجاء ، وابتلاه بكيد إخوته له ورميهم إياه في الجب ، ثم أنجاه ، وابتلاه ببيع السيارة له ، ثم هيأ له من أحسن مثواه ، ابتلاه بتسليط امرأة العزيز عليه وبالنسوة اللاتي قطعن أيديهن ، ثم عصمه وحماه ، وابتلاه بالسجن ، ثم أخرجه منه بريئا من التهمة عليما بربه وبشئون الأمة في وقت اشتدت فيه حاجة البلاد إلىٰ حفيظ عليم يدبر أمرها ، ويقودها في حياتها خير قيادة ، فتولىٰ أمرها واستسلم له أهلها . وفي قصة يوسف سوىٰ ما ذكر شيء كثير يدل علىٰ أن الله سبحانه تعهد يوسف برعايته ، وتولاه في أطوار حياته ليختاره رسولاً يضطلع بأعباء الرسالة و وليجعل من سيرته الحميدة آيات بينات علىٰ صدقه فيما جاء به وأمانته في البلاغ عن رب العالمين .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٥٦ .

قصة موسى عليه السلام
وكيف أنها من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

كانت رسالة محمد ﷺ ـ بعد تتابع المعجزات على ثبوتها ـ واضحة ظاهرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ولكن المشركين تعنتوا معه حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق وأنفة واستكبارا أن يتبعوا رجلاً منهم ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية ، فهدى الله رسوله إلى أن فيما أوحى إليه من القرآن آيات بينات على نبوته وبعد ذلك نبأ موسى وفرعون .

فقد أوضح له في قصصهما أولاً وجه دلالته على رسالته . ثانياً سنته الحكيمة في إعداد الأنبياء لتحمل أعباء الرسالة .

أما الأول : فقد ذكر سبحانه في أول سورة « القصص » بيانا عن نشأة موسى عليه الصلاة و السلام ، وحاله قبل الرسالة ، وأتبعه ببيان عن رسالته إلى أن أنجاه ومن آمن به ، وأهلك أعداءه ليكون ذلك آية ، بل آيات على نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما أنزل الله عليه من الوحي ، ودعا إليه أمته من الهدى ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى في مطلع السورة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١] ، وقوله تعالى عند انتهاء ما أراد ذكره من القصة ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٢] .

وذكر في آخر السورة أنه ﷺ لم يكن لديه من الأسباب ما يبعث على الأمل في الرسالة ، ولا من الدواعي ما يحمله على أن يحدث نفسه بها ويستشرف إليها

(١) سورة القصص ، الآيات : ٢ـ٣ .

(٢) سورة القصص ، الآيات : ٤٤ـ٤٦ .

عن أن يدعيها ويسعىٰ في تحقيقها ، فقد كان ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يخالط أهل الكتاب حتىٰ يتعلم منهم قصص الأنبياء وتاريخ أممهم وما جرىٰ بينهم من الأحداث ، وليس في آبائه من ملك حتىٰ تتعلق نفسه بذلك ويطلب ملك آبائه ، وبيان ذلك كما يلي :

١ ـ قدم الله بين يدي هذه القصة من الآيات مابين فيها سنته العادلة وحكمته البالغة في القضاء علىٰ من علا في الأرض وأفسد فيها ، ومَنَّه علىٰ المستصعفين والتمكين لهم وإنالتهم [١] من عدوهم فضلا منه ورحمة ، والله عليم حكيم ، قال تعالىٰ ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [٢] ، وأتبع قصة قارون وما أصابه من الهلاك بقوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٣] ، هذه هي سنته سبحانه في عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ثم فصل ذلك فيما ذكره بعد من القصة .

٢ ـ ولد موسىٰ عليه الصلاة والسلام بمصر وكان ملكها ـ إذ ذاك ـ جباراً جائراً يقتل كل حديثي الولادة ، فاضطرت أمه إلىٰ إلقائه في اليمِّ خوفاً عليه من خطر القتل فالتقطه آل فرعون ، وحين ذاك مرّ موسىٰ بطور آخر من أطوار الخطر ، وقضىٰ الله لنبيه أن ينتهي بهم التفكير في أمره إلىٰ أن يتخذه فرعون ولدا ، وأن ينشأ في بيت ملك ليربىٰ فيه علىٰ العزة وشدة البأس وقوة العزيمة ، والأخذ بالحزم ، ولايصاب بما أصيب به قومه من العذاب والذل والهوان ، وبذلك يصلح لحمل أعباء الرسالة ومواجهة فرعون في جبروته وطغيانه ، ثم أولاه سبحانه نعمة أخرىٰ ، فكتب عليه ألا يرضع إلا من أمه ، حتىٰ اضطر فرعون ومن إليه أن يردوه إلىٰ أمه ، وهم لا يشعرون ، وبهذا التدبير الحكيم واللطف الخفي أنجز الله

---

(١) في نسخة وادالتهم علىٰ عدوهم .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٦ .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .

لأم موسىٰ وعده ، فرجع إليها ولدها لكفله ويتمتع بحنانها ، وينعم بعطفها وتقر به عينها ، ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق .

٣ ـ هذه حلقة أولىٰ من حياة موسىٰ ، كلها عبر وعظات وآيات بينات علىٰ سنته تعالىٰ في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دمارا وإلقاء بالنفس إلىٰ التهلكة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (١) .

ثانياً : أن الله سبحانه كتب لموسىٰ حياة سعيدة في بيت من يخشىٰ عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) .

ثالثاً : أن الله حرم عليه تحريما كونيا أن يرضع من امرأة سوىٰ أمه ، فكان ذلك فيما يرىٰ الناس بلاءً أحاط به ، وهم لا يشعرون ، فاجتمع له إلىٰ السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك ، ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

٤ ـ وهناك سلسلة أخرىٰ من حياة موسىٰ قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة والمروءة والنجدة ونصر المظلوم والأخذ علىٰ يد الظالم والعطف علىٰ الضعيف وقوة الإيمان بالله والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه

(١) سورة القصص ، الآيات : ٧ـ٨ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٩ .

(٣) سورة القصص ، الآيات : ١٢ ـ ١٣ .

والتواضع مع عزة النفس ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعِدُّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم ، وألخص ذلك فيما يأتي :

أولاً : حفظ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته ، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان ولكن لم يتأثر بما يتأثر به من قضى أيامه الأولى من حياته في بيئة استشرى فيها الفساد ، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد ، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء ، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون ، بل صانه الله عن كل مايشينه ، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي ، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

ثانيا : جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم ، يتجلَّى ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني ، وإنصافه للمظلوم ، كما طبعه الله علي الرفق بالضعيف والعطف عليه ومَدّ يدِ المعونة إليه ، يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين ، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرِّعاء ، وأبونا شيخ كبير ، وفسقى لهما ، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين ، وكمال الرفق بالمستضعفين .

ثالثاً : كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوى فيه الوعي الديني ، واستحكمت الصلة بينه وبين ربه ، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف ، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان ، لذلك فزع إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نحبه من وكزته ، وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه ، فغفر الله له ، فأخذ على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، شكراً

---

(١) سورة القصص ، الآية : ١٤ .

لله على نعمته ووفاءً له بما غفر من ذنبه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

رابعاً : فاض قلبه إيماناً بالله ، وعظمت ثقته به وتوكلا عليه ، فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢) ، ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه توجه إلىٰ ربه وسأله من فضله ، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره ، أو يُعَرِّض لمن سقىٰ لهما بطلب الأجر ، ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٣) ، وقد استجاب الله دعاه وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة ، فقد عرض عليه شعيب لما عرف عنه من القوة والأمانة أن يزوجه إحدىٰ ابنتيه علىٰ أن يرعىٰ له الغنم ثماني حجج ، فإن أتم عشرا كان ذلك مكرمة منه ، فالتزم موسىٰ بذلك ، ولم يمنعه ما كان فيه أولا من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده ، وأشهد ربه علىٰ ذلك ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٤) ، وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين(٥) ، فدل علىٰ أنه طبع علىٰ حب الخير وفعل المعروف .

٥ ـ وحلقة ثالثة من حياة موسىٰ عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة يتجلىٰ فيها

---

(١) سورة القصص ، الآيات : ١٦ ـ ١٧ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٢٢ .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٢٤ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٢٨ .

(٥) حديث صحيح : رواه البخاري رقم (٢٦٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا . قال ابن حجر في فتح الباري هو في حكم المرفوع لأن ابن عباس كان لا يعتمد أقوال أهل الكتاب كما سيأتي في الباب الذي يليه . . . وقد صرح برفعه عكرمة عن ابن عباس . . . أخرجه الحاكم. قلت : وانظر لذلك تفسير ابن كثير رحمه الله تعالىٰ (٣/ ٣٨٥) .

ما حباه الله به ليكون أصلا له يعتمد عليه في إثبات رسالته والرشاد ، ويتبين ذلك في مواضع من القصة . منها :

أولاً : طلب موسىٰ من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون ، فإنه أفصح منه لساناً وأقوىٰ بيانا ، فآتاه سؤله ، وأرسله معه زيادة في المنة ومضاعفة للإحسان ، وليكون عوناً له في الحجاج وتحمل أعباء الرسالة ، وخافا أن يبطش بهما فرعون وجنوده وأن يقتلوا موسىٰ بالقبطي الذي سبق أن قتله فقال تعالىٰ ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (١) ، وجعل لهما سلطانا تقوم به الحجة ، وتنخلع به قلوب الجبارين ، وتمتلئ بالضعف والوهن من حجاج عقلي في الربوبية بهر فرعون وقطع عليه طريق الجدال ، ومنْ يَدٍ إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها خرجت بيضاء للناظرين ، ومن عصا إذا ألقاها صارت حيَّة تسعىٰ حقاً لا سحرا ، قد أبطل الله بها كيد الساحرين ، وبهذا وغيره مما أيده الله به ثبت في ميدان الدعوة إلىٰ الله ثبات واثق بربه مؤمن بما يدعو إليه من الهدىٰ والنور ، وتجلىٰ في حجاجه صولة الحق ، وأحس من نفسه بالعزة والقوة، وبذلك أيضا ذل جبروت فرعون ، وتلاشىٰ عنده تألهه وتعاليه ، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ(٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ(٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾(٢) ، وقال تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا

---

(١) سورة طه ، الآية : ٤٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٣ـ٣٣ .

فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (١) ، ولم يعد فرعون يملك لموسىٰ من الكيد إلا أن يرعد ويبرق ويموه ويخدع ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٢) ، ولم يكن ليأخذ علىٰ يديه أحد من الحاضرين ، ولا هناك من الأسباب العادية ما يمنعه أن يبطش بموسىٰ ، فإن الدولة دولته والجنود جنوده ، لكنها عناية الله برسوله وما آتاه من آيات وسلطان قد بهر فرعون وقطع نياط قلبه ،ولم يملك أيضاً ملأ فرعون وزبانيته سوىٰ أن يثروا حفيظته ويغروه بموسىٰ ومن آمن به ، ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (٣) .

من هذا يتبين للعاقل أن موسىٰ وهو وحيد غريب وقومه مستعبدون لم يقف هذا الموقف من فرعون وملائه والدولة دولتهم إلا وهو مؤيد من ربه ، صادق في دعوته أن هذا لهو الحق المبين .

ثانياً : جرت سنة الله العادلة أن يفتح بالحق بين رسله وبين من كذب بهم من الأمم ، فينصر رسله ومن سار سيرتهم ويجعلهم خلفاء في الأرض ، ويهلك من كذبهم وانحرف عن طريقتهم ، ليكون ذلك من آيات الله التي يفصل بها بين الصادق والكاذب والحق والباطل والشريعة العادلة والقوانين الجائرة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤) ، وقال تعالىٰ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (٥) ، وقال ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٠١-١٠٢ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٢٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٢٧ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٣٧ .

(٥) سورة غافر ، الآية : ٥١ .

عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، وهذا هو الذي انتهىٰ به أمر موسىٰ ومن آمن به وفرعون ومن استهواه ، ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) ، وقال ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ (٣) .

فانظر كيف اتحدت وسيلة الإنجاء للأولياء والإهلاك للأعداء و إنها آية الله الباهرة ، وقدرته القاهرة ، نجىٰ موسىٰ ومن آمن به بما جعله هلاكا لفرعون وجنده ، هذا إلىٰ جانب انفلاق البحر اثنىٰ عشر طريقا وتماسك مائه وخروجه عن طبيعة السيلان بضربة عصا .

وفي قصص موسىٰ ذلك من الآيات ما يبهر العقول ، ويأخذ بمجامع القلوب، ولا يدع مجالا للريب ولا قولا لقائل إلا من سفه نفسه ، وسعىٰ في هلاكها ، والله الهادي إلىٰ سواء السبيل .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات : ١٢٨-١٢٩ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ٦٣-٦٧ .

٣ـ منهج الرسل في الدعوة إلى الله

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وآلهم أجمعين ، وبعد :

فلم يكن الله سبحانه وتعالى ليدع عباده سدى ويتركهم هملا دون أن يأمرهم، ينهاهم ويجزيهم على ما كسبت أيديهم ، قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[2] .

فأرسل سبحانه الرسل وشرع الشرائع رعاية لمصالح عباده في معاشهم، معادهم فضلا منه ورحمة ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3]، وأبان الدليل وأوضح السبيل وبشر وأنذر إقامةً للحجة عليهم وإعذاراً إلى من حقت عليه كلمة العذاب منهم ، فاتبع هواه بغير هدى من الله حكمة منه وعدلا ، قال تعالى : ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾[5] .

---

(١) سورة المؤمنين ، الآيات: ١١٥ـ١١٦ .
(٢) سورة القيامة ، الآية : ٣٦ ـ ٤٠ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .
(٤) سورة النساء . الآية : ١٦٥ .
(٥) سورة طه ، الآيات : ١٣٣ ـ ١٣٤ .

وفي الصحيح : « أن سعد بن عبادة قال : **لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال تعجبون من غَيْرة سعد والله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولاأحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة** » (١).

ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم وكمال حكمته في إقامة الحجة والإعذار إلىٰ من سبق عليه القول منهم أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته جامعة لما يصلح شأنها ، وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها ، وتقويم أودها وحفظ كيانها ، ويجعلها مثلاً أعلىٰ في جميع شئونها ، سعيدة في الدنيا والآخرة ، قال ﷺ : « **ما بعث نبياً إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم** » (٢) . بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات علىٰ خير حال وأقوم طريق، قال تعالىٰ ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ (٣) .

وقال ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا** ﴾(٤).

وقال ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (٥) .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٨٤٦ ، ٧٤١٦) . ،مسلم (١٤٩٩) . وأحمد في المسند (٤/ ٢٤٨) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٨٤) . والنسائي (٧/ ١٥٢) وابن ماجه (٣٦٥٩) . وأحمد (٢/ ١٦١، ١٩١).

(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٠ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(٥) سورة النحل ، الآية : ٨٩ .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين** » (١) .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : « **لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما** » (٢) .

وقال عمر رضي الله عنه : « **قام فينا رسول الله مقاما ، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه** » (٣) .

وقال مالك بن أنس : « **لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها** ، ثم ذكر قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾(٤) ، ثم قال **فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دنيا** » .

ولا عجب في أن يشرع الله شريعة عامة دائمة لعالم يطول عهده ويتجدد خلقه وتتطور أحواله ، ويكون التدرج في شرعها أيام رسولها ، ثم تستقر بعد وفاته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن الله سبحانه أحاط بكل شيء علما ووسع كل شيء فقدره تقديرا ، فهو عليم بكل شئونه الظاهرة والباطنة ، وما

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣٥) . ومسلم (٢٢٨٦) . وأحمد (٢/ ٢٥٧، ٣٩٨ ، ٤١٢).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير . ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة . وفي إسناد أحمد من لم يسم . انتهى قلت : وقريب منه ما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) عن أبي الدرداء، وعزاه للطبراني في الكبير . وقال رجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد .

(٣) رواه البخاري في صحيحه معلقا رقم (٣١٩٢) ، وأنظر كلام الحافظ في الفتح على هذا الحديث.

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

يصلح حاله في عاجله وآجله ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١) ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٢) .

إنما يستنكر ذلك من البشر ونحوهم من المخلوقات ؛ لأن أفكارهم محدودة ومداركهم قاصرة ، مع استيلاء الهوىٰ عليهم وتمكن العصبية منهم ، إلىٰ غير ذلك مما يوجب كثرة اللغط في آرائهم والاضطراب والتناقض في مذاهبهم ، في أصول التشريع وفروعه عن قصد وغير قصد ، وخاصة تفاصيل التوحيد والمعاد والعبادات والمعاملات ، قال تعالىٰ ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (٣) .

ولما كانت الأمم الماضية تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبيٌ خلفه نبيٌ (٤) وكان الوحي مستمراً ، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرج في الأحكام ، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتا ، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه تنشئة للأمة وتربية لها وسداً لحاجتها ، أو عقوبة لها على ظلمها وتمردها علىٰ شرائع ربها ، قال تعالىٰ - في رسالة عيسىٰ عليه الصلاةو السلام - ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٥) ، وقال تعالىٰ - في محمد عليه الصلاة والسلام - ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ

(١) سورة الملك ، الآية : ١٤ .
(٢) سورة مريم ، الآية : ٦٤ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .
(٤) رواه البخاري (٣٤٥٥) . ومسلم (١٨٤٢) وابن ماجه (٢٨٧١) . وأحمد (٢/ ٢٩٧) .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٥٠ .

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)، وقال ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٢) .

أما هذه الأمة المحمدية فشريعتها خاتمة الشرائع ، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نبي بعده ، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلىٰ يوم القيامة كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية ، منظمة لنواحي حياتهم المختلفة ، مُغْنية لهم عما سواها في جميع أمورهم وشئونهم ، ولو طال بهم الأمد واختلفت أحوالهم علىٰ مر الأيام والعصور حضارة وثقافة ، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوة ، وحالتهم قوة وضعفاً وغنىً وفقراً .

وفاء الشريعة بمصالح الخلق في العاجل والآجل

وجاءت تكاليف هذه الشريعة جملتها وتفصيلها قواعدها وجزئياتها بتحقيق مقاصد التشريع الضرورية التي لابد منها في قيام مصالح العباد الدينية والدنيوية ، ولا تستقيم أحوالهم إلا بها ، وذلك يرجع إلىٰ ما يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وأنسابهم وعقولهم وأموالهم ، وبتحقيق مقاصده الحاجية التي تيسر عليهم طريق العمل للوصول للغاية المنشودة ، وتجعلهم في سعة وسهولة وترفع عنهم المشقة والحرج ، وبتحقيق ما يجمل حالهم ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا .

وصحيفة الوجود وواقع الحياة في تاريخ الأمم أصدق شهيد بذلك ؛ فمن ابتغىٰ الهدىٰ في غير شريعة الله من النظم والقوانين الوضعية أضله الله ، ومن

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات : ١٥٦-١٥٧ .

(٢) سورة النساء . الآيات : ١٦٠-١٦١ .

حكم غيرها في عقيدته أو عبادته أو معاملاته فهو مبتدع ، فيه جاهلية ، سيء الظن بربه معجب بفكر نفسه أو أفكار من اتخذهم من زعمائه أرباباً في التشريع يشرعون له ما يضاهي به شريعة الله ، بل يؤثر قوانينهم مع قصورهم وتقصيرهم على شريعة أحكم الحاكمين ، وكفى بذلك زيغا وضلالا وكفرا وطغيانا ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) .

وقال : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٢) .

وقال : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣) .

وقال : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤) .

وقال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(٥) .

وقال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٦)، إلى غير ذلك من النصوص التي حثت على العمل بكتاب الله وهدي رسوله عليه الصلاة والسلام ، وحذرت من الحيدة عن ذلك والإعراض عنه تباعاً للآراء ، ونحاتة الأفكار دون بينة من الله أو حجة عن المعصوم ﷺ .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٥٠ .
(٥) سورة الأنعام ، الآيات : ١١٥ ـ ١١٦ .
(٦) سورة الحجرات ، الآية : ٧ .

وإليك كلمات في أركان الشريعة والسياسة في البلاغ ، وأمثلة من نصوص الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين ، وسوف يتبين لك منها سعة الشريعة وغناها بالنصوص والقواعد العامة ، والجزئيات الخاصة التي تشرح حق الله على عبده ، وحق العبد على ربه ، وحق الراعي والرعية ، وتحدد موقف الدولة من الدولة في السلم والحرب ، والعلاقة بين أفراد الشعب وجماعاته ، بل بينت حقوق الحيوانات والعجماوات على راعيها وحَدَّتْ من تسخيره لها وتسلطه عليها على وجه من العدالة يكفل لها البقاء ، وحل جميع ما يَجِدُّ من المشاكل العامة والخاصة على أقوم طريق وأهدى سبيل .

إن للشريعة أصولا إليها ترجع ، ودعائم عليها تقوم ، فشريعة الصلاة والصيام والزكاة ونحوها من العبادات لا يستقيم أداؤها ولا التنسك بها إلا إذا عرف العابد أن من يتقرب إليه غني كريم ، قوي متين ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، إلى غير ذلك من صفات الجلال والإنعام وقوة البأس وشدة الانتقام ، فإنه إذا عرفه العباد بذلك أشربت قلوبهم حبه ، واستشعرت كمال الذل له والخوف منه ، فأسلموا وجوههم إليه ، وعبدوه عبادة من يعلم أنه يسمعه ويراه ويراقبه في كل شئونه وأحواله رجاء رحمته وخشية عذابه .

وشريعة المعاملات لا تعدو ـ ذلك النهج ـ نهج العبادات ؛ فإن استقامة الناس في أخلاقهم ، وعدلهم في رضاهم وغضبهم ، وإنصافهم لأوليائهم وأعدائهم ، ونصحهم في بيعهم وشرائهم ، وجميع معاملاتهم يتوقف على شعور القلب بهمينة قوة غيبية فوق قوى العالم ، قوة رب قادر يخفض ويرفع ويعطي ويمنع على سنن قويم من الحكمة والعدالة ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، ولا رادَّ لما قضى ، بذلك الشعور يستقيم حال الإنسان ، وينتظم أمره في سره وعلنه ، فيرعى الحقوق دفعا لعذابه ونقمته ، وبذلك الشعور وحده يجتمع شمل العالم ويعم الأمن والسلام جميع مرافق الحياة .

حصول الثقة واليقين في نفوس المكلفين بمصدر الشريعة وتبلغها

أضف إلىٰ ذلك أن ثبوت الشريعة في ذاتها عند المكلفين ، والإيمان بها يتوقف علىٰ معرفة مصدرها والثقة بطريق بلاغها ، فيجب إذن علىٰ العباد أن يعلموا أولاً أن لهم ربا خلاَّقا عليما حكيما ، بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجعون ، إلىٰ غير ذلك مما تفرد به من صفات الربوبية ، ويؤديها علىٰ وجهها استمداداً لفضل الله ورحمته ، ودفعاً للتي استوجبت إخلاص العبادة منه ليسلموا وجوههم إليه كونا وشرعا ، ويعبدوه مخلصين له الدين رغبة ورهبة ، وأن يعلموا ثانياً أنه تعالىٰ يرسل رسله ليبلغوا عنه شريعته رحمة منه وفضلا ، ويؤيدهم بالمعجزات ، ويعصمهم في البلاغ حكمة منه وعدلا ليميز الكاذب من الصادق والمبطل من المحق ، فيثق العباد بشريعة ربهم ، ويأمنوا عليها من الدخل والافتراء ، وتقوم عليهم بها الحجة ، قال تعالىٰ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [(١)] .

لهذا بدأت الرسل دعوتها بالتوحيد ، وإثبات الرسالة والجزاء يوم المعاد ، فجرت علىٰ موجب العقل ومقتضىٰ الفطرة ، وكان لزاماً علىٰ الدعاة أن يبدؤا بما بدأ به الرسل ، ويتبعوا ذلك القول في الفروع وتفاصيلها وكل ما يكمل الأصول ويحمي حماها حسب الأهمية وما يشعر به الدعاة من حاجة المدعوين شعوباً وأفراداً .

طريقة الرسل في اثبات وجود الله وتوحيده .

لقد سلكت الرسل في إثبات وجود الله وتوحيده وصدقهم في دعوىٰ الرسالة وخبرهم عن اليوم الآخر مسلك الإقناع بالحجة والبرهان ، وضرب الأمثال ، وجمعت في ذلك بين مناجاة العقل والتأثير علىٰ العاطفة والتذكير بما

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات : ٤٤ـ٤٧ .

جبلت عليه النفوس ، وفطر عليه الخلق من الإقرار بالحق ، والميل إلىٰ العدل والإنصاف ، مع لين الجانب ، والرفق في الخطاب ، والصفح الجميل في غير ذلة ولا مواربة أو مداهنة في الحق ، فلا عَنَت في القول ولا تعسف ، ولا فرض لحكم علىٰ الأمة دون بينة من الله وسلطان .

ففي إثبات وجود الله : اكتفوا في الاستدلال عليه بالإشارة مع دقة المأخذ وسهولة العبارة ، لقلة من أنكر وجوده تعالىٰ ممن مسخت فطرهم ، ووضح للعقلاء جهلهم ومجافاتهم الحق وتنكبهم طريق الصواب ، قال تعالىٰ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ [(١)] ، فأنكر تعالىٰ أن يكونوا خُلِقوا بلا خالق ؛ ضرورة أن الأثر يحتاج في حدوثه إلىٰ مؤثر ، كما شهد بذلك العقل والفطرة والحس ، وأنكر أن يكونوا خالقين لأنفسهم لما يلزمه من التناقض ، وأنكر أن يكونوا خالقين للسماوات والأرض ؛ لشهادة تاريخ وجود الأمم والكونيات الأخرىٰ بأن خلق السماوات والأرض قد كان قبل خلق ما بينهما من الإنس والجن ونحوهم ، فكيف يخلق المتأخر في الوجود شيئاً قد سبقه وتقدم عليه .

وقد أخذ جماعة من العلماء هذا الدليل الخبري العقلي ، وأدخلوا عليه شيئا من التكلف والصناعة الكلامية فقالوا : إن نسبة المكن إلىٰ طرفيه الوجود والعدم علىٰ السواء ، فلو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته لزم ترجيح أحد المتساوين علىٰ الآخر بلا مرجح ، ولو أوجد نفسه لزم مع ذلك أن يكون متقدماً علىٰ نفسه . . باعتباره خالقاً لها ، متأخرا عنها باعتباره مخلوقاً لها ، وتقدم الشيء علىٰ نفسه وتأخرها عنها باطل بالضرورة ، لما فيه من التناقض ، ولا بد أيضاً أن يكون واجب الوجود لذاته ، مختلفاً عن العالم في خواصه وصفاته

---

(١) سورة الطور ، الآيات : ٣٥-٣٦ .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [(١)] ، ذلك ليصح أن يستند إليه العالم في وجوده بَدْءً ودواماً ؛ إذ لو كان مستحيلاً لما صح أن يكون منه خلق أو تقدير ؛ لأن المستحيل عدم محض وفاقد الشيء لا يعطيه . ولو كان ممكنا لافتقر إلىٰ من يرجح وجوده علىٰ عدمه كما سبق بيانه ، فإن استمرت الحاجة فاستند كل في حدوثه إلىٰ نظير له من الممكنات ؛ لزم إما الدور القبلي وإما التسلسل في المؤثرات ، وكلاهما باطل باتفاق العقلاء .

وإذا انتفىٰ عنه الإمكان والاستحالة ثبت له وجوب الوجود لذاته ضرورة لأن أقسام الحكم العقلي ثلاثة : **الوجوب** ، **والإمكان** ، **والاستحالة** . وقد انتفىٰ اثنان فتعين الثالث : وهووجوب الوجود ، قال تعالىٰ ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [(٢)] ، وفي الحديث « **اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء** » [(٣)] .

ومن نظر فيما ترشد إليه الآيات نظراً ثاقباً ، وفكَّر فيما توحي به سنن الله في المخلوقات ـ من عجائب خلقها ، وحسن تنسيقها ، وشد أسرها ـ تفكيراً عميقاً ، وبحث في أحكامها وبديع صنعها بحثاً بريئا من الهوىٰ والحمية الجاهلية وأنصف مناظره من نفسه ـ فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق والإذعان له كبر يرديه ، ولا عناد يطغيه ـ اتضح له الهدىٰ ، واضطره ذلك أن يؤمن من أعماق قلبه بأن للعالم رباً خلاقاً فاعلا مختاراً حكيماً في تدبيره وتقديره أحاط بكل شيء علماً ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

ومع قيام الدليل ووضوح السبيل تعامىٰ بعض الناس عن الحق ، ومن أولئك : فرعون موسىٰ ، فإنه أنكر بلسانه ما استيقنت به نفسه ، فأقام موسىٰ عليه

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣) وأبو داود (٥٠٥١) وأحمد (٢/ ٣٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الحجة بدلالة الأثر على المؤثر ، والصنعة على الصانع ـ فوجود الخلق وعظم شأنه دليل على وجود الخالق وعظم قدرته وقدره وسعة علمه وكمال حكمته ـ فألقمه الحجر .

وذلك بين فيما حكاه الله عنهما من الحوار والسؤال والجواب ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (١) .

فانظر كيف وقف موسى موقف من يصدع بالحق ويقيم عليه الحجة والبرهان، و كيف وقف فرعون من موسى موقف السفهاء لا يملك إلا الشتم والسباب ، والسخرية ، والاستهزاء ، والتهديد بأليم العذاب . وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (٢)، وقال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٣)، فبين تعالى أنه آتى موسى الآيات البينات التي تنير البصائر ، وتجلو الشكوك ، وأن موسى ثبت في ميدان الدعوة ثبات مؤمن بما جاء به موقن بنصر ربه ، فلم يرهبه جبروت فرعون ، ولم يأخذ من نفسه مأخذاً مع وحدته وضعف قومه .

أما فرعون فقد بهرته الآيات ، وأخذت عليه صولة الحق الطريق فلم يجد لديه سلاحاً يحفظ به ملكه في زعمه ، ويدافع به عن باطله إلا الخداع والتمويه

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٣ـ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات : ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٣) سورة النمل ، الآيات : ١٣ ـ ١٤ .

على قومه ، وإنذار موسى ومن آمن به أن يذيقهم أليم عذابه ، وأنَّى له ذلك ! والله من ورائهم محيط ، وقد كتب على نفسه أن يجعل العاقبة للمتقين ، ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [1] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ . . إلا أنه أجمل وأوجز في الاستدلال بهذه الآيات وفصَّل في تلك [2] .

وقد ورث ذلك الزيغ والإلحاد أناس ظهروا في عصور متعاقبة بأسماء مختلفة ، واشتهروا بألقاب متنوعة ، فتارة يسمون بالدهريين ، وأخرى برجال الحقيقة ووحدة الوجود ، وأحياناً بالشيوعيين ، وآونه بالبهائيين ، إلى غير ذلك من العبارات التي اختلفت حروفها ومبانيها والتقت مقاصدها ومعانيها ، فكلها ترمي إلى غرض واحد ، وتدور حول مِحْورٍ واحد ، هو أنه ليس للعالم رب يخلق ويدبر ، ولا له إله يقصد ويعبد ، وقد تبين بما تقدم وأمثاله فساد مذهبهم وخروجه عن مقتضى العقل والفطرة وما أيد ذلك وصدَّقه بعد أدلة السمع .

الرد على من يزعم أن العالم وما فيه وليد الصدفة والاتفاق .

فإن زعم بعد ذلك أن وجود العالم وليد الصدفة والاتفاق ، أو أنه نشأت أطواره عن تفاعل عناصر المادة فتفرقت إلى وحدات بعد اجتماع أو اجتمعت بعد تفرق واختلاف ، وصار لتلك الوحدات أو المركبات من الخواص ما لم يكن لها قبل ذلك من التفاعل ، وبذلك تجددت الظواهر ، وحدث ما نشاهد من تغير وآثار مع جريانها على سنة لا تتبدل وناموس لا يختلف ولا يتغير .

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) سورة طه ، الآيات : ٤٩ ـ ٥٠ .

قيل له : من الذي أودع تلك المادة طبيعتها وأكسبها ؟ فإنها إن كانت لها من ذاتها ومقتضى حقيقتها لم تقبل التغير والزوال ؛ لأن ما بالذات لا يتغير ولا يزول ، وقد رأيناها يتغير ، فلابد لها إذن من واهب يهبها ، وفاعل مختار حكيم يوجدها ، ويدبرها ويضعها مواضعها ، وليس ذلك المادة أو خواصها وطبيعتها ؛ فإنها مع حدوثها وحاجتها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة وعظم القدرة ما ينتظم معه الكون ، مع ما نشاهده من إحكام تبهر العقول دقته وجماله ، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب ما فيه من شدة الأسر وقوة الرباط بين وحداته وكمال التناسب بين أجزائه وقيام كل من الآخر مقام الخادم من سيده والراعي من رعيته .

ألا إن الطبيعة صماء لا تسمع ، بكماء لا تنطق ، عمياء لا تبصر ، جاهلة لا تعلم ، مُسَخرة لمن أودعها المادة ، خاضعة لتصريفه وتقديره ، سائرة على مارسم لها من سنن لا تعدوها ونواميس لا تخرج عنها ، فأنىَّ يكون لها خلق وإبداع ! أو إليها تنظيم وتدبير ! أو منها وحي وتشريع ! إنما ذلك إلى الله الذي شهد العقل والفطرة بوجوب وجوده ، وكمال علمه وحكمته ، وغناه وقدرته ، إلى غير ذلك من صفات جلاله ، تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً ، قال تعالى ، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (١) .

ولا يعيب الحق بعد ذلك أن يقلَّ من سلك طريقه ، وأن يزيغ عنه من انتكست بصيرته ، وفسدت فطرته ، فاتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ،

(١) سورة الملك ، الآيات : ١ ـ ٥ .

وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة . ولا يضير الدعاةَ إليه أن عدل عن الصراط المستقيم من انحرف مزاجه أو غلبته شهوته فخشي أن تَحُدَّ الشريعة من نزعاته الخبيثة ، وتحول دون نزواته الدنيئة ، أو أطغاه كبره وسلطانه ، وخاف أن تذهب الشريعة بزعامته الكاذبة ، وسلطانه الجائر ، فوقف في سبيلها ، وصد عنها ، ولَّج في خصامها بغيا وعدوانا ، فإن الله ناصر دينه ومؤيد رسله وأوليائه ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) ، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (٣) .

يحكى عن أبي حنيفة رحمه الله أن جماعة من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير الربوبية ، فقال : لهم أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة ، تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيرهما بنفسها ، وتعود بنفسها فترسو بنفسها ، وتفرغ وترجع ، كل ذلك من غير أن يديرها أحد ؟ فقالوا : هذا محال لا يكون أبدا ، فقال لهم : إذا كان هذا محالاً في سفينة ، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله ؟!!

وقد قال مثل هذه المقالة جماعة من العلماء ، وقولهم ليس حجة لصدوره عنهم ، بل لصحته في ذاته ، وشهادة الواقع له .

إقرار المكلفين حتى المشركين بتفرد الله بالخلق والملك والتدبير وشهادة الفطرة بذلك

شهدت الفطرة بأن الله وحده خالق كل شيء ومليكه ، وإليه يرجع الأمر كله من التصريف والتدبير ، فهو الذي يُحي ويميت ، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو الذي يرسل الرسل ، ويشرعُ الشرائع ليحق الحق بكلماته ويقيم

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ٧ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧ .

العدل بين عباده شرعاً وقدراً ، إلىٰ غير ذلك مما لا يحصيه العدُ ، ولا تحيط به العبارة .

وقام علىٰ ذلك أيضاً دليل السمع ، وأقرَّ به كلٌ مكلَّف حتىٰ المشركون قال تعالىٰ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (١)، وقال تعالىٰ ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ إلىٰ أن قال ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢) ، فأنكر سبحانه أن يكون معه إله فعل شيئاً من ذلك ، وقررهم بتفرده بكل شيء من الخلق والتدبير والتصريف والتقدير ؛ ليجعل من ذلك ونحوه دليلاً علىٰ توحيد العبادة الذي هو المقصود الأول من بعثة الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع ـ كما سيجيء ـ ونظائر ما ذكر من الآيات كثير .

ولم يعرف عن طائفة بعينها القول بوجود خالقين متكافئين في الصفات والأفعال ، ومن نقل عنهم من طوائف المشركين نسبة شيء من الآثار والحوادث إلىٰ غير الله كقوم هود ، حيث حكىٰ الله عنهم ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (٣) ، فإنما نسبوه إلىٰ آلهتهم لزعمهم أنها وثيقة الصلة بالله ، وأنها تملك الشفاعة عنده سبحانه لمن عبدها وتقرب إليها بالقرابين ، فهي في زعمهم تملك لهم جلب النفع ودفع الضرر ، لكن عن طريق الشفاعة لهم عند الله . ومن أجل

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٩ـ١٢ .

(٢) سورة الزخرف ، الآيات: ٥٩ـ٦٤ .

(٣) سورة هود ، الآية : ٥٤ .

هذه الشائبة من الشرك نبَّه الله سبحانه على بطلانه ، وأنكر على من زعمه ، فقال تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

استحالة أن يكون في الكون خالقان معبودان

فبين سبحانه أنه لو كان معه إله يشركه في استحقاق العبادة لكان له خلق وتقدير وملك وقهر وتدبير ،إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، ليرجى خيره ، ونفعه ، فيطاع أمره ويقصد قصده ،ويخشى بأسه ، فلا يعتدى على حدوده ولا ينتهك حماه . ولو كان له خلق وتقدير وملك وتدبير لعلا على شريكه وقهره إن قوي على ذلك ليكون له الأمر وحده ، ولذهب كل بما خلق وتفرد بتدبير ما ملك إن لم يكن لديه من القوة ما يفرض بها سلطانه على الجميع ، فإن من صفات الرب كمال العلو والكبرياء والقهر والجبروت .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٢) ، على تقدير أن المراد : لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته وقهره ، أو الخروج عليه والتفرد عنه بما خلقوا وملكوا، أما إن كان المعنى المراد : لاتخذوا سبيلاً إلى عبادته والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه ، فالآية في توحيد الإلهية ، كقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٣) .

وقد استخلص بعض العلماء من ذلك دليلاً سموه دليل التمانع ، وجعلوا جل همهم إثبات توحيد الربوبية به ، قالوا : لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان

---

(١) سورة المؤمنين ، الآيات : ٩١ـ٩٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات : ٤٢ ـ ٤٣ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٥٧ .

ويدبران أمره لأمكن أن يختلفا ، بأن يريد أحدهما وجود شيء ، ويريد الآخر عدمه ، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد الآخر سكونه ، وعند ذلك إما أن ينفذ مرادهما ، وذلك محال لما يلزمه من الجمع بين الضدين ، وإما أن لا ينفذ مراد كل منهما ، وذلك محال لما يلزمه من رفع النقضين وعجز كل منهما ، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر ، فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه ، والعاجز لا يصلح أن يكون ربا .

ولو أن هؤلاء عُنُوا بتوحيد الإلهية ، وصرفوا همتهم إلىٰ بيان تفاصيله ، وأجملوا القول في توحيد الربوبية والاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العباد به ، وعلمه بالضرورة ، وجعلوا البحث فيه وسيلة إلىٰ توحيد العبادة ودليلاً عليه ، لكانوا بذلك قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام .

إنتظام العالم علوه وسفله يثبت لله صفات الكمال التي تليق به

وقصارىٰ القول أن انتظام العالم علوه وسفله ، وإحكام صنعه وحسن تنسيقه وشدة الأسر ، وقوة التماسك بين أجزائه ووحداته دليل واضح علىٰ تفرد الله سبحانه بالربوبية ووحدانية أفعاله ، وبرهان قاطع علىٰ إثبات ما أثبته لنفسه من كمال الأسماء والصفات ، أو أثبته له الرسل عليهم الصلاة والسلام من ذلك إثباتاً صريحا مفصلا ، لم يدع مجالاً للشك أو التأويل ولا سبيلا إلىٰ الريب أو التعطيل ، فزالت به الشبهة وحصل به اليقين .

وعلىٰ ذلك اجتمعت شهادة الفطرة والعقل الصريح والنقل الصحيح وصدَّق كل منهما الآخر .

وقد ذكر ابن القيم في مدارج السالكين هذين الطريقين :

الطريق الأول : الوحي والخبر .

الطريق الثاني : الحس والعقل .

١ ـ الوحي الذي جاء من عند الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسان رسوله ﷺ .

٢ ـ الحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة قال ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في بيان الطريق الأول :

* فأما الرسالة فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً مفصلاً علىٰ وجه أزال الشبهة ، وكشف الغطاء ، وحصل به العلم اليقين ، ورفع الشكّ المريب ، فثلجت له الصدور ، واطمأنت به القلوب ، واستقر به الإيمان في نصابه . ففصلت الرسالة الصفات ، والنعوت ، والأفعال ، أعظم من تفصيل الأمر والنهي ، وقرّرت إثباتها أكمل تقرير . فما أبلغ لفظه وأبعده من الإجمال ، والاحتمال ، وأمنعه من قبول التأويل ، ولذلك كان التأويل لآيات الصفات ، وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد ، وأخباره . بل أبعد منه . لوجوه كثيرة ذكرتها في كتاب : « **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** ». بل تأويل آيات الصفات بما يخرجها عن حقائق كتأويل آيات الأمر والنهي سواء ، فالباب كله باب واحد ، ومصدره واحد ، ومقصده واحد ، وهو إثبات حقيقتها، والإيمان بها .

وكذلك سطا علىٰ تأويل آيات المعاد قوم . قالوا : فعلنا فيها ، كفعل المتكلمين في آيات الصفات ، بل نحن أعذر . فإن اشتمال الكتب الإلهية علىٰ الصفات ، والعلوم ، وقيام الأفعال أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير ، فإذا ما ساغ لهم تأويلها ، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد .

وكذلك سطا قوم آخرون علىٰ تأويل الأمر ، والنهي ، وقالوا : فعلنا فيها ، كفعل أولئك في آيات الصفات مع كثرتها ، وتنوعها . وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة علىٰ خمسمائة آية . قالوا : وما يظن أنه معارض من العقليات لنصوص

الصفات ، فعندنا معارض عقلي لنصوص المعاد من جنسه ، وأقوىٰ منه .

* وقال متأولوا آيات الأحكام علىٰ خلاف حقائقها ، وظواهرها ، والذي سوغ لنا هذا التأويل القواعد التي اصطلحتموها لنا ، وجعلتموها أصلا نرجع إليه ، فلما طردناها كان طردها أن الله ما تكلم بشيء قط ، ولا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهي ، ولا له صفة تقوم به ، ولا يفعل شيئاً .

* وطرد هذا الأصل لزوم تأويل آيات الأمر ، والنهي ، والوعيد ، والثواب ، والعقاب ، وقد ذكرنا في كتاب الصواعق أن تأويل آيات الصفات ، وأخبارها بما يخرجها عن حقائقها هو أصل فساد الدنيا والدين ، وزوال الممالك ، وتسليط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل . ويعرف هذا من له اطلاع ، وخبرة بما جرىٰ في العالم .

ولهذا يُحرِّم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم بصحته ، لأنه سبب لفساد العالم وتعطيل للشرائع . ومن تأمَّل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها ، فإنها وردت علىٰ وجه لا يحتمل التأويل بوجه . فانظر إلىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ (١) . هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع تأويل إتيان الربّ ـ جلّ جلاله ـ بإتيان ملائكته وآياته ؟ وهل يبقىٰ مع هذا السياق شبهة أصلاً في أنه إتيانه بنفسه !

وكذلك قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ . إلىٰ أن قال : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٢) .

ففرق بين الإيحاء العام ، والتكليم الخاص ، وجعلها نوعين ثم أكد فعل

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٨ .

(٢) سورة النساء ، الآيات : ١٦٣ـ١٦٤ .

التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون . كذلك قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ (١) .

فنوع تكليمه إلىٰ تكليم بواسطة ، وتكليم بغير واسطة ، وكذلك قوله لموسىٰ ، عليه السلام :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ (٢). ففرق بين الرسالة ، والكلام. والرسالة إنما هي بكلامه . وكذلك قول النبي ، ﷺ : « **إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو ليس بينه سحاب . وكما ترون الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب** » (٣) .

ومعلوم أن هذا البيان ، والكشف ، والاحتراز ينافي إرادة التأويل قطعاً ، ولا يرتاب في هذا من له عقل ودين .

ثم قال : الطريق الثاني لإثبات الصفات هو دلالة الصنعة عليها ؛ فإن المخلوق يدل علىٰ وجود خالقه ، علىٰ حياته وقدرته وعلىٰ علمه ومشيئته ، فإن الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاماً ضرورياً وما فيه من الإتقان والإحكام ، ووقوعه علىٰ أكمل الوجوه يدل علىٰ حكمة فاعله وعنايته ، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلىٰ المخلوق يدل علىٰ رحمة خالقه وإحسانه وجوده ،وما فيه من آثار الكمال يدل علىٰ أن خالقه أكمل منه ، فمعطي الكمال أحق بالكمال ،وخالق الأسماع والأبصار والنطق أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلما ، وخالق الحياة والعلوم والقدرة والإرادات أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه ، فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء علىٰ إرادة

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ٥١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٤ .
(٣) رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الرب سبحانه ومشيئته وحكمته التي اقتضت التخصيص ، إلىٰ أن قال : والإحسان إلىٰ المطيعين ،والقرب إليهم بالإكرام ، وإعلاء درجاتهم يدل علىٰ محبته ورضاه ، وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل علىٰ صفة الغضب والسخط ،والإبعاد والطرد والإقصاء يدل علىٰ المقت والبُغْض . فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل .

ولهذا دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلىٰ الاستدلال بذلك علىٰ صفاته ، فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته وصفات كماله بآثار صنعته المشهودة ، والقرآن مملوء بذلك ، فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق ، وشاهد اسم الرزاق من وجود الرزق والمرزوق ، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم ، إلىٰ أن قال : وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنىٰ له شاهد في خلقه وأمره ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله ، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته ، وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه علىٰ غيره ،وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته ،فكيف لا تُعرف صفات من هذا العالم العلوي والسفلي وهذه المخلوقات من بعض صنيعه .

وإذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة علىٰ النعوت والصفات وحقائق الأسماء ، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمىٰ بمكابرة . ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة ، كما قال تعالىٰ ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١) ، فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه ، فهي كلها تشير إلىٰ الأسماء الحسنىٰ وحقائقها ، وتنادي عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال ، كما قيل :

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

تأمل سطور الكائنات فإنها — من الملك الأعلىٰ إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها — ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل

تشير باثبات الصفات لربها — فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترىٰ شيئاً أدلَّ علىٰ شيء من دَلَالَة المخلوقات علىٰ صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه .

وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها ، فهي تدل عقلاً وحساً وفطرة ونظراً واعتباراً ، وفي هذا المعنىٰ قال الشاعر :

تأمل في نبات الأرض وانظر — إلىٰ آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات — بأحداق هي الذهب السبيك

علىٰ قضب الزبرجد شاهدات — بأن الله ليس له شريك

توحيد الربوبية هو باب الاستدلال على توحيد الإلهية .

وإذا ثبت بدلالة الصنعة علىٰ الصانع ، وبأدلة السمع والفطرة وجود الله ووجوب وجوده وتفرده بكمال الصفات والأفعال ، وجب علىٰ العباد أن يخلصوا له العبادة ، وأن يسلموا وجوههم إليه في السراء والضراء ، وأن يدعوه وحده رغبة ورهبة خفية وجهرة ، فهذا هو مقتضىٰ الفطرة ، وموجب العقل السليم ، وبه جاء النقل الصحيح ، قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [١] ، فجعل سبحانه تفرده بالربوبية خلقا للحاضرين والسابقين ، ووضعه الأرض للأنام وتذليله إياها ليمشوا في مناكبها وينعموا برزقه ، ورفعه السماء بغير عَمَد

(١) سورة البقرة ، الآيات : ٢١ـ٢٢ .

يرونها ، وإنزاله الأمطار من السماء ليُحيي به الأرض بعد موتها ويُخرج بها من الثمرات رزقاً لعباده باباً إلىٰ توحيد الإلهية ، وآية بينة علىٰ استحقاقه وحده العبادة، وهذا هو الطريق الفطري في الحِجَاج ، أعني الاستدلال بتوحيد الربوبية علىٰ توحيد الإلهية ؛ فإن قلب الإنسان يتعلق أولاً بمصدر خلقه ومنشأ نفعه وضره ، ثـم ينتقل بعد ذلك إلىٰ الوسائل التي تقرب إليه وترضيه عنه وتوثق صلته به .

فتوحيد الربوبية باب إلىٰ توحيد الإلهية ، ومن أجل ذلك احتج الله به علىٰ المشركين وقررهم به وأرشد إليه رسله وأمرهم أن يدعوا به أممهم ، قال تعالىٰ : ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[1] ، فاستدل بتفرده بالربوبية وكمال التصرف وحمايته ما يريد أن يحميه علىٰ استحقاقه وحده العبادة ووجوب تفرده بالإلهية .

وهذا النوع من التوحيد هو المقصود الأهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب وهو الذي بدأت به الرسل دعوتها ، ووقعت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم ، وهو الذي شرع من أجله الجهاد ، وقامت الحرب علىٰ ساقها بين الموحدين والمشركين .

وقال تعالىٰ : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [2] ، فأخبر أن البعث آتٍ لا محالة ، ونزه نفسه عما زعمه المشركون من الشركاء ، ثم استدل علىٰ ذلك بآياته الكونية ، فقال ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

---

(١) سورة المؤمنين ، الآيات : ٨٦ ـ ٨٩ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١ .

الآيات إلىٰ قوله ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ⑰ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑱ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ⑲ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ⑳ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ㉑ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) ، فأخبر سبحانه عن البعث والتوحيد ، ثم أقام علىٰ ذلك الحجة بآياته الكونية التي لا يشاركه فيها أحد باعترافهم ، ثم ختم البحث بنتيجة الاستدلال وهو التوحيد والقدرة علىٰ البعث ، وذلك قوله ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (٣) ، فقررهم سبحانه بما لا يسعهم إنكاره ، ولا مخلص لهم من الاعتراف به من تفرده بالرزق والملك والتدبير والإحياء والإماتة والبدء والإعادة والإرشاد والهداية ليقيم به عليهم الحجة في وجوب طاعته دون سواه ، وينكر عليهم حكمهم الخاطئ وشركهم الفاضح وعكوفهم علىٰ عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعا ولا حياة ولا نشورا ، وكذلك ما تقدم من قوله ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ㊾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ إلىٰ قوله ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤)، فأنكر سبحانه أن يكون معه من خلق ودبَّر وصرَّف وقدر ، أو من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء أو يولي ويعزل وينصر ويخذل ، أو ينقذ من الحَيْرة ويهدي من الضلالة ، أو من يبدأ الخلق ثم يعيده ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إلىٰ غير ذلك مما استأثر الله به وهذا مما استقر في فطرهم واستيقنت

(١) سورة النحل ، الآيات : ٤-٢٢ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٢٢ .

(٣) سورة يونس ، الآيات : ٣١-٣٥ .

(٤) سورة النمل ، الآيات : ٥٩-٦٤ .

به أنفسهم ، ونطقت به ألسنتهم ، وقامت به عليهم الحجة فيما دعت إليه الرسل من توحيد العبادة .

وقال ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ إلىٰ أن قال ﴿ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) ، فأمره سبحانه أن يسلك في دعوته لقومه طريق الفطرة والعقل ، فيستدل بتفرد الله بالآيات الكونية علىٰ توحيد الإلهية ، وأن يلين لهم الجانب في غير ذلة ولامداهنة ، ويتلطف معهم في الدعوة والاستدلال من غير كذب ولا خداع ، حتىٰ لا تأخذهم العزة بالإثم ، وذلك بين قوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، فهذا منهج القرآن والرسل في الدعوة حجاج واستدلال ورفق في القول ، وأمر بالعرف ، وحسن في السياسة من غير مداراة تذهب بالحق ، وفي معنىٰ هذه الآية كثير ، كمناظرة إبراهيم ونوح وموسىٰ وإخوانهم من النبيين لأممهم عليهم الصلاة والسلام .

ومن سلك طريق القرآن في الدعوة والاستدلال ، واهتدىٰ بهدىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الحجاج وحسن السياسة قوىٰ يقينه ، وخصم مناظره ، فإن في ذلك الحجة والبرهان من جهتين : الأولىٰ أنه الخبر عن المعصوم و الثانية أنه موجب الفطرة ومقتضىٰ العقل الصحيح .

---

(١) سورة سبأ ، الآيات : ٢٤ـ٢٧ .

(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٢٤ـ٢٥ .

٤ـ وجوب الإيمان بالبعث والنشور
وبيان شبهة الكفار في إنكارهم يوم القيامة
والرد عليهم في ذلك

البعث هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم يوم القيامة . ويسمى يوم الميعاد لإعادة الأرواح إلى الأبدان فتعود بهذا الحياة للأبدان ، ويسمى يوم النشور، لانتشار المخلوقات إلى الموقف ، ويسمى يوم الدين لأن الناس يدانون فبه بأعمالهم ، أي يجزون عليها .

وقد دل الكتاب والسنة والإجماع على وجوب الإيمان ببعث الأبدان بعد نفخ الأرواح فيها ، كما جاءت شرائع الأنبياء السابقين بالأخبار عنه ووجوب الإيمان به ، قال تعالى : مخاطباً آدم وزوجته وإبليس : ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [١] ، وقال : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [٢] ، وقال تعالى في بيان دعوة نوح قومه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [٣] ، وقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [٤] ، ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء ، وقال تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾ [٥] ، وأخبر تعالى عن أهل النار إذا قال لهم خزنتها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٦ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٥ .
(٣) سورة نوح ، الآيات : ١٧ـ ١٨ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٨٢ .
(٥) سورة طه ، الآيات : ١٥ـ ١٦ .

يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (١) . اعترفوا بأن الرسل تلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم اليوم الآخر ، كما قال تعالىٰ عنهم ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٢) ، وأمر سبحانه نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، أن يقسم به علىٰ البعث والجزاء فقال ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (٣) ، وذم تعالىٰ من يشك في يوم القيامة أو يكذب به أو يماري فيه قال تعالىٰ : ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٥) . وقال ﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ (٦) . وقال : في بيان جزاء الكافرين به : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٧) . ورد عليهم هذه الشبهة بدليل كوني عقلي بين فيه أن من قدر علىٰ خلق ما هو أعظم منهم كاالسموات والأرض قادر علىٰ أن يخلق مثلهم ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨) . وقال ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٩) . واستدل علىٰ

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٧١ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٧١ .
(٣) سورة التغابن ، الآية : ٧ .
(٤) سورة النمل ، الآية : ٦٦ .
(٥) سورة يونس ، الآية : ٤٥ .
(٦) سورة الشورىٰ ، الآية : ١٨ .
(٧) سورة الإسراء ، الآية : ٩٧ ، ٩٨ .
(٨) سورة غافر ، الآية : ٥٧ .
(٩) سورة يس ، الآية : ٨١ .

قدرته على الإعادة بقدرته على الخلق . فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) . وقال في بيان غفلة المكذبين عن النشأة الأولى أو تغافلهم عنها ، وأنهم لو تذكروها ، وتبصروا فيها ما وسعهم إلا أن يؤمنوا بيوم القيامة ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، قال تعالى في بيان أن قيام الساعة ومجازاة العباد مقتضى حكمته ، وكمال عدله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (٣) . وقال : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٤) أي لا يؤمر ولا ينهي ، ولا يثاب ولا يعاقب ، وقال ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٥) .

بالجملة فكمال علمه يوجب ألا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، وكمال حكمته يقتضي ألا يترك الناس سدى بلا أمر ولانهي ولا شرع ولا ثواب ولا عقاب ، ومعلوم أن ما حصل في الدنيا لا يكفي للجزاء فلابد من يوم يتحقق فيه كمال عدل الله وحكمته في الفصل بين عباده ، وهو اليوم الذي أعده الله لفصل القضاء بين العباد ، وكمال قدرة الله يقتضي ألا يعجز الله شيءٌ ، فهو قادر على أن يعيد العظام والرفات والذرات بشراً سوياً ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٦) ، إلي غير ما تقدم من نصوص القرآن الصريحة في

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٧ .
(٢) سورة يس ، الآيات: ٧٨ـ٧٩ .
(٣) سورة المؤمنين ، الآيات : ١١٥ـ١١٦ .
(٤) سورة القيامة ، الآية : ٣٦ .
(٥) سورة ص ، الآيات : ٢٧ـ٢٨ .
(٦) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

البعث للأرواح والأبدان .

أما السنة فمنها حديث : « **كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ، ومنه يُركَّب** » (١) ، وستأتي نصوص أخرىٰ في تفاصيل ما يجري علىٰ العباد يوم القيامة، وهي متضمنة لقيام الساعة .

وأما جزاء الأعمال : فقد دل علىٰ ثبوته قوله تعالىٰ : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾(٢) . أي يوم الجزاء علىٰ الخير والشر ، وقال ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(٣) ، ودل علىٰ ثبوته الحديث القدسي الذي رواه أحمد ومسلم من طريق أبي ذر الغفاري وفيه : « **يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » (٤) .

وأما العرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب : فالمراد بذلك عرض العباد علىٰ الله وعرض كتب أعمالهم عليهم حين تتطاير صحف أعمالهم فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ، يقرأ كلٌ ما في كتابه ، ويحاسب علىٰ عمله ، ويثاب المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته ، قال تعالىٰ ﴿ **وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ (٥) .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ، باب : ما بين النفختين (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سورة الفاتحة الآية : ٤ .

(٣) سورة النمل ، الآية : ٨٩ .

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٠) . ومسلم في البر والصلة والأدب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧٧) .

(٥) سورة الكهف ، الآيات : ٤٨ـ٤٩ .

وقال تعالىٰ : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ (١) .

وقال تعالىٰ ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢) .
وروىٰ البخاري في صحيحه عن عائشة رضي عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : **« ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٣) . فقال رسول الله ﷺ : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب »** (٤)
ففهمت عائشة رضي الله عنها من قوله ﷺ أولاً عموم الهلاك لكل من حوسب ، فكان الحديث معارضاً ليسير الحساب في الآية وانقلاب من أخذ كتابه بيمينه إلىٰ أهله مسروراً ، فاستفسرت عن ذلك من رسول الله ﷺ ، فبين لها أن الحساب الذي ذكر في الآية مجرد عرض أعمال المؤمن عليه ، وأن الحساب الذي ذكر في الحديث أُريد به المناقشة في الحساب ، فلا تعارض بين الآية والحديث .

وأما الصراط فمعناه في اللغة الطريق ، ومعناه المقصود منه هنا الجسر الممتد

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات : ١٨ـ٣١ .
(٢) سورة غافر ، الآيات : ١٥ـ١٧ .
(٣) سورة الإنشقاق ، الآيات : ٧ـ٨ .
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب : من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٧) .

علىٰ متن جهنم الذي يمر عليه العباد إذا انتهوا من الموقف إلىٰ منازلهم في الجنة أو النار .

وهناك ظلمة دون الصراط يكون فيها الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، كما روىٰ مسلم من طريق عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فقال : « **هم في الظلمة دون الجسر** » [(١)] ، وفي هذه الظلمة يكون للمؤمنين نور يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم ، فيقول المنافقون لمن صدقوا في إيمانهم : انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فإذا ما رجعوا حيل بينهم وبين المخلصين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ**

---

(١) قوله (هم في الظلمة دون الجسر) جزء من حديث ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ في قصة الحبر اليهودي الذي جاء إلىٰ النبي ﷺ وسأله عن أشياء منها (. . . فقال ـ رسول الله ﷺ ـ سل فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله ﷺ : **هم في الظلمة دون الجسر** . .) أخرجه مسلم في الحيض باب : بيان صفة منىٰ الرجل والمرأة (٣١٥) .

أما حديث عائشة رضي الله عنها الذي ذكره الشيخ رحمه الله فقد أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ، باب : في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٢٧٩١) عن مسروق عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ** ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : علىٰ الصراط) .

قال الحافظ ابن رجب في (التخويف من النار) (ص / ١٨٤) بعد ذكره الحديثين (ويمكن الجمع بين الحديثين بأن الظلمة دون الجسر حكمها حكم الجسر ، وفيها تقسيم الأنوار للجواز علىٰ الجسر، فقد يقع تبديل الأرض والسموات وطي الأرض من حين وقوع الناس في الظلمة ، ويمتد ذلك إلىٰ حال المرور علىٰ الصراط والله أعلم) .

أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١).

والدليل من القرآن على الصراط قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (٢). فإن المراد بالورود في الآية المرور على جهنم فوق الصراط، المضروب على متنها، ثم من الناس من يسقط، ومنهم من ينجو، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (٣)، ولا يلزم من المرور على الصراط فوقها دخول كل من مر في النار وتعذيبه بها، ولا يلزم أيضاً من التعبير بالإنجاء دخول من أنجاهم الله فيها، فإنه يكفي في صحة التعبير بالإنجاء إنعقاد أسباب الهلاك مع تخليص أهل الخير، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ (٤). وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ (٥). وقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ (٦). فأخبر سبحانه بإنجائهم ولم يكن أصابهم ولا أصاب من آمن بهم شيء من العذاب الذي أهلك الله به من كذبهم وكفر بهم، فكان توفر أسباب العذاب إجمالاً كافياً لتصحيح التعبير بالإنجاء من الهلاك، وقال ﷺ: « **يجمع الله الناس يوم القيامة** » إلى أن قال: « **فيعطون نورهم على قدر أعمالهم** »، وقال: «**فمنهم من يطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف ودحض مزلة، فيقال لهم:**

---

(١) سورة الحديد، الآيات: ١٢-١٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٦٦.

(٥) سورة هود، الآية: ٩٤.

(٦) سورة هود، الآية: ٥٨.

امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطوف ، ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملاً ، فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره إبهام قدمه ، يجر يد ويعلق يد ، يجر رجل ويعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون ، فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أرناك ، فقد أعطانا الله مالم يعط أحداً » رواه الحاكم من طريق عبد الله بن مسعود (١) .

وأما الميزان فقد أخبر الله تعالىٰ عنه وعن وزن الأعمال به لحكم كثيرة ، منها ظهور عدل الله تعالىٰ لجميع عباده ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ (٣) . وأخبر النبي ﷺ بوزن الأعمال ، روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، و الحمد لله تملأ الميزان» (٤) . وروىٰ البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٣٧٦ ـ ٣٧٧) موقوفاً . وقال : « صحيح على شرط الشيخين » ووافقه الذهبي قال الشيخ الألباني في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص / ٤١٥) « وفيه يزيد بن عبد الرحمن أبو خالد الدالاني ، ولم يخرج له الشيخان شيئاً ، ثم هو وإن كان صدوقاً، فقد كان يخطئ كثيراً ، وكان يدلس ، كما في (التقريب) وقد صرح في هذا الأثر بالتحديث، فأمنا بذلك تدليسه ، فإنما يخشىٰ منه الخطأ فيه ، لكنه قد توبع كما يأتي فأمنا بذلك خطأه أيضاً ، وقد أخرجه الحاكم أيضاً (٤/٥٩٠ ـ ٥٩٢) بتمامه موصولا وكذا الطبراني في الكبير (٩/٣٥٧) رقم (٩٧٦٣) من طريق أبي خالد هذا عن ابن مسعود مرفوعاً وقد تابعه زيد بن أبي أنيسه مرفوعاً أيضاً بتمامه عند الطبراني والبيهقي في البعث والنشور (٤٣٤) وزيد ثقة، فصح بذلك الحديث والحمد لله »آ. هـ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٣) سورة القارعة ، الآيات : ٤ ـ ٩ .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة ، باب : فضل الوضوء (٢٢٣) .

اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » [١] ، وجاء في حديث البطاقة المشهور أن البطاقة التي فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله توضع في إحدىٰ كفتي الميزان ، وأن سجلات السيئات توضع في الكفة الأخرىٰ فترجح كفة البطاقة وتطيش كفة سجلات السيئات [٢] . ولهذه الأدلة ذكر أهل السنة أن الميزان له كفتان ، وأنه توزن فيه الأعمال وصحف الأعمال وأرباب الأعمال ، والله أعلم ، وعلىٰ كل حال يجب الإيمان بالوزن والميزان ، وأن العبرة بالأعمال لا بالشخص نفسه ، ولا بالصحف نفسها ، إنما المعتبر في الوزن هو الأعمال في الرجحان والخفة ، وشؤون الآخرة من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل فيها إثباتاً ونفياً ، فعلينا أن نؤمن بما صح من النقل في ذلك كتاباً وسنة ، ولا نعارضه بعقولنا ، لقصورها عن إدراكه ، ورحم الله إمرءً عرف قدره ، ولم يتجاوز حده ، ومن أنكر ذلك أو تأول ما ورد فيه من النصوص فقد رام ما ليس إليه ، ولا في دائرة تفكيره ، والله الهادي إلىٰ سواء السبيل .

---

(١) أخرجه البخاري في التوجيه ، باب : وضع الموازين القسط يوم القيامة (٧٥٦٣) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) والترمذي في الإيمان ، باب : ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) . وقال « حسن غريب » وابن ماجه في الزهد ، باب ما يرجىٰ من رحمه الله يوم القيامة (٤٣٠٠) والحاكم (١/ ٦ ، ٥٢٩) وقال صحيح الإسناد علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .
تراجع هذه المسألة في كتاب (تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان) للعلامة مرعي بن يوسف الحنبلي .

٥ ـ مبحث في أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، وأنهما باقيتان لا تفنيان

هذا المبحث يتضمن أمرين ، الأول : خلق الجنة والنار ووجودهما في الدنيا ، والثاني بقاؤهما أبد الآبدين وفي كل منهما خلاف بين العلماء ، وفيما يلي بيان مذهب أهل السنة ومخالفيهم في الأمرين مع الدليل :

الأمر الأول : اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار موجودتان في الدنيا ، ولم يعرف لهم مخالف في صدر الإسلام ، واستدلوا على ذلك بالكتاب والسنة ، وإجماع الأمة .

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . وقوله تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) فدل التعبير عن إعداد الجنة للمؤمنين بالفعل الماضي على أنها موجودة بالفعل في الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣) . وقوله ﴿ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٤) . وقوله : ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ (٥) فدل التعبير بالماضي على أن النار وجدت فعلاً .

وأما السنة فالأحاديث الدالة على وجودهما الآن كثيرة ، منها ما رواه البخاري

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٤ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٣١ .

(٥) سورة النبأ ، الآيات : ٢١-٢٢ .

ومسلم في صحيحهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة** »[(١)] . وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **لما خلق الله الجنة فقال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهليها فيها ، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : ثم أرسله إلى النار ، قال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها ما فيها ، قال : فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لا يدخلها أحد سمع بها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها، فرجع فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها** »[(٢)] . فهذان الحديثان صريحان في إعداد كل من الجنة والنار لأهلها ، وروى مالك في الموطأ وأصحاب السنن من حديث كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة** »[(٣)] . وجاء في حديث خسوف الشمس أن النبي ﷺ رأى الجنة

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب : الميت يعرض مقعده في الغداة والعشي (١٣٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (٢٦٦٨) .

(٢) لم يخرجه مسلم بل أخرجه أبو داود في السنة باب في خلق الجنة والنار (٤٧٤٤) والترمذي في صفة الجنة . باب : ما جاء في حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (٢٥٦٠) وقال (حسن صحيح) والحاكم (١/ ٢٦) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الجنائز . باب : جامع الجنائز (٤٩) وأحمد (٣/ ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠) والنسائي في الجنائز : باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨) وابن ماجه في الزهد ، باب : ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٧١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٩٥) .

والنار وهو يخطب أصحابه وأنه حدثهم عنها [1] ، وثبت أن الله أسكن آدم وحواء الجنة قبل أن يهبطا إلى الأرض ، من أجل مخالفتهما لله بأكلهما من الشجرة التي نهاهما عن الأكل منها .

وأما الإجماع : فإن صدر هذه الأمة لم يزالوا على القول بوجودهما في الدنيا حتى نبتت نابتة من القدرية والمعتزلة فأنكرت ذلك وهم محجون بالنصوص ، وإجماع الأمة قبل وجودهم .

شبهة من أنكر وجود الجنة والنار الآن والرد على ذلك :

أولا : قالوا : خلق الجنة والنار قبل يوم الجزاء عبث ، لأن كلا منهما تبقى معطلة مدة طويلة دون أن يُجزي بها أحدُ ، والعبث محال على الله ، وأجيب أولاً بأنه معارضة للنصوص الصحيحة بالعقل في أمر غيبي لا يعرف إلا من أهل النقل ، وثانياً بأن وجودهما في الدنيا فيه فائدة و لأن المؤمنين ينعمون في قبورهم، وأرواحهم نسمات تعلق في شجر الجنة ، والكفار يعذبون في قبورهم بالعرض على النار ورؤية كل منهم لمقعده فيهما إلى أن يبعثه الله كما تقدم بيانه ، فوجودهما ليس بعبث .

واستدلوا ثانياً : بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [2] ، قوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [3] ، قالوا : فلو كانتا موجودتين الآن لهلكتا وذاق كل من فيهما الموت عند النفخة الأولى في الصور من أجل إنهاء الدنيا وتخريبها ،

---

(١) كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنه أخرجه مسلم في الكسوف في ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠١) ومن حديث جابر (٩٠٤) وحديث أسماء أخرجه البخاري في باب : صلاة النساء مع الرجال في الكسوف (١٠٥٣) ، ومسلم في الكسوف (٩٠٥) . وحديث ابن عباس أخرجه البخاري في الكسوف (١٠٥٢) . ومسلم (٩٠٧) .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٥ .

وأجيب بأن كلا من الجنة والنار مستثنى مما يصيبه الهلاك والفناء عند النفخة الأولى ، لأنهما خلقتا للبقاء .

قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) فإنهما داخلتان في عموم من شاء الله بقاءه جمعاً بين الأدلة ، وأيضاً المعنى كل شيء كُتِبَ عليه الهلاك أو ذوق الموت فهو هالك ، والجنة والنار ليستا مما كُتِبَ عليه الهلاك ، لأنهما خلقتا للجزاء ، وأيضاً معنى كل شيء هالك ، إلا وجهه كل عمل حابط إلا ما أريد به وجه الله ، بدليل قوله في صدر الآية : ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (٢) .

واستدلوا ثالثاً : بما ذكره الله عن امرأة فرعون من قولها : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ (٣) وبقول رسول الله ﷺ : « **لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يامحمد اقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم بأن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر** »(٤) . وقوله ﷺ : « **من قال : سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة** »(٥) ، قالوا : فلو كانت الجنة مخلوقة مفروغاً منها لما طلبت امرأة فرعون من ربها أن يبني لها بيتاً فيها ،

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٨ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٨٨ .

(٣) سورة التحريم ، الآية : ١١ .

(٤) أخرجه الترمذي . في الدعوات (٣٤٦٢) ، والطبراني في الكبير (١١٠/ ٢١٤) رقم (١٠٣٦٣) وغيرهما . قال الترمذي (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود) وفيه عبد الرحمن بن إسحاق وهو ضعيف إتفاقاً وأعله أبو حاتم وأبو زُرعة بالإنقطاع كما حكاه عنهما ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ١٧١) .

(٥) أخرجه الترمذي . في الدعوات (٣٤٦٤) ، (٣٤٦٥) وقال عن الأول (حسن صحيح غريب) وعن الثاني (حسن غريب) . والحاكم (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢) وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٦٤) بشواهده .

ولما قال ﷺ إنها قيعان ، وأنها لا تزال يغرس فيها كلما كان التسبيح والتحمد والتهليل والتكبير من العابدين . وأجيب بأن ما ذكرتم دليل على وجود الجنة الآن لا على عدمها إلا أنها لا تزال يخلق الله فيها أنواعاً من النعيم ما ذكره الذاكرون ، بل ويجدد الله فيها يوم القيامة أنواعاً من النعيم . فالإنشاء فيها مستمر اليوم ويوم القيامة ، والنعيم فيها متجدد أبد الآبدين .

الأمر الثاني : اتفق أهل السنة على أن الجنة لا تفنى ، وذهب جمهور منهم إلى أن النار أيضاً لا تفنى وقالت طائفة قليلة منهم بفناء النار .

والدليل من القرآن على بقاء الجنة قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (٥) .

واختلف السلف في الاستثناء من خلود المؤمنين في الجنة في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (٦) فقيل : إنه استثنى المدة التي يمكثها عصاة المؤمنين في النار قبل دخولهم الجنة من مدة خلودهم في الجنة ، فالمعنى يخلد المؤمنين في الجنة ما دامت السموات والأرض إلا مدة شاء ربك أن يقضيها عصاة المؤمنين في النار قبل

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣٥ .
(٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٨ .
(٣) سورة ص ، الآية : ٥٤ .
(٤) سورة الدخان ، الآية : ٥٦ .
(٥) سورة هود ، الآية : ١٠٨ .
(٦) سورة هود ، الآية : ١٠٨ .

دخولهم الجنة ، وقيل : إنه استثناء الرب ولا يفعله ، كقولك : والله لأكرمن فلاناً إلا أن أرىٰ غير ذلك . وأنت لا ترىٰ إلا إكرامه ، وقريب منه ما قيل من أن الإستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم فهم في مشيئة الله لا أنهم باستقرارهم في الجنة وتمكنهم منها خرجوا من مشيئة الله ، ولا ينافي ذلك إرادته إرادة كونية أن يخلدوا فيها ، ونظيره قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ (١) وهوسبحانه مريد لبقاء ما أوحىٰ به إلىٰ رسوله، وقوله : ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ (٢) وهو سبحانه لا يشاء الختم علىٰ قلب رسوله ، بل أراد له استمرار الهداية والإمداد بالنور وصفاء البصيرة وقوله : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ (٣) . وقد شاء سبحانه إعلامهم به ، وتلاوة رسوله القرآن عليهم ، إلىٰ غير هذا من النظائر التي يقصد فيها إثبات كمال الإختيار ، وأن الأمور لم تخرج من دائرة تقديره سبحانه وتصريفه ،واختار ابن جرير أن [إلا] بمعنىٰ لكن ، وعليه يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنىٰ خالدين فيها سوىٰ ما شاء ربك من زيادة النعيم ، أو لكن هنا بعد زيادة النعيم والإكرام علىٰ الخلود ما لا يقدر قدره الله إلا الله ، فليس المراد قطع أمر الخلود ، ولكن المراد زيادة نعيم إلىٰ جانب خلودهم في الجنة ، بدليل ما ختمت به الآية من قوله تعالىٰ: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (٤) .

والدليل من السنة علىٰ أبدية الجنة قوله ﷺ : « **من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت** » (٥). وقوله : « **ينادي منادٍ يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا**

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٦ .

(٢) سورة الشورىٰ ، الآية : ٢٤ .

(٣) سورة يونس ، الآية : ١٦ .

(٤) سورة هود ، الآية : ١٠٨ .

(٥) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٦) من حديث أبي هريرة .

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٧) من حديث بي هريرة وأبي سعيد الخدري .

تسقموا أبداً وأن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً » [٦] . وقوله : « **يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت »** [١] . رواه البخاري ومسلم .

أما أبدية النار ففيها آراء كثيرة ، للسلف منها رأيان :

الأول : رأي جمهور السلف ، قالوا : إن النار باقية لا تطفئ ، ومن دخل بقي مخلداً فيها أبداً إلا من دخلها من عصاة المؤمنين ، فإنهم يخرجون منها على ما تقدم بيانه في مبحث الشفاعة ، واستدلوا على بقائها وخلود الكافرين بقوله تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [٢] . وقوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ [٣] . وقوله ﴿ **لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**﴾ [٤] . وقوله : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**﴾ [٥] وقوله : ﴿ **فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [٦] . وقوله : ﴿**مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**﴾ [٧] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [٨] .

الرأي الثاني : أن النار تفنى بعد أن يستوفي الكفار نصيبهم من العذاب فيها ،

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب وأنذرهم يوم الحسرة (٤٧٣٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٧ .
(٣) سورة المائدة ، الآيات : ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) سورة الزخرف ، الآية : ٧٥ .
(٥) سورة فاطر ، الآية : ٣٦ .
(٦) سورة النبأ ، الآية : ٣٠ .
(٧) سورة الإسراء ، الآية : ٩٧ .
(٨) سورة النساء ، الآية : ٥٦ .

ونسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة من الصحابة ، وبه قال ابن تيمية وابن القيم وجماعة [1] ، واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [2] . وقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [3] .

قالوا : استثنى من الخلود في الآيتين بقوله في الآية الأولى ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وبقوله في الآية الثانية : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ولم يأت بعد الاستثناء ما يدل على عدم الانقطاع وانتهاء العذاب ، كما جاء عقب الاستثناء من الخلود في نعيم الجنة ، فإن الآية ختمت بقوله : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [4] وهو دال على دوام النعيم واستمراره فكان قرينة على أن الاستثناء الذي قبله لا يراد به الإخراج ، إنما يراد به اثبات كمال الاختيار واستدلوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [5] فجعل اللبث في النار مدة محدودة ، فدل على انتهاء العذاب ، واستدلوا أيضاً بأن النار موجب غضبه والجنة موجب رحمته وقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ

---

(١) وفي نسبة القول بفناء النار إلى من ذكر من الصحابة رضي الله عنهم وإلى ابن تيمية وابن القيم نظر عند بعض أهل العلم يراجع في ذلك كتاب رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للأمير الصنعاني ، وكتاب توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين للعلامة مرعي بن يوسف الحنبلي ، وكشف الأستار لإبطال إدعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية للدكتور علي بن جابر الحربي اليماني .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة هود . الآيات : ١٠٦-١٠٧ .

(٤) سورة هود ، الآية : ١٠٨ .

(٥) سورة النبأ ، الآية : ٢٣ .

قال : « **لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي**»[١] . وفي رواية : « **تغلب غضبي** » [٢] . قالوا فلو بقي الكفار في النار ، ولم تفنى النار لكان غضبه قد سبق رحمته ، وفي هذا خلف لخبر الصادق ﷺ عن ربه ، وخلف خبره مستحيل .

قالوا : وما ورد من النصوص الدالة على خلود الكفار فيها أبداً وعدم خروجهم منها فلا نزاع فيه ، لكنه يقتضي البقاء في العذاب ما دامت النار باقية ، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد ، وهناك فرق بين من يخرج من الحبس والحبس قائم ، وبين من ينهدم حبسه وينتقض بناؤه ، فيبطل حبسه وينتهي سجنه بإنتقاض البناء ، وقد يناقش هذا بأنه وإن صلح جواباً عن أدلة الخلود فلا يصلح جواباً عن النصوص الصريحة في أن عذابها مقيم ، وأنه كان غراماً ، وأن النار كلما خبت زادها الله سعيراً ، وأنهم لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف بل يزيدهم الله عذاباً ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، اللهم إلا أن يقال : إن الاستثناء بالمشيئة في الآيتين السابقتين مسلط على جميع النصوص التي دلت على دوام العذاب واستمراره ، وعلى كل حال فالموضوع من شئون الله فليترك إلى الله سبحانه والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب قوله تعالى وقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (٧٤٥٣) . وفي باب قول الله تعالى بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ (٧٥٥٤) . ومسلم في التوبة باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه (٣٧٥١) (١٥) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه (٧٤٠٤) ومسلم في التوبة باب سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه (٣٧٥١) (١٤) .

٦ـ مبحث في العرش

والكرسي وإثبات صفة العلو

العرش والكرسي كلاهما حق ، وللعرش حملة من الملائكة يحملونه فوقهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [(١)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾[(٢)] ، وقد ميز الله العرش بنسبته إليه ، وخصه باستوائه عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [(٣)] ، وقال : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [(٤)] ، وقال : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [(٥)] ، وقال : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [(٦)] ، وقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [(٧)] ، وقال : في أكثر من آية ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [(٨)] ، فدل ذلك علىٰ وجوده .

وامتيازه واستواء الله عليه ، كما دلت الآية الثانية علىٰ وجود الكرسي .

واختلف في صفة العرش وموقعه من المخلوقات ، فقيل : إن العرش مثل القبة فوق المخلوقات ، واستدل لهذا بما رواه أبو داود وغيره في حديث الأطيط من قوله : ﷺ « **إن عرشه على سمواته** »[(٩)] هكذا ، وقال بأصابعه ، مثل القبة ،

(١) سورة غافر ، الآية : ٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٣) سورة الحاقة ، الآية : ١٧ .
(٤) سورة البروج ، الآية : ١٥ .
(٥) غافر ، الآية : ١٥ .
(٦) سورة النمل ، الآية : ٢٦ .
(٧) سورة طه ، الآية : ٥ .
(٨) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ ، يونس ، الآية : ٣ ، الرعد ، الآية : ٢ .
(٩) أخرجه أبو داود في السنة باب في الجهمية والمعتزلة (٤٧٣٦) وهو ضعيف كما قال الشيخ رحمه الله . قال الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص / ٢٧٨) : «ضعيف الإسناد ، ولا يصح في أطيط العرش حديث» .

أي أشار بأصابعه إشارة تدل على أن العرش يشبه القبة . لكن هذا حديث ضعيف الإسناد ، واستدل لذلك أيضاً بما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال : **«إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »** (١) ، لكن هذا لا يدل على أن العرش كالقبة فوق السموات من جانب واحد ، فإن السموات محيطة بالأرض ، ومع ذلك فهي كالقبة بالنسبة لكل جماعة على سطح الأرض من الجهة التي تليهم ، وقيل : إن العرش فلك مستدير محيط بالعالم من كل جهة ، وربما سماه أصحاب هذا القول الفلك الأطلسي أو الفلك التاسع ، ورد هذا بأن للعرش قوائم ، لما ورد في حديث بيان النبي ﷺ فضل موسى عليه الصلاة والسلام من قوله ﷺ : **« فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور »** (٢) فالظاهر أنه كسقف أقيم على قوائم ، وأن الملائكة تحمله من هذه القوائم ، وأيضاً العرش في اللغة السرير الذي أعد للملك ليجلس عليه ، ولا تفهم منه العرب إلا ذلك ، وقد نزل القرآن بلغة العرب ، وإذن ليس العرش فلكاً مستديراً ، بل هو كالقبة على العالم وسقف للمخلوقات ، وقد استشهد لكونه سريراً بشعر أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهـل ربنا في السماء أمسى كبيـراً
بالبناء العالي الذي بهر النـا س وسوى فوق السماء سريراً (٣)

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب « وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم » (٧٤٢٣) وفي الجهاد ، باب : درجات المجاهدين في سبيل الله (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ، باب : قول الله تعالى « **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر** » (٣٣٩٨) ومسلم في الفضائل باب من فضائل موسى عليه السلام (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ للبخاري .

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص/ ٢٧٨) .

واستشهدوا لذلك أيضاً بما ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة ، من أن عبد الله بن رواحة عرّض لأمرأته بشعر عن القراءة حينما اتهمته بجارته ليوهمها به أنه قرآن ، و أنه ليس بجنب ، قال :

شهدت بأن وعد الله حــق ... وأن النار مثوىٰ الكافرينـا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شـــداد ... ملائكة الإله مسومينا [١]

لقول أبي ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض** » [٢] .

وتأول جماعة العرش فقالوا : إنه عبارة عن الملك ، وهذا تحريف لكلام الله وإخراج له عن المعنىٰ المتبادر منه بلا دليل ، فإنه يبعد أن يقال في تفسير الآيات السابقة : ويحمل ملك ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وأن يكون معنىٰ « **وكان عرشه على الماء** » وكان ملكه علىٰ الماء ، ويكون معنىٰ أخذ موسىٰ بقائمة من قوائم العرش أخذ بقائمة من قوائم الملك ، فكان تفسير العرش بالملك باطلاً .

أما الكرسي فقيل : إنه موضع القدمين ، وأنه بين يدي العرش كالمرقاة إليه ، فهو غير العرش ، ولقول ابن عباس : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله ، وقيل : إن الكرسي هو العرش ، ويرده ما تقدم عن ابن عباس ، وفسر الكرسي بالعلم ، ونسب هذا إلىٰ ابن عباس ، ولكن المحفوظ عنه

---

(١) قال الشيخ الألباني في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص/ ٢٨٢) « ضعيف ، وقول ابن عبد البر رويناه من وجوه صحاح فيه نظر فقد قال الذهبي في « العلو » (ص / ٤٢) معقباً عليه : « روىٰ من وجوه مرسلة . . . » ثم ذكرها .

(٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة « ١٠٩ » .

التفسير الأول [١] .

هذا والسكوت عن الكلام في العرش وأنه كالقبة أو فلك مستدير محيط بالكائنات خير من الخوض في ذلك ، وكذا ترك التعمق في كون العرش هو الكرسي أو خلافه خير من الجدل وكثرة الحديث فيه ، فإن الخوض في ذلك والتعمق فيه من شَرَهِ الفكر ، واستشراف العقل إلىٰ إدراك أمر غيبي لا يعلم إلا بالتوقيف ، فينبغي الوقوف عند النقل ، ويجب أن يعلم أن استواء الله علىٰ العرش ليس لحاجته إليه ، ولا لكون العرش حاملاً له ، فإن السماء فوق الأرض ومحيطة بها ، ولم يلزم أن تكون السماء في قيامها وتماسكها محتاجة إلىٰ الأرض، ولا أن تكون الأرض حاملة لها ، فالله مستو علىٰ عرشه ، وهو مستغن عنه وعما فيه من الكائنات ، وهو فوق عباده حقيقة ، محيط بهم إحاطة تليق بجلاله لاكإحاطة الفلك بما فيه من الكائنات ، والجميع قائم بحوله وقوته ابتداء ودواماً ، محفوظ بعنايته ورعايته ، جلت قدرته ، وتعالت عظمته علواً كبيراً ، قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٣] .

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [٤] ، وقال : ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيط ﴾ [٥]، وقال : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [٦] .

---

(١) انظر الطحاوية (ص/ ٢٨٠) .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ١٥ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٦

(٤) سورة النساء ، الآية : ١٢٦ .

(٥) سورة فصلت ، الآية : ٥٤ .

(٦) سورة البروج ، الآيات : ١٩ـ٢٠ .

وهذا هو مذهب السلف في صفة الاستواء ، وعلو الله علىٰ عرشه حقيقة مع التفويض في الكيفية ، فقد سئل مالك بن أنس رضي الله عنه : كيف استوىٰ الله علىٰ العرش ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب[1]، وذكر ذلك حسان بن ثابت في شعره ، قال :

شَهِدتُ بإذْن الله أنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الذي فوق السَّمَوات مِن عل

وأن أبا يحيي ويحيي كلاهما لــه عَمَلُ من ربـه مُتَقبـلُ [2]

يريد النبيين يحيىٰ بن زكريا وأباه زكريا ، وسأل مطيع البلخي أبا حنيفة عمن قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقال : قد كفر ، لأن الله يقول : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[3] ، وعرشه فوق سبع سموات ، قلت فإن قال : «إنه علىٰ العرش ولكن يقول لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ، قال : هو كافر ، لأنه أنكر أنه في السماء ، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر[4]، وفي بعض الروايات عنه زيادة « لأن الله في أعلىٰ عليين ، وهو يدعىٰ من أعلىٰ لا من أسفل » ، ومن أنكر هذا عن أبي حنيفة فهو ممن انتسب إلىٰ مذهبه الفقهي مع مخالفته له في بعض مسائل الاعتقاد كالمعتزلة .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحليه (٦/ ٣٢٥) وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد علىٰ الجهمية (ص/ ٥٥) واللألكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦٦٤) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص / ٤٠٨) من طرق يقوىٰ بعضها بعضاً قال الذهبي في العلو (ص/ ١٠٤) (وهذا ثابت عن مالك وقواه الشيخ الألباني في مختصر العلو (ص/ ١٤١) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣ / ٤٠٦ ، ٤٠٧) وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب به . . فذكره) .

(٢) قال الشيخ الألباني في تخريجه للأحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص/ ٢٨٢) (ضعيف رواه ابن سعد في الطبقات بسند ضعيف ومنقطع) وأخرجه الذهبي في (العلو) (ص ٤٠) وقال : « وهذا مرسل » . .

(٣) سورة طه ، الآية : ٥ .

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص/ ٢٨٨) ومختصر العلو (ص/ ١٣٦ ، ١٣٧) .

وقد شهدت العقول السليمة ، والفطر المستقيمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده ، كما صرحت بذلك نصوص الكتاب والسنة المتنوعة والمحكمة.

فمن ذلك التصريح بالفوقية مقروناً تارة بحرف من المعنية لفوقيته تعالىٰ بنفسه ، ومجرداً منها تارة أخرىٰ ، قال الله تعالىٰ : **﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾** (١) ، وقال : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾** (٢) . ومنها التصريح بالعروج إليه ، قال تعالىٰ : **﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾** (٣) ، وقال النبي ﷺ : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم كيف تركتم عبادي ، فيقولون تركناهم وهو يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون** »(٤) .

ومنها التصريح بصعود العمل الصالح إليه ، وبرفعه بعض المخلوقات إليه ، قال تعالىٰ : **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾** (٥) ، وقال : **﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾** (٦) وقال : **﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾** (٧). وكذا عروج النبي محمد مع جبريل عليهما الصلاة والسلام إلىٰ السموات ليلة الإسراء والمعراج ، وإخبار النبي ﷺ أنه تردد بين موسىٰ وبين ربه تلك الليلة بشأن تخفيف الصلاة ، فيصعد

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٥٠ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٨ .
(٣) سورة المعارج ، الآية : ٤ .
(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر (٥٥٥) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب فضل الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .
(٦) سورة النساء ، الآية : ١٥٨ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية : ٥٥ .

إلىٰ ربه ثم يعود إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام عدة مرات [١] .

ومنها التصريح بالعلو المطلق الدال علىٰ إثبات جميع مراتب العلو ، علو النفس والقدر والشرف ، قال تعالىٰ : في آية الكرسي ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[٢] ، وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [٣] وقال : ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [٤]، منها التصريح في كثير من الآيات بنزول القرآن منه ـ وتنزيله إلىٰ الأرض يقتضي أنه فوق عباده . وقال تعالىٰ : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [٥] ، وقال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [٦] وقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [٧] ، ومنها التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [٨] ، وقال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [٩] ، ففرق سبحانه بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصاً ، وقد بين النبي ﷺ **« أن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، كتب فيه رحمتي سبقت غضبي »** [١٠] .

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٩) ومسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السموات وفرض الصلوات (٢٥٩) .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٣) سورة سبأ ، الآية : ٢٣ .
(٤) سورة الشورىٰ ، الآية : ٥١ .
(٥) سورة غافر ، الآية : ٢ .
(٦) سورة فصلت ، الآية : ٢ .
(٧) سورة النحل ، الآية : ١٠٢ .
(٨) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٦ .
(٩) سورة الأنبياء ، الآية : ١٩ .
(١٠) سبق تخريجه .

ومنها التصريح بأنه تعالىٰ في السماء . قال تعالىٰ : ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (١) وبيان ذلك أن في بمعنىٰ علىٰ ، وتقدير المعنىٰ أأمنتم من علىٰ السماء ، أو « في » علىٰ حقيقتها والسماء معناها العلو ، وتقدير المعنىٰ : أأمنتم من في العلو ، ولا يجوز في معنىٰ هذا النص إلا هذان الوجهان .

ومنها التصريح بأنه مستوٍ علىٰ العرش خاصة مع التعدية بعلىٰ وذكر « ثم » في الأكثر ، وهي دالة علىٰ الترتيب والمهلة ، فلا يأتي مع ذلك تأويل استوائه علىٰ العرش بالقدرة ، أو الإستيلاء عليه .

ومنها التصريح بمشروعية رفع الأيدي إلىٰ السماء في الدعاء ، فقد رفع النبي ﷺ **يديه إلى السماء وهو يدعو في الاستسقاء وغيره** (٢) ، وثبت عنه أنه قال : « **إن الله يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً** » (٣) .

ومنها إشارته ﷺ إشارة حسية إلىٰ جهة « السماء » وهو يخطب الناس في حجة الوداع ، يوم عيد الأضحىٰ بينما قال في خطبته : « **سوف تُسألون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت » فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء** (٤) ، مشيراً إلىٰ أن الله فوقها وفوق كل شيء ، و منها سؤاله الجارية بلفظ

---

(١) سورة الملك ، الآيات : ١٦ - ١٧ .

(٢) والأحاديث في ذلك كثيرة منها حديث عبد الله بن زيد قال خرج النبي ﷺ إلىٰ هذا المصلىٰ يستقي ، فدعا واستقىٰ ثم استقبل القبلة وقلب رداءه لما أخرجه البخاري في الدعوات باب الدعاء مستقبل القبلة (٦٣٤٣) ومسلم في صلاة الاستسقاء (٨٩٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الوتر باب الدعاء (١٤٨٨) والترمذي في الدعوات (٣٥٥٦) وقال حسن غريب وابن ماجه في الدعاء باب رفع اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) ، والحاكم (١/ ٤٩٧) وصححه ووافقه الذهبي وصححه الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص/ ٢٨٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨) وهو قطعة من حديث جابر رضي الله عنه .

صريح في ذلك حيث قال لها : « أين الله » ؟ وشهادته لها بالإيمان حينما أجابته بأن الله في السماء وشهدت له بالرسالة ، فقال لسيدها : « أعتقها فإنها مؤمنة » [١] ، فهذا السؤال والإقرار والحكم بإيمان الجارية منه ﷺ وهو أعلم الخلق بربه ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه من الوجوه دليل على أن الله فوق السماء ، وأنه فوق كل شيء بنفسه ، والأدلة المتعلقة بعلو الله على خلقه كثيرة متنوعة ، يؤيد بعضها بعضاً ، فمن رام أن يتأولها فقد رام باطلاً ومن سلك طريق التأويل لهذه النصوص فقد فتح على نفسه باب شر لا يمكنه إغلاقه ، فإنه يسلط على نفسه بذلك مسلك الباطنية الذين يتأولون نصوص الصلاة والزكاة والصيام وسائر فرائض الإسلام ، وبهذا يعود الشرع كله مؤولاً .

ومع هذا فقد تأول كثير من المتأخرين الفوقية في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [٢] بأنه تعالى خير من عباده ، وأنه خير من العرش وأفضل منه ، وهو كما ترى تأويل بعيد تنفر منه العقول الرشيدة ، وتأباه الفطر السليمة ، فإنه لا تمجيد لله في ذلك ولا تعظيم له بل هو تأويل سمج مرذول ، فإنه يشبه قول القائل الجبل أثقل من الحصى ، ورسول الله أفضل من اليهود ، والجوهرة فوق قشر البصل أو قشر السمك ونحو ذلك مما التفاوت فيه عظيم ، ولا شك أن التفاوت بين الله وبين عباده أعظم ، ولو أن هذا المتأول أثبت الفوقية مطلقاً ، فوقية الذات ، وفوقية القهر والغلبة ، وفوقية القدر والمنزلة لكان ذلك صواباً ، لاتفاقه مع نصوص الكتاب والسنة مع عدم المحذور أما أن يحصر تأويله في نوع منها بلا دليل فذلك باطل .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٨ .

وقد يعبر بالخيرية بين الله وبين بعض خلقه إذا اقتضىٰ المقام ذلك ، كمقام الاحتجاج علىٰ من أشرك مع الله غيره ، ودعوته إلىٰ التوحيد ، قال تعالىٰ : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) ، وقال حكاية لمقالة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن ، ودعوته إياهما إلىٰ التوحيد ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢) .

وقد دلت الأدلة العقلية علىٰ ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، من أن الله بائن من خلقه وأنه فوق عباده بنفسه ، وبيان أن وجود الله إما أن يكون ذهنياً فقط ، وإما أن يكون في خارج الأذهان فالأول ممنوع بإجماع ، وإذا تعين أن يكون وجوده خارج الأذهان ، فأما أن يكون عين العالم أو صفة قائمة بالعالم ، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من خلقه وكل من الأول والثاني ممنوع ، فتعين أن يكون الله موجوداً قائماً بنفسه بائنا من خلقه .

الاستدلال بالفطرة على أن الله فوق عباده :

وإذا ثبت ذلك كان سبحانه فوق عباده ، مستوياً علىٰ عرشه ، لأن السفول صفة ذم لا تتضمن مدحاً ولا ثناء فلا يليق بالله ، والعلو صفة مدح وثناء وكمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصاً ، ولا يوجب محذوراً ، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ، بل النصوص وإجماع السلف تثبت ذلك وتقتضيه ، فوجب اعتقاده وإنكار التأويل وصرف النصوص عن ظواهرها ، لكونه عين الباطل الذي لا تأتي به الشريعة ولا يراه عقل سليم . فإن قيل : إن أكثر العقلاء يتأولون نصوص الاستواء والعلو والفوقية بالاستيلاء والقهر والغلبة ، وبعلو القدر والمنزلة ، وبالخيرية وكمال الفضل ، فكان تأويلهم مقتضىٰ العقل ، إذا يبعد أن يرمي

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٥٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٣٩ .

جمهور العلماء بالجهل والسفاهة ، وتحريف النصوص الصحيحة عن مواضعها ، ولا يكون لهم وجه يعتمدون عليه فيما ذهبوا إليه . قيل : ليس الأمر كذلك ، فإن الذين يصرحون بأن خالق العالم شيء موجود خارج الأذهان لكنه ليس فوق العالم ، وأنه ليس مباينا للعالم ولا داخلاً فيه طائفة من النظار ، وأول من ابتدع ذلك في الإسلام الجعد بن درهم ، وتبعه في التحريف والتعطيل الجهم بن صفوان، فقام هو وأتباعه بنشر هذه البدعة بين الناس ، وهم مسبقون بإجماع الصحابة والتابعين وأئمة التفسير والفقه والحديث على إجراء النصوص كما جاءت ، وإمرارها على ظواهرها إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيها بلا تعطيل ، عملا بقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [(١)] ، وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [(٢)] .

وقد شهدت بذلك الفطر السليمة أيضاً ، فإن الخلق جميعا يرفعون أكفهم إلى السماء عند الدعاء بمقتضى فطرهم وبدافع قوي من طباعهم التي لم يداخلها إلحاد ، ولم ينحرف بها عن جادة الحق تمويه ولا تلبيس ، ويقصدون جهة العلو بقلوب كلها خشوع وضراعة إلى الله راجين أن يتقبل أعمالهم ، ويستجيب دعاءهم ، ويسبغ عليهم نعمه ،ويعمهم بفضله وإحسانه .

وقد ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ، ويقول : كان الله ولا عرش ،وهو الآن على ما كان ، فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط يالله إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ،

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الشورى ، الآية : ١١ .

فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ، قال : فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل ، وأظنه قال : وبكى ، وقال : حيرني الهمداني حيرني ، وكأن الشيخ أبا جعفر أراد أن هذا أمر فطري ، فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه عن المرسلين ، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يدفعهم للتوجه إلى الله وطلبه في العلو [(١)].

فإن قيل إن رفع الأيدي إلى السماء ، وتوجه القلوب إلى جهة العلو ، إنما كان من أجل أن السماء قبلة الدعاء ، كما أن الكعبة قبلة الصلاة ، لا لأن الله في السماء فوق عباده ، ثم هو منقوض بشرع السجود ، ووضع الجبهة على الأرض مع أن الله ليس في جهة الأرض ، أجيب :

أولاً : يمنع أن تكون السماء قبلة الدعاء ، فإن كون الشيء قبلة لا يعرف إلا من طريق الشرع ، ولم يثبت في جعل السماء قبلة للدعاء كتاب ولا سنة ، ولا قال به أحد من سلف الأمة وهم لا يخفى على جميعهم مثل هذا الأمر .

ثانياً : ثبت أن الكعبة قبلة الدعاء كما أنها قبلة الصلاة ، فقد كان النبي ﷺ يستقبل الكعبة في دعائه في مواطن كثيرة [(٢)] ، فمن ادعى أن للدعاء قبلة سوى

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤) وشرح العقيدة الطحاوية (ص/ ٢٩١) ، ومختصر العلو (ص/ ٢٧٧) . قال الشيخ الألباني : « وإسناد هذه القصة صحيح مسلسل بالحفاظ ، وأبو جعفر اسمه محمد بن أبي علي الحسن بن محمد الهمداني مات سنة (٥٣١) ، وقد وصفه ابن تيمية في (مجموع الفتاوى) (٤/ ٤٤) بـ « الشيخ العارف » . ويبدو لي أن هذه الحيرة كانت قبل استقرار عقيدة أبي المعالي الجويني على المذهب السلفي » أ . هـ .

(٢) وقد ورد في استقبال القبلة في الدعاء من فعل النبي ﷺ عدة أحاديث : منها حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه . . . . . . » الحديث أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم » (١٧٦٣) .

وفي حديث ابن مسعود قال : « استقبل رسول الله ﷺ البيت فدعا على ستة نفر من قريش ، فيهم أبو جهل ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط . فأقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر قد غيرتهم الشمس وكان يوماً حاراً » أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب مالقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤) (١١٠) . وانظر فتح الباري (١١/ ١٤٨ ، ١٤٩) .

الكعبة أو ادعىٰ أن السماء قبلته كما أن الكعبة قبلة له فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين .

ثالثاً : أن القبلة ما يستقبله بوجهه ، كما يستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح ودفن الميت ونحو ذلك مما يطلب فيه استقبال القبلة ، ولذا سميت القبلة وجهة لاستقبالها بالوجه ، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها ، لكنه لم يشرع بل نهىٰ عنه ، وإنما شرع رفع اليدين إلىٰ السماء حين الدعاء لا يسمىٰ استقبالاً لها شرعاً ولا لغة ، ولا حقيقة ولا مجازاً .

رابعاً : أن الأمر باستقبال القبلة مما يقبل النسخ والتحويل ، كالأمر باستقبال بيت المقدس في الصلاة نسخ بالأمر باستقبال الكعبة ، ورفع الأيدي إلىٰ السماء في الدعاء والتوجيه بالقلب إلىٰ جهة العلو أمر فطري مركوز في طبائع الناس لم يتغير في جاهلية ولا إسلام ، يضطر إليه الداعي عند الشدة والكرب مسلماً كان أم كافراً .

خامساً : أن من استقبل الكعبة لا يقع في قلبه أن الله هناك جهة الكعبة ، بخلاف الداعي فإنه يرفع يديه إلىٰ ربه وخالقه وولي نعمته ، يرجو أن تنزل عليه الرحمات من عنده ، وأجيب عن نقضهم الاستدلال بالفطرة علىٰ أن الله فوق خلقه بما ذكروه من السجود ووضع الجبهة علىٰ الأرض بأنه باطل ، فإن واضع الجبهة علىٰ الأرض في السجود إنما قصده الخضوع لله ، وإعلان كمال ذل العبودية من الساجد لربه ومالك أمره ، لا لأنه يعتقد أنه تحته فيهوىٰ إليه ساجداً ، فإن هذا لا يخطر ببال ، بل ينزه ربه عن ذلك ، ولهذا شرع له أن يقول في سجوده سبحان ربي الأعلىٰ ، تعالىٰ الله عن الظنون الكاذبة علواً كبيراً .

ومما يجب اعتقاده أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً ، وأنه كلم موسى تكليماً

أما الخلة فهي كمال المحبة ، وقد اتخذ الله نبيه محمداً خليلاً كما اتخذ نبيه إبراهيم خليلاً عليهما الصلاة والسلام ، فهي ثابتة لهما من الله علىٰ وجه يليق بجلاله سبحانه وتعالىٰ ، وقد تخللت محبة الله قلب كل من إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فكمال المحبة ثابت من الجانبين من الله لحبيبه ، ومنهما لله كل علىٰ ما يليق بمقامه وحاله ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [١] ، وقال النبي ﷺ : « **إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً** » [٢] ، وقال : « **لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله** » [٣] . يعني نفسه عليه الصلاة والسلام ، فبين لنا أنه لم يتخذ خليلا من المخلوقين ، وأنه لا يصلح له ذلك، ولو صلح ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يحب الصحابة مثل أبي بكر ، ومعاذ بن جبل ، وأسامة بن زيد ، وعائشة ، فتبين بهذا أن الخلة أخص من المحبة ، وأنها لكمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة فيها ، ولهذا لما أعطىٰ الله إبراهيم الخليل ولده اسماعيل أمره بذبحه ليظهر مقام إبراهيم في كمال محبته لربه ، فلما استسلم لأمر ربه ، وأخذ ينفذ ما أمره به من الذبح ظهر سلطان الخلة في الإقدام علىٰ الذبح والشروع فيه ، إيثاراً لمحبته لله ولأمره علىٰ محبته لولده ، وتم بذلك نجاحه في الاختبار علىٰ أكمل وجه، ونسخ الله أمره بالذبح ،وفدىٰ إسماعيل بذبح عظيم ، تكريماً لإبراهيم

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٢٥ .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، باب : النهي عن بناء المسجد علىٰ القبور واتخاذ الصور فيها (٥٣٢) وهو طرف من حديث جندب بن عبد الله .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم باب : من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٣) .

وولده على الصبر والاستسلام لأمر الله وطاعته ، وبقيت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا وما في حكمها سنة في أتباعه ومن سار على ملته الحنيفية إلى يوم القيامة ، وأنكرت الجهمية أصل المحبة وحقيقتها من الجانبين ، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب وحبيبه ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وزعمهم باطل ، لأنه مجرد دعوى عارضوا بها النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات محبة الله للمؤمنين [١] وإثبات الخلة لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

---

(١) ومن هذه النصوص قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ . وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سورة آل عمران ، الآية ، : ٧٦ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .وقوله : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ سورة الحجرات ، الآية : ٩ .



٧ ـ رسالة في
الحكم بغير ما أنزل الله

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (١) .

ـ أمر الله جل شأنه جميع الناس أن يرد كل منهم ما لديه من أمانة إلىٰ أهلها أياً كانت تلك الأمانة ، فعمَّ سبحانه بأمره كلَّ مكلف وكلَّ أمانة ، سواء كان ما ورد في نزول الآية صحيحاً أم غير صحيح ؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم أوصىٰ سبحانه من وُكِلَ إليه الحكمُ في خصومة أو الفصل بين الناس في أمر ما أن يحكم بينهم بالعدل سواء كان : مُحكَّماً ، أو وَليَّ أمر عام ، أو خاص ، ولا عدل إلا ما جاء في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ؛ فذلك الهدىٰ ، والنور ، والصراط المستقيم .

ثم أثنىٰ علىٰ ما أسداه إلىٰ عباده من الموعظة ؛ إغراءً لهم بالقيام بحقها ، والوقوف عند حدودها .

وختم الآية بالثناء علىٰ نفسه بما هو أهله ؛ من كمال السمع والبصر ، ترغيباً في امتثال أمره رجاء ثوابه ، وتحذيراً من مخالفة شرعه خوف عقابه .

ثم أمر الله تعالىٰ المؤمنين بطاعته وطاعة رسول الله ﷺ مطلقاً ؛ لأن الوحي كله حق ، وأمر بطاعة أولى الأمر فيما وضح أمره من المعروف ؛ لأنه لا طاعة

(١) سورة النساء ، الآيات : ٥٨ ـ ٥٩ .

لمخلوق في معصية الخالق [١]؛ كما دلت عليه النصوص الثابتة الصريحة في ذلك .

فإذا اشتبه الأمر ووقع النزاع ؛ وجب الرجوع - في بيان الحق ، والفصل فيما اختلف فيه - إلىٰ الكتاب والسنة .

لقوله سبحانه : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [٢] .

وقوله : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [٣] .

وأمثال ذلك من نصوص الكتاب والسنة .

فإن الرجوع إليهما عند الحيرة أو النزاع خيرٌ عاقبةً وأحسنُ مآلاً ، وهذا إنما يكون فيما فيه مجال للنظر ، والاجتهاد .

حالات الحكم بما أنزل الله :

فمن بذل جهده ونظر في أدلة الشرع ، وأخذ بأسباب الوصول إلىٰ الحق ؛ فهو : - مأجورٌ أجرين إن أصاب حكم الله - .

أو معذورٌ مأجورٌ أجراً واحداً إن أخطأه .

وله : أن يعمل بذلك في نفسه ، وأن يَحْكُمَ به بين الناس ، ويُعَلِّمَه الناس ، مع بيان وجهة نظره المستمدة من أدلة الشرع علىٰ كلتا الحالتين .

بناءً علىٰ قاعدة (**التيسير ودفع الحرج**) وعملاً بقوله تعالىٰ : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٣٤٠ ، ٧٢٥٧) . ومسلم (١٨٤٠) وأبو داود (٢٦٢٥) . والنسائي (٧/ ١٠٩) وأحمد (١/ ٨٢ ، ١٢٤) كلهم من حديث علي بن طالب رضي الله عنه .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ١٠ .

اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١) ولقول النبي ﷺ : « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم** » (٢) ولقوله ﷺ : « **إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد** » (٣) .

حالات الحاكمين بغير ما أنزل الله :

الأولى : من لم يبذل جهده في ذلك ، ولم يسأل أهلَ العلم ؛ وَعَبَدَ اللهَ على غير بصيرة أو حكَمَ بين الناس في خصومة ؛ فهو آثمٌ ضالٌ ، مستحقُ العذاب إن لم يتب ويتغمده الله برحمته ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (٤) .

الثانية : وكذا من عَلِمَ الحقَّ ورضي بحكم الله ؛ لكن غلبه هواه أحياناً فعمل في نفسه ، أو حكم بين الناس - في بعض المسائل أو القضايا - على خلاف ما علمه من الشرع لعصبية أو لرشوة - مثلاً - فهو آثم ، لكنه غير كافر كفراً يخرج من الإسلام ، إذا كان معترفاً بأنه أساء ، ولم ينتقص شرع الله ، ولم يسئ الظن به ، بل يحز في نفسه ما صدر منه ، ويرى أن الخير والصلاح في العمل بحكم الله تعالى .

روى الحاكم عن بريدة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال : « **قاضيان في النار ، وقاض في الجنة : قاض عرف الحق فقضى به ، فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق**

---

(١) سورة التغابن ، الآية : ١٦ .

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٨) ، ومسلم في كتاب الفضائل باب : توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٧٦١) من حديث عمرو بن العاص .

(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

فجار متعمداً أو قضى بغير علم ؛ فهما في النار » [١] .

الثالثة : من كان منتسباً للإسلام ؛عالماً بأحكامه ، ثم وضع للناس أحكاماً ، وهيأ لهم نظماً ؛ ليعملوا بها ويتحاكموا إليها ؛ وهو يعلم أنها تخالف أحكام الإسلام ؛ فهو كافر ، خارج ، من ملة الإسلام .

وكذا الحكم فيمن أمر بتشكيل لجنة أو لجان لذلك ، ومن أمر الناس بالتحاكم إلى تلك النظم والقوانين أو حملهم على التحاكم إليها وهو يعلم أنها مخالفة لشريعة الإسلام .

وكذا من يتولى الحكم بها ، وطبقها في القضايا ، ومن أطاعهم في التحاكم إليها باختياره ، مع علمه بمخالفتها للإسلام فجميع هؤلاء شركاء في الإعراض عن حكم الله .

---

(١) وهو من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . وله عنه ثلاث طرق : الأولى طريق أبي هشام ، عن ابن بريدة ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ به . أخرجه أبو داود في الأقضية باب ، في القاضي يخطئ (٣٥٧٣) وابن ماجة في الأحكام ، باب : الحاكم يجتهد فيصيب الحق (٢٣١٥) وقال أبوداود (وهذا أصح شيء فيه . يعني حديث ابن بريدة : القضاة ثلاثة) وفيه خلف بن خليفة ؛ قال الحافظ في التقريب (ترجمة رقم ١٧٣١) صدوق اختلط في الآخر .

الثانية : طريق عبد الله بن بكير ، عن حكيم بن جبر ، عن عبد الله بن بريدة ، به . أخرجه الحاكم (٤/ ٩٠) وقال « صحيح الإسناد » ورده الذهبي يقوله (قلت : ابن بكير الغنوي ؛ منكر الحديث) .

الثالثة : طريق شريك ، عن الأعمش ، عن سهل بن عبدة ، عن ابن بريدة ، به . أخرجه الترمذي في الأحكام باب : ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي (١٣٢٢) والحاكم (٤ / ٩٠) وقال : (صحيح على شرط مسلم) ووافقه الذهبي ، وفيه شريك بن عبد الله القاضي ؛ قال فيه الحافظ في التقريب صدوق يخطئ كثيراً . وقال الشيخ الألباني في (إرواء الغليل) (٨/ ٢٣٦) « الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح إن شاء الله تعالى » وقد قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣٤٠) : « قال الحاكم في علوم الحديث : تفرد به الخراسانيون ، ورواته مراوزه .

لكن بعضهم يضع تشريعاً يضاهي به تشريع الإسلام ويناقضه على علم منه وبيّنه . وبعضهم يأمر بتطبيقه ، أو يحمل الأمة على العمل به ، أو وَلِيَ الحكم به بين الناس أو نَفّذ الحكم بمقتضاه .

وبعضهم يأمر بطاعة الولاة والرضا بما شرعوا لهم مما لم يأذن به الله ولم ينزل به سلطاناً .

فكلهم قد اتبع هواه بغير هدىً من الله ، وصَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ فاتبعوه ، وكانوا شركاء في الزيغ ؛ والإلحاد ، والكفر ؛ ولا ينفعهم علمهم بشرع الله ، واعتقادهم ما فيه ، مع إعراضهم عنه ، وتجافيهم لأحكامه ، بتشريع من عند أنفسهم ، وتطبيقه ، والتحاكم إليه ؛ كما لم ينفع إبليس علمه بالحق ، واعتقاده إياه ، مع إعراضه عنه ، وعدم الاستسلام والانقياد إليه ، وبهذا قد اتخذوا هواهم إلهاً ؛ فصدق فيهم :

قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . . ﴾ (٣) الآيات .

إلىٰ قوله سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .
(٢) سورة الشورىٰ، الآية : ٢١ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

إلىٰ قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (٢) .

إلىٰ قوله : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

إن هؤلاء قد صدوا عن تحكيم شرع الله انتقاصاً له ، وإساءةً للظن بربهم الذي شرعه لهم ، وابتغاءَ الكمال فيما سوَّلته لهم أنفسهم ؛ وأوحىٰ به إليهم شياطينهم .

وكأن لسان حالهم يقول : (إن شريعة الكتاب والسنة نزلت لزمان غير زماننا ؛ ليعالج مشاكل قوم تختلف أحوالهم عن أحوالنا ، وقد يُجدي في إصلاحهم ما لا يناسب أهلَ زماننا ، فلكل عصر شأنه ، ولِكُلٍّ قومٍ حكم ، يتفق مع عروفهم ونوع حضارتهم وثقافتهم) .

فكانوا كمن أمر رسول الله أن ينكر عليهم ويسكتهم بقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً . . ﴾ (٤) إلىٰ قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) .

وكانوا ممن حقت عليهم كلمة العذاب وحكم الله عليهم بأن لا خلاق لهم في

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٠ .
(٢) سورة النساء ، الآيات : ٦٠-٦١ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٦٥ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١١٤ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية : ١١٥ .

الآخرة بقوله : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١) .

لقد استهوىٰ الشيطان هؤلاء المغرورين فزيَّنَ لهم أن يَسُنُّوا قوانينَ من عند أنفسهم ليتحاكموا إليها ، ويَفْصلوا بها في خصوماتهم ، وسوَّل لهم أن يسُنُّوا قواعد بمحض تفكريهم القاصرَ وهواهم الجائر لينظموا بها اقتصادهم وسائر معاملاتهم ؛ محاداة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وانتقاصاً لتشريعها ؛ زعما منهم أن تشريع الله لا يصلح للتطبيق والعمل به في عهدهم ،ولا يكفل لهم مصالحهم ، ولا يعالج ما جَدَّ من مشاكلهم ؛ حيث اختلفت الظروف والأحوال عما كانت عليه أيام نزول الوحي في المعاملات وكثرت المشكلات ؛ فلابد لتنظيم المعاملات والفصل في الخصومات من قواعد جديدة يضعها المفكرون من أهل العصر ، والواقفون علىٰ أحوال أهله المطلعون علىٰ المشاكل العارفون بأسبابها ، وطرق حلها ؛ لتكون مستمدةً من ثقافتهم وحضارتهم .

فهؤلاء قد طغىٰ عليهم الغرور المكروه فركبوا رؤوسهم ، ولم يَقْدُروا عقولهم قدرها ، ولم ينزلوها منزلتها ،ولم يَقْدُروا الله حقَّ قدره ،ولم يعرفوا حقيقة شرعه ولا طريق تطبيق منهاجه وأحكامه ، ولم يعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ؛ فعلم ما كان وما سيكون من اختلاف الأحوال وكثرة المشاكل وأنه أنزل شريعة عامة شاملة وقواعد كلية مُحْكَمة ، قدَّرها بكامل علمه وبالغ حكمته ؛ فأحسن تقديرها ، وجعلها صالحة لكُلِّ زمان ومكان ؛ فمهما اختلفت الطبائع والحضارات وتباينت الظروف والأحوال ؛ فهي صالحة لتنظيم معاملات العباد ، وتبادل المنافع بينهم ، والفصل في خصوماتهم ، وحل مشاكلهم وصلاح جميع شئونهم ؛ في عباداتهم ومعاملاتهم .

إن العقول التي منحها الله عباده ـ ليعرفوا بها ، وليهتدوا بفهمها لتشريعه إلىٰ

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥ .

ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل ـ قد اتخذوا منها خصماً لدوداً لله فأنكروا حكمته وحسن تدبيره وتقديره ، وضاق صدرهم ذرعاً بتشريعه ، وأساؤا الظن به فانتقصوه وردوه ، وقد يصابون بذلك وهم لا يدرون ؛ لأنهم بغرورهم بفكرهم عميت عليهم معالم الحق والعدل .

فكانوا ممن قال الله فيهم ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾(١) .

وكانوا ممن ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (٢) .

إن الله سبحانه كثيراً ما يُذَكِّر الناس في القرآن بأحوال المعتدين الهالكين ، ويحثهم على أن يسيروا في الأرض ؛ لينظروا ما كانوا فيه ـ من قوة ورغد عيش وحضارة وبسطة في العلم ـ نظر عظة واعتبار ، ليتنكبوا طريقهم اتقاء لسوء مصيرهم ، ولفت النظر في بعض السور إلى جريمة الغرور الفكري ؛ لشدة خطره، وبّين أنه الفتنة الكبرى التي دفعوا بها في صدور الرسل وردوا بها دعوتهم، ليعرفنا بقصور عقول البشر أنها لا تصلح لمقاومة دعوة الرسل ، وليحذرنا من خطر الغرور الفكري الذي هلك به من قاوم المرسلين .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) سورة الكهف ، الآيات : ١٠٣ـ١٠٤ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآيات : ٢٨ـ٢٩ .

(٣) سورة غافر ، الآيات : ٨٢ـ٨٥ .

٨ـ رسالة في الدفاع

عن السنة ورد شبهات المغرضين

يسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

وبعد :

فلا بد من الإقرار والتصديق بوقوع الرسالة ، وهي صلة بين الله جل شأنه وبين أنبيائه ، ووجوب تكليف العباد بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهذه الأصول الأولى لا بد من إثباتها ؛ حتى يكون الاحتجاج بما ورد في السنة على إثبات أحكام شرعية ، احتجاجا مبنياً على أساس ، وحتى لا يحتاج الناس بعد ذلك إلا إلى دفع شبه قد ترد .

لابد أن يكون الأصل ثابتاً من جهة ما أجمع عليه ؛ من وجود موحٍ يوحي بشرع ، ومن وجود رسل يُوصَلون إلى العباد ليهدوهم سواء السبيل .

ـ ومن جهة الوجوب : وجوب ما جاءت به الرسل عقيدة وعملاً على الأمة التي أرسلت إليها الرسل .

فإذا أراد الإنسان أن يستوفي الموضوع فلا بد له من أن يبدأه من أوله ، ومن الأساس .

أما هذه الرسالة ؛ فستكون في موضوع شُبَه ، أو بعض الشُبَه التي وردت على الاحتجاج بالسنة أو العمل بها ، أو اعتقاد ماً جاءت به .

اختلاف موقف المدافع عن السنة باختلاف حال من يورد الشبهة

إن المسلم الداعية ، أو المناظر الذي يثبت حجية السنة ، والذي يدفع الشبه عنها يختلف موقفه باختلاف من يناظره :

فتارة يكون منكراً للسنة من أصلها أي جميع ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام من الأحاديث قولاً أو عملاً أو خلقاً ، فينكره ويكتفي بما جاء في القرآن الكريم ، فيجب على من يناظر هؤلاء أن يثبت لهم حاجة المسلمين إلى السنة التي جاء به النبي ﷺ قولاً وعملاً لكي يفهموا القرآن ويستطيعون أن يعملوا به .

وتارة يرد بعض الناس من المسلمين بعض أحاديث النبي ﷺ بحجة أنها تعارض العقل أو أن ما كشفه العلماء التجريبيون في معاملهم ومختبراتهم من أطباء ، وتجربين ، وفلكيين وغيرهم تعارض هذه الأحاديث أو تناقض معناها ، فهنا يجب على المسلم الذي ينتصب للرد أن يبين أن هذه الأحاديث إن صح سندها ، وأيقنا أن الرسول ﷺ قالها ، فيجب أن نثق برسولنا وبخبره أكثر من ثقتنا بالأطباء وغيرهم من علماء ومكتشفين . وكذلك ليعلم أن العقول قاصرة وقد جرب عليها الخطأ غير مرة وتارة يكون من يرد السنة أو بعضها لأن فيها أحاديث آحاد فهي لا توجب اليقين ، فمنها ما رواه الواحد أو الإثنين أو أكثر من هذا العدد لكن لا يبلغ عددهم الحد الذي يحدث في النفس طمأنينة وثقة بالمنقول وهذا يرد عليه بأن النبي ﷺ اعتمد أخبار آحاد الناس ونقلهم ما داموا أهلا للثقة بما جرب عليهم من الصدق والأمانة وبما عرف عنهم من التقوى والديانة . وإليك سرد لبعض هذه الشبه والرد عليها بشيء من التفصيل :

الشبهة الأولى

الاقتصار على القرآن وإنكار السنة

فإذا لم يحتج صاحب الشبهة إلا بالقرآن ؛ وقال : إن الله تعالىٰ أغنانا بالقرآن لقوله فيه : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١) ، وقال فالقرآن بينٌ ، واضحٌ ، ومبيِّنٌ ، لكل شيء فلا يحتاج معه إلىٰ سنة . فلماذا نتكلف البحث فيها والركون إليها أو الاحتجاج بها ؟ ولماذا نتكلف هذا مع أن الله تكفل لنا ببيان كل ما نحتاج إليه في محكم كتابه لقوله تعالىٰ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فلا حاجة إلىٰ أن نكلف أنفسنا عناء البحث في سنة رسول الله ﷺ لنعمل بما فيها وقد أغنانا الله بالقرآن عنها ، ويقول سبحانه في آية أخرىٰ : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٢) ويريدون بالكتاب القرآن فيكون المعنىٰ ما فرطنا في القرآن من شيء ففي القرآن كل شيء فلا حاجة إلىٰ السنة ، وهذا إنكار للسنة بجملتها أو إنكار للحاجة إليها وإلىٰ الاحتجاج بها في الجملة ، اكتفاءً بما جاء في القرآن بهاتين الآيتين .

الجواب على هذه الشبهة :

وقد أجاب العلماء عن الاستدلال بهاتين الآيتين بأجوبة منها : أن المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ ، في قوله تعالىٰ : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(٣) المراد به اللوح المحفوظ وليس القرآن الكريم .

(١) سورة النحل ، الآية : ٨٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٣٨ .

(٣) انظر : تفسير الإمام الطبري [٥ ، ٦ / ٢٧٠] طبعة دار الكتب العلمية ، وغيره .

وسورة الأنعام مكية ، ولم يكن نزل من القرآن إلا قليل ، أما سورة البقرة فمدنية ، وبراءة مدنية ، والنساء مدنية ، وآل عمران مدنية ، وكثير من آيات الأحكام والفروع مدني ، فما يتصل بالصلاة إنما وضح وتبين وتكامل في المدينة ، وأحكام المعاملات إنما نزلت في القرآن بالمدينة ونزلت أصولها في القرآن بعد الهجرة ، وأحكام الجنايات من قصاص وديات نزلت في المدينة .

وسورة الأنعام كلها مكية على الصحيح ، وقد يكون منها آيات تشبه الآيات المدنية ، كآيات الذبح وذكر اسم الله على الذبائح ، قد يكون مثل هذا نزل بالمدينة لكن الغالب عليها أنها مكية كيف يكون في الكتاب الذي هو القرآن بيان كل شيء في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية ؟ ، مع أن تلكم الأحكام إنما نزلت أصولها في المدينة لا في مكة ؟؟ .

وقد ينزل في القرآن الأمر بالعبادة والحث على أدائها لكن تفصيل ذلك وبيان كيفيته وغير ذلك من التفاصيل التي تلزم المكلف لكي يأتي بهذا المأمور على الوجه المطلوب تفصيل ذلك يرجع بيانه إلى رسول الله ﷺ .

فعدد الصلوات وتحديد أوقاتها وعدد ركعاتها وسائر كيفياتها . لم تُعرف من القرآن إنما عُرفت من السنة .

وأحكام الزكاة من جهة النصاب ، ومن جهة المستحقين لم تكن عُرِفَتْ في مكة ، بل فريضة الزكاة لم تكن شُرِعتْ في مكة إنما الذي شُرِع الصَدقات العامة ، وفرض الزكاة وبدايتها إنما كانَ في المدينة . فبيان المستحقين للزكاة إنما نزل في المدينة في سورة التوبة : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (١) إلى آخر الآية التي فيها الأصناف الثمانية ، ثم النصاب نصاب الزكاة ليس محدداً في القرآن ، وشرطها وهو حول الحول ليس محدداً في القرآن ولا مبيناً فيه .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٦٠ .

فالواقع يدل على أن القرآن اشتمل على الأصول العامة ، وأنه ليس فيه كل شيء .

وأما تفسير الكتاب بالقرآن في آية : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهو تفسير غير صحيح ، إنما المراد به اللوح المحفوظ الذي هدى الله تعالى القلم أن يكتب فيه ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة [1] .

أما الآية الآخرى وهي : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [2] فيقال فيها : المراد بالكتاب القرآن ، ولكن سورة النحل التي نزلت فيها هذه الآية أو هذه الجملة سورة مكية ،ولم يكن نزل التشريع كله في مكة إنما نزلت أصول التوحيد وما يتصل بمعجزات الرسول ﷺ ، في مكة . وأما الفروع فقد نزلت في المدينة .

فالمراد إذن بيانه لكل شيء ، بيانه لجميع أحكام الفروع ، وهذه الآية هي مثل الآية التي قال الله فيها : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ إخباراً عن الريح التي أرسلها الله جل شأنه على عاد قوم هود ، أخبر أنه أرسل عليهم ريحاً وقال ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [3] وهي إنما دمرت قوم هود ، دمرت عاداً ، ودمرت ديارهم ، فالأمارات الحسية ، أو الأدلة الحسية ، وواقع الهالكين الذين هلكوا وتحدث الله عنهم في القرآن يدل على أن المراد بالآية الخصوص لا العموم .

كذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ إلى آخر الآية هي

(١) حديث خلق القلم وجريانه بكتابة القدر حديث صحيح رواه البيهقي في السنن (٩/ ٣) وفي الأسماء والصفات ص (٣٧٨) وأبو يعلي (٢٣٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت رواه أبو داود (٤٧٠٠) . والترمذي (٢١٥٦) . وأحمد (٥/ ٣١٧) .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٨٩ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٥ .

مما أريد به الخصوص ، وإلا ففي أي آية من الآيات بيان عدد الصلوات ، وبيان تفاصيل الزكوات ، أو بيان الحج إلى بيت الله الحرام بأصله وتفاصيله ؟ !

لم يكن شُرِعَ الحج في هذا الوقت إنما شرع في المدينة في السنة التاسعة أو السنة العاشرة على الخلاف بين العلماء وأما ما كان من حج قبل ذلك فهو على الطريقة الموروثة عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما بنى البيت هو وابنه إسماعيل ، وأمره الله أن يؤذن في الناس كان الحج مشروعاً فظل من أيام رسالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أيام العرب في زمن النبي ﷺ وبعد زمنه ، أما فرضُه في شريعة محمد ﷺ فقد نزل ضمن آيات سورة آل عمران ، وهذا لم ينزل في مكة ، إنما نزل في السنة التاسعة من الهجرة أو في السنة العاشرة التي حج فيها رسول الله ﷺ ، فكيف يقال ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [(١)] وهو لم يتبين فيه أصل فريضة الحج ولا تفاصيل الحج ولا تفاصيل الصيام وقت نزول هذه الآية ؟؟

والصيام أيضاً فُرِضَ في المدينة بعد الهجرة بسنة ، أين الصيام وتفاصيله ؟ ، والجهاد بالسلاح وتفاصيله ؟ ، والبيوع وتفاصيلُها ؟ ، وأين تحريم الربا ؟ كل ذلك ما نزل إلا في المدينة .

فمعنى الآية إذن إما أن يقال فيها إنها من العام الذي أريد به الخصوص ، أو يقال : تبياناً لكل شيء شرعه وفرضه على المسلمين وهم في مكة ؛ لأن السورة مكية ، فهي ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما أوجبه عليهم وشرعه لهم حتى وقت نزولها لأنها بيان لكل حكم من أحكام الإسلام .

فهؤلاء الذين أنكروا السنة جملة ، أو قالوا لا حاجة إليها جملة بتمامها اكتفاءً بالقرآن واستدلالاً بهاتين الآيتين ، قد أخطأوا الطريق ولم يعرفوا تاريخ التنزيل ، ولم يعرفوا واقع التشريع ، ولم يعرفوا أن بيان ما في القرآن من

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٨٩ .

العبادات والمعاملات واقعٌ في السنة ، ثم أين تحريم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها ؟ وأين تحريم زواج الإنسان بامرأة أبيه ؟؟

إنما كان هذا كله في المدينة ، وتفاصيل الأحوال الشخصية من مواريث ، وزيجات ، ووصايا ، ونكاح ، وطلاق ، تفاصيل هذا كله إنما كان بالمدينة ، في الآيات التي نزلت بالمدينة وبينها الرسول ﷺ في سنته .

فواقع التشريع ، وعمل المسلمين جميعاً برهانٌ واضحٌ يدل دلالة ضرورية على أن السنة جاءت بياناً للقرآن ؛ بيّنتْ في مكة ما يحتاجون إليه ، بقدر ما نزل من أحكام أصول التشريع وبينت في المدينة ما طرأت الحاجة إليه من بيوع ، ومعاملات ، وجنايات ، وحدود .

كل هذا لم تنزل تفصيلات آياته إلا في المدينة ، ولم يبيّن الرسول ﷺ تفصيله قولاً وعملاً إلا في المدينة .

فهذا الاستدلال بالآيتين استدلال مردود ، ولا نقول : الآيتان مردودتان ، هذا هو التعبير الدقيق ، ما يقال : رد على الدليل بكذا ، إنما يقال : رد على استدلالهم بالآيتين بكذا .

وكما قلت ابتداءً : أن موقف الداعية من المدعوين يختلف باختلاف حالهم ، فمن أنكر الاحتجاج بالسنة جملة اكتفاءً بكتاب الله واحتج بالآيتين فالرد عليهم كما سبق ذكره .

الشبهة الثانية

رد بعض الأحاديث لمخالفتها للعقل أو لمعارضتها المستقر في بعض الأذهان

بعض الناس من المسلمين قد يَرُدُّ بعضَ أحاديث ؛ إما لمعارضتها لفكره فيما يزعم ، أو معارضتها لما يرىٰ أن الطب جاء به ، وأن الطب قرَّر قراراً صحيحاً في أمور لا يليقُ أن يأتي علىٰ خلافها حديث عن الرسول ﷺ .

فأمثال هؤلاء يردون أحاديث : إما لمعارضتها لفكرهم وعقولهم ، وإما لمعارضتهم لقواعد صحية .

مثلاً : حديث الذباب [1] والأمر بغمسه إذا سقط في الطعام أو في الشراب قد يرده جماعة ممن اقتنعوا بالطب ، وبالنظريات الطبية ، وقدسوا النظريات الطبية ، ووثقوا بعقول الأطباء وبتجارب الأطباء ، أعظم وأقوىٰ من ثقتهم بتشريع الله وبما صح عن رسول الله ﷺ ، فحسنوا ظنهم بالنظريات الطبية أكثر مما حسنوه بما صح عن رسول الله ﷺ .

وفي هذا طعن في أحد أمرين :

- إما طعن في المشرِّع .
- أو في المُبَلِّغ وهو الرسول ﷺ أو خفض لوظيفته ومهمته .

يقولون :

إن وظيفة التشريع صيام ، وصلاة ، وكذا وليس له دراية بالطب ، وما الذي يدخله في الطب ؟ فهو له دائرة محدودة يدور فيها هي دائرة التشريع من صلاة ،

---

(١) حديث صحيح : رواه البخاري (٥٧٨٢) . والنسائي (٧/ ١٨٧) . وأحمد (٢/ ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٦٣) وفي غير موضع من المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن حديث أبي سعيد رضي الله عنه رواه أحمد (٣/ ٢٤ ، ٦٧) . والنسائي (٧/ ١٨٧) . وابن ماجه (٣٥٠٤) .

وصيام ، وبيع ، وشراء ، وأمثال ذلك ، فما الذي يدخله في هذا ؟ هذا ليس من اختصاصه ، فالعمل فيه إنما يكون على النظريات الطبية لا على ما جاء عن الرسول ﷺ ، لأن الفن ليس فناً له ولا هو من اختصاصه .

ثانياً : وإما أن يكون ردهم لهذا الحديث من جهة أخرى ، هي طعنهم في الرواة الذين رووا هذا الحديث .

والجواب على هذه الشبهة :

أما من الجهة الأولى : فالرسول ﷺ بيّن لهم العلة ؛ فقال : إن في أحد جناحيه داء ، وفي الآخر شفاء .

وتعليله هذا ـ وهو أميٌّ لم يدخل مدارس طب ، ولم يتفنن بتجارب قام بها ـ دليلٌ على أنه إنما تكلم بهذا عن طريق الوحي من الله جل شأنه .

والله سبحانه عليم بخواص مخلوقاته ؛ فهو عليم بجناح الذباب ، وما فيه من داء وما فيه من دواء ، وأن هذا يكون علاجاً لهذا ، يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

ومعروف في الذباب ، أنه إذا هبط من أعلى إلى أسفل في كل مرة أنه يهبط بميل ، حتى الطائرات ؛ ما تنزل رأسية ؛ لا بد أن تنزل مائلة إلا إن كانت طائرات مروحية (هليوكبتر) ، إنما الطائرات العادية المعروفة تنزل مائلة ثم إذا أرادت أن تنزل من الجانب الآخر تميل . . وهكذا ، هذا النظام الكوني والطيور إذا أرادت أن تنزل تنزل بجناح ، وإذا أرادت أن تقف في الجو تنصب الجناحين إلى الجانبين كما نراها .

القصد أن الذباب ـ كسائر الطيور ـ إذا نزل مال على أحد جناحيه ، فإذا غمسته كان الجناح الثاني وما فيه من شفاء علاجاً لما أصاب الشراب أو الطعام من الداء الذي نزل في الطعام من الجناح الأول الذي نزل به الذباب أولا .

---

(١) سورة الملك ، الآية : ١٤ .

فهذا التعليل دليل على أنه ـ وهو أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب وليس صاحب تجارب في الطب ، ولم يدخل مدارس طب ، ولا جامعات طب ـ ، ليس تخميناً من عند نفسه ودخوله فيما لا يخصه من عند نفسه ، إنما هو بوحي من الله جل شأنه ، والله عليم بمخلوقاته وما فيها من خواص .

والرسول ﷺ مكلف بالبلاغ عن الله ،وقد بلغ هذا عن ربه ويجب على الإنسان أن يثق بوحي الله جل شأنه أعظم من ثقته بنظريات الأطباء ثم إن الأطباء لم يتفقوا على ما بنى عليه هؤلاء المعترضون على هذا الحديث ، وهم مختلفون أيضاً ، فيما بينهم والمسألة مسألة نظرية اجتهادية من الأطباء فكيف يُرَدُّ بمسألة نظرية اجتهادية ـ ما زالت تحت البحث ـ حديث رسول الله ﷺ ؟

وأما من الجهة الثانية : جهة السند : فالسند على طريقة المحدثين سند صحيح مستوف الشروط التي اشترطها علماء الحديث .

والناس الذين اعترضوا على هذا الحديث من جهة رجاله ليس عندهم سند يستندون إليه في ذلك ، وهم في معاملتهم وقبولهم للأخبار التي تصل إليهم يعتقدون يقيناً أو يظنون ظناً غالباً بما وصلهم من الأخبار ، يعتقدون ما دلت عليه فيلزمهم أن يقبلوا ما جاء عن رواة هذا الحديث ، لأنهم أوثق وأضبط وأعدل من الرواة الذين يروون لهم أخباراً بسفر فلان وفي إدانة فلان ، وفي شهادة فلان فهم يقبلون الأخبار والنقل ممن وعمن هم أقل من الذين رووا عن رسول الله ﷺ هذا الحديث .

ثم إنَّ الذين يردون بعض الأحاديث لأنها لا تتفق مع أفكارهم ومداركهم يسلكون في ردها أحد ثلاثة مسالك :

الأول : فإما أن يردوها ويكذبوها ،ويقولون خالفت العقل إن لم يمكنهم أن يؤولوها .

الثاني : وإما أن يتأولها على خلاف ما دلّت عليه مع كثرتها .

الثالث : وإما أن يردوها لأنها أخبار أحاد :

الرد على أهل المسلك الأول

القائلين برد السنة لمخالفتها العقل

وهذا أيضاً وضع غير سليم واعتراض غير سليم فإن عقولهم يعتريها الخطأ والصواب ، والوحي ـ الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وثبت عنهم ـ جاء عن الصادق الأمين بوحي من ربه ، وهو لا ينطق عن الهوىٰ .

فيجب علىٰ الإنسان أن يتهم عقله وتفكيره بدلاً من أن يتهم رسوله ، أو الرواة العدول ، أو أن يتهم ربه في وحيه ، وليثق بربه وبرسوله ﷺ أكثر من ثقته في تفكيره ، فإن العقل قاصر ، وجُرب عليه الخطأ كثيراً ، ومداه محدود ، وما يجهله أكثر مما يعلمه .

فعليه أن يعتقد في تفكيره القصور، وأن يعتقد في وحي الله الكمال والصدق، وأن يعتقد في الرواة ـ الذين استوفوا شروط النقل المضبوطة المعروفة عند المحدثين [(١)] ـ الثقة بهم أكثر من ثقته بتفكيره .

هذا جواب علىٰ من ينكر الحديث لمعارضته لتفكيره .

يقال له اتهم عقلك بالقصور فإن ما يعلمه أقل مما يجهله ، اتهم عقلك بالخطأ وبالجهل في تفكيرك لأنك كثيراً ما تخطئ ، وجُرب عليك هذا ، أما هؤلاء العدول الضباط الذين استوفوا شروط النقل ، نقل الأحاديث ، فهؤلاء يندر أن يخطئ أحدهم وخطؤه إلىٰ جانب صوابه قليل جداً بل نادر .

---

(١) قال العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالىٰ في كتاب الباعث الحثيث ص ٢٨٠ : « أساس قبول خبر الراوي أن يوثق به في روايته ، ذكراً كان أو أنثىٰ ، حراً أو عبداً ، فيكون موضعاً للثقة به ، في دينه ، بأنْ يكون عدلاً ، وفي روايته ، بأن يكون ضابطاً .
والعدل : هو المسلم البالغ العاقل ، الذي سلم من الفسق وخوارم المروءة ، علىٰ ما حُقِّق في باب الشهادات من كُتب الفقه . ا . هـ .

الرد على أهل المسلك الثاني

القائلين برد السنة بتأويلها على ظاهرها

وهؤلاء هم الذين يحملون ذلك النوع من الأحاديث على غير ظاهره وهم يسلكون هذا المسلك في كتاب الله جل شأنه أيضاً ، ويتأولون كثيراً من النصوص على غير ما دلت عليه من ذلك :

١ ـ نصوص آيات الأسماء والصفات ونصوص الرؤية ، كقوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [١] ، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [٢] وغيرها من آيات الأسماء والصفات .

٢ ـ وأحاديث عذاب القبر [٣] ، ونعيم القبر ، وسؤال القبر ، وعذاب الأبدان : يحملون العذاب على عذاب الأرواح . وكذلك بعث الأجساد يحملونه على بعث الأرواح .

٣ ـ وأحاديث عروج النبي ﷺ ببدنه إلى السماء ، وإسراؤه من مكة إلى بيت المقدس ببدنه ، ويقولون هذا إسراء بالروح ، وعروج بالروح ؛ تحكيماً للسنن الكونية ، والعادات المألوفة في الخلق ، فإن الإنسان لايسير تلك المسافة في جزء ليلة ، ولا يعرج إلى السماء السابعة في جزء ليلة .

ويرد علي هؤلاء بأن الأنبياء ليسوا كغيرهم في المعجزات ، وقياس غيرهم عليهم

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة القيامة ، الآية : ٢٢ .

(٣) أحاديث عذاب القبر صحيحة متواترة وكذلك أحاديث رؤية الله في الآخرة وأحاديث الإسراء والمعراج كلها صحيح متواترة .

انظر : شرح السنة للالكائي (ص ٤٧٠) . الشريعة للآجري ص ٢٥١ والسنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١ / ٢٢٩) .

في المعجزات باطل إذ أن الأنبياء جاءوا بخوارق العادات ، فخوارق العادات بالنظر إلىٰ الأنبياء والمعجزات الكونية والسنن الكونية التي خصّ الله بها الأنبياء ، هذه تعتبر عادية بالنظر لخصوص الأنبياء ، وإن كانت خارقة للعادة وغير مألوفة بالنظر لغير الأنبياء ، فلماذا تقيسون الأنبياء بما أوتُوا من الله علىٰ الأفراد العاديين؟؟ هذا قياس باطل ، لا يصح الاحتجاج به ؛ لأن الأنبياء يختلفون عن غيرهم في جريان خوارق العادات علىٰ أيديهم معجزة لهم .

وحادث الإسراء قد ثبت في القرآن ، فتأويلهم لا يكون تأويلاً لحديث الإسراء [1] ، وإنما هو تأويل ـ أيضاً ـ للقرآن . القرآن جاء فيه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [2] .

ثم إن كثير من النصارىٰ ، يعتقدون في عيسىٰ أنه كان يحيِىٰ الموتىٰ بإذن الله ، وأنه كان يبرئ الأكمه الذي وُلِدَ أعمىٰ ، يبرئه بإذن الله ، وأنه كان يُصَوِّرُ طيراً من الطين فَيَنْفُخُ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأنه كان يبرئ الأبرص بإذن الله ، وليس ذلك بطريقة علاج ؛ فهو لم يفتح مستشفىٰ ، إنما هي خوارق عادات [3] .

وكذلكمُ اليهود يؤمنون بخوارق العادات ، فما الذي جعل خوارق العادات

---

(١) حادث الإسراء ثابت في سورة الإسراء في قوله تعالىٰ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه ﴾ .

وفي حديث جابرفي الإسراء في البخاري رقم (٣٨٨٦) ، أما حديث المعراج أخرجه البخاري (٧٨٨٣) ، وغيره .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١ .

(٣) والعادات : السنن الكونية ، وخوارقها : ما يخالف نظامها ، وهي ثلاثة أنواع :

الأولىٰ : المعجزة ؛ علىٰ يد النبي ﷺ تأييداً له وتحديا لقومه .

الثانية : الكرامة ؛ علىٰ يد الولي تأييداً له وإكراماً .

الثالثة : السحر ؛ علىٰ يد الساحر المشعوذ فتنة وابتلاءً .

لموسىٰ بانفلاق البحر ، ونجاة موسىٰ ومن معه إلىٰ الشاطئ الآخر ، وجَعْل الممر يابساً اثنىٰ عشر طريقاً علىٰ عدد الأسباط ، حتىٰ لا يتنازع سبطٌ مع سبط جعلها يبساً يمرون في هذه الممرات دون أن يغرقوا ، والماء متماسك بدون حواجز هذا سلب لخاصية الماء ، معجزةً لموسىٰ وإكراماً له ولمن معه حيث أنجاهم بإذنه سبحانه وتعالىٰ ، ثم ما جعله نجاةً لموسىٰ ومن معه جعله نكبةً ودماراً وهلاكاً لخصومه وأعدائه .

إن الكفار من اليهود والنصارىٰ يعترفون بخوارق العادات وبهذه المعجزات ، والعرب يؤمنون بإبراهيم عليه السلام ، وبأن الله نجّاه من النار حين أُلْقِيَ فيها ، فما الذي يجعلهم يؤمنون بسلب الله خاصية النار حتىٰ تكون برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم ، ولا يؤمنون بالإسراء بمحمد ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس ثم العروج به إلىٰ السماء السابعة ؟!

أ ـ هؤلاء الذين يؤولون الإسراء والمعراج بأنه روحي أوينكرونه بالكلية عندهم شبهات فيقولون :

١ ـ هذه السرعة إلىٰ هذا الحد تُمزِّق البدن ، لأن احتكاك البدن بالهواء الذي في الجو يُوَلِّدُ ناراً ؛ فيحترق .

٢ ـ كذلك الصعود لأعلىٰ بهذه السرعة يُوَلِّدُ ناراً ؛ فيحترق البدن ، وأي شيء آخر إذا صعد إلىٰ أعلىٰ حتىٰ إذا لم يكن هناك هواء ينفجر ويَتَمَزَّقُ ؛ لأن الضغط الخارجي علىٰ جلده وعلىٰ جسمه من جميع الجهات بالهواء فُقِدَ ، فينفجر .

ب ـ يقولون في الطبقات التي لا هواء فيها : الذين يصعدون في هذه الأيام ويريدون القمر ، يتزودون ويأخذون لأنفسهم هواءً ، ويأخذون وقايات من هنا ومن هناك ، والعرب ما كان عندهم هذا الاختراع .

فكيف صعد الرسول ﷺ إلى أعلى ؟ وكيف تغلب على الجاذبية الأرضية ؟

وكيف لم يَثْبُتْ على الجاذبية التي فوق جاذبية الكواكب (**المجموعة الشمسية وأمثالها**) ؟

وكيف خَلُصَ من الجاذبية الأرضية ، ولا أجنحة له ، ولا طائرة ركبها ؛ إنما هو براق ؟ !

هذه شبهة يوردونها على الإسراء ، ويوردونها على المعراج وقد ألّفَ بعض أهل السنة في هذا تأليفاً يَردُّ فيه على أولئك منهم الشيخ محمد عبد الحليم الرمالي (١) له رسالة صغيرة في الإسراء والمعراج ذكر فيها جميع الشبه التي تَرِدُ على الإسراء والمعراج سواء كانت من جهة الحديث أو كانت من جهة السنن الكونية ، فالرد عليها واحد .

والرد : أن خوارق العادات في معجزات الأنبياء سنن تشبه السنن العادية في حياة الناس العاديين فهم في معجزاتهم يسيرون في طريق كوني عادي بالنظر لهم؛ كما أن الناس يسيرون على سطح الأرض سيراً عادياً ، وكما أن الطيور ترتفع بأجنحتها ارتفاعاً وصعوداً عادياً **فالرد واحد : وهو أن هذه المعجزات** من خوارق العادات التي أجراها الله جل شأنه على أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام .

والموضوع في ذاته طويل إذا دُرِس أصله :

١ ـ من جهة إثبات وجود الله .

٢ ـ إلى جانب إثبات حاجة العباد والمخلوقات إلى موجد .

---

(١) هو الشيخ محمد عبد الحليم الرمالي [شيخ السنة والعالم السلفي المحقق] ، ولد بمصر ، وتوفي بها في ٢٢ ذو القعدة سنة ١٣٦٨ هـ ، وكان رفيق الشيخ محمد حامد الفقي ، كون هيئة لعلماء السنة المحمدية سنة ١٣٥٦ هـ ، هو والشيخ الفقي ، وكان معهم العلامة أحمد شاكر ، والعلامة عبد الرزاق عفيفي ، وكوّن أيضاً جماعة الاعتصام بهدى الإسلام سنة ١٩٢١ م بمصر ، وكان له دور بارز في الدعوة إلى الله في مساجد جماعة أنصار السنة وغيرها . رحمه الله تعالى وجميع علماء المسلمين .

٣ـ إلىٰ جانب وحدانية الله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته ، وفي تشريعه .

٤ ـ إلىٰ جانب حاجة البشر إلىٰ الرسالة .

٥ ـ وإمكان الوحي .

٦ ـ ثبوت الوحي .

٧ـ وثبوت الرسالة .

فالأمر يحتاج إلىٰ إثبات هذا كله ، وهو عبارة عن مقرر توحيد طويل يُدَرَّس في سنوات [١] ، وأنا أتكلم في دائرة محدودة في « **شبهات حول السنَّة** » .

الرد على أهل المسلك الثالث

الذين يردون معظم السنة لأنها أخبار آحاد

والذين يعترضون علىٰ الأحاديث ، أو علىٰ بعض الأحاديث :

يؤمنون بما تواتر من الأحاديث لفظاً ومعنىٰ ، وهو عدد قليل من الأحاديث ؛ كحديث : « **من كذب عليّ متعمداً ؛ فليتبوأ مقعده من النار** » [٢] ، أو الأحاديث المتواترة معنىٰ ؛ كأحاديث رؤية الله تعالىٰ [٣] ، وأحاديث المسح علىٰ الخفين [٤] ،

(١) تكلم الشيخ عبد الرزاق رحمه الله علىٰ هذه المسائل بإجمال في رسالته المشهورة والمطبوعة باسم (مذكرة التوحيد) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه / كتاب العلم / باب إثم من كذب علىٰ النبي ﷺ (١/ ٢٤١) ، ومسلم في صحيحه (١/ ٦٥) النووي / باب تغليظ الكذب علىٰ الرسول ﷺ ، وهذا حديث متواتر .

(٢) أحاديث رؤية الله جل وعلا ثابتة في القرآن وفي السنة الصحيحة .
انظر : صحيح البخاري (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) .
وانظر : كتاب الرؤية للإمام الدارقطني ، وحادي الأرواح لابن القيم [٢٠٤] ، وشرح السنة للألكائي ص (٢٤٠) . وانظر : تعليق العلامة ابن عثيمين علىٰ العقيدة الواسطية (١ / ٤٤٨) (٢/ ٥٧) .

(٤) أحاديث المسح علىٰ الخفين متواترة كما صرح بها جمع من الحفاظ . ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري في صحيحه (٢٠٢) وغيره .

وأحاديث عذاب القبر ونعيم القبر [١].

يؤمنون بمثل هذا : إما لمجيئه في القرآن ، وإما لتواتره في السنة ، وإما لوجوده في الاثنين جميعاً .

لكنهم لا يؤمنون بأحاديث الآحاد ، وذلك لأنهم يرون أنها لا تفيد إلاظناً غير غالب .

فيردون أمثال هذه الأحاديث ولا يحتجون بها أصلاً ، أو يحتجون بها في الفروع دون الأصول .

أما شبهتهم في رد حجية (حديث الآحاد) [٢] فهم يقولون : إن الراوي

(١) انظر : الأزهار المتناثرة للأحاديث المتواترة للإمام السيوطي والنظم المتناثرة في الحديث المتواتر للكتاني .

(٢) وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلاً نفسياً جداً في تأصيل هذه القاعدة « حجية أحاديث الآحاد » في كتابه الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . ومما جاء فيه ، قوله : « فهذا الذي اعتمده نفاة العلم عن إخبار رسول الله ﷺ خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة وإجماع التابعين وإجماع أئمة الإسلام ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة وتبعهم بعض الأصوليين والفقهاء ، وإلا فلا يعرف لهم سلف من الأئمة بذلك بل صرح الأئمة بخلاف قولهم ، فمن نص على أن خبر الواحد يفيد العلم مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة - وغيرهم كثير - . وقال أحمد في حديث الرؤية : « نعلم أنها حق ونقطع على العلم بها » وكذلك روى المروزي قال : قلت لأبي عبد الله ها هنا اثنان يقولان أن الخبر يوجب عملاً ولا يوجب علماً فعابه وقال لا أدري ما هذا وقال القاضي : وظاهر هذا أنه يسوي بين العلم والعمل فقال القاضي في أول الخبر : خبر الواحد يوجب العلم إن صح سنده ولم تختلف الرواية فيه وتلقته الأمة بالقبول ، وأصحابنا يطلقون القول فيه وأنه يوجب العلم . فقال ابن أبي يونس في أول الإرشاد : « وخبر الواحد يوجب العلم والعمل ، ونص القاضي أبو يعلي على هذا القول في الكفاية ، وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتبه في الأصول كالبقرة وشرح اللمع وغيرهما ، وهذا لفظه في الشرح « وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول يوجب العلم والعمل سواء عمل به الكل أو البعض » ولم يحك فيه نزاعاً بين أصحاب الشافعي وقد عقد الإمام الشافعي رضي الله عنه في الرسالة فصلاً نفيساً جداً في « الحجة في تثبيت خبر الواحد » وهو فصل يهدم بالأدلة القاطعة شبهة القائلين بأن خبر الواحد ليس حجة » أ . هـ .

يخطئ ويصيب ، وإن الراوي قد يكون عدلاً فيما يظهر ؛ وهو كذاب أو منافق في باطن أمره .

ويقولون :

إن عمر بن الخطاب رَدَّ على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما حديثه في الانصراف بعد الاستئذان ثلاثاً [١] .

فيقولون : هذا عمر بن الخطاب لم يقبل رواية صحابي جليل لحديث ، فهذا يدل على أن في رواية الواحد دخناً ، وأنه مثار تهمة فلا نعملُ به حتى يتأيد بغيره، وقد ورد مثل هذا عن علي بن أبي طالب في أعرابي .

الجواب على هذه التهمة :

وهذا وأمثاله يُرَد عليه بأمرين :

الأمر الأول : أن عمر بن الخطاب لم يكذبه إنما أراد :

١ ـ أن يتثبت من جهة .

٢ ـ وإلى جانب التثبت خاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يجترئ الناس على سنة الرسول ﷺ فأظهر لهم القوة حتى يحتاطوا لأنفسهم عند البلاغ فلا يبلغ أحدُ إلا وهو واثق مما يتكلم به ، هذا بدليل أنه قَبِلَ خبرالواحد في مرات أخرى من ذلك أنه قبل خبر الواحد في إملاص المرأة[٢] .

ـ ثم إن الرسول ﷺ قد اعتمد خبر الواحد ، فكان يرسل رسولاً واحداً بكتابه[٣]، وما أدري أولئك أن هذا صادق في أن هذا كتاب الرسول عليه الصلاة

---

(١) حديث الاستئذان ثلاثاً في صحيح البخاري (٦٢٤٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣١٦) ، (٧٣١٧) وإملاص المرأة هي التي تضرب بطنها فتلقى جنينها ودية جنينها غرة عبد أو أمة .

(٣) وراجع في ذلك كتاب أخبار الآحاد من صحيح البخاري ١٣ / ٢٤٤ .

والسلام ، وليس عندهم بصمة له ، ولا عندهم صورة لخاتمه .

ما الذي يدريهم بأن دحية الكلبي [١] رسول رسول الله ﷺ ؟

وكيف لزمهم البلاغ ؟

وكيف أصيب كسرى [٢] بعذاب من عند الله حيمنا مزق الكتاب ؟ كيف لزمتهم الحجة ؟

فالرسول ﷺ لم يرسل الواحد ؛ إلا وهو يعتقد أن الحجة تقوم به ، وهذا أمر معلوم بالضرورة من إرسال الرسول ﷺ أفراداً إلى جهات متعددة لنشر الدعوة وإقامة الحجة ، فأرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه ليقضي ، ويكون أميراً في اليمن ، وأرسل علياً رضي الله عنه وأرسل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه .

القصد : أن إرسال الواحد من الرسول ﷺ قد تكرَّرَ مَرَّات ، وهو لا يرسله إلا إذا كان يعتقد أن الحجة تقوم به ، وأنَّ خَبَرَهُ يَجِبُ أن يُصَدَّقَ .

والمهم فيه أن يتخيره عدلاً ، أميناً ، صادقاً ، يقوى على البلاغ .

وليس من المهم أن يكون عدداً بدليل أنه أرسل أفرداً إلى دول ، وليس إلى أفراد ، وفي أصل الدين وهو العقيدة وليس في الفروع فقط .

فهذا بيان من النبي ﷺ يُحْتَج به على قبول خبر الواحد ، ضد هؤلاء الذين يتهمون الراوي إذا كان واحداً ، ويردون خبره وحديثه وإن توافرت فيه الشروط التي توجب قبوله وهي :

- أن يكون عدلا في دينه ، ضابطا في نقله .

---

(١) بعث النبي ﷺ دحية الكلبي بكتابه إلى عظيم بصري ليدفعه إلى هرقل . أخرجه البخاري من حديث ابن عباس (٦) .

(٢) وكسرى لقب لكل من تملك الفرس وقصة إرسال النبي ﷺ بكتابه إليه مع عبد الله بن حذافة السهمي . أخرجها البخاري (٤٤٢٤) .

- مع اتصال الإسناد .

- ومع عدم مخالفة الرواي من هو أوثق منه .

- ومع عدم الوقوف على علة قادحه يُرَدُّ بها الحديث .

هذا العمل من الرسول ﷺ يرد عليهم ، وكذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قَبِلَ خبر الواحد عدة مرات ، فلماذا يتمسكون بهذه القصة ، ولا يتمسكون بغيرها وغيرها أكثر منها .

الأمر الثاني : في عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عنده قوة في التثبت وكان يجتهد ويستوثق أكثر ، لا لأنه مُتَّهِمٌ لمن استوثق في خبره ، كما جاء في حادث التحقيق مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما كان - في العراق - أميراً وقاضياً وقائداً للسرية ، وإماماً في الصلاة وخطيباً في الجمعة ، اشتكاه واحد من العراقيين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكتب إليه كتاباً ؛ يقول فيه : « **إنه لا يخرج بالسرية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يحسن الصلاة** » ، فأرسل شخصاً يُحَقِّقُ في الموضوع ، مع أنه واثق من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، لكن لا يريد الفتن والقلاقل ، ويريد أن يستوثق أكثر ، وفعلاً حقَّقَ داخل المساجد وَمَرَّ على الناس هنا وهناك ، فكلهم يثنون خيراً على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، إلا المكان الذي فيه بؤرة الفساد والرجل الذي بَلَّغَ فَانْتَصَبَ لَه ، فحكى نفس الكلمة وسعد يسمع ، فقال : « **اللهم إن كان كاذباً فأطل عمره ، وأدم فقره ، وأكثر عياله ، عرّضه للفتن** »[1] .

(١) حديث صحيح رواه البخاري رقم (٧٥٥) . وفي غير موضع . وعند البخاري أن سعد دعا على الرجل بثلاث دعوات ، دعا عليه بطول العمر ، والفقر ، والتعريض للفتن . وليس فيه الدعاء بكثرة العيال . وقال ابن حجر في الفتح أن الدعاء بكثرة العيال في رواية سيف .

أربع دعوات نظير أربع تهم وجهها الرجل إلىٰ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، فطال عمره ، وكثر عياله ، ودام فقره ، وكبر في السن حتىٰ صار وهو يمشي في الطريق ينظر إلىٰ النساء بعين خائنة ، وقد سقط حاجبه علىٰ عينه ، فيقال له : ما بك وقد شبت ؟ فيقول : مسكين ، أصابتني دعوة سعد .

أقول : عمر بن الخطاب [لما استخلف ستة] [١] حينما طُعِنَ وآيس من أن يبقىٰ، فقالوا له : استخلف ؟ فقال : لا أحملكم حيا وميتاً ، ولما ألحوا عليه استخلف ستة يختارون من بينهم خليفة ، واستجاب لهم في الجملة ، ثم جعل من الستة سعداً رضي الله عنه ، ثم قال : اعلموا أني لم أعزله لشكي فيه ولا اتهاماً له ، ولهذا رضي به خليفة باختيارهم إياه ، ثم إذا لم تصبه الخلافة نصحهم بأن يستشيروه ، وأن يرجعوا إليه فيما يبرمون من أمور الدولة .

فهذا يدلُّ علىٰ اتجاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قبول خبر الآحاد .

والقصد أن هذا جوابٌ اعتمادهم علىٰ طلب عمر من أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنهما ، أن يأتيه بآخر يثبت أن الرسول ﷺ قال هذا الحديث .

وأسأل الله أن يوفقني ، وإياكم لما فيه رضاه ، وأن يشرح صدرونا بالعلم النافع ، وأن يجعل لنا بصيرة في إصابة الحق ، وأن يوفقنا للعمل بما عَلِمْنَا ، فإنه مجيب الدعاء .

---

(١) أخرج البخاري قصة استخلاف عمر للستة بعد موته (٣٧٠٠) .

الشبهة الثالثة

دندنة البعض بأن السنة لم تدون في عصر النبوة

س١ : يدندن بعض المعارضين لحجية السنة بأن أسانيد الأحاديث لم تدون إلا بعد قرن من وفاة الرسول ﷺ فما رأي سماحتكم ؟

الجواب على هذه الشبهة :

هذا صحيح من أحد الجوانب ، فإن السنة لم تدون أسانيدها إلا في وقت متأخر ، أما متون الأحاديث فمن المفروغ منه أنه دونها بعضهم ، فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما دوَّن وكتب بعض الأحاديث لنفسه (١) ، وقد أمر النبي ﷺ بالكتابة لبعض الوفود فكتبوا لهم كتاباً ببعض أحاديث رسول الله ﷺ (٢) ، وهذا علىٰ بن أبي رضي الله عنه كان عنده صحيفة لما سُئل : ما عندكم غير الوحي عن رسول الله ﷺ ؟ قال : ما عندنا إلا كتاب الله وهذه الصحيفة . وفيها جملة أحكام (٣) .

وعلىٰ هذا فقد كان بعض السنة مدوناً في آخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لكن هذا ليس بصفة عامة ، حيث أن أغلب السنة كان غير مدون ، ومن دوَّن فقد دوَّن لنفسه ، أو جماعة خاصة بأمر النبي ﷺ .

إلا أن أذهان أولئك كانت سيالة تغنيهم عن التقييد والكتابة ، وقد مُنِعُوا من الكتابة ابتداءً مخافة أن تلتبس السنة بالقرآن ، وهذا ثابت في الأحاديث

(١) حديث كتابة عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما لبعض الأحاديث . هو حديث صحيح رواه البخاري (١١٣) .

(٢) حديث أمره ﷺ بالكتابة لبعض الوفود رواه البخاري (١١٢) وفي غير موضع من الصحيح .

(٣) حديث كتابة علىٰ لصحيفة فيها بعض الأحكام من رسول الله ﷺ رواه البخاري (١١١) وفي غير موضع من الصحيح .

الصحيحة في كتاب العلم في صحيح البخاري [١] ، وغيره من دواوين السنة .

أما الأسانيد فلم تكن طويلة في القرن الأول حتىٰ يحتاج المسلمون إلىٰ تدوين هذه الأسانيد ، وقد انتهت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه علىٰ رأس المائة والحال هذه ، في قوة الدولة الإسلامية ، وفي تماسك المسلمين وحرصهم علىٰ الدين ، وبقاء عدد من الصحابة رضي الله عنهم يأخذ عنهم التابعون ، ومن وجد إلىٰ عهد عمر بن عبد العزيز فقد التقىٰ ببعض الصحابة فهو تابعي ، إلا نه يوجد تابعون كبار وأوساط تابعين وصغار تابعين. فمن أين علم هؤلاء المعارضين أن الذين نقلوا عن الصحابة لم يدونوا لأنفسهم ولم يكتبوا اسم الصحابي الذي روىٰ لهم ، إنما الذي تأخر بعد المائة جمع المتون والأحاديث في دواوين مختلطة بالآثار والفقهيات أولاً ، ثم جُرِدَّ هذا من هذا في بعض الكتب كما جُرِد صحيح مسلم من الآثار والفقهيات ، وبقي الوضع علىٰ هذا في بعض الدواوين ؛ مثل صحيح البخاري ، وكذلك موطأ مالك الذي فيه ما بيّن مالك والصحابي رجل واحد أحياناً كنافع ـ مولىٰ ابن عمر ـ ، وأحياناً يكون غيره .

ففي رد هذه الشبهة يراعى ما يلي :

أولاً : أنه لم يكن هناك بعد السند الطويل الذي يحتاج إلىٰ تدوين وإلىٰ كتابة

---

(١) انظر : كتاب العلم في البخاري ، باب كتابة العلم (١ / ٢٤٦) ، فتح الباري .

وقد ذكر البخاري أحاديث تدل علىٰ إذن النبي ﷺ بكتابة الأحاديث عنه كحديث أبي هريرة (**ما من أصحاب النبي أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب**) .

قال الحافظ في الفتح [١/ ٥٢١] بعد ان ذكر حديث ابي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ قال : « **لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن** » والجمع بينهما أن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية إلتباسه بغيره ، والإذن في غير ذلك أو النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس وهو أقربهما مع أنه لا ينافيها ، وقيل النهي خاص لمن خشىٰ منه الاتكال علىٰ الكتابة دون الحفظ والإذن لمن أمن ذلك » ا . هـ .

الدواوين .

ثانياً : أنه ليس في تأخر تدوين دواوين الحديث إلىٰ ما بعد ذلك دليل علىٰ أن أولئك الأتباع لم يكتبوا من رووا عنه ، من شيخ أو شيخ شيخ ، والسند في ذلك الوقت لم يكن فيه سوىٰ راوٍ واحد أو اثنين .

ثالثاً : ثم الشروط التي اشترطت من جهة الضبط وعدالة الراوي وأمانته واتصال السند كفيلة ببعث الثقة في النفس بأن هذا ثابت عن الرسول ﷺ .

استفسار وبيان

س٢ : هل في السنة شرع مبتدأ ليس له أصل في القرآن أو زيادة على ما في القرآن ؟

الجواب : أما سؤال : هل في السُّنَّة أحاديث ليست في القرآن أو أصلها ليس في القرآن ؟ فهذا فيه خلاف ذكره الشاطبي [(١)] في الموافقات وكذلك غيره ، والخلاف في هذا يكاد يكون لفظياً ؛ لأن الذين اختاروا أنه ليس في السنة شيء زائد على ما في القرآن ، وإنما كل ما وُجد في السنة فهو بيان لأصل في القرآن ، فهؤلاء يتأولون ما قال مخالفوهم بأنه لَيس في القرآن بل زائد .

فمثلاً في الحديث الذي فيه النهي عن الجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها [(٢)] علل فيه الرسل عليه الصلاة والسلام هذا النهي ، فقال : « **إن لم تفعلوا ذلك تقطعوا أرحامكم** » . فبين ﷺ أن هذا وسيلة لقطيعة الرحم .

وهذا التعليل جعله الشاطبي [(٣)] وهو الذي بُنى عليه تحريم الأم ، وتحريم الزواج بالبنت ، وتحريم الزواج بالأخت ، لأنه يصير فيه جانبان متقابلان متعارضان ؛ حقوق الزوجية للزوج ، وحق أمه عليه ، هي أقوىٰ من حُرم نكاحه، ولذلك جاء في أول المحرمات في الآية ، وكلما تأخر كان أخف في المفسدة ، وفي تعارض الحقوق .

فلمَّا بيَّن الله تعالىٰ في القرآن الأصل الذي بُنى عليه تحريم نكاح الأمهات والأخوات ؛ وهو أن ذلك يؤدي إلىٰ تعارض الحقوق وتقطع الأرحام أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا في حديث النهي عن الجمع بين المرأة ومتها وبين المرأة وخالتها .

---

(١) انظر : الموافقات (٤ / ١٢) وما بعدها .

(٢) أخرج البخاري (٥١٠٩) ومسلم (١٤٠٨) من حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ « **لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها** » وأخرج البخاري (٥١٠٨) عن جابر قال « **نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها** » .

(٣) انظر : الموافقات : (٤/ ٤٣) .

وعلىٰ هذا يكون حديث النهي بياناً للتعليل الذي بُنِيَ عليه تحريم من حُرِّم نكاحه في نص القرآن . وقد فهمه النبيُّ ﷺ وعلل به ، وبهذا لم يكن الحديث زائداً عن التقعيد الذي في القرآن ، إنما هو استنباط من ذلك التقعيد وما كان التحريم فيه أخف ؛ لأن تقطيع الرحم فيه أقل ، وتعارض الحقوق فيه أقل ، فجاء التحريم في الجمع دون التحريم في أصل الزواج ، فله أن يطَلّق المرأة ويتزوج عمتها أو يطَلّق المرأة ويتزوج خالتها .

وكذلك فإن أصل هذا التقعيد الذي فيه خفة في المفسدة موجود في تحريم الجمع بين الأختين ، لأن الضرة من شأنها أن يقع بينها وبين ضرتها الخصومة ، فحُرِّم الجمع بينهما مخافة المُضارة التي هي من شأن البشر ، وخاصة النساء ، فحُرِّم الجمع دون أن يحرم تزوج الأخت بعد وفاة أختها ، أو بعد طلاق أختها .

ومن أجل هذا يقول الشاطبي ومن وافقه : إنه مبني علىٰ تقعيد مستنبط من القرآن فهو بيان لا تأصيل .

أما غيرهم فنظر إلىٰ الظاهر ، وأن هذا الحكم لم يكن موجوداً نصاً ، إذاً هو زائد علىٰ ما في القرآن ، وهذا التعليل موجود في الموافقات للشاطبي ومن أحب الزيادة فليرجع إليه .

س٣ : في حديث الرسول ﷺ عن الداء والدواء في جناحي الذباب [1] ، هل جناح الذباب الذي فيه دواء موافق لهذا الداء الذي في الجناح الآخر ؟ أو داء أو مرض غيره ؟ وهل الذباب المذكور في الحديث هو الذباب المعروف ؟

الجواب على هذا يتضح مما يلي :

أولاً : المعروف بالذباب في لغة العرب هو هذا النوع الذي يسقط علىٰ

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٢٠) (٥٧٨٢) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء** » .

القاذورات والأوساخ ، والذي يسقط في الطعام أو الشراب ، وبهذا الفهم أيضاً هو ما يقصده الأطباء ، فهو ليس عاماً إذن في كل ما يطير بجناحيه .

ثانياً : أن الرسول ﷺ أخبرنا في هذا الحديث أن في إحدىٰ جناحيه داء والأخرىٰ دواء ، وهذا يدلنا علىٰ أن المراد بالجناح جناح هذا الذباب الذي ذكره الرسول عليه الصلاة والسلام ، والرسول ﷺ لم يخبر فيه هذا عن كونه دواءً لغير هذا الداء ، لأنه يعلل ما ذُكر في كلامه بالغمس ولم يجعل ﷺ هذا تعليلاً عاماً لعلاج كل داءً ، إنما ذكره بمناسبة الداء الذي في جناح الذبابة يقول : « **فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاءً** » .

إذن فقوله ﷺ عن دواء في الجناح هو دواء للداء الذي ينزل من الجناح الآخر ، ولا يصح أن يقال إن هذا يتعدىٰ إلىٰ علاج داء آخر إلا بدليل ، فالأصل أن ذلك يخص ما ذُكِر في الخبر ولا يجوز تعديه إلىٰ غيره ، مثل أي طبيب يقول هذا الدواء لهذا الداء ، فلو ذهبت إلىٰ الصيدلية لوجدتها مملوءة بالأدوية وكل ما فيها يقال إنه دواء ، لكن لا يستعمل كل دواء في الصيدلية لكل داء أياً كان، بل الأدوية التي في الصيدلية موزعة علىٰ الأدواء والأمراض ، وفق خاصية الداء وخاصية الدواء .

وعلي هذا فلا بد للإنسان أن يقف عند ما أخبر به الرسو ل عليه الصلاة والسلام دون أن يتجاوزه بجعل هذا الدواء دواءً لكل داء .

الجمع بين حديث الذباب وحديث أنتم أعلم بأمور دنياكم

س٤ : كيف نجمع بين حديث الذباب وبين قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم أنتم أعلم بأمور دنياكم »[(١)] .

الجواب : كان الرسول ﷺ في أرض عربية ، والبلاد بلاد نخيل ، وهو يعرف شيئاً ما عن هذا في الجملة ،و لاأقول إنه يعرف كمعرفة الزراع أو أرباب النخيل والثمار ، لكنه مطلع على ذلك في الجملة ، والرسول عليه الصلاة والسلام ما قال أنا أعلم بأمور دنياكم ، بل نفى أنه أعلم بأمور الدنيا منهم ، نفى هذا في مسألة النخيل وفي غيرها ، فالشؤون التي تتصل بالدنيا هم فيها أعلم ، وإنما يعلم منها ما أوحى الله به إليه .

وحيث إن الشيء الذي قاله الرسول عليه الصلاة والسلام وأشباهه مما رجع عنه هو الأمور الاجتهادية ، فهذا يدلنا على أنه قال فيها باجتهاده ، ولهذا رجع عنها ، أما الذي لا مدخل للاجتهاد فيه مثل حديث الذباب إنما قاله عن طريق الوحي ، بدليل التعليم الذي أشعر بذلك كما تقدم في السؤال السابق .

وحيث إنه لم يقل فيه ﷺ : « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** » ، ولم يرجع عنه ، ولم يعارضه ، أحد فهذا محمول على أنه وحى من الله .

أما ما كان في مسألة النخيل فهو من الأمور التي تُوخَذ بالتجارب ، وكذلك

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٣٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه ومن حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ مر بقوم يُلقحون (يعني النخل) . فقال : لولم تفعلوا لصلح قال : فخرج شيصا . فمر بهم فقال : مالنخلكم ؟ فقالوا : قلت كذا وكذا . قال : **أنتم أعلم بأمر دنياكم** » .

وأخرجه مسلم بنحوه من حديث طلحة بن عبيد الله (٢٣٦١) ومن حديث رافع بن خديج (٢٣٦٢).

مسألة النزول على غير ماء بدر ، حين قال الصحابة رضي الله عنهم : أهو الرأي أو هو من الله ؟ فقال : هذا هو الرأي . قالوا : لا . الرأي أن ننزل على الماء[١] ، وهذا يبين أنه أمر اجتهادي .

فالأمور التي فيها مجال للاجتهاد ومنها تأبير النخل يمكن أن يقول فيها باجتهاده ، فإذا أخطأ قال أنتم علم بأمور دنياكم ، والأمور التي لا مجال لمثله للاجتهاد فيها يتبين لنا أنها وحي من الله ، ويؤيد هذا التعليل أنه ﷺ أمي ولا عهد لأمته بالطب الذي من هذا الجنس ولا تجارب عندهم في هذا ، وخوضه فيه لا يليق برسالته لأنه يكون مجازفاً بنى شيئاً على غير تجربة ، ولا مجال لأمثاله في أن يجرب في مثل هذا ، ثم قال ﷺ : « **فإن أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء** » وهذا أمر لا يُعلم إلا عن طريق تحليل جناح الذباب ، فمن أجل هذا قلت إن هذا وحي من السماء .

أما مسألة تأبير النخل في الحديث المذكور ، ففيها نوع من الاجتهاد قد أخطأ فيه ﷺ ، فهو قد يخطئ في الأمور الاجتهادية من شئون الدنيا ، ويهيئ الله له من يتكلم معه ويناقشه فيرجع عن خطئه إلى ما هم عليه من صواب ، فمن أجل ذلك قال ﷺ : « **أنتم أعلم بأمور دنياكم** »[٢] وهذا في الأمور التي تكتسب بالخبرة وغيرها .

ومن جهة أخرى مسألة الذباب لم ينته الأطباء ، وأهل الاختصاص فيها إلى رأي واحد ، بل ما زالت إلى اليوم محل بحث ومحل تجربة ، وأكثر ما فيها الاستقذار ، سقوط الذباب على الأوساخ وعلى الأذى ، وأن النفس تعاف الطعام أو الشراب الذي سقط فيه وقد قلنا : إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم

---

(١) قلت : بيّن الشيخ الألباني أن سند هذا الحديث ضعيف ، في تخريجه لكتاب فقه السيرة للشيخ الغزالي .

(٢) سبق تخريجه .

يأمر المسلم أن يأكل أو يشرب ما وقع فيه الذباب ، وعلى ذلك فهو حر إن شاء أكله أو شربه وإن شاء أعطاه غيره . فلا إشكال في الأمر ، وكل ما أمره به أن يغمسه ؛ لأن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء .

س٥ : ما حكم من ابتلع من الشراب أو من الأكل الذي وقع عليه الذباب ثم قاءه مع إيمانه بالحديث ؟

الجواب : هذا أشرت إليه في الجواب السابق ، وقلت : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أمر أحداً بأن يأكله ، إنما بين لهم الفائدة في غمسه وأن ما فيه من داء يُعَالَج بما فيه من دواء ، ولم يأمر من غمسه بأكله فهذا إليه إن استقذره فهو غير ملزم بأكله لكنه يعطيه من يطعمه ولا يستقذره ولا يضيع ماله .

حكم من رد السنة جملة وتفصيلا

س ٦ : كيف ترون التعامل مع من يرد سنة النبي ﷺ سواء كان ذلك جملةً أو تفصيلاً ، خاصة وأن من هؤلاء من يتولون الحكم في بعض بلاد المسلمين اليوم ؟

الجواب : الحكم فيمن رد السنة جملة ـ أي كلها ـ فهو كافر ؛ فمن لم يقبل منها إلا ما كان في القرآن فهو كافر لأنه معارض للقرآن ، مناقض لآيات القرآن ، والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ (١) ، ويقول تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٢) ويقول تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٣) . وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٥) ، فقوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي﴾ هذا عام ، فحذف المفعول طريق من طرق إفادة العموم ، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ ، وما من صيغ العموم ، وقوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ ﴾ أي : تنازع الرعية ، وأولو الأمر من العلماء والحكام ﴿فِي شَيْءٍ ﴾ فردوه إلىٰ الله والرسول ، فلم يجعله إلىٰ الله وحده ، بل جعله إلىٰ الله وإلىٰ الرسول ، ورده إلىٰ الله رده إلىٰ كتاب الله ، ورده إلىٰ الرسول بعد وفاته رده إلىٰ سنته عليه الصلاة والسلام ، فدعواه أنه يعمل بالقرآن عقيدة وعملاً ويرد السنة جملة ـ هذه الطائفة التي تسمىٰ نفسها (**القرآنية**) ـ دعوة باطلة ، وهو مناقض لنفسه لأنه كذَّب آيات

---

(١) سورة ال عمران ، آية : ٣٢ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٩٢ .

(٤) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

القرآن التي فيها الأمر باتباع الرسول ﷺ ، وأخذ ما جاء به ، وطاعته فيما جاء به من عند الله عموماً دون أن يخص آيات القرآن ، ثم هو في الوقت نفسه كيف يصلي ؟ ، وكيف يحدد أوقات الصلوات ؟ ، وكيف يصوم ؟ ، وعن أي شيء يصوم ؟ ، وتفاصيل الصيام كيف يعرفها ؟ ، وكيف يحج بيت الله الحرام ؟ فليس هناك إلا أركان محدودة من الحج في سورة البقرة ، وكذلك أين أنصبة الزكاة ؟ وكيف يزكي ؟ كل هذه التفاصيل موجودة في السنة وليست في القرآن . فمن يدعي أنه يأخذ بالقرآن ولا يأخذ بالسنة فإنه مغالط ومناقض لنفسه ، ومناقض للقرآن ؛ لأنه رد آياته الكثيرة التي ورد فيها الأمر بطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام والأخذ بما جاء به ، ومناقض لإجماع المسلمين ولإجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، فإنهم جميعاً لم يشذ واحد منهم عن الأخذ بالسنة ، فإذاً هو كافر بالقرآن وإن ادعى أنه مؤمن به ، والكافر بآية منه كالكافر بكل آياته ، كافر بالإجماع منكر له أي إجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، فما فيهم واحد شذ عن السنة وأنكرها جملة و إذا أنكر أحدهم شيئاً فإنما ينكر حديثاً من جهة الرواي لا من جهة أنه كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، أي : السنَّة .

وهذا أيضاً لا يقوى على أن يقوم بالصلوات الخمس على وجهها المعلوم من الدين بالضرورة ، فصلاة العصر أربع ركعات ، وصلات الصبح ركعتين لا يجد هذا في كتاب الله فمن أين جاء هذا ؟ ما جاء إلا من تعليم جبريل للرسول عليه الصلاة والسلام [١] ، وتعليم الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه ، فمن أين يأتي بهذا ؟ فهذا مجمل الرد عليه ، وإثبات أنه كافر بالقرآن ، كافر بالإجماع اليقيني، كافر بالمعلوم من الدين بالضرورة ، من مثل أن ركعات الظهر أربع،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢١) . ومسلم (٦٠٨) حديث تعليم جبريل للنبي ﷺ أوقات الصلوات عن أبي مسعود رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول : « **نزل جبريل فأمني ، فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس صلوات** » .

والعصر أربع ، والعشاء أربع ، والمغرب ثلاث ، والصبح ركعتان ، وكافر أيضاً بتفاصيل الصيام لأنها ليست في القرآن ، وهي معلومة من الدين بالضرورة ، فلذلك كان كافراً .

الاجتهاد شيء ورد الأحاديث شيء آخر :

أما الذي ينكر حديثاً ما لعلة في سنده ويختلف فيها مع غيره من رجال الحديث، فهذا نوع من الاجتهاد يُقالَ فيه أخطأ وأصاب ،و لا يقال فيه آمن وكفر .

وكذلك إذا رد ظاهر الحديث متأولاً له تأويلاً تُسوِّغُه اللغة العربية ، ففسره بمعنىٰ مختلف عن المعنىٰ الذي فسره به غيره ، فهذا حمله علىٰ الظاهر وهذا تأوله، فهذا لا يقال فيه آمن وكفر ، إنما يقال أخطأ وأصاب ، فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد ، ويلزمه العمل بما اعتقده ، وإن كان خطأ في نفسه ، ودليل ذلك حدث في زمن الرسول ﷺ في الذهاب إلىٰ بني قريظة ، حين قال : « **لا يصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة** » [1] ، فاجتهد الصحابة ، فبعضهم أخر العصر علىٰ ظاهر الحديث مثل ما يقول ابن حزم : لو كنت معهم ما صليت العصر إلا في بني قريظة لأنه ظاهري ، وقال بعضهم : إن النبي ﷺ لم يرد منا هذا ولكن أراد منا السرعة والمبادرة ،ولم يرد منا أن نترك الصلاة في وقتها هذا فرض وذاك فرض ، وفريضة الصلاة لا يسقطها الجهاد ، فنصلي ثم نسرع ولانتمهل ،وصلوا في الوقت ، ولما اجتمعوا عند النبي ﷺ لم يعنف طائفة من الطائفتين ، لا المخطئة ولا المصيبة ، لا التي أخرت ولا التي عجلت .

هذا دليل علىٰ أن الأحاديث التي هي مجال للاجتهاد يقال في الخلاف فيها أخطأ وأصاب ، ولا يقال آمن وكفر ، ويُعذَر من أخطأ ، وعمله الذي بناه علىٰ اجتهاده الخاطئ صحيح .

---

(١) أخرج البخاري (٩٤٦ـ ٤١١٩) ومسلم (٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمر قال : قال : النبي ﷺ لما رجع من الأحزاب : « **لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة** » .

والثاني المصيب أيضاً معروف واضح أنه يُؤجر أجرين ويجب عليه العمل باجتهاده .

القصد أن من ينكر الحديث من جهة سنده للاختلاف بينه وبين غيره في توفر أسباب القبول وعدم توفرها ، هذا لا نقول له : إنك آمنت أو كفرت ، بل نقول له : أخطأت أو أصبت ، وكذلك لو تأول متناً وفيه مجال للاجتهاد يقال فيه : أخطأ وأصاب .

حكم من خالف معلوما من الدين بالضرورة :

أما أن يأتي بأمر يخالف صريح السنة التي لا تحتمل تأويلا مثل صلاة أربع ركعات ، ويقول هذه تُصلى ركعتين ، نقول له : لا ، أنت خالفت معلوماً من الدين بالضرورة ، فأنت كافر ، وكذلك من يقول : إن الصلوات في اليوم والليلة صلاتان فقط ، صلاة في النهار ، وصلاة في الليل ، ويذكر القرآن ، لأن فيه الصلاة أول النهار وآخر النهار ، وصلاة من الليل ففيه ثلاث صلوات ، واحدة في الليل بنص القرآن ، وواحدة في الغدو ، وواحدة في الآصال ، فيصلي ثلاث صلوات بنص القرآن ، ويضيع صلاة الظهر لأنها ليست في الغدو ، ويضيع واحدة من الصلاتين اللتين بالليل ، فهذا نقول له أنت أنكرت معلوما من الدين بالضرورة ، وإن لم يكن في القرآن لكنه ثابت متواتر تواتراً عملياً وتواتراً قولياً ، فإنكارك إيَّاه مثل إنكارك للقرآن ، فهذا نقول له : إنه كافر ، لأنه خالف معلوماً من الدين بالضرورة .

وأما إن أنكر شيئاً واحداً ؛ أنكر حديثاً واحداً ، أو عملاً واحداً ، مثل من ينكر صلاة الوتر - ولا أقول هذا في الفرائض - سواء قلنا إن الوتر واجب والواجب أقل من الفرض ، أو قلنا إن الوتر سنة مؤكدة ، من ينكر صلاة الوتر فهو كافر ، أنكر سنة عن النبي ﷺ معلومة من الدين بالضرورة ، وأنا ما أخص هذا بالفرائض

الخمس ، يعني الكلام ليس على درجة أهو فرض أو سنة ، فمن ينكر أن هناك رواتب للفرائض ، ركعتان قبل ، وركعتان بعد ، من ينكر أن هناك تهجد الليل هذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، بعضه في القرآن وبعضه في السنة ، فيقال : كافر .

فما كان فيه مجال للاجتهاد ، يقال فيه أخطأ وأصاب ولا يقال فيه آمن وكفر ، وما لم يكن فيه مجال للاجتهاد وهو ثابت ثبوتاً قطعياً أو معلوماً من الدين بالضرورة فهو كافر ، وإن كان الذي أنكره شيئاً واحداً وإن لم يكن أصله في القرآن ،هذا هو حكم الصنفين من أنكر الجملة ومن أنكر البعض هذا هو التفصيل .

س ٧ : هل يجوز للمسلم أن يتمسك برأيه إذا كان مخطئاً ولكنه مجتهدٌ في ذلك ؟ وهل يقبل منه ذلك شرعاً بحجة أنه مجتهد ؟

الجواب : المجتهد إذا رأى رأياً ولو خطأً وله وجهة من جهة اللغة ، ومن جهة مقاصد الشرع ـ فله أن يتمسك برأيه ، ولو كان خطأً في الواقع لكنه لم يتبين له خطؤه ، وما قامت عليه الحجة ، أما إذا تبينت له الحجة ، فيجب عليه أن يرجع عن رأيه ولو كان مجتهداً ، والحق أحق أن يتبع ، أما الذي لا دراية له ولا قدرة له على الاجتهاد إنما هو يعتمد في تفكيره في دنياه وآخرته على غيره ، فهذا ليس له أن يتعصب لمذهب ، أو أن يتعصب لرأي ، بل عليه أن يضع يده كالأعمى على كتف غيره ممن يثق بهم ، يعني يجتهد في اختيار الشخصيات المأمونة المعروفة بالاجتهاد والإصابة في الجملة ، عليه أن يجتهد في اختيار الأفراد لا أن يجتهد في النصوص ، لأنه ليست عنده تلك القوة التي تؤهله للاستنباط من كتاب الله أو سنة رسوله الصحيحة .

الشبهة الرابعة

شبهة أخرى والجواب عليها

س ٨ : ما حكم من يقول إن بعض الأحاديث تنكر بعضها ؟

الجواب : الرسول عليه الصلاة والسلام ليس برجل بدوي يخبط خبطاً عشوائياً وهو أمي وأمته أمية فلا يمكن أن يتكلم بتخمين ؛ فكونه يخبر بأن الذباب في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء ، لا يمكن أن يتكلم به عن طريق اجتهاد في أمر لا يعنيه وليس من شأنه ، إنما يتكلم فيه عن وحي ولذلك علل وقال في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء فالمسألة ليست مسألة اجتهاد ، إنما هو وحي من الله ، فمثله لا يمكن أن يدخل فيه باجتهاده ، وهو أمي في أمة أمية يقول في أحد جناحي الذباب داء وفي الآخر دواء ، وليس هناك من أمته العرب من يدري عن خواص الذباب ولا خواص ما في أجنحته ، هذا لا يمكن أن يقوله رسول من عند نفسه في شأن من شؤونه ، إنما هو وحي من الله أوحىٰ به إلىٰ رسوله فتكلم به .

أما موضوع التلقيح فهم رجال نخل في بلاد العرب - وهم رجال التمور ، وقد يدخل في مثل هذا باجتهاده ، كما دخل في مسألة النزول في ميدان القتال واجتهد ، ولما أراد أن يصطلح مع قريش والأحزاب لما جاءت إلىٰ المدينة في غزوة الأحزاب ، وأن يبرم معهم صلح وأن ينزل لهم عن بعض الشيء من ثمار المدينة فأبىٰ الأنصار فرجع إلىٰ رأي الأنصار الذي أشاروا به وكانت الحرب ، هذا فيه مجال للاجتهاد فيمكن أن يقول فيه برأيه ، ويمكن أن يظهر له خطؤه وأن يرجع عنه .

أما الذي لا يحق لمثله الدخول فيه أصلاً هي الأمور الغيبية التي لا تدرك بالنظر والخبرة والاجتهاد وذلك مثل قوله : « **في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء** » هذا لا يمكن أن يكون مما يدرك ويقال بالظن والاجتهاد ، ولا يجترئ عليه وهو أمي ، بل لا بد أن يكون بوحي من الله .

فالذين يقولون : هذا الكلام ينظرون إلىٰ كلمات المشوشين في الموضوع .

الذين يقولون : إنما بُعِث للتشريع وهذا صحيح ، ولكنه أيضاً أحياناً يخبر بأمور غيبية فيها مصلحة المسلمين وفيها علاج مثل العلاج بالرقية [١] ، وهذا لا يقول به الأطباء ، فالأطباء لا يقولون بالكي وهم يكوون . أي يعالجون بالكي وهم ينكرون الكي ويسجنون من كوىٰ وسلم نفسه للكي ، فهم يعالجون بعض الأدواء بالكي لكنه لا يسلخ الجلد وذلك بالكهرباء ، والعرب يعالجونه بالكي ، فهم يعالجون بالكي وهو أسرع ـ من جهة السبب ـ في العلاج ، والعلاج بالكهرباء بطيء، وذلك مثل الشلل فهو يعالج بالكي وهم يعالجونه بالكهرباء ، فهذا فقط نوع من العلاج لا يسلخ الجلد ولا يوجد جرح ، وذلك نوع من العلاج البدائي أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقول : « **إن كان الشفاء في شيء ففي ثلاث وذكر منها الكي** » [٢] هل أتبع أولئك وأقول هذا ليس من فنه ؟ أم أن التجربة أيضاً

---

(١) أحاديث الرقية كثيرة في الصحيحين ففي البخاري رقم (٥٧٣٥) من حديث عائشة فمن أراد الزيادة فليرجع إلىٰ صحيح البخاري كتاب الطب .

(٢) أحاديث الكي تضمنت أربعة أنواع :

أحدهما : فعله ﷺ : إما بيده أو أمر به .

أخرج مسلم (٢٢٠٨) وغيره عن جابر قال **جرح سعد بن معاذ في أكحله قال فحسمه النبي ﷺ بيده بمشقص ثم ورمت فحسمه الثانية** » .

قال ابن القيم في (زاد المعاد) : « والحسم : هو الكي » .

وأخرج الترمذي (٢٠٥٠) عن أنس « **أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة** » قال الترمذي «غريب » وصححه الألباني في (المشكاة) (٤٥٣٤) .

وأخرج مسلم (٢٢٠٧) وغيره عن جابر قال **بعث رسول الله ﷺ إلى أُبَيّ بن كعب طبياً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه** » .

والثاني : عدم محبته له : أخرج البخاري (٢٢٠) ومسلم (٢٢٠٥) (٧١) عن جابر عن النبي ﷺ قال : « **إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ففي شرطة محجم ، أو لذعة بنار ، وما أحب أن أكتوى**» .

والثالث : الثناء علىٰ من تركه :

=

أثبتت أن هذا يعالج به ، فأتخير الشخص الذي يكوىٰ .

كذلك الرقية هل يؤمن بها الأطباء ؟ ! هم يتبعون الفرنجة الكفرة فلا يعملون بالرقية ، والرقية ثابتة شرعاً ، وهي نوع من العلاج ، نوع من التشريع ، ورسول الله ﷺ جاء للتشريع . ولا يقال : ما الذي أدخله في الرقية والعلاج ؟ وما الذي يدخله في حل السحر ؟ وما الذي يدخله في الإثمد وأنه خير أنواع العلاج للعين؟ فهذه الأمور دخل فيها بحالتين :

أ ـ منها ما يرجع إلىٰ التجربة في قومه .

ب ـ ومنها ما يرجع إلىٰ الوحي .

فالأحاديث التي قامت القرائن علىٰ أنها من الوحي نؤمن به ونكذب الأطباء لأن الأطباء يجهلون سبب وعلاج كثير من الأمراض الموجودة ولم يصلوا إلىٰ شيء يشفىٰ منها كالسرطان وغيره ، ويوجد كثير من الأشياء ما وصلوا إليها في الوقت الحاضر ، وآفات كثيرة ما صلوا إلىٰ علاجها ، وقد يكشف طبيب أو

= أخرج البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب **قال ﷺ هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون »** .

وأخرجه مسلم (٢١٨) من حديث عمران قال : « قال نبي الله ﷺ « **يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب » قالوا : « من هم يا رسول الله ؟ » قال : « هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون »** .

والرابع : النهي عنه :

أخرج البخاري (٥٦٨٠) وغيره عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « **الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم أو شربة عسل ، أوكية بنار . وأنهى أمتي عن الكي »** .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) بعد ذكر هذه الأنواع : « ولا تعارض بينهما بحمد الله تعالىٰ فإن فعله يدل علىٰ جوازه وعدم محبته لا تدل علىٰ المنع منه وأما الثناء علىٰ تاركه فيدل علىٰ أن تركه أولىٰ وأفضل وأما النهي عنه فعلىٰ سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذي لايحتاج إليه بل يفعل خوفاً من حدوث الداء والله أعلم » ا . هـ .

جملة من الأطباء ويشخّصون مرضاً ويتبين أن المرض على خلاف ما شخصوا ، وهم جملة ، فهم يخطئون .

القصد أنني أتهم الأطباء ، ولا أتهم الله ، ولا أتهم رسوله ، ولا أتهم علماء المسلمين العدول ، الذين ضبطوا ما نقلوا بسند متصل ، ولم ينقضْ كلام بعضهم بعضا ، وليس هناك تعارض بينهم ، وبين القرآن ، فأنا أثق بهم أكثر من ثقتي بالأطباء مهما كانوا أقوياء ونابهين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

٩ـ وجوب تقديم نصوص الكتاب والسنة على العقل [١]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه . . وبعد .

فإن نبينا محمداً ﷺ قد آيده الله بروح من عنده ، أيده في التشريع بالوحي وعصمه في الإخبار عن الكذب ، فلا ينطق عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحىٰ .

وما كان منه عليه الصلاة والسلام عن اجتهاد أقره الله تعالىٰ عليه إن أصاب فيه ، وكشف له عن الحق وأبان له الصواب إن أخطأ ، فكان بفضل الله وتوفيقه علىٰ بينة وبصيرة من أمره علىٰ كل حال ، لم يكله الله لنفسه ، ولم يدعه لحسن تفكيره ، بل هداه سبحانه في كل شئونه إلىٰ سواء السبيل .

لقد أنزل الله عليه القرآن هدىٰ للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان وأوحىٰ إليه من الأحاديث ما فيه بيان لما أجمل في القرآن ، وتفصيل لقواعده ، وشرح للعقائد والشرائع ، فضلاً من الله ورحمة والله عليم حكيم .

قال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢] فوجب تصديق ما جاء في كتاب الله وما صح من الأحاديث عن رسول الله ﷺ وتحكيمها في كل شأن من الشئون ، والرضا والتسليم لحكمها دون حرج أو ضيق في الصدور تحقيقاً للإيمان ، وتطهيراً للقلوب من درن الشك والنفاق قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [٣] .

---

(١) مقالة للمؤلف بمجلة أنصار السنة المحمدية .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٤٤ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

ولايغترن إنسان بما آتاه الله من قوة في العقل وسعة في التفكير ، وبسطة في العلم ، فيجعل عقله أصلاً ، ونصوص الكتاب والسنة الثابتة فرعاً ، فما وافق منهما عقله قبله واتخذه ديناً ، وما خالفه منهما لوىٰ به لسانه وحرفه عن موضعه، وأوله علىٰ غير تأويله إن لم يسعه إنكاره ، وإلا رده ما وجد في ظنه إلىٰ ذلك سبيلا ـ ثقة بعقله ـ واطمئنانا إلىٰ القواعد التي أصلها بتفكيره واتهاماً لرسول الله ﷺ ، أو تحديداً لمهمة رسالته وتضيقاً لدائرة ما يجب اتباعه فيه واتهاما لثقاة الأمة وعدولها ، وأئمة العلم ، وأهل الأمانة الذين نقلوا إلينا نصوص الشريعة ، ووصلت إلينا عن طريقهم قولاً وعملاً .

فإن في ذلك قلباً للحقائق ، وإهداراً للإنصاف مع كونه ذريعة إلىٰ تقويض دعائم الشريعة والقضاء علىٰ أصولها إذ طبائع الناس مختلفة واستعدادهم الفكري متفاوت وعقولهم متباينة ، وقد تتسلط عليهم الأهواء ، ويشوب تفكيرهم الأغراض ، فلا يكادون يتفقون علىٰ شيء ، اللهم إلا ما كان من الحسيات أو الضروريات ، فأي عقل يُجعَل أصلاً يحكم في نصوص الشريعة فتُردُ أو تنزل علىٰ مقتضاه فهماً وتأويلاً .

أعقل الخوارج في الخروج علىٰ الولاة ، وإشاعة الفوضىٰ وإباحة الدماء ؟ أما عقل الجهمية في تأويل نصوص الإستواء والصفات وتحريفها عن موضعها وفي القبول بالجبر .

أم عقل المعتزلة ومن وافقهم في تأويل نصوص أسماء الله وصفاته ونصوص القضاء والقدر وإنكار رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ؟

أم عقل الغلاة في إثبات الأسماء والصفات ، والغلاة في سلب المكلفين المشيئة والقدرة علىٰ الأعمال .

أم عقل من قالوا بوحدة الوجود . . . إلخ .

ولقد أحسن العلامة أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله إذ يقول :

« ثم المخالفون للكتاب والسنة ، وسلف الأمة من المتأولين لهذا الباب في أمر مريج فإن من أنكر الرؤيا يزعم أن العقل يحيلها ، وأنه مضطر فيها إلىٰ التأويل ومن يحيل أن لله علماً وقدرة ، وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك يقول : إن العقل أحال ذلك فاضطر إلىٰ التأويل ، بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد ، والأكل والشرب الحقيقيين في الجنة ، يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلىٰ التأويل ، ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلىٰ التأويل .

ويكفيك دليلاً علىٰ فساد قول هؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل ، بل منهم من يزعم أن العقل جوز وأوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله .

فياليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة ، فرضي الله عن الإمام مالك ابن أنس حيث قال : أو كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلىٰ محمد ﷺ لجدل هؤلاء ، انتهىٰ [1] .

هذا وإن فريقاً ممن قدسوا عقولهم ، وخدعتهم أنفسهم ، واتهموا سنة نبيهم قد أنكروا رفع الله نبيه عيسىٰ بن مريم عليه السلام إلىٰ السماء حياً بدناً وروحاً ، ونزوله آخر الزمان حكماً وعدلاً ، لالشيء سوىٰ اتباع ما تشابه من الآيات دون ردها إلىٰ المحكم منها ، اتباعاً لما ظنوه دليلاً عقلياً ، وما هو إلا وهم وخيال .

وردوا ما ثبت من سنة النبي ﷺ نزولاً علىٰ أصل أصلوه من عند أنفسهم من أن العقائد لا يستدل عليها بأحاديث الآحاد ، واتهاماً لبعض الصحابة ومن اليهم فيما نقلوا من الأحاديث في ذلك جرأة منهم علىٰ الثقات الأمناء من أهل العلم

---

(١) مجموع الفتاوىٰ(٥ / ٢٨ ، ٢٩) .

والعرفان دون حجة أو برهان .

وتطاولوا على علماء الحديث وتناولوا رجال الجرح والتعديل بألسنة حداد جهلاً منهم بما قدموه من خدمة للدين وحفظ الأصل الثاني من أصول الإسلام وهو السنة النبوية وعجزا منهم عن أن يبخسوا ما دون أولئك الأئمة الأخيار من كتب في قواعد علوم الحديث ودواوين في تاريخ رواة الحديث ، وبيان درجاتهم، ومراتبهم في الرواية ، وطبقاتهم ومواليدهم ووفياتهم ، ولقاء بعضهم بعضاً أو سماعه تمييزاً لمن تقبل روايته ممن ترد روايته ، وما يقبل من الأحاديث وما يرد ، وذباً عن السنة النبوية وحفاظاً عليها .

١٠ـ مبدأ وميثاق (١)

ووجوب التزام عقيدة السلف

الإسلام عقيدة وقول وعمل ، فالعقيدة إيمان راسخ بأن الله رب كل شيء ومليكه ، خلقاً ، وتقديراً ، وملكاً ، وتدبيراً ، وأن العبادة بجميع أنواعها حق له وحده لا يشركه فيها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

فله سبحانه الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة الصحيحة .

ترىٰ جماعة أنصار السنة المحمدية أن تُمرَ هذه النصوص كما جاءت اقتداء منهم فيها بسلف هذه الأمة ، وخير قرونها فيفسرونها بمعانيها التي تدل عليها حقيقة في لغة العرب التي بها نزل القرآن ، وكانت لسان النبي عليه الصلاة والسلام مع تفويض العلم بكيفياتها إلىٰ الله من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تشبيه ، ولا تمثيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) و لا يلزم من ذلك تشبيه الله بعباده ، كما لم يلزم ذلك من الإيمان بذات له تعالىٰ علىٰ الحقيقة ، مع الكف عن الخوض في كنهها .

وذلك لأن الله أعلم بنفسه من خلقه ، وأرحم بهم منهم بأنفسهم ، وكلامه أبلغ كلام وأبينه ، وله سبحانه الحكمة البالغة فيستحيل أن تتوارد النصوص ، وتتابع الآيات ، والأحاديث علىٰ إثبات أسماء الله وصفاته بطريقة ظاهرة واضحة، ويكون المراد منها غير مادلت عليه حقيقة ، ويقصد الله منها أو يقصد رسوله عليه الصلاة والسلام إلىٰ معان مجازية من غير أن ينصب من كلامه دليلاً علىٰ ما أراد من المعاني المجازية إعتماداً علىٰ ما أودعه عباده من العقل وقوة

---

(١) مقالة للمؤلف رحمه الله بمجلة أنصار السنة المحمدية عندما عين رئيساً لها .

(٢) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

الفكر، فإن ذلك لا يتفق مع كمال علمه تعالىٰ وسعة رحمته، وفصاحة كلامه وقوة بيانه، وبالغ حكمته، ولأن يتركهم الله دون أن يعرفهم بنفسه، ويعرفهم به رسوله عليه الصلاة والسلام بوحيه، خير لهم وأيسر سبيلاً لعدم وجود المعارض للشبه الباطلة التي زعموها أدلة وبراهين، وما هي إلا الخيالات ووساوس الشياطين، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً .

فمن جحد شيئاً من هذه النصوص، أو تأولها علىٰ معان مجازية من غير دليل يرشد إلىٰ ما تأولها عليه فقد ألحد في آيات الله، وأسمائه، وصفاته، وحق عليه ما توعد الله به الملحدين في ذلك بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾[1] ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وقد زادت السنة عن نصوص الكتاب في إثبات الأسماء، والصفات توكيداً، وبياناً فقضت علىٰ قول كل متأول يحرف كلام الله عن مواضعه، كما فعلت اليهود في تحريفها لكتاب ربها وتلاعبها بشريعة نبيها .

العقيدة الصحيحة توجب إخلاص العبادة لله، وإفراده تعالىٰ بجميع أنواعها ما ظهر منها كالصلاة، والزكاة، والحج، وما بطن منها التوكل علىٰ الله، والإنابة إليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عقابه ونقمته، والاستغاثة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الأقوال، والأعمال، والأخلاق التي تدخل في مسمىٰ الإسلام، كما تدخل العقيدة وإن تفاوتت منازلها في الدين وكان لكل منها درجة تخصها حسب ما يتوقف عليها من العبادة، وما يتبعها من الآثار .

---

(١) سورة فصلت، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف، الآية : ١٨١ .

إن العقيدة السليمة الخالصة التي تُستمد من الكتاب والسنة ،ولا يخالطها شيء من شوائب الشرك ، وألوان البدع ، والخرافات لتبعث من دان لله إلىٰ العمل الصالح ،والأخلاق الفاضلة ، والآداب السامية ، وتجعل منه رجلاً مثالياً في الحياة ، إن حكم عدل ، وإن قال فقوله سديد ،وإن عمل كان علىٰ جادة الكتاب والسنة ،وإن عاشر الناس : وجدوا منه خير سيرة . فمظهره يشرح للناس الإسلام ، ويفسره تفسيراً عملياً بقوله وعمله وخلقه ، ومن ضعف يقينه أو كانت عقيدته مدخولة قد شابها كثير من البدع والخرافات ، أو غلب عليه الغرور والاعتداد برأيه ، وإن خالف وحي السماء ، أو طغت عليه الشبه ، واستولت عليه الشكوك والأوهام ، ضرب في كل واد وأخذ في بنيات الطريق وضل السبيل .

من أجل ذلك نجد جماعة أنصار السنة المحمدية يكثرون من الكلام في التوحيد في دروسهم ، وخطبهم ، وقادة الإصلاح المؤيدون من الله بوحيه ونصره، أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة السلام .

هذا وإن جماعة أنصار السنة المحمدية قد أخذت علىٰ نفسها أن تعتصم بكتاب الله ، وتهتدي بهدىٰ سوله ﷺ ، وتحعل سيرة السلف الصالح نصب أعينها عقيدةً ،وقولاً ،وعملاً لا تؤثر علىٰ ذلك شيئاً ،ولا ترضىٰ به بديلاً من آراء الرجال الضالة ،وأهوائهم الزائفة ، عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] وما في معناه من الآيات والأحاديث ،والتزمت ما ألزمها الله به من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر،والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وعهدت إليّ برئاسة الجماعة بعد وفاة مؤسسها بمصر ، ورئيسها السابق ، فضيلة الشيخ محمدحامد الفقي رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عن الدعوة إلىٰ الدين ، ونشر التوحيد خير الجزاء ،

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١ .

فكان لزاماً عليَّ أن أقوم بهذا الواجب وأسير بالجماعة على هدى كتاب الله ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ابتغاء مرضاة الله في نشر دينه ، وتحقيقاً لمبدأ التعاون في نصرة الحق .

وأرجو الله أن يهيئ لنا جميعاً من أمرنا رشداً ، وأن يلهمنا الرشد ، والصواب في القول ، والعمل ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

١١ـ مبحث في وجوب محبة أصحاب رسول الله ﷺ وموالاتهم والرد على الروافض والنواصب

واعلم أن أهل السنة والجماعة يحبون أصحاب رسول الله ﷺ ويثنون عليهم ويترضون عنهم ، كما أثنى الله عليهم وترضى عنهم ، قال الله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١] وقال : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٢] وقال : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣] إلى آخر السورة وقال ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٤] الآيات إلى قوله : ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] إلى غير ذلك من الآيات التي وردت في ثناء الله عليهم وترغيب المؤمنين في حبهم والدعاء لهم ولمن تبعهم بإحسان ، وهم متفاوتون فيما بينهم ، فبعضهم فوق بعض درجات ، فأعلاهم درجة أهل بيعة الرضوان ، وكل من آمن قبل فتح مكة وأنفق في سبيل الله وقاتل لإعلاء كلمة الله ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٦] . وعن أبي سعيد الخدري

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٨ .

(٣) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ٨ .

(٥) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .

(٦) سورة الحديد ، الآية : ١٠ .

رضي الله عنه أنه كان بين عبد الرحمن بن عوف وبين خالد بن الوليد شيء ، فسبه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**»(١) . رواه مسلم ، فدل الحديث على أن من أسلم قبل فتح مكة وقبل صلح الحديبية كعبد الرحمن بن عوف أفضل ممن أسلم بعد صلح الحديبية وبعد فتح مكة كخالد بن الوليد ، وإذا كان حال خالد بن الوليد ومن أسلم معه أو بعده من الصحابة بالنسبة لعبد الرحمن بن عوف والسابقين معه إلى الإسلام هو ما ذكر في الحديث ، فكيف بحال من جاء بعد الصحابة بالنسبة إلى الصحابة ، رضي الله عنهم ، وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : قال : النبي ﷺ ، « **لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة** »(٢) ، وفي حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : « **خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** » **قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة** »(٣) .

يرى أهل السنة أن حبَّ الصحابة دين وإيمان وإحسان لكونه امتثالاً للنصوص الواردة في فضلهم ، وأن بغضهم نفاق وضلال لكونه معارضاً لذلك ، ومع ذلك فهم لا يتجاوزون الحد في حبهم أو في حب أحد منهم لقوله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٦/ ٩٣) « قال أهل اللغة النصيف النصف ومعناه لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ ما بلغ ثوابه في ثواب نفقة حد أصحابي مداً ولا نصف مد » .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باب من فضائل أصحاب الشجرة (٢٤٩٦) عن جابر بن عبد الله أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة « **لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها** » .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه (٣٦٥٠) ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٣٥٣٥) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ (١) ولا يخطئون أحداً منهم ، ولا يتبرءون منه ، ولهذا ورد عن جماعة من السلف كأبي سعيد الخدري والحسن البصري وإبراهيم النخعي ، أنهم قالوا : الشهادة بدعة ، والبراءة بدعة ، ومعنى ذلك أن الشهادة على مسلم معين أنه كافر أو من أهل النار ، بدون دليل يرشد إلى الحكم عليه بذلك بدعة ، وأن البراءة من بعض الصحابة بدعة .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٧٧ .

١٢- التعريف بأهل السنة والجماعة وتمييزهم عن الفرق الإسلامية

[أ]

س ١ : سئل الشيخ رحمه الله تعالى : من هم أهل السنة والجماعة ؟ وما هي الفرق التي شذت عن منهج أهل السنة ؟

فأجاب رحمه الله تعالى : أهل السنة والجماعة من كان على مثل ما كان عليه النبي - ﷺ - بأن عملوا بالكتاب والسنة والإجماع فما كان صحيحاً صريحاً من ذلك وبلغهم التزموه ، وما كان محل نظر واجتهاد بحثوه فإن انتهى البحث إلى وفاق فبها وإلا عمل بما أداه إليه اجتهاده دون خصومة أو عدواة أو سب لمن خالفه في ذلك رعاية لحق الأخوة الإسلامية ، وأهل الفرقة والاختلاف هم الذين لم يعولوا على ما ذكر من الأدلة الصحيحة الصريحة أو لم يردوا ما تنازعوا فيه من المسائل الاجتهادية إليها ، وأُعجب كل منهم برأيه أو رأي من وافقه ولم يرجع عنه ونصره وقاتل من أجله ومنشأ الفرقة والخلاف بالظن والهوى وتقديم العقل على ما صح من النقل وأول الفرق الضالة ظهوراً الخوارج والشيعة وقد قاتل الصحابة الخوارج دون خلاف منهم في الإقدام على قتالهم ، وحرّق علي من غلا فيه من شيعته ، وأراد قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه .

وأصول الفرق المبتدعة خمسة : الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجهمية ، حُكِيَ عن ابن المبارك أن الجهمية كفار ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة وهذا انبنى على أن الثنتين والسبعين فرقة لم تكفر ببدعتها ، ومن المتأخرين من كفرهم جميعاً ، والمعروف عن السلف إطلاق القول بتكفير الجهمية المحضة وفي تكفير الخوارج والروافض خلاف ، ومن نفى من القدرية العلم والكتابة فكافر ومن أثبتهما ونفى خلق الله للأفعال ففاسق .

التعريف بأهل السنة والجماعة

[ب]

كان الناسُ أمةً واحدةً على الحق بما أودع الله فيهم من فطرة الإسلام وبما عهد إليهم من الهدى والبيان ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم فاجتالهم الشياطين عن الصراط المستقيم ، وسلكت بهم بُنيات الطريق فتمزقت وحدتهم، واختلفت كلمتهم ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً . قال ـ تعالى ـ : ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ (١) .

وقال : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (٢) .

وقال ، ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودّانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه** » (٣) . الحديث . وقد أمر الله ـ تعالى ـ في كتبه ، وعلى ألسنة رسله بوحدة الكلمة ، والاعتصام بشرعه ، وحذّر من الفرقة والاختلاف ، وبيَّن عاقبة ذلك بما ذكر من أحوال الأمم الماضية ، وما حاق بها من الدّمار ، وأصابها من الهلاك ، وحثّهم على البلاغ والبيان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، نصرة للحق ، وإزالة للشبهة ، وإحباطاً لكيد دعاة السوء ، واستهوائهم النفوس الضعيفة . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا**

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٣ .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب : ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) واللفظ له وأخرجه مسلم في القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨) ولفظه (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوادنه وينصرانه ويمجسانه . . . .) .

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(٢) . وقال : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٣) .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ ، موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ! كأنَّها موعظة مودّع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « **أوصيكم بالسّمع والطاعة ، فإنَّه من يعش منكم بعدي ، فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجد وإيّاكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** » (٤) . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث (٥) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات : ١٠٢-١٠٣ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٩ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٧) وأبو داود في السنة باب : في لزوم السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم باب : ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) وقال (حسن صحيح) ، وابن ماجة في المقدمة باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢) ، (٤٣) ، (٤٤) من طرق عن العرباض بن سارية رضي الله عنه وقد صححه غير واحد من أهل العلم راجع التعليق على السنة لابن أبي عاصم للشيخ الألباني (٢٧) .

(٥) ويحسن بنا في هذا المقام أن ننقل ما قاله العلامة الألباني حفظه الله عن هذا الحديث إتماماً للفائدة فقال في السلسلة الصحيحة (٦/ ٥٢٧) « والحديث من الأحاديث الهامة التي تحض المسلمين على التمسك بالسنة ، وسنة الخلفاء الأربعة ومن سار سيرتهم ، والنهي عن كل بدعة ، وأنها ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة ، كما صح عن ابن عمر رضي الله عنه ، والأحاديث في النهي عن ذلك كثيرة معروفة ، ومع ذلك فقد انصرف عنها جماهير المسلمين ، لا فرق في ذلك بين العامة والخاصة ، اللهم إلا القليل منهم ، بل إن الكثير منهم ليعدون البحث في ذلك من توافه الأمور ، وأن الخوض في تمييز السنة عن البدعة ، يثير الفتنة ، ويفرق الكلمة ، وينصحون بترك ذلك كله ، وترك المناصحة في كل ما هو مختلف فيه ناسين أو متناسين أن من المختلف فيه بين =

* **ومع ذلك دبّ الخلاف بين الناس ، فما من أمة من الأمم إلا وقد اختلفت بهم** الأهواء حتىٰ وضع كل لنفسه أصولاً عليها يبني مذهبه ،وإليها يرجع في خصومته، فتناقضت مذاهبهم ، وصار كل واحد حرباً علىٰ أخيه ، وشغل بذلك عن كتاب الله ، وهدىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه ـ سبحانه ـ جرت سنته ، واقتضت حكمته ، أن يقيّض للحق في كل عصر جماعة تقوم عليه ، وتهدي الناس إليه ، إنجازاً للوعد بحفظ دينه ، وإقامة للحجة وإسقاطاً للمعاذير . قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (١) . و قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٢) وقال ﷺ : « **افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة** » (٣).

وفي رواية قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « **ما أنا عليه وأصحابي** » (٤)

= أهل السنة وأهل البدعة كلمة التوحيد ، فهم لا يفهمون منها وجوب توحيد الله في العبادة ، وأنه لا يجوز التوجه إلىٰ غيره تعالىٰ بشيء منها ، كالاستغاثة والاستعانة بالموتىٰ من الأولياء والصالحين ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف]الآية ، ١٠٤)أ . هـ .

(١) سورة فاطر ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الحجر ،الآية : ٩ .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة باب : شرح السنة (٤٥٩٦) والترمذي في الإيمان باب : ما جاء في افتراق هذه الأمة وابن ماجة في الفتن باب : افتراق الأمم (٣٩٩١) والحاكم (١/ ٦ ، ١٢٨) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال الترمذي (حسن صحيح) وقال الحاكم في الموضع الأول (احتج مسلم بمحمد بن عمرو) ورد الذهبي بقوله (قلت : ما احتج مسلم بمحمد بن عمرو منفرداً بل بانضمامه إلىٰ غيره) وقال في الموضع الثاني (صحيح علىٰ شرط مسلم) ووافقه الذهبي !! والصواب أن الحديث حسن لأن محمد بن عمرو فيه كلام ولذلك لم يحتج به مسلم إنما روىٰ له متابعة ، وهو حسن الحديث و قال الحافظ في التقريب (صدوق أوهام) والله أعلم .

(٤) وجه ذلك أن النبي ﷺ قال : « **وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي** » رواه الترمذي =

وفي رواية قال : «**هي الجماعة**» . رواه أبو داود ، والترمذي وابن ماجة وغيرهم . وفي الحديث : «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ...**»(١) .

* **وقد تبين من ذلك أن الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة** ، وأن شعارها كتاب الله، وهدىٰ رسوله ، عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه سلف الأمة الذين يؤمنون بمحكم النصوص ويعملون بها ، ويردون إليه ما تشابه منها ، وأما الفرق الضالة ، فشعارها مفارقة الكتاب ، والسنة وإجماع سلف الأمة ، واتباع الأهواء، وشرع مالم يأذن به الله من البدع والأراء الزائفة بناء علىٰ أصول وضعوها ، يوالون عليها ، ويعادون ، فمن وافقهم عليها ، أثنوا عليه وقرّبوه ، وكان في زعمهم من أهل السنة والجماعة ، ومن خالفهم تبرأوا منه ونبذوه ، وناصبوه العدواة والبغضاء وربما رموه بالكفر ، والخروج من ملة الإسلام لمخالفته لأصولهم الفاسدة .

* **هذا ، وليس في نصوص الكتاب والسنة ما يعتمد عليه في تعيين الفرق** ، ولا بيان ما يرجع إليه في تمييز بعضها من بعض ، وإن كان فيها التحذير من فرق الضلال، وذكر عددهم ، وبيان شعارها إجمالاً ،و لسنا مكلفين بتعيينها ، وتحديدها ، ولا نحن في ضرورة إلىٰ ذلك في عقيدة ، أو عبادة ، أو معاملة ، أو دعوة إلىٰ الحق ، بل يكفينا في جميع شئوننا أن يتميز لدينا الحق من الباطل بالحجة والبرهان، وبالحق يعرف رجاله والدّعاة إليه فلا يعيب الشريعة إن خلت من ذلك، ولا ينقص قدر العلماء أن يضربوا صفحاً عن استقصاء الفرق الضالة حتىٰ يبلغوا بها ما ذكر في الحديث من العدد ، ومع ذلك ، فقد حمل بعض العلماء حبّ الاستطلاع ، والولع ، والبحث أن يصنّفوا في تعيين الفرق ، ويذكروا لكل

= (٦٢٤١) وغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وله شاهد عن أنس رضي الله عنه أخرجه الطبراني (٧٢٤) وبه يرتقي إلىٰ درجة الحسن انظر : السلسلة الصحيحة (٢٠٣) .

(١) رواه البخاري كتاب المناقب (٣٦٤٠ ، ٣٧١١ ، ٤٧٥٩) . مسلم في الجامع الصحيح كتاب الإمارة عن ثوبان رضي الله عنه رقم (١٠٣٧) .

فرقة ما به تتميز عن الأخرىٰ إشباعاً للرغبة ، واستجابة لداعي الفكر ، وحاولوا أن يبلغوا بما جمعوا وقسّموا وأصّلوا وفصّلوا ما ذكر رسول الله ﷺ في الحديث من غير أن يتجاوزوه أو يقفوا دونه .

* ومن أجل أن المسألة اجتهادية ،ولا خبر فيها عن المعصوم تباينت مناهجهم في التصنيف ، واختلفت مذاهبهم في التعيين ، فمنهم من أخذ في عد الفرق من غير أن يبني علىٰ أساس ، أو يستند إلىٰ قانون يضبط ما ذكر من عدد الفرق ، ومذاهبها ، ومنهم من أصل أصولاً يتفرع عنها ما سواها ، ووضع قواعد تضمنت المسائل التي وقع فيها النزاع ، وذكر كبار الفرق التي ينشعب عنها ما عداها . ومن هؤلاء الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » . وإليك كلمته في أصول المذاهب ، وكبار الفرق ، فقال :

المقدمة الثانية :

في تعيين قانون يبني عليه تعديد الفرق الإسلامية : **اعلم أن لأصحاب المقالات طرقاً في تعديد الفرق الإسلامية** لا علىٰ قانون مستند إلىٰ نصّ ، ولا علىٰ قاعدة مخبرة عن الوجود ، فما وجدت مصنفين منهم متفقين علىٰ منهاج واحد في تعديد الفرق .

ومن المعلوم الذي لا مراء فيه أن ليس كل من تميز عن غيره بمقالة ما في مسألة ما عُدَّ صاحب مقالة . فتكاد تخرج المقالات عن حدّ الحصر والعدد ، ويكون من انفرد بمسألة في أحكام الجوهر مثلاً معدوداً في عداد أصحاب المقالات . فلا بدّ إذن من ضابط في مسائل هي : أصول ، وقواعد يكون الاختلاف فيها اختلافاً يعتبر مقالةً ،ويعد صاحبها صاحب مقالة وما وجدت لأحد من أرباب المقالات عناية بتقرير هذا الضابط ، إلا أنهم استرسلوا في إيراد مذاهب الأمة كيفما اتفق وعلىٰ الوجه الذي وجد بلا قانون مستقر ولا أصل مستمر ، فاجتهدت علىٰ ما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير ، حتىٰ حصرتها في **أربع قواعد هي : الأصول الكبار** .

* **القاعدة الأولى : الصفات ، والتوحيد فيها** ، وهي تشتمل على مسائل : الصفات الأزلية إثباتاً عند جماعة ، ونفياً عند جماعة ، وبيان صفات الذات ، وصفات الفعل ، وما يجب لله ـ تعالى ـ وما يجوز عليه وما يستحيل ، وفيها الخلاف بين الأشعرية ، والكرامية ، والمجسمة والمعتزلة .

* **القاعدة الثانية : القدر ،والعدل** ، وهي تشتمل على مسائل : القضاء ، والقدر، والجبر ، والكسب في إرادة الخير ، والشر ، المحذور ، والمعلوم إثباتاً عند جماعة ، ونفياً عند جماعة ، وفيها الخلاف بين القدرية والنجّارية ، والجبرية ، والأشعرية ، والكرّامية .

* **القاعدة الثالثة : الوعد ، والوعيد ، والأسماء ، والأحكام** ، وهي تشتمل على مسائل : الإيمان ، والتوبة ، والوعيد ، والإرجاء ، والتفكير والتضليل إثباتاً على وجه عند جماعة ، ونفياً عند جماعة ، وفيها الخلاف بين المرجئة والوعيدية ، والمعتزلة ، والأشعرية ، والكرامية .

* **القاعدة الرابعة : السّمع ،والعقل ، والرّسالة ،والأمانة** . وهي تشتمل على مسائل : التحسين ، والتقبيح ، والصلاح ، والأصلح ، واللطف ، والعصمة في النبوة ، وشرائط الإمامة نصاً عند جماعة ، وإجماعاً عند جماعة ، وكيفية انتقالها على مذهب من قال بالنصّ ، وكيفية إثباتها على مذهب من قال بالإجماع ، والخلاف فيها بين الشيعة والخوارج ، والمعتزلة ، والكرامية ، والأشعرية . فإذا وجدنا انفراد واحد من أئمة الأمة بمقالة من هذه القواعد عددنا مقالته مذهباً ، وجماعته فرقةً وإن وجدنا واحداً انفرد بمسألة فلا نجعل مقالته مذهبا ، وجماعته فرقة بل نجعله مندرجاً تحت واحدة ممن وافق مقالته ، ورددنا باقي الاختلافات إلى الفروع التي لا تعد مذهباً مفرداً ، فلا تذهب المقالات إلى غير النهاية وإذا تعينت المسائل التي هي قواعد الخلاف تبينت أقسام الفرق ، وانحصرت كبارها في أربع بعد أن تداخل بعضها في بعض .

١٣ـ كبار الفرق الإسلامية أربع هي

القدرية ـ الصفاتية ـ الخوارج ـ الشيعة

ثم يتركب بعضها مع بعض ، ويتشعّب عن كل فرقة أصناف ، فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة ، ولأصحاب كتب المقالات ، طريقان في الترتيب .

أحدهما : أنهم وضعوا للمسائل أصولاً ثم أوردوا في كل مسألة : مذهب طائفة طائفة ، وفرقة فرقة .

والثاني : أنهم وضعوا الرجال وأصحاب المقالات أصولاً ، ثم أوردوا مذاهبهم في مسألة مسألة ، وترتيب هذا المختصر على الطريقة الأخيرة لأني وجدتها أضبط للأقسام وأليق بأبواب الحساب ، وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم من غير تعصّب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبيّن صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله ، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية ، في مدرج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفخات الباطل .

* **ومهما يكن المنهج الذي سلكه من ألف في الفرق الإسلامية** ، وأياً كان اجتهادهم في تعيين الفرق ، وتمييز بعضها من بعض لتبلغ العدد الذي ورد في الحديث ، فلن يبرئهم ما وضعوا من الأصول والضوابط من معرة التكلف ، ولن يعصمهم من مزالق التخمين ، وما يوجه إليهم من طعنات النُقَّاد .

فإن النصوص وإن دلّت على حدوث الفرق في هذه الأمة ، وبيّنت عدد الفرق إجمالا لم تخص بحدوث الفرق عهداً دون عهد ، والأمة لا تزال تتابع أجيالها ، وتختلف آراؤها ، والمستقبل لا يعلمه إلا الله ،فربما حدث من البدع ، ومذاهب الضلال ما ليس في الحسبان مما لا يمكن رده إلى مذاهب الفرق الأولى .

* **وإذا كان ذلك على ما وصفت كان** تعيين الفرق رجماً بالغيب واقتحاماً

لمتاهات لا تزيد من رمى بنفسه فيها إلا حيرة ، مع ما في ذلك من التكلف في ضم بعض الفرق إلى بعض بإلغاء ضرب من الخلاف خشية أن يتجاوز العدد ما ذكر في الحديث ، أو جعل الواحدة فرقتين باعتبار نوع من الخلاف حذراً أن ينقص العدد عما ذكر في الحديث ، إلا أن التأصيل ، ووضع القواعد على النحو الذي صنفه « الشهرستاني » وغيره أقرب إلى الضبط وأسرع للفهم والتحصيل وأبعد عن نشر الكلام ، وأدخل في صناعة التأليف ، لذلك اكتفيت بذكر أصول الفرق الكبار مع مراعاة ترتيبها حسب حدوثها من غير استقصاء ، أو محاولة بلوغ العدد المذكور في الحديث .

ذكر جملة من الفرق المشهورة التي تشعّبت عن الفرق الأربع السابقة مع بيان شيء مما يتميز به كل منهما .

١٤ـ أولا : الخوارج أصولهم ورؤسهم

خرج جماعة من المسلمين على الخليفة الثالث عثمان بن عفان لأمور نقموها منه ، وأحداث أنكروها عليه ، ومازال بهم اللجاج في الخصومة معه حتى قتلوه . **ولما انتهت الخلافة** إلى علي بن أبي طالب كان ممن اختلف عليه وقاتله طلحة بن عبيد الله القرشي ، والزبير بن العوام ، فأما الزبير فقتله ابن جرموز ، وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم فقتله ، وكانت معهما عائشة ـ رضي الله عنها ـ على جمل لها ، ولكنها رجعت سالمة مكرمة لم يعترض عليها أحد ، وتسمى هذه الموقعة بـ « **موقعة الجمل** » (٣٦ هـ) . واختلف على عليّ ـ أيضاً ـ معاوية ومن تبعه ـ رضي الله عنهم ـ ودارت الحرب بين الفريقين حتى كان التحكيم الذي زاد الفتنة اشتعالاً ودبّ الخلاف في جيش عليّ ، وخرج عليه ممن كان من أنصاره فرقة تعرف بالحرورية وبالشراة . **واشتهرت باسم الخوارج** .

* وحديث العلماء في الفرق الإسلامية عن الخوارج إنما هو عن هؤلاء الذين

خرجوا علىٰ عليّ - رضي الله عنه - من أجل التحكيم . أما طلحة والزبير ، ومعاوية ، ومن تبعهم ، فلم يعرفوا عند علماء المسلمين بهذا الاسم .

ثم صارت كلمة الخوارج تطلق علىٰ كل من خرج علىٰ إمام من أئمة المسلمين ، اتفقت الجماعة علىٰ إمامته في أي عصر من العصور دون أن يأتي ذلك الإمام بكفر ظاهر ليس له عليه حجة ، وإذن فأول من أحدث هذه البدعة في هذه الأمة ، الجماعة التي خرجت علي عليّ بن أبي طالب سنة ٣٩ هـ ، وأشدهم في التمرد ، والخروج عليه ، الأشعث بن قيس ، ومسعود بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي ، والذي دعاهم إلىٰ ذلك مسألة التحكيم المشهورة في التاريخ ، ورضا الملومة به مع أنهم الذين أمروه به ، واضطروه إليه ، ثم أنكروه عليه فقالوا : لم حكمت الرجال ؟ لاحكم إلا لله .

* **ورؤوسهم ستة** : الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والأباضية ، والثعالبة ، وعنها تتفرّع فرقهم .

* **ومن أصولهم** التي اشتركت فيها فرقهم ، البراءة من علي ، وعثمان وطلحة والزبير ، وعائشة ، وابن عباس - رضي الله عنهم وتكفيرهم .

والقول بأن الخلافة ليست في بني هاشم فقط ، كما تقول الشيعة ، لا في قريش فقط ، كما يقول أهل السنة ، بل في الأمة عربها وعجمها ، فمن كان أهلاً لها علماً ، واستقامة في نفسه ، وعدالة في الأمة جاز أن يُختار إماماً للمسلمين ، ومن أصولهم الخروج علىٰ أئمة الجور ، وكل من ارتكب منهم كبيرة . ولذلك سموا بالخوارج . والإيمان عندهم : عقيدة ، وقول ، وعمل .

وقد وافقوا في هذا[1] أهل السنة في الجملة ، وخالفوا غيرهم من الطوائف . ومن أصولهم - أيضاً - : التكفير بالكبائر ، فمن ارتكب كبيرة فهو كافر . وتخليد من ارتكب كبيرة في النار إلا النجدات في الأخيرين . ولذا سموا وعيدية ، ومن أصولهم - أيضاً - القول بخلق القرآن وإنكاراً أن يكون الله قادراً علىٰ أن يظلم .

---

(١) وافقوا أهل السنة في قولهم الإيمان عقيدة ، وقول ، وعمل .

وتوقف التشريع والتكليف على إرسال الرسل ، وتقديم السمع على العقل على تقدير التعارض ، فمن وافقهم في هذه الأصول فهو منهم ، وإن خالفهم في غيرها ، ومن وافقهم في بعضها ، ففيه منهم بقدر ذلك ، وقد اجتمعوا بحروراء برئاسة عبد الله بن الكواء ، وعتاب ابن الأعور ، وعبد الله بن وهب الراسبي ، وعروة بن حدير ، ويزيد بن عاصم المحاربي ، وحرقوص بن زهير المعروف بذي الثدية . وكانوا في اثنى عشر ألف رجل ، فقاتلهم عليّ يوم النهروان ، فما نجا منهم إلا أقل من عشرة ، فرّ منهم اثنان إلى عمان ، واثنان إلي كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى موزان ، فظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع .

* **وأول من بويع منهم** بالخلافة عبد الله بن وهب الراسبي ، فتبرأ من الحكمين ، وممن رضي بهما ، وكفّر هو ومن بايعه علياً لتحكيمه الرجال ورضاه بذلك .

ثانيا : الفرق التي تشعبت من الخوارج

* **الأزارقة** : هم جماعة من الخوارج ينسبون إلى أبي راشد نافع بن الأزرق ، خرج آخر أيام يزيد بن معاوية ، ومات سنة ٦٥ هـ . وبايع الأزارقة بعد موته قطري بن الفجاءة ، وسموه بأمير المؤمنين ، ومن بدعهم تصويب قاتل عليّ ، عبد الرحمن بن ملجم . وفي ذلك يقول عمران بن حطان مفتي الخوارج :

يا ضربة من منيب ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفي البرية عند الله ميزاناً

ومنها تكفير من قعد عن الجهاد معهم ، وتكفير من لم يهاجر إليهم ، وإسقاط الرجم لعدم وجوده في القرآن ، وإسقاط الحد عمن قذف المحصنين دون المحصنات ، وعدم جواز التُّقية في قول أو عمل ، وإباحة قتل أطفال المخالفين لهم ونسائهم ، وعدم أداء الأمانة لمن خالفهم .

* **النجدات العاذرية** :

ينسبون إلى نجدة بن عامر الحنفي ، وكان من شأنه أنه خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحاق بالأزارقة ، فاستقبله أبو فديك ، وعطية بن الأسود الحنفي في الجماعة الذين أنكروا على نافع بن الأزرق بدعه ، فأخبروه بما أحدثه من تكفير القعدة من القتال معه ، وغير ذلك من بدعه ، فكتب إليه ينصح له ، فلما أبي نافع أن يرجع ، بايعه على الإمامة أبو فديك ، وعطية ومن معهما ، وسموه بأمير المؤمنين .

ومن بدعهم : جواز التقية في القول والعمل ، وتناصفهم فيما بينهم بلا إمام ، فإن عجزوا عن ذلك إلا بالإمام جاز لهم أن يقيموه .

وسموا بالعاذرية لأنهم يعذرون من أخطأ في أحكام الفروع لجهالته دون من أخطأ في الأصول : كمعرفة الله ، ورسله ، والإقرار بما جاء به محمد ﷺ ، من عند الله جملة ولم يلبث أبو فديك وعطية أن اختلفا عليه ، وقتله أبو فديك ، ثم اختلف أبو فديك وعطية ، وبرئ كل منهما من الآخر ، وصار لكل منهما أتباع . **وسمي أتباع أبو فديك فدكية ، وأتباع عطية : العطوية** ، وقد أرسل عبد الملك بن مروان ، عثمان بن عبيد الله بن معمر إلى أبي فديك ، فحاربه أياماً ، وقتله ، وفرّ عطية إلى أرض سجستان .

* **العجاردة** :

هم طائفة من الخوارج ينسبون إلى عبد الكريم بن عجرد ، وهم من أصحاب عطية بن الأسود الحنفي **ومن بدعهم** : البراءة من الأطفال حتى يدعوا إلى الإسلام عند بلوغهم ، **ومن بدعهم - أيضاً -** : أن سورة يوسف ليست من القرآن ، وأنهم يتولون القعدة ، ويرون الهجرة فضيلة لا فرضاً .

وقد افترقت العجاردة فرقاً كثيرة منها : الميمونة أتباع ميمون بن خالد وهو على

مذهب المعتزلة في القدر . **ومن بدعه ـ أيضاً ـ** جواز نكاح بنات البنات والبنين ، وبنات أولاد الإخوة والأخوات . **ومنها الحمزية** أتباع حمزة بن أدرك ثبتوا على قول ميمون في القدر ، وقالوا بجواز إمامين في عصر واحد ما لم تجتمع الكلمة ، أو تقهر الأعداء .

* **ومنها الأطرفية** : فرقة من الحمزية رئيسهم غالب بن شاذان السجستاني سموا أطرفية لأنهم يعذرون أصحاب الأطراف في ترك ما لم يعرفوه من الشريعة إذا أتوا بما عرفوه بالعقل ، ومذهبهم : كالعاذرية في تحكيم العقل ، **ومنها الشُعبية** أصحاب شعيب بن محمد الذي تبرأ من ميمون لما أظهر القدر ، **ومنها الجازمية** أصحاب جازم بن علي ، وكان على قول شعيب في القدر .

* **الثعالبة** :

هم أصحاب ثعلبة بن عامر ، كان مع عبد الكريم بن عجرد يداً واحدة إلى أن اختلفا في أمر الطفل ، فقال ثعلبة بولايته حتى نرى منه إنكاراً للحق ورضا بالجور . فتبرأت العجاردة من ثعلبة ، ونقل عنه ـ أيضاً أنه لا يحكم في الطفل بشيء حتى يبلغ ، ويدعى إلى الإسلام ، فإن أجاب فبها ، وإلا كفر ! ! **وقد افترقت الثعالبة فرقاً كثيرة . منها : الشيبانية** ، وهم أتباع شيبان بن سلمة ، خرج أيام أبي مسلم الخراساني وأعانه على نصر بن سيار والي خرسان من قبل هشام ، وقتل أناساً ممن يوافقون في المذهب ، وأخذ أموالهم ، فبرئت منه الثعالبة ، ولما قتل أُخبروا بتوبته ، فلم يقبلوها ، لأنه لم يرد المظالم ، ولم ينصف أولياء الدم . **ومن بدعهم : تشبيه الله بخلقه ، وموافقة جهم في قوله بالجبر** ، والإعتقاد أن الولاية والعداوة من صفات الله الذاتية ، لا من صفات الفعل . ومن لم يقبل توبة شيبان يسمون بالزيادية نسبة لرئيسهم زياد بن عبد الرحمن . ومنها : **الرشيدية** أتباع رشيد الطوسي ، **ومن بدعهم** : إخراج نصف العشر زكاة لما سقي بالأنهار . **ومنها**

المكرمية أصحاب أبي مكرم بن عبد الله العجلي ، ومن مقالته : تكفير تارك الصلاة لجهله بربه ، وغفلته عن معرفته ، وعدم مبالاته بالتكليف . وقالوا بإيمان الموافاة، بمعنى أن الله يوالي عباده ، ويعاديهم على ما يوافونه به عند الموت من خير أو شر لا على أعمالهم قبل ذلك . **ومنها المعلومية والمجهولية** : وهما في الأصل من الحمزية . **فالمعلومية** ، قالت : لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله بجميع أسمائه وصفاته . وقالوا فعل العبد مخلوق له ، فبرئت منهم الجازمية . **والمجهولية** قالت : من علم البعض وجهل البعض كان مؤمنا .

*** الأباضية :**

هم أتباع عبد الله بن أباض التميمي ، الذي خرج أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، قال : إن مخالفينا من أصل القبلة كفار غير مشركين وأباح الحرب لا غير . وحرّم قتلهم ، وسبيهم غيلة ، وأباح ذلك بعد إقامة الحجة ، ونصب القتال . وقال : مرتكب الكبيرة موحد لا مؤمن ، وكافر نعمة لا كفراً يخرج من الملّة ، وأنه مخلّد في النار ، وأفعال العباد مخلوقة لله مكتسبة للعبد .

وهم فرق كثيرة . منها الحفصية أصحاب حفص بن أبي المقدام ، تميز عن الأباضية بجعله الفرق بين الشرك والإيمان ، معرفة الله وحده ، فمن عرفه فهو مؤمن ، وإن كفر بالرسل وما جاءوا به . ومن ارتكب كبيرة فهو كافر غير مشرك .

*** ومنها الحارثية :**

أصحاب الحارث بن مزيد الأباضي ، خالف الأباضية في القدر فقال بقول المعتزلة ، ولذا كرهوه . وقال بالاستطاعة قبل الفعل لا معه . وقال بإثبات طاعة لا يُراد بها وجه الله ، كما قال أبو الهذيل من المعتزلة .

١٥ـ الشيعة والفرق التي تشعبت منها

الشيوع والشياع : القوة والانتشار ، يقال : شاع الخبر إذا انتشر ، وكثر التكلّم به . وشيعة الرجل : خواصه ، وجماعته الذين ينتشرون ويتقّوىٰ بهم لنسب يجمعهم، أو لاتباعهم إياه في مذهبه ، وسيرهم علىٰ منهاجه وسننه ويُجمع الشيعة علىٰ شِيَع ، وتُجمع شيع علىٰ أشياع .

والمراد بالشيعة هنا : كل من شايع علىٰ بن أبي طالب خاصة ،وقال بالنص علىٰ إمامته ،وقصر الإمامة علىٰ آل البيت . وقال بعصمة الأئمة من : الكبائر ، والصغائر ،والخطأ ، وقال : لا ولاء لعلي إلا بالبراء من غيره من الخلفاء الذين في عصره قولاً وفعلاً ، وعقيدة ، إلا في حال التقية . وقد يثبت بعض الزيدية الولاء دون البراء .

فهذه أصول الشيعة التي يشترك فيها جميع فرقهم ، وإن اختلفت كل فرقة عن الأخرىٰ في بعض المسائل ، فمن قال ممن ينتسب إلىٰ الإسلام بهذه الأصول فهو شيعي . وإن خالفهم فيما سواها ومن قال بشيء منها ، ففيه من التشيع بحسبه .

ورؤوس فرق الشيعة خمسة :

الزيدية ،والإمامية ،والكيسانية ، **والغلاة ،والإسماعلية** ، ومن العلماء من لم يجعل الاسماعيلية رئيسية .

ومن فرق الشيعة الزيدية

* **الزيدية** : هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومن مقالته : إن الإمامة تنعقد للمفضول مع وجود الفاضل للمصلحة في ذلك .

ومن أجل هذا رأى انعقاد الخلافة لأبي بكر وعمر مع أن علياً أفضل منهما عقيدة ، وكان لا يتبرأ منهما ، ولما بلغ شيعة الكوفة عنه أنه لا يتبرأ منهما رفضوه ، فسموا رافضة ، ومن مذهبه سوق الإمامة في أولاد فاطمة : الحسن والحسين ، وأولادهما ، وجواز خروج إمامين في قطرين على أن يكون كل منهما من أولاد فاطمة . ويتحلى بالعلم ، والزهد ، والكرم ، والشجاعة .

وقد عاب عليه أخوه محمد الباقر أخذه العلم عن واصل بن عطاء الغزال من أجل أنه كان يُجَوِّز على جدهما عليّ الخطأ في قتال الخارجين عليه .

وعاب عليه : رأيه بأن الخروج شرط في كون الإمام إماماً وكان يذهب في القدر إلى مذهب القدرية ، وبذلك نعرف السبب في أن أتباع زيد كلهم معتزلة . وقد خرج زيد على هشام بن عبد الملك أيام خلافته ، وبويع له بالخلافة ، فقتل ، وصلب بكناسة الكوفة عام ١٢١ هـ . وكان ابنه يحيى إماماً بعده أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وذهب إلى خراسان ، فبعث إليه أميرها نصر بن سيار ، سلم بن أحوز ، فقتله عام ١٢٥ هـ ، ثم انحرفت الزيدية بعد عن القول بصحة إمامه المفضول ، وطعنوا في الصحابة كالإمامية .

ومما أجمعت عليه الزيدية : تخليد من ارتكب كبيرة من المؤمنين في النار ، وتصويب علي ، وتخطئة مخالفه ، وتصويبه في التحكيم ، وإنما أخطأ الحكمان ، ويرون السيف والخروج على أئمة الجور ، وأنه لا يصلي خلف فاسق .

وقد افترقت الزيدية ثلاث فرق : جارودية ، وسليمانية ، وبترية .

* **الجارودية** : هم أتباع أبي الجارود زياد بن المنذري العبدي ، مات عام ١٥٠هـ . وقد سماه أبو جعفر الباقر حزب (**الشيطان**) . ومن مقالته : إن النبي ﷺ نص علىٰ إمامة عليّ بالوصف دون الاسم ، وإن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي، وبذلك خالف إمامه زيد بن علي . ومن أصحاب بي الجارود فضيل الرسان ، وأبو خالد الواسطي .

* **السليمانية** : هم أتباع سليمان بن جرير الزيدي الذي ظهر أيام أبي جعفر المنصور ، ومن مقالته : إن الإمامة شورىٰ ، وإنها تنعقد ولو برجلين من خيار الأمة ، وإنها تنعقد للمفضول مع وجود الفاضل . إلا أنهم كفَّروا عثمان للأحداث التي نسبت إليه ، وكفَّروا عائشة ، وطلحة ،والزبير لإقدامهم علىٰ قتال علي بن أبي طالب ، وطعنوا في الرافضة من أجل قولهم بالبداء وبالتقية .

* **البترية والصالحية** : أما البترية ، فأتباع كثير الثواء الملقب بالأبتر مات سنة ١٦٩ هـ تقريباً . وأما الصالحية ، فأصحاب الحسن بن صالح بن حي الكوفي الهمداني مات عام ١٦٧ هـ ومذهبهما في الإمامة مثل مذهب السليمانية ، إلا أنهم يتوقفون في كفر عثمانٰ لتعارض نصوص فضائله ، والأحداث التي نسبت إليه ، ويتوقفون كذلك في إكفار قتلته .

ذكر في مقالات الإسلاميين أن الزيدية ست فرق الثلاث السابقة **والنعيمية** ، أتباع نعيم بن اليمان . **واليمانية** ، وهم أتباع محمد بن اليمان . **واليعقوبية** ، وهم أتباع يعقوب بن علي الكوفي .

ومن فرق الشيعة الإمامية

الإمامية : قالوا : بالنص الصريح على إمامة علي في مواضع ، وبالإشارة إليه بعينه في مواضع أخرى ، وقالوا : إن الإمامة ركن الدين ليس في الإسلام شيء أهم منه ، فلا يجوز أن يتركه الرسول ﷺ ، لاختيار الأمة ،بل يجب أن يعين له شخصاً ، وقد عين له علي بن أبي طالب بالنص عليه ، والإشارة إليه . وقالوا : بتكفير بعض الصحابة ،واتفقوا على إمامة الحسين ، فعلي زين العابدين، فمحمد الباقر ، ثم افترقوا بعد ذلك فرقاً كثيرة في الوقوف بالإمامة عند الباقر ، وسوقها إلى ابنه جعفر ، ثم فيمن كان إماماً من أولاد جعفر الستة : محمد ، وإسحاق ، وعبد الله ، وإسماعيل ، وعلي ، **وإليك بعضها** :

* **الباقرية** : هم أصحاب أبي جعفر محمد الباقر ، وهم يثبتون إمامته بالنص من أبيه زين العابدين عليه ،ويزعمون أنه لم يمت ،وإنه المهدي المنتظر .

* **الجعفرية أو الناوسية** : نسبة إلي رجل يُقال له : ناوس أو عجلان بن ناوس من أهل البصرة ، أو قرية تسمى ناوسا ، ومن مذهبهم سوق الإمامة إلى جعفر الصادق بنص أبيه الباقر عليه ،ويزعمون أنه لم يمت ، وإنه المهدي المنتظر .

* **الشمطية** : هم أصحاب يحيى بن أبي شميط . يقول بموت جعفر الصادق ، ونصه على إمامة ابنه محمد ، وإنه المهدي المنتظر .

* **الأفطحية أو العامرية** : ينسبون إلى رجل يقال له : عمار ، كان يقول بموت جعفر الصادق ، ونص عل إمامة ابنه عبد الله الأفطح .

* **الموسوية** : يسنبون إلى موسى الكاظم . قالوا : إن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم بنصه عليه ، ثم إن هارون الرشيد حمل موسى إلى بغداد ، وحبسه لإظهاره الإمامة . ويقال : إنه دس له سماً فمات . ودفن ببغداد . ثم من قال بموته سموا : **بالقطعية** . ومن قال : لا ندري أمات أم

لا؟! سموا : **بالممطورة** . لقول علي بن إسماعيل فيهم ، ما أنتم إلا كلاب ممطورة، ومن قال بغيبته ، ولم يسق الإمامة فيمن بعده سموا : **بالوقفية** .

* **الإثنا عشرية** : فرقة من الموسوية ، قالت : بموت موسىٰ ، وسموا القطعية، كما تقدم ، وهؤلاء ساقوا الإمامة في أولاد موسىٰ بنص كل منهم علىٰ من بعده، فزعموا أن الإمام بعد موسىٰ : علي الرضا ، ثم محمد التقي ، ثم علي بن محمد، ثم الحسن العسكري ، ثم ابنه القائم المنتظر الذي اختفىٰ في سرداب في سُرَّ مَنْ رَأَىٰ وهو الإمام الثاني عشر .

* **الإسماعيلية الواقفية** : قالوا : بموت جعفر الصادق ، ونص علىٰ إمامة ابنه إسماعيل ، ثم انتقلت منه إلىٰ ابنه محمد بن إسماعيل لموت إسماعيل في حياة جعفر ، وقالوا : بغيبة محمد ورجعته .

* **الاسماعيلية الباطنية** : فرقة من الاسماعيلية ساقت الإمامة بعد محمد بن إسماعيل بن جعفر في أئمة مستورين ، ثم ظاهرين ،وهم الباطنية ، وهي الفرقة المشهورة في الفرق بهذا الاسم . ومن مقالتهم أن الأرض لا تخلو من إمام حي، إما ظاهر مكشوف ، وإما باطن مستور . وأن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ! ومن مات وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية ! وسموا باطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، ولهم ألقاب أخرىٰ ، منها أنهم يسمون بالعراق ـ أيضاً ـ القرامطة أو المرذكية . وبخراسان : التعليمية والملاحدة . وهم يسمون أنفسهم : **الإسماعيلية** لامتيازهم عن الموسوية الإثنا عشرية بالقول بإمامة إسماعيل بن جعفر دون أخيه موسىٰ الكاظم .

ومن مقالتهم ـ أيضاً ـ أنهم لا يقولون بإثبات الصفات لله ، ولا نفيها ، فراراً من التشبه بالموجودات والمعدومات ، ولهم سوىٰ ذلك كثير من الشناعات الكفرية .

ومن فرق الشيعة الكيسانية

الكيسانية : هم أصحاب كيسان مولى علي بن أبي طالب . ويقال : إنه تتلمذ على محمد بن الحنفية . وقد زعم أتباعه أنه جمع العلوم كلها ، وجمع أسرار علوم علي وابنه محمد ، ويجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل ، ومن أجل ذلك ضل منهم كثير ، وجاءوا بالكفر : كإنكار أركان الإسلام والشك في البعث، والقول بالتناسخ ،والحلول والرجعة بعد الموت . ومن فرق الكيسانية :

* **المختارية** : وهم أصحاب المختار بن أبي عبيد الثقفي كان خارجياً ، ثم زبيرياً ، ثم شيعياً ، كيسانياً ، ومن مقالته القول : بإمامة محمد بن الحنفية ، بعد علي ، أو بعد الحسن والحسين ، وقد تبين خيبته لمحمد بن الحنفية ، وقيامه بثأر الحسين ، واشتغاله بقتل الظلمة . ومن مذهبه جواز البداء على الله علماً ، وإرادة وأمراً ليبرر رجوعه فيما أبرمه مع دعواه أنه يوحي إليه . ومن المختارية من قال : بأن محمد بن الحنفية لم يزل ، وأنه المهدي ، **ومن هؤلاء كثير عزة ، وإسماعيل بن محمد الحميري** الشاعران ومنهم من قال : بموته ، وانتقال الإمامة إلى غيره .

* **الهاشمية** : قالوا بسوق الإمامية من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد الحنفية ، وأن والده أفضى إليه بالأسرار التي أفضى بها علي إلي ولده محمد بن الحنفية .

* **البيانية** : هم أتباع بيان بن سمعان التميمي النهدي ، قالوا بسوق الإمامة إلى من بني هاشم إلى بيان ، ومن مقالتهم : أن علياً حل فيه جزء من الله واتحد بجسده ، فكان به إلهاً ، وعلم به الغيب ، وانتصر به في الحروب . .إلخ !! ثم آدعى النبوة .

* **الرزامية** : هم أصحاب رزام من غلاة الشيعة ، قالوا : بإمامة علي بن عبدالله بن عباس بعد أبي هاشم بوصية منه ، ثم انتقلت منه إلى ابنه محمد ثم إلى

ابنه إبراهيم بن محمد صاحب أبي مسلم الخراساني حتىٰ انتهت إلىٰ أبي جعفر المنصور ، ومن مذهبهم : إسقاط التكاليف ، والحلول وتناسخ الأرواح .

* **الغلاة** : هم الذين غلوا في أئمتهم حتىٰ ألّهوهم ، ويجمعهم القول بتشبيه الأئمة بالله : كقول النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام ، وغيره ، أو تشبيه الله بالأئمة : كاليهود ، والقول بالبداء ، والرجعة ، والحلول ، وتناسخ الأرواح والإلهية . ومن بحث وأنصف تبين له أن أصول الغلاة دخلت عليهم من تعاليم اليهود والنصارىٰ ، وماني ، ومزدك التي انتشرت في العراق ، ولهم في كل بلد لقب ، فهم يلقبون في أصفهان : بالخرمية ، والكردية . وفي الري : بالمزدكية ، والسنبادية . وفي أذربيجان : بالذقولية . وفي موضع بالمحمرة وفيما وراء النهر : بالمبيضة ومن فرقهم ما يأتي :

* **السبائية** : أتباع عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي ، أظهر الإسلام ، وأثار الفتن الدينية والسياسية ، فوضع قاعدة حلول الله في علي ، ومنه تشعبت فرق الغلاة الذين قالوا : بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي . ومنهم من قال : بحياة علي ، وغيبته ورجعته ، وهو الذي أثار الفتن علىٰ عثمان ، وألبّ عليه فرقاً من الأمة ، وقد نفاه علي إلي ساباط المدائن لما علم فيه من الغلو ، وإحداث الفتن ، ويظهر أن فكرة حياة الإمام ، والغيبية ، والرجعة أنشأها عبد الله بن سبأ حينما يئس الشيعة من إقامة دولة لهم ليصرفهم بها عن البيعة لخليفة موجود إلىٰ إمام مفقود .

* **الكاملية** : أتباع زبي كامل ، ومذهبهم تكفير من لم يبايع علياً والطعن في علي لعدم قتالهم ، والخروج عليهم ، ومع ذلك غلا أبو كامل في علي ورأىٰ أن الإمامة نور ينتقل من شخص لآخر ، ويتفاوت . ففي شخص يقوىٰ حتىٰ يكون نبياً وفي آخر يكون إماماً . وقال كغيره من الغلاة بفكرة الحلول الكلي ، والجزئي ، وتناسخ الأرواح .

* **العليانية** : أتباع العلياء بن ذراع الدوسي الأسدي ، زعم أن علياً أفضل من محمد ! ثم منهم من زعم أن علياً هو الذي سمىٰ محمداً إلهاً ! وبعثه ليدعو إليه ، فدعا إلىٰ نفسه ، وذموه لذلك ! فسموا بالذميمية . ومنهم من ألّه علياً ومحمداً ، أو فضل علياً ! سموا بالعينية . ومنهم من ألههما وقدم محمداً وسموا بالميمية . ومنهم من ألّه أصحاب الكساء : محمداً وعلياً ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً . وقالوا : هم شيء واحد حلّت فيهم الروح بالسوية .

* **المغيرية** : أتباع المغيرة بن سعيد البجلي مولىٰ خالد بن عبد الله القسري ، زعم أن الإمام بعد محمد الباقر هو محمد بن عبد الله بن الحسن الذي خرج في المدينة ، وزعم أنه حي لا يمت ، ثم زعم الإمامة لنفسه ، ثم ادعىٰ النبوة . وفي زعمه أن الله صورة ، وجسم ذو أعضاء علىٰ حروف الهجاء ، وصورته صورة رجل من نور علىٰ رأسه تاج من النور ، وله قلب تنبع منه الحكمة إلىٰ غير ذلك من الشناعات .

* **المنصورية** : أتباع منصور العجلي ، زعم أنه إمام حين تبرأ منه الباقر وطرده ، ثم زعم بعد وفاة الباقر أن روحه انتقلت إليه ، وله كثير من المزاعم . منها أنه عرج به إلي السماء . و منها أن الكسْف الساقط من السماء هو الله أو علي . ومنها أن الرسالة لا تنقطع ، ومنها تسمية الجنة والنار وأنواع التشريع بأسماء رجال لإسقاط التكاليف ، واستحلال الدماء والأموال ، وقد أخذه يوسف بن عمر الثقفي إلىٰ العراق أيام هشام بن عبد الملك ، وصلبه لخبث دعوته وهم صنف من الخزمية .

* **الخطابية** : أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي ، انتسب أبو الخطاب إلىٰ جعفر الصادق أولاً ، فلما تبرأ منه جعفر وطرده ، زعم الإمامة لنفسه ، ومن مزاعمه : أن الأئمة أنبياء ، ثم الهة ! وأن جعفراً إله ظهر في صورة جسم ، أو لبس جسماً فرآه الناس ! ولما وقف عيسىٰ بن موسىٰ صاحب المنصور

على خبث دعوته قتاه بسبخة الكوفة ، وقد افترق أصحاب أبي الخطاب بعده إلى فرق، منها : المعمرية ، أتباع معمر بن خيثم زعموا أن الإمام بعد أبي الخطاب معمر ، وهؤلاء ينكرون فناء الدنيا ، ويرون أن ما يصيب العالم فيها من خير وشر هو الجزاء . ومنها : البزيغية أتباع بزيغ بن موسى ، زعموا أنه الإمام بعد أبي الخطاب ، وهؤلاء ينكرون الموت لمن بلغ من الناس النهاية في الكمال ، ويزعمون أن من مات فارق فقط ورفع ، ويزعمون أن المؤمن يوحي إليه . ومنها العجلية ، زعموا أن الإمام بعد أبي الخطاب عمير أو عمر بن بيان العجلي . ومنها : أتباع مفضل الصيرفي الذي قال بربوبية جعفر دون نبوته ورسالته . وقد تبرأ جعفر الصادق بن محمد الباقر من هؤلاء كلهم ، لإنهم كلهم حيارى ضالون جاهلون بحال الأئمة .

* **الكيالية** : أتباع أحمد بن الكيال ، كان له مزاعم لا أساس لها من العقل ، ولا مستند لها من السمع ، فتبعه من انخدع به ، ادعى أنه إمام ، ثم ادعى أنه القائم وله تأويلات لنصوص الدين . منها حمله الميزان على العالمين ، والصراط على نفسه ، والجنة على الوصول إلى عمله من البصائر ، والنار على الوصول إلى ما يضاده .

* **الهشامية** : أتباع هشام بن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقي ، وكلاهما من أهل التشبيه ، فأما هشام بن الحكم ، فقال فيما نقل عنه : إن الله ـ تعالى ـ جسم ذو أبعاض له قدر من الأقدار ، وكان لا يشبه شيئاً من المخلوقات . ولا يشبهه شيء منها . ونقل عنه أن قال : إنه شبر بشبر نفسه ، إلى آخر شناعاته . وغلا في عليّ حتى جعله إلهاً واجب الطاعة . وإما هشام الجواليقي ، فقال : إن الله ـ تعالى ـ على صورة إنسان أعلاه مجوف ، وأسفله مصمت ، إلى آخر شناعاته ، وأجاز المعصية على الأنبياء دون الأئمة لعصمتهم .

* **النعمانية** : هم أتباع محمد بن علي بن النعمان أبي جعفر الأحول الملقب

بشيطان الطاق ، ومذهبه في حدوث علم الله : كمذهب هشام بن الحكم ، وكذلك مذهبه في ذات الله ، إلا أنه يقول : إنها نور على صورة إنسان .

* **اليونسية** : هم أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي مولى آل يقطين ، وهو من المشبهة ، يزعم أن الملائكة تحمل العرش ، وأن العرش يحمل الله وأن أطيط الملائكة من وطأة عظمة الله على العرش .

* **النصيرية والإسحاقية** : النصيرية أتباع محمد بن نصير النميري ، والإسحاقية ينسبون إلى إسحاق بن الحارث ، وكلاهما من غلاة الشيعة يرون ظهور الروحانية في صور جسمية خيرة أو خبيثة ، ويزعمون أن الله يظهر في صورة إنسان ، وأن جزءاً منه حلّ في علي به يعلم الغيب ، ويفعل مالا طاقة لأحد به من البشر ، إلا أن النصيرية أميل إلى مشاركة علي لله في الألوهية . والإسحاقية أميل إلى مشاركة علي لمحمد في النبوة ، وكلاهما يرى ـ أيضاً ـ إباحة المحارم ، وإسقاط التكاليف .

ومن الرافضة ـ أيضاً ـ جماعة يقولون : بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وأنه لم يزل حياً ، وينتظرون خروجه ، مع أن جيش أبي جعفر المنصور قد قتله بالمدينة ، وأقر بذلك فرقة من أتباع إمامهم محمد .

١٦ـ فتاوى في العقيدة

س١ : سئل الشيخ : بعض الناس ينكرون على من قال : « جل من لا يسهو» فهل هذه العبارة خطأ ؟

فقال الشيخ رحمه الله : « لا ، بل هي عبارة صحيحة فيها إثبات السهو لغير الله وتنزيه الله تعالىٰ عن السهو ، وفيها إشارة إلىٰ أن الإنسان معذور في سهوه سواءٌ كان نبياً أو ولياً أو صالحاً من الصالحين » .

س٢ : سألت الشيخ عن وجه الجمع بين الأحاديث التي فيها تسمية يد الله تعالى الأخرى شمالاً ، وحديث كلتا يدي ربي يمين مباركة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « حديث كلتا يدي ربي يمين من باب التغليب لنفي الضعف عن يده تعالىٰ الأخرىٰ ؛ لأن عادة بني آدم أن تكون يده اليمنىٰ أقوىٰ من يده الشمال والله تعالىٰ منزه عن ذلك وفي مثل هذه الأحاديث التي تحتاج إلىٰ الجمع خاصة في العقائد يرجع إلىٰ كتاب تأويل مختلف الحديث للإمام ابن قتيبة ، وكذلك من الكتب القيِّمة في هذا لموضوع كتاب « مشكلات الحديث » لعبد الله القصيمي ، وكان تأليفه لهذا الكتاب قبل مروقه وتلاعبه بالدين .

س٣ : سألت الشيخ : عن الفرق بين إرادة الله تعالى وأمره ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إرادة الله تعالىٰ قد تكون علىٰ عكس أمره فهو سبحانه أمر أبا جهل بالإيمان مع عدم إرادته كوناً أن يؤمن فيفرق بين أمره تعالىٰ الشرعي وبين إرادته الكونية فإنه سبحانه وتعالىٰ لا يأمر إلا بما يحب وقد يريد كوناً خلافه » .

س٤ : سئل الشيخ : عن بعض عبارات الإمام ابن قدامة في لمعة الاعتقاد التي يفهم منها التفويض ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « مذهب السلف هو التفويض في كيفية الصفات لا

في المعنىٰ ، وقد غلط ابن قدامة في لمعة الاعتقاد ،وقال : بالتفويض ولكن الحنابلة يتعصبون للحنابلة ، ولذلك يتعصب بعض المشايخ في الدفاع عن ابن قدامة، ولكن الصحيح أن ابن قدامة مفوض » .

س٥ : سئل الشيخ : عن تعلق الله تعالى بالمستحيل والواجب ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « قدرة الله تعالىٰ لا تتعلق بالمستحيل ولكن تتعلق بالممكن فقط ، ولا تتعلق بالواجب العقلي ، وتعلق القدرة بالواجب إما بإبقائه وإما بإفنائه ، فإذا تعلقت بإبقائه فلا أثر للقدرة فهو تحصيل حاصل ، وكذلك إبقاء المستحيل عقلاً علىٰ العدم كالشريك للبارئ غير ممكن الوجود ، وإن تعلقت بإفناء الواجب أو إيجاد المستحيل ترتب عليها قلب الحقائق » ؟ .

س٦ : سئل الشيخ : عن تقسيم الأشاعرة لصفات الله تعالى ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : صفات السلب عند الأشاعرة (خمسة) :

١ - القدم .

٢ - البقاء .

٣ - المخالفة للحوادث .

٤ - القيام بالنفس .

٥ - الوحدانية .

صفات المعاني عند الأشاعرة (سبعة) ، وهي :

١ - القدرة .

٢ - الإرادة .

٣ - العلم .

٤ - الحياة .

٥ ـ السمع .

٦ ـ البصر .

٧ ـ الكلام .

الصفات المعنوية وتسمى الصفات الأحوال (سبعة) : كونه قادراً ، كونه مريداً بزيادة كونه على كل واحدة ، والصحيح عند الأشعرية نَفي السبعة المعنوية ويقولون : الحق أن الحال محال .

وزاد الماتريدية صفة من الصفات فصارت ثمانية ، وهي صفة التكوين (راجع آخر الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية) .

وصفة نفسية : هي الوجود (صفة واحدة) .

س٧ سئل الشيخ : عن معنى « حجابه النور » ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « بصر الإنسان لا يقوى على رؤية نور الحجاب الذي يحجب ذات الله تعالى عن الرؤية ، فنور الحجاب لا تدرك كيفيته إلا عند رؤيته تعالى في الآخرة » .

س٨ : سئل الشيخ : عن قدم الله تعالى ورجله هل هما صفتان أو صفة واحدة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « قدم الله تعالى هي رجله ، صفة واحدة وهما روايتان في الحديث .

ومن قال كيف تحيط النار برجله أو قدمه تعالى فنقول : هذا بحث في الكيفية ومذهب السلف تفويض الكيفية ، وعندما يضع الجبار قدمه ينزوي بعض النار عن بعض فإذا تضامت ملأها ما قد ألقى فيها » .

س٩ سئل الشيخ : عن المشيئة هل هي كونية فقط ، أو هي كونية وشرعية كالإرادة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الإرادة بمعنى المحبة شرعية وبمعنى المشيئة كونية ، فالمشيئة هي الإرادة الكونية لا غير فالإرادة أعم من المشيئة » .

س ١٠ : سئل الشيخ : عن صفة المكر والمخادعة والاستهزاء ونحوها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « قوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١]، وقوله : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٢]، وقوله : ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٤]، وقوله : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾[٥] ، وبالفعل أقدم هؤلاء وهؤلاء ثم بعد ذلك صار المسلمون يرون ضعف الكفار كما في آل عمران : ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[٦] هذا تفسير للمكر والمخادعة وتفسير آخر هو انطفاء نورهم على الصراط في سورة الحديد : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٧] أي تركهم وخذلهم لا بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة حاشا لله .

الصفات السابقة يسميها العلماء خبرية ويصح أن تستعمل في تركيب مشابهاً لتركيب القرآن ؛ أي مصاحباً للمكر من المخلوق .

فنقول : الله ماكر بالماكرين ، ومستهزئ بالمستهزئين ، ومخادع من يخادعه ، ولا يصح أن نقول : يا ماكر ـ حاشا لله ـ . والصفات السابقة نوع من الصفات الفعلية إلا نها لابد من اقترانها بالسياق الوارد .

والمكر نوعان حسن وسيء ، والمنسوب لله هو المكر الحسن » .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٤٤ .

(٤) سورة النساء ، الآية : ١٤٢ .

(٥) سورة الأنفال ، الآية : ٤٤ .

(٦) آل عمران ، الآية : ١٣ .

(٧) سورة التوبة ، الآية : ٦٧ .

س١١ : سئل الشيخ : عن صفات الذات وصفات الفعل ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « صفات المعاني داخلة في صفات الذات ولذلك لا تسلط عليها كلمة المشيئة فلا يصح (إذا شاء قَدَر) لأن القدرة صفة ذات ربنا موصوف بها على الدوام . ولكن يصح أن تقول (إذا شاء خلق) لأن الخلق صفة فعل فهو يخلق ما يشاء وقتما شاء كيفما شاء . ولا يصح أن تقول شاء الله أن يكون عالما ، أو قادراً » .

س١٢ : سئل الشيخ : هل الكفار يرون الله في المحشر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « نعم ، الناس كلهم في الموقف يرون الله تعالىٰ ، لكن لا يتنعمون بالرؤية حتىٰ أطيب عباد الله لأنهم يكونون في بلاء وكرب .

أما الرؤية التي فيها نعمة فهي في الجنة والرؤية في المحشر ليست خاصة بالمنافقين بل تعم أنواع الكفار » .

س١٣ : سئل الشيخ : هل اللقاء بمعنى الرؤية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « اللقاء بمعنىٰ الرؤية واستدلال من استدل بقوله : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ [1] علىٰ الرؤية لا يصح ؛ لأنه استدلال بما لا دليل فيه » .

س١٤ : سئل الشيخ : ما أثر الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الأسماء والصفات لها أثر عظيم في حياة الفرد، فمعرفة الفرد أن الله تعالىٰ رحمن يبعث في قلبه الرجاء ، وإذا ذكر القهار يبعث فيه الخوف من الله تعالىٰ ، والقرآن مليء بصفات الله تعالىٰ » .

س١٥ :سئل الشيخ :بعض الناس ينسبون إلى السلف القول بالتفويض . فما ردكم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : التفويض ليس هو اعتقاد السلف ومن نسب إلىٰ السلف التفويض فقد أخطأ ، فالتفويض عند السلف في الكيفية ، الكيف مجهول ، ما هو الاستواء ؟ مجهول ، فالكلام عن كيفية الرؤية خطأ .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٤ .

س١٦ : سئل الشيخ : هل الكفار يرون الله تعالى في المحشر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الكفار يكشف لهم عن الله تعالىٰ وعن ساقه سبحانه وتعالىٰ ، فيرون الله تعالىٰ في الموقف ، لكن لا يتمكنون من السجود له سبحانه وتعالىٰ » .

س ١٧ : سئل الشيخ : ما المقصود بقرب الله تعالى ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « قرب الله تعالىٰ من عباده قرب ذاتي بغير حلول ولا امتزاج ، هكذا قال ابن تيمية وابن القيم ولا أَوْضَحَ من هذا الذي قالاه » .

س١٨ سئل الشيخ : ما معنى قوله ﷺ : « وأنت الباطن » ؟[1] .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تفسير : « **وأنت الباطن فليس دونك شيء** » يعني : بَطَنَ الأمور وعلم حقيقتها فلا يخفىٰ عليه شيء » .

س١٩ : سئل الشيخ : ما معنى : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ؟[2] .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، يفيد قرب العبد من الرب أي العبد في هذه الحالة أقرب منه في حالة الركوع » .

س٢٠ : سئل الشيخ : ما الفرق بين التشبيه والتمثيل والتكييف في صفات الله تعالى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الأحسن لك أن تقرأها في كتاب العقيدة الواسطية وشروحها . كشرح الشيخ ابن عثيمين عليها » .

س٢١ : سئل الشيخ : هل يجوز وصف الله تعالى بأنه في جهة أو له حدٌّ ؟

فقال الشيخ رحمه الله ـ :« وصف الله تعالىٰ بالجسم ، والحَيِّز ، والجهة ، والحد ألفاظ مجملة إذا أراد بها معنىً صحيحاً قررناها وقلنا التعبير خطأ ، وإذا ذكر معنىً فاسد أنكرنا عليه وقد ذكرته في شرح التدمرية » .

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) وأبو داود (٥٠٥١) وأحمد (٢/ ٣٨١) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) . والنسائي (٢/ ٢٢٦) .

س٢٢ : سئل الشيخ : ما هي قبلة الدعاء ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « السماء هي قبلة الدعاء ، ورفع اليد إلىٰ السماء من أدلة أهل السنة علىٰ علو الله تعالىٰ ، حتىٰ البهائم إذا أصيبت ترفع رأسها إلىٰ السماء ، والكعبة قبلة الدعاء أيضاً كما أنها قبلة الصلاة » .

س٢٣ : سئل الشيخ : ما الدليل على إثبات العينين لله تعالى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « صفة العينين ثابتة لله تعالىٰ كما يليق بكماله ، ولا يوجد واحد من الأولين من الصحابة نفىٰ عن الله تعالىٰ صفة العينين ، ويدل علىٰ إثباتها حديث الدجال ، فقال ﷺ : « **إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور** »[1] . وهذا منطوق صريح وليس مفهوماً » .

س٢٤ : سئل الشيخ : هل صفات الفعل تقوم بذات الله سبحانه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « صفات الخالق تقوم بذاته كما يليق به وصفات المخلوق تقوم بذاته كما يليق به وبفقره ، والصفات الحادثة التي تجدد من آن لآخر كالرزق ، والإحياء والأمانة تقوم بذات الله لكن المخلوقات الحادثة أنا وأنت وبقية الأعيان لا تقوم بذات الله تعالىٰ ـ حاشا لله ـ .

وهذا المذهب ليس مذهب شيخ الإسلام وحده بل هو مذهب جماعات من الأولين قبل أن يخلق شيخ الإسلام وأبوه وجده » .

س٢٥ : سئل الشيخ : عن حديث : « خلق الله آدم على صورته » ؟[2] .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « أي علىٰ صورة الرحمن كما ثبت في الرواية الأخرىٰ خلافاً للألباني ولنسيب الرفاعي والصورة ثابتة لله تعالىٰ في الصحيحين أنه تعالىٰ يأتي علىٰ صورته وعلىٰ غير صورته » .

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٤٨) ، ومسلم (٢٢٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

س ٢٦ : سئل الشيخ : ما الفرق بين الأزلي والقديم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الأزلي : الذي لا أول له ، أما القديم : فقد تكون صفة مدح ، وقد تكون صفة ذم ، وفي القرآن الكريم : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (١) . والقديم : ليس من صفات الله ، بل هو من صفات سلطانه ؛ لأن سلطانه يتجدد وهو قديم » .

س ٢٧ : سئل الشيخ : هل المَنّان من أسماء الله تعالى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « قال عند من يجوِّز اشتقاق الأسماء لله من صفاته هو اسم لله ، وعند من لا يجوِّز الاشتقاق لا يجوز تسمية الله تعالىٰ به ، ولكن هو صفة لأنه ليست كل صفات الله أسماء له » .

س ٢٨ : سئل الشيخ : ما علاقة الأسماء بالصفات ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كل أسماء الله تعالىٰ عدا لفظ الجلالة تتضمن وصف الله تعالىٰ بما تضمنته الأسماء من الصفات ، فكل أسماء الله تعالىٰ صفات له ولا ينعكس فمن أسماء الله ما هو مشتق علىٰ وزن اسم الفاعل ، وهو يتضمن ذاتاً وصفة قامت بالذات » .

س ٢٩ : سئل الشيخ : هل لفظ الجلالة جامد أم مشتق من الإلهه أو الوله ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « جامد لأنه لو كان مشتقاً من الإلهه لكان بمعنىٰ الإله يطلق علىٰ الآلهة الباطلة ، لكن لفظ الجلالة (الله) علم علىٰ ذاته سبحانه لا يشاركه فيه غيره » .

س٣٠ : سئل الشيخ : عن معنى دلالة أسماء الله تعالى على معناها مطابقة وتضمناً والتزاماً؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « دلالة اللفظ علىٰ معناه مطابقة كدلالة السفينة

---

(١) سورة يس ، الآية : ٣٩ .

علىٰ الخشب والمسامير ودلالة اللفظ علىٰ بعض معناه تضمناً كدلالة السفينة علىٰ الخشب فقط ،ودلالة اللفظ علىٰ معنىٰ خارج لكنه لازمٌ دلالة التزام كدلالة السفينة علىٰ الحمولة أو السير فوق الماء ، ويرجع في هذا إلىٰ أنواع الدلالات في كتب المنطلق وإلىٰ متن السُلَّم ،وإلىٰ كتب الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ » .

س٣١ : سئل الشيخ : عن قيام صفات الله تعالى بذاته ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « صفات الله تعالىٰ قائمة بالذات ملازمة لها ، وليست هناك ذات مجردة عن الصفات ،والمعتزلة هم الذين يقولون الذات قائمة مجردة عن الصفات ، فصفات الله تعالىٰ ليست هي الذات ، وليست هي غير الذات » .

س٣٢ : سئل الشيخ ما معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ؟(١) .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « أول الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ ،وآخرها ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ووسطها النجوىٰ ، أي هو أعلم بها وهذا كله يبين أن المراد معية العلم والإحاطة » .

س ٣٣ : سئل الشيخ : ما الفرق بين العبارة والحكاية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « عندي أن العبارة ،والحكاية شيء واحد ، ومن أراد التفرقة بينهما فعليه أن يظهر الفرق ،وقد أخطأ الأشعري وابن كُلاَّب في قولهما أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله النفسي القديم » .

س ٣٤ سئل الشيخ : رجل يقول : إن كلام الله تعالى يُسمع يوم القيامة من كل جهة؟

فقال الشيخ رحمه الله ـ : « هذا خوض في الكيفية ،و نحن نؤمن بصفات الله ونفوض كيفيتها إليه » .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ٧ .

س٣٥ : سئل الشيخ : ما أرجح الأقوال في مسألة نزول الرب سبحانه وتعالى هل يخلو منه العرش أو لا يخلو أو نتوقف ؟

وهل الراجح هو ما اختاره شيخ الإسلام أنه سبحانه ينزل ولا يخلو منه العرش ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الصحيح أن نتوقف فنؤمن أنه على عرشه ، ونؤمن أنه ينزل ، ولا نقول يخلو أو لا يخلو ؛ لأنه خوض في الكيفية » .

س٣٦ : سئل الشيخ : عن توضيح قول شارح الطحاوية ما ملخصه أن العلم الإلهي يصح فيه قياس الأولى سواء أكان تمثيلياً أو شمولياً ، ولا يصح فيه قياس المساوي أو الأدنى سواءً كان تمثيلاً أو شمولاً ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « القياس التمثيلي هو القياس الفقهي المعروف والقياس الشمولي هو : القياس المنطقي ، والقياس أحد الأبواب الكبرى في علم المنطق ، ويحتاج إلى عام كامل ليشرح بالتفصيل ، ولكن خلاصة الكلام في القياس الشمولي أنه يتركب من مقدمتين صغرى ، وكبرى وله ثلاثة حدود :

١ ـ مبتدأ الصغرى .

٢ ـ وخبر الكبرى .

٣ ـ والحد الأوسط هو خبر الصغرى وهو أيضاً مبتدأ الكبرى .

٤ ـ والمبتدأ يسمى موضوعاً والخبر يسمى محمولاً مثل يوضح ذلك :

(الإنسان حادث)

(وكل حادث لا بد له من مُحْدِث)

لفظ (الإنسان)

الحد الأول / مبتدأ الصغرى / موضوع

ولفظ (كل حادث)

الحد الأوسط / مبتدأ الكبرىٰ / موضوع

ولاحظ أن موضوع الكبرىٰ عام ليدخل فيه موضوع الصغرىٰ .

ففي القياس الشمولي لابد أن تدخل المقدمة الصغرىٰ في المقدمة الكبرىٰ .

فلذلك سمي شمولياً لأن الكبرىٰ تشمل الصغرىٰ » .

س٣٧ : سئل الشيخ : هل يجوز الإخبار عن الله تعالى بأنه (واجب الوجود) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « ذكرت في مذكرة لي مقدمة في الصفات طبعها زهير الشاويش لكلية اللغة العربية بعنوان « مذكرة التوحيد » فيها الكلام عن الحكم العادي ، والحكم العقلي ،و الحكم الفقهي ، وتكلمت فيها عن تقسيم الحكم العقلي إلىٰ مستحيل ،وجائز ، وواجب » .

فالمستحيل هو ما لا يتصور وجوده ويصح الإخبار عن الله تعالىٰ بأنه واجب الوجود ،وهذا من باب الإخبار لا من باب الصفة .

س ٣٨ : سئل الشيخ : عن وسائل الشرك هل تعتبر شركاً أصغر أم تعتبر محرمة فقط ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كل وسيلة تؤدي إلىٰ الشرك فهي من الشرك الأصغر بالإضافة إلىٰ تحريمها ، فمن ذلك عبادة الله تعالىٰ عند قبر الرجل الصالح إذا كان معتقداً أن هذا المكان فيه بركة تؤثر في قبول الدعاء والعبادة ، فهذا شرك أصغر ، وكذلك التوسل البدعي يعتبر من الشرك الأصغر » .

س٣٩ : سئل الشيخ : هل يُثاب المرء على ترك الحرام ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الثواب يحتاج إلىٰ شيئين هما : الإخلاص (النية)، وموافقة العمل لمطلوب الشرع ﴿ **أحسن عملا** ﴾ أخلصه وأصوبه ، النية وإصابة الحق ولو باجتهاد ، والمباح لا أجر في فعله ، ولا إثم في تركه ولكن بالنية يثاب أو يأثم والترك في الأصل سلب لا يحتاج إلىٰ نية ،ولكن إذا نوىٰ به كف النفس عن الحرام فهو فعل يثاب عليه » .

س٤٠ : سئل الشيخ : ما الفرق بين اليقين والصدق والإخلاص ، وبين القبول والإنقياد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « اليقين الطمأنينة ـ القبول قبول الله للعبادة وقبول العبد الدين وهو الانقياد وكلاهما شرط » .

س٤١ : سئل الشيخ : هل لفظة (لعَمْري) ،(لعَمْرك) من باب القسم ؟ وإذا كان كذلك: فهل هو قسم ممنوع أم مباح ؟ وما معنى : « أفلح وأبيه إن صدق » ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كانوا في الجاهلية يحلفون بآبائهم ثم نسخ ، وقوله : (لعَمْري) قسم لغوي يقصد به التوكيد وهو مباح ، لأن القسم الشرعي يكون بالواو ،والتاء ، والباء ، ولا يدخل فيه القسم باللام » .

س٤٢ : سئل الشيخ : كفر الجهل والتكذيب هل هما قسمان أم قسم ؟ وهل هو خاص باليهود والنصارى ، أم يدخل فيه من كان مسلمًا ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هو نوع واحد إذا كان التكذيب عن جهل فيُعرَّفُ بالدين ، فإذا استمر على التكذيب بعد العلم كان كافراً » .

س٤٣ : سئل الشيخ :ما الفرق بين توحيد المراد (الإخلاص) وتوحيد الإرادة (الصدق) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « المراد اسم مفعول ، والإرادة مصدر ،و المراد هو الله ، وعليه أن يريد الله وحده ،وإذا أراد الله ببعض إرادته نقص في صدقه » .

س٤٤ : سئل الشيخ : عن التوسل البدعي هل هو شرك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هو وسيلة إلى الشرك ومن قال إنه شرك فهو مخطئ ، وهذه المسألة عقائدية وليست من مسائل الفروع الفقهية » .

التوسل المشروع والتوسل الممنوع

س٤٥ : سئل الشيخ : ما حكم لو قلت في دعائي « الهي أسألك بأعز من ناجاك وأفضل من دعاك أن تمطر على قلوبنا من سحائب عطفك ، وشآبيب رضوانك . فهل هذا الدعاء جائز ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الحمد لله وبعد ، فإن هذا الذي ذكر في هذا الدعاء «إلهي أسألك بأعز من ناجاك . . » الخ لا يجوز بل هو مكروه لأنه توسل إلىٰ الله بالمخلوقين وهذا غير مشروع ، ولو كان المتوسل به إلىٰ الله هو رسول الله ﷺ . والنبي ﷺ له منزلته عند الله ولا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان به وحبه ﷺ . ومع ذلك فليس من المشروع أن تتوسل إلىٰ الله بذاته ولا بذات غيره من المخلوقين. ومع مكانة الرسول ﷺ فإننا إذا أردنا التوسل إلىٰ الله به فإننا نتوسل إلىٰ الله بالإيمان به واتباعه لأن هذا من أعظم القربات والأعمال الصالحة ، بل هذا ـ يعني الإيمان برسول الله ﷺ واتباعه ـ أفضل الأعمال إطلاقاً . فإذا أراد الإنسان أن يتوسل إلىٰ الله بالرسول فليقل مثلا في دعائه « اللهم بإيماني بك واتباعي لرسولك ولشريعتك وبما جاءنا به رسولك إفعل لي كذا وكذا » .

« إيماني بك وبرسولك » هذا هو التوسل المشروع وهو التوسل إلىٰ الله بالعمل الصالح وهو الذي ذكره الله تعالىٰ في كتابه فقال سبحانه وتعالىٰ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

فهذا التفكر في خلق السموات والأرض عبادة ، وكذلك تأمل اختلاف الليل والنها ر ،ما فيها من الظلمة والنور ، والطول والقصر هذا أيضاً عبادة،

---

(١) سورة آل عمران (١٩٠ـ١٩١) .

وكذلك تدبر السنن الكونية التي بثها الله عز وجل في خلقه عبادة ، فبعد قيام هؤلاء العباد بهذا التفكر وهذا التدبر واعترافهم أن الله ما خلق هذا كله باطلا بل خلقه بالحق وللحكم الكثيرة التي يعلمها ، بعد هذا التدبر وهذا التفكر وهذا الاعتراف ، سألوا الله عز وجل أن يقيهم عذاب النار ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ الفاء في (فقنا) تدل على ترتيب الدعاء ودوام ذكره على كل حال وتنزيه الله أن يخلق خلقا باطلا هذا نوع من التوسل بالعمل الصالح وهو مشروع .

ومن هذا التوسل يضاً ما ذكره الله سبحانه بعد ذلك في نفس سياق هذه الآيات السابقة في قول أولى الألباب ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** ﴾ (١) .

وهذا المنادي للإيمان هو الرسول ﷺ وكل من بلغ عن الرسول ﷺ فلما سمع هؤلاء المؤمنون منادي الإيمان يدعو الناس هلموا إلى ربكم هلموا إلى توحيد الله ونبذ الشرك هلموا إلى طاعة الله وترك عصيانه ومخالفته ، لما سمعوا منادي الله أن اعبدوا الله فعبدوه ونبذوا كل الشركاء والأنداد . فكان بعد هذا العمل الصالح طلب وتوسل من هؤلاء المؤمنين وهو ﴿ **فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ (٢) توسلوا إلى الله بإيمانهم واتباعهم الرسول فدعوا ربهم بعدة دعوات : مغفرة الذنوب ، تكفير السيئات وطلبوا من الله أن يختم لهم بالخاتمة الحسنى وأن يجعل مثواهم مع الأبرار . وسألوا الله عز وجل ألا يخزيهم وألا يفضحهم بين خلقه يوم القيامة وسألوا الله أن ينجز لهم ما وعدهم على الإيمان على ألسنة رسله من النصر والتأييد في الدنيا وحسن العاقبة والمثوى في الآخرة فعقب الله عز وجل على هذا التوسل بالأعمال الصالحة بقوله ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ**

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٤ .

عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . . ﴾ (١) .

ومن التوسل بالأعمال الصالحة مارواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ : « **انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق (٢) قبلهما أهلا ولا مالا ،فنأي بي في طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا، فشرب غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك إبتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج . قال النبي ﷺ : وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى ألمت بها سنة من السنين فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولاتفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ ، وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . قال النبي ﷺ : وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أد إليّ أجري ، فقلت له : كل ماترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق فهو لك . فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي . فقلت إني لا أستهزئ بك ، فأخذه كله ، فاستاقه ولم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك إبتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون** » (٣) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٥ .

(٢) الغبوق هو شرب اللبن في العشي .

(٣) رواه البخاري رقم (٢٢٧٢) . ومسلم (٢٧٤٣) .

فهؤلاء الثلاثة لما وقعوا في الشدة والكرب بسبب انسداد الغار عليهم بفعل الصخرة التي سقطت من أعلىٰ الجبل ، توسل كل منهم بعمل من الأعمال الصالحة التي توفر فيها الإخلاص لله تعالىٰ ، فالأول توسل ببره والديه غاية البر . والثاني توسل بعفته عن الزنا وتركه المال الذي أعطاه لابنة عمه . والثالث توسل إلىٰ الله تعالىٰ بأدائه الحقوق للعباد ومنهم هذا الأجير الذي أخذ المال كله وطابت نفس المتوسل بذلك . ولما كان هذا التوسل مشروعاً وجائزاً كان له هذا الأثر الطيب في أن الله عز وجل أزاح الصخرة عن باب الغار وتمكنوا من السير والإنطلاق إلىٰ وجهتهم التي أرادوا . هذا هو النوع الأول من التوسل المشروع وهو التوسل إلىٰ الله ودعائه بالعمل الصالح الذي يعمله العبد تقربا إلىٰ الله .

وأما النوع الثاني من التوسل فهو التوسل إلىٰ الله بأسمائه وصفاته وذلك كأن تسأل الله عز وجل وتدعوه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا فتقول مثلا اللهم إني أسألك بأنك أنت لا إله إلا أنت الرحيم اللطيف افعل كذا وكذا لي .

أو تقول مثلا اللهم إني اسألك بأنك الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا إفعل لي كذا وكذا . وكقول المسلم في دعاء الاستخارة اللهم إني أستخيرك بعلمك وقدرتك فإنك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علىٰ كل شيء قدير ، إن كان كذا خيرا لي في عاجل أمري وآجله فيسره لي وإن كان كذا شراً في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه . . . الحديث .

وقول النبي ﷺ في الحديث الآخر : « **اللهم بعلمك الغيب ،وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ،وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي** . . » الحديث عن عمار بن ياسر .

والنوع الثالث من التوسل المشروع هو التوسل إلىٰ الله بدعاء العبد الصالح

الحي لك . وذلك أن تقصد رجلاً من الصالحين المتبعين للشرع الموحدين المتبعين للسنة وتظن فيه الإخلاص لله سبحانه وتعالىٰ وتطلب منه أن يدعو الله لك بحاجتك التي تريد ، كأن يدعو الله أن يشفيك أو يشفىٰ ابنك أو مريضك أو يدعو الله أن ينيلك كذا وكذا من المآرب والأهداف . هذا والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد » .

س ٤٦ : سئل الشيخ : ما حكم التبرك بآثار الصالحين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « التبرك بآثار الصالحين لا بشرع في الإسلام إلا بالنبي ﷺ وبآثاره لعدم ثبوت الدليل علىٰ جوازه بغيره ﷺ » .

س ٤٧ : سئل الشيخ: عن رجل دفن في مسجد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجب إخراج المدفون من المسجد ما دام دفن بعد بناء المسجد ولو كان عظاماً » .

س ٤٨ : سئل الشيخ : ما هي زيارة القبور السنية ، وما هي الزيارة البدعية والشركية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « زيارة القبور قسمان : **القسم الأول** وهو الأصل ، وهو سنة وقربة يؤجر الإنسان علىٰ فعلها وهي ما كانت الزيارة للعبرة والعظة وتذكر الدار الآخرة ، فإن الإنسان إذا زار القبور فإنه يذكر هؤلاء الأموات وهم أباؤه وأجداده فيتذكر أن هذه الحياة الدنيا فانية وزائلة ، وأنه لابد من الموت وأنه ميت ومقبور مثلهم وإذا كان كذلك فإنه يتيقن أنه مسؤل في قبره وأن الإقامة في القبر إما أنها حياة عذاب وجحيم إذا كان عاصياً مفرطاً في جنب الله ، أو حياة إكرام وتنعيم إذا كان من الموحدين المطيعين لله ، ثم إن الحياة والإقامة في القبر ليست دائمة ولا نهائية ، ولكن بعدها البعث والنشور والقيام لله رب العالمين . هذه المعاني كلها فيها العظة والعبرة للزائر ، وهذه المعاني كذلك تذكر الزائر

بالآخرة والحساب كما قال النبي ﷺ : « **زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة** » (١) .

وفي هذه الزيارة السنية المشروعة فائدة آخرىٰ غير العبرة والعظة وتذكر الآخرة ، ذلك إذا كان الميت المقبور المزور من المسلمين فإنه يستحب للزائر أن يدعو له بالمغفرة والرحمة وأن يوسع الله عليه أو عليهم قبورهم لأن النبي ﷺ كان إذا زار القبور دعا لأهل القبور (٢) .

النوع الثاني : الزيارة البدعية وهذه الزيارة قد تكون بدعيه فقط ، وقد تكون بدعية وشركية علىٰ حسب ما يقع من الزائر من نية وأعمال . فإذا ذهب المسلم إلىٰ قبر من القبور بنية التبرك بهذا القبر لكونه قبر أحد الصالحين ، أو لدعاء صاحب القبر والإستغاثة به أو لطلب قضاء الحاجات وتفريج الكربات ونحو ذلك ، فهذه زيارة شركية ، ومن جنسها ما قد يقع من الزائر من الطواف حول القبر أو التمسح به . فهذا كله شرك ، ولا نقول لفاعله مشرك وهذا ما تقول العلماء هذا شرك النوع وليس شرك العين . يعني أن هذا الفعل فعل شرك وفاعله ليس مشرك لأن فاعله قد يكون معذوراً بأي نوع من أنواع الأعذار كالجهل أو متأول أو مخدوع بفتوىٰ بعض الناس ممن ينتسبون إلىٰ العلم والفتوىٰ الذين يعتقدون بعض العقائد الباطلة ، أو من أصحاب الطرق الصوفية ، المقصود أن مثل هذا معذور ويجب له النصح والبيان والتلطف معه فلا نغلظ عليه بادئ الأمر حتىٰ لا نضع في قلبه حواجز تمنعه من الأخذ بالصواب والنصيحة المقدمة له .

ويجب أن نفرق بين أمرين **الأول** : أن المقبور الميت الذي يزار وتفعل عنده البدع أو الشركيات قد يكون هذا المقبور من الصالحين المتقين وهو غير مسؤول عما يقع عند قبره من المخالفات التي تسخط الله .

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه الترمذي (١٠٥٤) من حديث بريدة رضي الله عنه .

(٢) أما دعاؤه لأهل القبور فثابت في أكثر من حديث منها ما رواه مسلم في الصحيح (٩٧٤ ، ٩٧٥) .

والأمر الثاني : أن صلاح هذا الميت المقبور ليس مبرراً أن نصرف إليه العبودية التي هي حق رب العالمين على عباده كالدعاء ، والاستغاثة ، والتوكل ، والتعلق، والخوف ، والذل المصاحب للحب ، فهذه وغيرها من حقوق الله سبحانه وتعالى .

س ٤٩ : سئل الشيخ : عن حديث الرجل الضرير الذي رد الله بصره بعد أن جاء إلى النبي ﷺ فأمره أن يقول : « اللهم شفعه فيّ وشفعني فيه » [١] ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « اقرأ الحديث : **اللهم شفعه فيّ** » فلم يقل بشفاعة رسولك، بل توجه إلى الله تعالى والرسول ﷺ حيٌّ ، ووصى الرجل أن يساعده على نفسه (نفس الرجل) مثلما تطلب من أي حي أن يدعو لك » .

س ٥٠ : سئل الشيخ : ما حكم التحاكم إلى المحاكم التي تحكم بالقوانين الوضعية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ :« بقدر الإمكان لا يتحاكم إليها ، أما إذا كان لايمكن أن يستخلص حقه إلا عن طريقها فلاحرج عليه » .

س ٥١ : سئل الشيخ : ما الفرق بين الفسق الأكبر ،الكفر الأكبر ؟

وما الفرق بين الفسق الأصغر ، والكفر الأصغر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الفسق الأكبر هو الكفر الأكبر ، والفسق الأصغر هو الكفر الأصغر » .

س ٥٢ : سئل الشيخ : ما حكم تعليق تميمة من القرآن على الجدار أو في السيارة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز ؛ لأن تعليق آية الكرسي أو غيرها من القرآن على الجدار أو في السيارة امتهان لها » .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨) ، والترمذي (٣٥٩٥) ، وابن ماجه (١٣٨٥)، والحاكم (١/ ٣١٣)، وقال الترمذي : (حسن غريب) ، وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٧٩) .

س ٥٣ : سئل الشيخ : ما حكم العزائم بالقرآن ، وهي آيات بالزيت أو الزعفران في طبق وخلط المكتوب بالماء وشربه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز كتابة القرآن بهذا وشرب المكتوب » .

س ٥٤ : سئل الشيخ : ما حكم القراءة على ماء أو طعام وشربه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجوز القراءة على أي شيء طاهر حسب رغبته ، يقرأ القرآن على المريض أو على الماء والطعام » .

س ٥٥ : سئل الشيخ : عن رأيه في شيخ الإسلام إسماعيل الهروي ودفاع الإمام ابن القيم عنه في مدارج السالكين ؟ وعن رأيه في تقسيم الهروي التوحيد إلى ثلاثة أقسام توحيد العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : «أما إسماعيل الهروي في ذاته فأمره إلى الله تعالى ، وهو أعلم به . وأما دفاع ابن القيم : فإن الإمام ابن القيم قد ردَّ عليه في عدد من المواضع ، واقرأ تعليقات الشيخ حامد الفقي على الكتاب ، مع العلم بأن أصحاب المطبعة قد طلبوا من الشيخ حامد ألا يعلق على الكتاب . وقد تسبب هذا في منع الشيخ حامد من الإسهاب في الرد .

وأما تقسم الهروي التوحيد إلى ثلاثة أقسام ، فهو تقسيم باطل فهو يجعل الأنبياء عليهم السلام من العامة ، ويجعل ابن عربي وأمثاله من خاصة الخاصة » .

س ٥٦ : سئل الشيخ : هل يمكن ظهور الملك بصورته لغير الرسل ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لم يثبت . ومن ادَّعى ذلك فعليه الإثبات ، نعم قد ثبت في الأحاديث أن الملك أتى لثلاثة : أقرع ، وأعمى ، وأبرص [١] وأن الله أرسل ملكا على جانب الطريق الذي ذهب ليزور أخاً له في الله [٢] وغير ذلك من

(١) حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه (٣٤٦٤ ، ٦٦٥٣) .

(٢) حديث صحيح رواه (٢٥٦٧) . وأحمد (٢/ ٢٩٢ ، ٤٠٨) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

الأحاديث ، لكن ليس في شيء منها أن الملك كان على صورته الأصلية بل في كل منها ما يفهم منه أنه كان على صورة رجل . لأن في هذه الأحاديث لم يعرف أنهم ملائكة إلا باخبارهم عن نفسهم أنهم ملائكة .

س ٥٧ : سئل الشيخ : عن نبوة الخضر ولقمان وذي القرنين ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « الخضر نبيٌ بنص القرآن ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ (١) .

وقال ابن عاشر :

لقمانُ اسكندرُ ليسا أنبيا   في أرجح الأقوال لكن أوليا

س ٥٨ : سئل الشيخ عن صحف إبراهيم وموسى : هل هما شيء واحد ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « هما مختلفان فيهما شرائع إبراهيم ، وشرائع موسى عليهما السلام ، وصحف موسى جزء من أجزاء التوارة والألواح » .

س ٥٩ : سئل الشيخ : هل التوراة والإنجيل كلام الله .

فقال الشيخ - رحمه الله - : « نعم التوراة والإنجيل اللذان أنزلهما الله هما كلام الله بدليل قوله تعالى : ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ** ﴾ (٢) .

س ٦٠ : سئل الشيخ ما معنى حديث احتجاج آدم وموسى (٣) ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « معناه : رفع اللوم عن العصاة إذا تابوا وهذا ما ذكره ابن قتيبة وابن تيمية - رحمهما الله - » .

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٨٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٥٧ .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦١٤) . ومسلم (٢٦٥٢) . وأحمد (٢/ ٣١٤) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

س ٦١ : سئل الشيخ : ذكر شارح الطحاوية أن الله تعالى لو أراد كوناً إيمان جميع الناس لكان في ذلك مفسدة فما هذه المفسدة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « المفسدة العظمىٰ التي كانت ستحدث لو أراد الله إيمان جميع الناس هي انتفاء الابتلاء ، وانتفاء الفائدة من التكاليف الشرعية ، ولما شرع الله تعالىٰ شرعاً ولما أرسل رسلاً ؛ لأنه لا حاجة إذن إلىٰ إرسال الرسل ، وينتفي تقسيم الناس إلىٰ أهل جنة ونار » .

س ٦٢ : سئل الشيخ : عن معنى قوله ﷺ : « السعيد من سعد في بطن أمه » .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « معناه من كتبه الملك الذي يرسل بأمر الله لكتابة أربع كلمات بعد تمام الشهر الرابع للحمل في رحم أمه بعد استكمال الأطوار الثلاثة ، نطفة ثم علقة ثم مضغة فمن كتبه الملك سعيداً يومئذ فهو السعيد » .

س ٦٣ : سئل الشيخ : عن مذهب المعتزلة في الإيجاب على الله تعالى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كل ممكن لا يجب عليه تعالىٰ بل إن شاء فعله وإن شاء تركه هذا عند الأشاعرة » .

أما المعتزلة : فيوجبون عليه تعالىٰ فعل (الأصلح) إذا كان الصلاح شيئين ويوجبون عليه تعالىٰ فعل (الصلاح) إذا كان شيئاً واحداً .

س ٦٤ : سئل الشيخ : عن معنى الكسب ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الكسب عند الأشعري مقارنة القدرة للمقدور وعند الماتريدي : هو العزم المصمم الذي يقع منه الفعل » .

س ٦٥ : سئل الشيخ : عن مشيئة الرب ومشيئة العبد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لله سبحانه وتعالىٰ مشيئة ، وللعبد مشيئة ، ومشيئة العبد متوقفة علىٰ مشيئة الله . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ﴾(١) .

س ٦٦ : سئل الشيخ : عن مسألة التحسين والتقبيح العقلي ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « ارجع إلى تعليقي على الأحكام للآمدي حول مسألة التحسين والتقبيح ، الجزء الأول المقدمات الكلامية » .

س ٦٧ : سئل الشيخ : عن موقف الخوارج من الحدود هل يطلونها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « عندهم أن السارق والزاني حده القتل ولا يشترطون السيف بل يقتلونه بالسم ، ولا يقطعون يده السارق أو يرجمون الزاني ؛ لأنه عندهم من باب تداخل الحدود فيعطونه الحد الأعلى وهو القتل » .

س ٦٨ : سئل الشيخ : ما معنى خلود القاتل الوارد في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (٢) .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « خلود القاتل إذا كان غير مستحل فمعناه عند السلف طول المدة ، وإذا كان مستحلاً فهو على حقيقته ، وقد فصل ابن القيم هذا الأمر في مدارج السالكين وذكر أن قاتل العمد يتعلق به ثلاثة حقوق :

حق للقتيل يقاص بالحسنات والسيئات يوم القيامة .

وحق ولي الدم القصاص .

وحق الله تعالى يسقط بالتوبة . وذكر الأدلة في آخر الجزء الأول .

س ٦٩ : سئل الشيخ : هل الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة فيما وافقوا فيه أهل السنة لا على العموم » .

---

(١) سورة التكوير ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩٣ .

س٧٠ : سئل الشيخ : هل الفِرقَ التي قال فيها ﷺ : « كلها في النار » كافرة ؟ أم غير كافرة (١) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « فيها رأيان ذكرهما شيخ الإسلام في الفتاوىٰ » .

س ٧١ : سئل الشيخ : عن دعوة العوام للتوحيد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كونه لا يعلم العوام التوحيد غلط فقد مكث ﷺ يدعو إلىٰ التوحيد في مكة ، حتىٰ الصلاة التي هي عماد الدين فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين فكان ﷺ يعلم التوحيد (للأميين) هكذا سماهم الله » .

س ٧٢ : سئل الشيخ : هل الساحر كافر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الصحيح أن كفر الساحر كفراً يخرج من الملَّة » .

س ٧٣ : سئل الشيخ : ما حكم من سبَّ صحابياً ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تفصيل القول في حكم من طعن في الصحابة أو سب صحابياً أن الطعن جملة كفر ، لكن سب صحابي بعينه كبيرة من الكبائر » .

س ٧٤ : سئل الشيخ : هل العلم المشترط في شروط (لا إله إلا الله) هو العلم الإجمالي بأنه لا يستحق العبادة إلا الله ؟ أم لابد من العلم التفصيلي بأن الذبح عبادة والنذر عبادة .. وهكذا ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « العلم المشترط هو العلم الإجمالي لا التفصيلي ، لايلزم أن يكون فيلسوفاً ؛ بدليل حديث معاذ وسجوده للرسول ﷺ ، وقصة ذات أنواط » (٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٠٣ ، ٥٠٤) ، والدارمي (٢/ ٢٤١) ، وأحمد (٤/ ١٢) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٠٤) .

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي (٢١٨١) . وقال حسن صحيح . وأحمد (٥/ ٢١٨) . وأبو يعلي (٤٤١) .

فالجهل بتفاصيل العبادة لا يمنع الحكم للشخص بالإسلام .

س ٧٥ : سئل الشيخ : سألته عن رأيه في قول الصنعاني في تطهير الاعتقاد عن القبورين الذين يعتقدون في الموتى ويطلبون منهم (هم كفار أصليون) حيث اعترض عليه بعض العلماء كالشيخ بشير السهسواني صاحب (صيانة الإنسان) وقال (هم مرتدون) .

فقال الشيخ - رحمه الله - : « هم مرتدون عن الإسلام إذا أقيمت عليهم الحجة ، وإلا فهم معذورون بجهلهم كجماعة الأنواط ، أما من انتسب إلى الإسلام ثم بدت منه أفعال كفرية وأقيمت عليه الحجة فهو مرتد يقتل بالسيف » .

س ٧٦ : سئل الشيخ : عن الكافر الأصلي إذا تلفظ أمامنا بالشهادتين ولا ندري هل يعلم معناها أم لا ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « يحكم له بالإسلام بالظاهر حتى يبدو أنه جاهل فيُعلَّم معنى الشهادتين الصحيح ؛ فإن استقام فالحمد لله ، وإن لم يستقم فهو مرتد لا كافر أصلي » .

س ٧٧ : سئل الشيخ : هل يلزم إقامة الحجة على تارك الصلاة حتى يحكم بكفره ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « يحتاج إلى إقامة الحجة ، فإن مات قبلها عومل معاملة الكفار » .

س ٧٨ : سئل الشيخ : الإيمان الركن هل يزيد وينقص كالإيمان الواجب والمستحب ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « نعم بدليل عموم قوله تعالى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[1] . وقوله : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾[2] وهذا يعم جميع أقسام الإيمان .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٤ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٤ .

س ٧٩ : سئل الشيخ : ما حكم المستهزئ بالدين أو ساب الدين أو الرسول ﷺ أو القرآن العظيم هل يكفر ولو كان جاهلاً ؟

فقال الشيخ رحمه الله ـ : « هذا الباب كغيره من أبواب الكفر يُعَلَّم ويؤدب فإن عُلِّمَ وعاند بعد التعليم والبيان كفر . وإذا قيل : لا يعذر بالجهل ، فمعناه يعلم ويؤدب وليس معناه أنه يكفر » .

س ٨٠ : سئل الشيخ : ما حكم من قال : القرآن مخلوق ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هذا كفر أكبر ولكن قائله يعلَّم ولا يكفر بعينه إلا إذا علم وأصَرَّ بعد إقامة الحجة » .

س ٨١ : سئل الشيخ : عن مسألة فناء النار ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « ما لي رأي في المسألة ، اقرأ كلام ابن تيمية وابن القيم . واقرأ للصنعاني في الرد عليهما وأنا لا أقول بفناء النار ولا بعدم فنائها أنا لم أختر رأياً إلىٰ الآن ، لأنه ليست هناك نتيجة عملية تترب علىٰ هذا الخلاف ، والواقع أن القول بفناء النار متصل بابن تيمية خلافاً لمن نفي نسبة هذا القول له » .

س ٨٢ : سئل الشيخ : هل تكفي إحدي الشهادتين للحكم للشخص بالإسلام ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « شهادة (أن محمداً رسول الله) تستلزم شهادة (أن لا إله إلا الله) ولا عكس ، ومع هذا فإظهار أي شعيرة من شعائر الإسلام تكفي لمعاملته معاملة المسلمين » .

س ٨٣ : سئل الشيخ : عن خروج جماعة التبليغ لتذكير الناس بعظمة الله ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الواقع أنهم مبتدعة ومُحَرِّفُون وأصحاب طرق قادرية وغيرهم ، وخروجهم ليس في سبيل الله ، ولكنه في سبيل إلياس ، هم لا يدعون إلىٰ الكتاب والسنة ، ولكن يدعون إلىٰ إلياس شيخهم في بنجلادش أما الخروج بقصد الدعوة إلىٰ الإسلام فهو جهاد في سبيل الله ، وليس هذا هو خروج

جماعة التبليغ ، وأنا أعرف جماعة التبليغ من زمان قديم ،وهم المبتدعة في أي مكان كانوا . هم في مصر ، وإسرائيل ، وأمريكا ، والسعودية ، كلهم مرتبطون بشيخهم إلياس » .

س ٨٤ : سئل الشيخ : عن رجل قيل له : فعلك هذا محرم . فقال : أنا أعرف أنه حرام ولكن سأفعله ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « إذا كان مضطراً إلىٰ فعله فهو معذور وإلا فهو مستهتر وهي معصية كبرىٰ قد تصل إلىٰ درجة الكفر . والعياذ بالله » .

س ٨٥ : سئل الشيخ : ما الفرق بين قتال المرتدين وقتال تاركي الشرائع ؟ وقتال التتار يتبع أي القسمين ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « مانعوا الشرائع لغير جحود يقاتلون حتىٰ يؤدوها ولا يكفرون بالرغم من قتالهم ، والذي يحكم بغير ما أنزل الله كافر مرتد يقاتل قتال الكفار أما الذي لا يكفر فهو الفقيه الذي يحكم في مسألة يظن أنها من الدين ، والحق بخلافه فلا يكفر . أما الذي يحكم بما يعلم أنه ليس من الدين فهذا كافر ، الذي يبيح فوائد البنوك يُناقش ويبين له ، فإذا أقيمت عليه الحجة فإنه يقتل قتل المرتد. ولا أذكر الآن إلىٰ أي القسمين ينتمي قتال التتار » .

س ٨٦ : سئل الشيخ : هل يوجد عذر بالجهالة في أصل التوحيد ، علماً بأن بعض أهل السنة ذكر أنه لا عذر لأحد بالجهل في أصل التوحيد ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « إن وجوب الإيمان بالله تعالىٰ ورُسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر ، وما يتصل بذلك من أصول وفروع بمقتضاه : يتوقف علىٰ البلاغ الصحيح ومعرفة ما تضمنه البلاغ من الحق ، وهذا مما يتفاوت بتفاوت الناس في مداركهم وقواهم العقلية ، وكثرة العلماءوالدعاة إلىٰ الإسلام، وما إلىٰ هذا مما يتيسر معه معرفة الحق وتأييده ، واستبانة الباطل وتميزه

من الحق والقضاء عليه ، أو بُعدهم عن ديار الإسلام والدعاة إليه ، وما إلىٰ ذلك من الحواجز التي يشق معها الوصول إلىٰ معالم شرع الله تعالىٰ والوقوف علىٰ حقيقته جملة أو التبحر فيه .

فيجب أن يراعىٰ ذلك وأمثاله في الحكم علىٰ الناس ، فقد يجب علىٰ بعض الناس الإيمان بالله تعالىٰ وبرسوله ﷺ وما جاء به من عند الله إجمالاً ، إذا لم يبلغه إلاَّ ذلك ، ولم يتيسر له سواه مع بذله وسعه في التعرف علىٰ الحق ، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار** » (١) . رواه مسلم .

ولما ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « **أن رجلاً رزقه الله مالاً ، فقال لبنيه لما حضره الموت : أي أب كنت فيكم ؟ قالوا : خير أب ، قال : فإني لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ، ثم ذروني في يوم عاصف ، ففعلوا ، فجمعه الله عز وجل ، فقال : ما حملك ، قال : مخافتك ، فتلقاه برحمته** » (٢) متفق عليه .

س ٨٧ : سئل الشيخ : عن حكم من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، ومن خالف حكماً ثابتاً بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا خالف مسلم حكماً ثابتاً بنصٍّ صريح من الكتاب والسُّنة لا يقبل التأويل ، ولا مجال فيه للاجتهاد ، أو خالف إجماعاً

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٥٣) .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٤٧٨) وفي مواضع أخرىٰ . ومسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ورواه البخاري (٣٤٨١) ومسلم (٢٦١٨) من حديث أبي هريرة . والبخاري (٣٤٧٩) من حديث حذيفة رضي الله عنهم أجمعين .

قطعياً ثابتاً ، بُيِّن له الصواب في الحكم ، فإن قَبِلَ فالحمد لله ، وإن أبىٰ بعد البيان وإقامة الحجة وأصر علىٰ تغيير حكم الله حُكِم بكفره ، وعومل معاملة المرتد عن دين الإسلام ، مثال ذلك من أنكر الصلوات الخمس أو إحداها ، أو فريضة الصيام أو الزكاة أو الحج إلىٰ بيت الله الحرام ، وتأوَّل ما دلَّ عليها من نصوص الكتاب والسنة ولم يعبأ بإجماع الأمة .

وأما إذا خالف حكما ثابتاً بدليل مختلف في ثبوته ، أو قابل للتأويل بمعان مختلفة وأحكام متقابلة فخلافه خلاف في مسألة اجتهادية فلا يُكفر ، بل يعذر في ذلك من أخطأ ، ويؤجر علىٰ اجتهاده أجراً واحداً ، وعمله بهذا الاجتهاد مشروع ، ويحمد من أصاب ، ويؤجر أجرين ، أجراً علىٰ اجتهاده وأجراً علىٰ إصابته ، مثال ذلك : من أنكر وجوب قراءة الفاتحة علىٰ المأموم ، ومن قال بوجوب قراءتها عليه ، ومثاله أيضاً من قال بوجوب العمرة ، ومن قال ليست واجبة ، بل هي سُنَّة ، ومن قال بتوريث الأخوة مع الجد ومن خالفهم فقال : بحجبهم بالجد . . فمثل هذا لا يجوز تكفيره ولا إنكار الصلاة وراءه ، ولا يحرم الأكل من ذبيحته ، بل تجب مذاكرته والتفاهم معه في ذلك علىٰ ضوء الأدلة الشرعية ، لأنه أخ مسلم له حقوق المسلمين ، والخلاف في مثل هذه المسائل خلاف في مسائل فرعية اجتهادية ، جرىٰ مثلها في عهد الصحابة رضي الله عنهم وأئمة السلف ، ولم يُكّفر بعضهم بعضاً ، ولم يهجر بعضهم بعضاً من أجلها .

س ٨٨ : سئل الشيخ : عن قول الإمام محمد بن عبد الوهاب في كشف الشبهات في حديث ذات أنواط (١) فلم يعذرهم بالجهالة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « بعد أن قامت الحجة فلا يعذرون أما قبل البيان فيعذرون بجهلهم ، وقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يعذرهم بالجهالة ،

(١) رواه الترمذي (٢١٨١) وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد (٥/ ٢١٨) . وأبو يعلي (٤٤١) . وهو حديث صحيح .

أي لم يكن الجهل عذراً يمنع من التغليظ والإنكار عليهم ، حيث غضب النبي ﷺ، وأنكر ولكن لم يكفرهم » .

س ٨٩ : سئل الشيخ : هل يجوز إكرام أي شخص بالذبح له ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « إذا كان الذبح على وجه الإكرام يجوز إذا كان المذبوح له أهلا لأن يكرم ، أو كان المذبوح له ضيفاً فإن النبي ﷺ قال : **« من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليكرم ضيفه »** (١) .

أما إذا كان هذا الشخص المذبوح له فاجراً فلا يجوز ، لأن الفاجر إهانته مطلوبة ، إلا إذا كان صاحب البيت يخشى على نفسه من جبروته وشره فيقدم له الإكرام دفعا لبلائه وشره ، وإذا أمكنه التخلص من هذا الفاجر والنجاة من شره دون أن يذبح له ودون أن يكرمه فهذا خيرٌ وهذا هو الأولى .

وإذا وجد المسلم أن تقديم الكرامة ومنها الذبح لهذا الفاجر ، وهو نوع من السياسة واستمالة القلوب وتأليفها ، ورأى أن الإكرام هو تمهيد وفتح للقلب لقبول النصيحة وتقريبه من الخير ، أو كفه عن الشر ، أو عن بعض الشر الذي هو فيه ، فإنه يجوز الإكرام لهذا الشخص ولربما كان مستحباً إذن مسألة الذبح لشخص ما يختلف حكمها على حسب حال الشخص المذبوح له وعلى حسب نية الشخص الذي يذبح .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، (٦١٣٦) ومسلم (٤٧) ، وأبو داود (٥١٥٤) ، والترمذي (٢٥٠٢) . وأحمد (٢٦٧٢) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

الكرامات

س ٩٠ : فضيلة الشيخ سمعنا عن كرامات حدثت مع إخواننا المجاهدين الأفغان فما هي الكرامة ومدى صحتها أفادكم الله وهل نصدقها ؟ (١) .

الجواب : الكرامة خارقة للعادة أي حادثة تكون خارقة للعادة ، يجريها الله جل شأنه على يد من شاء من الصالحين إكراماً له ، أو إنقاذاً له من موقف رأفة له ورحمة به ، وهي غير المعجزة ، فالمعجزة خارقة للعادة يظهرها الله جل شأنه على يد نبي من أنبيائه ، أو رسول من رُسله بياناً لرسالته ، وتأييداً له في دعوته ، وإقامة للحجة على قومه ، لإثبات أنه رسول من عند الله ، وأنه نبي من أنبياء الله ، هذه تسمى معجزة تجري علي يد رسول أو نبي من أنبياء الله والأولى تعتبر كرامة تظهر على يد صالح من الصالحين غير الأنبياء وقد تظهر على يد الأنبياء مع أتباعهم فيما بينهم ، كتلك المعجزات التي ظهرت على يد الرسول ﷺ .

ففي غزوة الخندق كان الطعام لا يكفي إلا لخمسة ، أو لعشرة مثلاً ، فكفى جيشاً من الجيوش بإذن الله ، كفي المؤمنين في المدينة دعاهم أنس (٢) و جاءوا لبيت أبي طلحة ، وأم أنس هي التي صنعت الطعام وأعدته ولما جاء الرسول ﷺ أمرها أن تأتي بالطعام ، ودخلوا عشرة عشرة فأطعمت جميع من كان يحفر في الخندق ، وبقى الطعام كما هو وهذا فيما بين الرسول ﷺ والمؤمنين، لا يراد به إقامة حجة على كافر ، إنما يُراد به إكرام المؤمنين بإطعامهم من جوع لأنه قد ظهر عليهم ، وكان الرسول ﷺ محتزماً من شدة الجوع بحزام ضاغط به على جلد بطنه حتى يستطيع أن ينتصب قائماً (٣) .

(١) سؤال موجه للشيخ رحمة الله تعالى في مدينة الطائف .

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٨) ، ومسلم (٢٠٤٠) . والترمذي (٣٦٣٠) .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري رقم (٤١٠١) . وأحمد (٣/ ٣٠٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

هذا مما ظهر من الكرامات على يد الأنبياء ، وهو يسمى أيضاً معجزة ، ولكن لا يراد بها إقامة الحجة في مثل هذا .

وفي أحد الأسفار لم يكن معهم من الماء إلا الشيئ القليل ، فأمر الرسول ﷺ بقليل من الماء ووضع يده فيه فنبع الماء من بين أصابعه [١] وهو بين الصحابة رضوان الله عليهم ، وهو شبيه بالخارقة الأولى التي حصلت إكراماً له وللصحابة، فشربوا وسقوا وتوضئوا ، ومن كان عليه جنابة اغتسل ، ومن أراد أن يتنظف تنظف .

وهناك معجزات أخرى يراد بها إقامة الحجة مثل القرآن ، ومثل انشقاق القمر[٢] ، و مثل المعجزات الأخرى التي ظهرت أمام الكفار ، إثباتاً لرسالة نبينا محمد ﷺ .

فالكرامة تظهر على يد الرسول ﷺ ، وعلى يد غيره من الصالحين الذين ليسوا برسل ، ولا أنبياء ، والمعجزة لا تظهر إلا على يد الأنبياء والرسل ، والكرامة عامة في الرسل ، والأنبياء ، وفي الصالحين من غير الأنبياء والرسل ، هذا من تظهر على يده الكرامة وهذا تعريفها .

أما وقوع الكرامة فقد وقعت كما ذكرت للرسول ﷺ ، ووقعت لبعض

---

(١) أخرج البخاري (٣٥٧٣) ، (٣٥٧٤) من حديث نس بن مالك رضي الله عنه قال : **رأيت النبي ﷺ وحانت صلاةُ العصر ، فالتمس الوضوء فلم يجدوه ، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضؤوا منه ، فرأيت الماء ينبعُ من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضئوا عن آخرهم .**

(٢) أخرج البخاري (٣٦٣٦) من حديث بن مسعود رضي الله عنه قال : (**انشق القمر على عهد النبي ﷺ شقتين ، فقال النبي ﷺ اشهدوا**) .

وأخرج البخاري (٣٦٣٧) من حديث أنس بن مالك قال (**أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر**) .

الصحابة رضي الله عنهم فمن ذلك أن أسيداً بن حضير وعباد بن بشر تحدثا عند رسول الله ﷺ حتىٰ ذهب من الليل ساعة ، في ليلة شديدة الظلمة ، ثم خرج بيد كل منهما عُصية ، فأضاءت عصا أحدهما حتىٰ مشيا في ضوئها ، حتىٰ إذا افترقت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر فمشىٰ كل منهما في ضوء عصاه حتىٰ بلغ أهله . هذه من الكرامات التي حصلت للصحابة [١] .

وأيضاً في غزوة من الغزوات كان زعيمها أو قائدها سارية وكان عمر بن الخطاب ملهما محدثا كما ذكر الرسول ﷺ « **إن كان في الأمة محدثون فعمر ابن الخطاب رضي الله عنه** » [٢] هذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ ، وكان عمر ملهما وكان يرىٰ الرأي للنبي ﷺ فينزل به القرآن تصديقاً لعمر بن الخطاب ، و هذا الأمر حصل عدة مرات ، فصلاة ركعتين إلىٰ جهة الحجر الأسود عُقَب الطواف [٣] نزل به القرآن تصديقاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فهذا ابن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب علىٰ المنبر ألهمه الله ، أو أراه الله

---

(١) أخرج البخاري (٣٨٠٥) من حديث أنس بن مالك أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما فلما افترقا صارْ مع كل واحد منهما واحد حتىٰ أتىٰ أهله وفي بعض الروايات أن الرجلين هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما . انظر فتح الباري في شرح هذا الحديث .

(٢) أخرج البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد كان فيمن قبلكم من الأمم أناسٌ محدثون ، فإنك يك في أمتي أحد فإنه عمر** » . زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « **لقد كان قبلكم من بني إسرائيل رجالٌ يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ فعمر** » .

(٣) روىٰ البخاري في كتاب الصلاة ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة حديث رقم (٣٤) من حديث أنس قال : قال عمر : « وافقت ربي في ثلاث قلت : يا رسول الله « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصلىٰ » فنزلت ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ وآية الحجاب قلت يا رسول الله لو أمرت نسائك يحتجبن فإنه يكلمُهن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : « عسىٰ ربه إن طلقكن أن يُبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت هذه الآية » .

سارية ، والجيش من ورائه ، فقال له : يا سارية إلزم الجبل أي اجعل ظهرك إلىٰ الجبل حتىٰ لا يأتيك العدو من الخلف ، وهذه خُطة حرب علمه إياه ، وهو في غيبة عنه علىٰ مسافة أطول من مسافة القصر بعشرات المرات ، ومع ذلك سمع سارية عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ولما حضر سألوه نادىٰ عمر في يوم كذا وقال كذا أسمعت ؟ فقال : لقد سمعته ولقد انصرفت إلىٰ الجبل وجعلته في ظهر الجيش فنصرنا الله علىٰ أعدائنا .

فهذه كرامة يذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء المسلمين لعمر ابن الخطاب ، وكرامة لسارية ولسائر الجيش ، رسم لهم خطة حربية وهو علىٰ المنبر في المدينة والجيش يجاهد في سبيل الله ، هذا من الكرامات التي وقعت في هذا الحرب قد يكون في الجيش بعض المنافقين ، ولكن أيضاً يوجد بعض المخلصين ، وجيش الرسول ﷺ قد خرج فيه بعض المنافقين في غزوة تبوك ، وأرادوا أن يغتالوه ﷺ ، فالجيوش لا تسلم من أن يكون فيها خائن أو من يدبر سوءاً للجيش ، وخرج عبد الله بن أبيّ بن سلول في غزوة أحد ، ومعه كثيرٌ من المنافقين، وكثيرٌ من ضعفاء القلوب ، ولما وصلوا إل مكان القتال رجع عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين بثلث الجيش ، فكادت تحصل فتتنة في الجيش ، وكادوا ينقسم بعضهم علىٰ بعض ، وبعضهم يحدث نفسه بالانصراف وفي ذلكم يقول الله جل شأنه : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ [(١)] قد يحدث هذا ، وبالفعل قد حدث ذلك في الجيش الذي خرج فيه جماعة من المنافقين ، ورجع منه جماعة ، فأنزل الله الملائكة وحاربت المشركين كما أنزل ملائكة في غزوة بدر، وكانت الملائكة تنزل في مواطن كثيرة في الحروب ، وهذا من الكرامات التي حصلت في غزوة بدر ، وحصلت لهم في غير غزوة بدر ، وتحصل للمسلمين في الوقت الحاضر ، قد يكون عند إنسان إلهام يلهمه الله إياه

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٢ .

إلىٰ درجة اليقين في أمر لا يدريه قبل ذلك كما حصل لأبي سعيد الخدري[١] في قصة الرقية التي ذُكرت من قبل فرقي بالفاتحة دون أن يكون عنده علم مسبق بأنها رقية لكنه إلهام ويقين ، فحقق الله يقينه وصدق إلهامه ، هذا أيضا من الكرامات .

أقول إن الكرامات لها حقيقة وعرفتها لكم ، وأنها تظهر علىٰ يد صالح من المسلمين ، وأنها خارقة للعادة ، وقد تظهر علىٰ يد رسول من رسل الله ونبي من أنبيائه ، أما المعجزة فلا تظهر إلا علىٰ يد نبي إثباتاً لرسالته أو لنبوته .

(١) الحديث سبق تخريجه .



ثانياً

فتاوى الفقه



أولا : فتاوى الطهارة

س ١ : سئل الشيخ : عن التسوك باليد اليمنى أو اليسرى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « بأيهما شاء لا فضيلة لأحدهما » .

س ٢ : سئل الشيخ : عن زيادة مسلم بن إبراهيم « وسواكه » ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لو ثبتت فيحتمل أن يكون المراد التيمن في الجهة أي يبدأ بالجهة اليمنى » .

س ٣ : سئل الشيخ : هل يصح الوضوء بدون غسل الكف مع غسل اليدين إلى المرفقين ؟ أم يكفي غسلهما في أول الوضوء ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يعمهما من أطراف الأصابع والإ كان ناقصاً ركنا» .

س ٤ : سئل الشيخ : هل يمسح على الخف الأيسر اليد اليمنى أم باليسرى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يمسح على الخف الأيسر باليسرى وعلى الأيمن باليمنى ، أو على كل منهما بيديه جميعاً .

س ٥ : سئل الشيخ : هل يجزئ غسل الجنابة عن غسل الجمعة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « نعم يجزئ حتى على القول بوجوب غسل الجمعة ؛ لأن الحكمة من غسل الجمعة النظافة وهي العلة .

س ٦ : سئل الشيخ : ما الفرق بين غسل المرأة للجنابة وللحيض ؟

فقال الشيخ رحمه الله ـ : « لا فرق بينهما إلا في حك الدم في الحيض ولا فرق في فك الضفائر ، إذامنعت وصول الماء فكتها في الغسلين وإذا لم يمنع أبقتها .

س ٧ : سئل الشيخ : عن طريقة التخلص من الشعر والأظافر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا أصل للمنقول عن أحمد أنه يدفنه بل لا بأس بإلقائه في أي مكان » .

س ٨ : سئل الشيخ : حكم تقصير المرأة شعرها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز ، لأنه تشبه بالإفرنج . قاله في المغني في سنن الفطرة » .

س ٩ : سئل الشيخ : هل على من وطئ زوجته وهي حائض كفارة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « حديث الصدقة بدينار ، أو نصف دينار علىٰ من وطئ زوجته حائضاً فيه مطعن ، وهو قول أحمد عملاً بالموقوف فالحنابلة يعملون بالموقوف ، أما عند مالك فلا كفارة عليه » .

س ١٠ : سئل الشيخ : هل يصح التيمم بالتراب الذي في السجاد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا لم يجد ماءً للوضوء ضرب السجاد فإذا خرج منه تراب تيمم به ، وإلا لم يصح . وكذلك الجدار لا يصح التيمم عليه إلا إذا كان عليه غبار ولكن إذا كان الإنسان يحتاج إلىٰ تيمم يجمع تراباً في إناء ويتيمم عليه» .

س ١١ : سئل الشيخ : عن أحكام المسح على الجوربين والنعلين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا توضأ ثم لبس جورباً وفوقه نعل له أن يمسح علىٰ النعل فإذا خلع النعل انتقض وضوؤه ولزمه خلع الجورب .

إذا كان ماسحاً علىٰ الجورب وأدخله في النعل لا يصح له المسح علىٰ النعل بل لابد من خلعه ومسح الجورب » .

س ١٢ سئل الشيخ : هل يلزم تحريك الخاتم في الوضوء ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : «لم يثبت أن النبي ﷺ حرك خاتمة في الوضوء ، ولكن الإنسان يحركه إذا كان ضيقاً ، ويحول دون وصول الماء إلىٰ الجزء الذي يغطيه الخاتم . والنبي ﷺ لم يلبس الخاتم للزينة ، وإنما لبسه ليختم به الكتب التي كان يوجهها إلىٰ الملوك يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام . والملوك كانوا لا يقبلون كتاباً إلا مختوماً » .

س ١٣ : سئل الشيخ حديث من غسَّل ميتاً فليغتسل ومن حمله فليتوضأ ؟ (١) .

فقال الشيخ - رحمه الله - : « الحديث فيه مقال : ومن الناس من قال بالوجوب ومنهم من قال بالاستحباب » .

والصحيح أنه لا يلزمه الوضوء والغسل إذا شارك في حمل الميت .

س ١٤ : سئل الشيخ ما حكم مس الحائض للمصحف وهي ترتدي قفازاً ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « يجوز » .

س ١٥ : سئل الشيخ : هل يعتبر البياض الذي في جانبي الصفحة وغلاف المصحف من القرآن ، لا يجوز مسه للمحدث أم القرآن هو المكتوب فقط ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « غلاف المصحف والبياض في جانبي المصحف منه ، فلا يجوز مسّه » .

س ١٦ : سئل الشيخ : هل يلزم نزع اللصق الطبي في الوضوء والغسل ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « اللصق الطبي علىٰ حسب الضرر إذا كان يضر نزعه أبقاه واغتسل في وجوده » .

---

(١)رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٤٣٣) ، وأبو داود (٣١٦٢) ، والترمذي (١/ ١٨٥) ، وابن ماجه (١٤٦٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٠٢) .

س ١٧ : سئل الشيخ : عمن لبس الفوقاني على التحتاني ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا لبس على طهارة ولو ممسوح فيها على التحتاني فله أن يسمح على الفوقاني » .

س ١٨ : سئل الشيخ :ورد في زيادة لأبي داود على حديث عائشة الذي في الصحيحين كان النبي ﷺ « يعجبه التيمن في تنعله وترجله زاد وسواكه » ، وذهب شيخ الإسلام تبعاً للإمام أحمد أنه يستاك بشماله ؛ لأنه من باب إزالة الوسخ فما قولكم في ذلك ؟ (١) .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا عبرة بقول أحد في مخالفة النص والحديث يدلّ على استحباب التسوك باليمين ويشمل هذا أمرين :

استعمال اليد اليمنى ، والبدء بالجهة اليمنى من الفم . وإلحاق السواك بباب التنظيف والتطهر في الوضوء ، والذي يشرع فيه التيمن أولى من إلحاقه بالاستنجاء والاستجمار الذي يشرع فيه التياسر » .

س ١٩ : سئل الشيخ : تعلمون ما ورد من النصوص في مشروعية المسح على العمامة.

فهل يعتبر الشماغ الحالي في حكمها في المسح ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الشماغ أظنه لا يلحق بالعمامة ولا يصح المسح عليه لكن إذا لبس تحته أو تحت الفترة قلنسوة يجوز المسح على القلنسوة » .

س ٢١ : سئل الشيخ : عن دم السقط ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « دم السقط دم نفاس ولو بعد شهرين من الحمل » .

س ٢٢ : سئل الشيخ : حكم الرطوبات التي تخرج من فرج المرأة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لها حكم البول في النجاسة ولكن إذا استمرت كانت كمن به سلس البول » .

---

(١) سبق التخريج .

ثانيا : فتاوى الأذان

س ١ : ما هي السنة في الأذان أن يفرد قوله « الله أكبر » أم يثنيها يعني ينطق « الله أكبر، الله أكبر » ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : «السنة أن يفرد كل تكبير بحالها ويتنفس بعدها ، ثم يقول « الله أكبر » سواء ربع التكبير يعني كبر في أول الأذان أربع تكبيرات أم كبر تكبيرتين ، والخلاف في هذا هو خلاف تنوع يعني أن كلا النوعين جائز في نفسه ، والمقصود أن يكبر كل تكبيرة لحالها ويتنفس بعدها هذا هو السنة » .

س ٢ : سئل الشيخ : هل تأذين أذانين للجمعة ، أحدهما قبل دخول الوقت والآخر بعد دخوله هل هذا هو السنة أم أذان واحد بين يدي الخطيب ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « تأذين أذانين لصلاة الجمعة أحدهما قبل دخول الوقت هو سنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، فعله عثمان رضي الله عنه ولم يُنكر عليه ، ولم يبطله عليٌ رضي الله عنه بل استمر العمل به بعد عثمان . وإن كنت أرىٰ أن الأرجح هو آذان واحد بين يدي الخطيب كما يفعله أنصار السنة بمصر لأنه هو الذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ وعلىٰ عهد أبي بكر وعلىٰ عهد عمر رضي الله عنهما » .

س ٣ : سئل الشيخ : الأذان خارج المسجد ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « المهم الإسماع ، فأيهما كان أبلغ في الإسماع كان أولىٰ وإذا استويا فلا مزية للتأذين خارج المسجد ومثله مثل من يلتفت يميناً وشمالاً عند الحيعلتين فينخفض صوته لابتعاده عن (الميك) بينما السماعات فوق المنارة توزع الصوت يميناً وشمالاً ، فإذا زالت العلة زالت المشروعية كما يستفاد ذلك من قصة اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في صلاة العصر في بني قريظة» .

س ٤ : سئل الشيخ : متى يقوم الناس إلى الصلاة عند سماع الإقامة ؟

فقال الشيخ رحمه الله - : « كلٌ بحسبه يقوم الثقيل أولاً بمجرد سماعها والخفيف بعد ذلك » .

ثالثا : فتاوى الصلاة

حكم تارك الصلاة

س ١ : سماحة الشيخ : ما حكم تارك الصلاة في المسجد مع العلم أنه يصلي في البيت وهل صلاته مقبوله مع العلم أنه يسمع النداء ؟

الجواب : أبدأ بذكر الدليل ، وأختار لكم من الأدلة الدليل الذي يتصل بكم وهو في القرآن وفي السنة .

كانت للرسول ﷺ حروب مع الكفار وهذا أمر معروف ،وله غزوات ، وقد نزل في السنة الخامسة أو التي بعدها صلاة الخوف [(١)] وصلاة الخوف تُصلىٰ والإنسان في ميدان القتال سواء كان ميدان القتال خارج البلد ، أو كان في حدود البلد ،ومعروف أن العدو إذا دهم المسلمين صاروا لا يقوون علىٰ الصلاة العادية التي نصليها في المساجد ، فكان الرسول ﷺ يصلي بهم صلاة الخوف جماعة فمن أنواع صلاة الخوف ما أذكره الآن في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ﴾ [(٢)] هذا في الحرب ، والنداء موجه للنبي ﷺ ، إذا كنت فيهم في المسلمين الذين معك في القتال فأقمت لهم الصلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [(٢)] أي يكبر لصلاة الجماعة ،ويكون معه نصف الجيش مثلاً ﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [(٢)] والنصف الباقي الذي يكون من ورائكم ، أي أن النصف الأول كان يصلي مع الرسول ﷺ ركعتين إذا كانوا في غير سفر وإذا كانوا في سفر يصلون ركعة ، فإذا صلوا ركعتين قاموا وكملوا لأنفسهم وسلموا، والرسول ﷺ مكانه يقرأ القرآن ،ويسبح ويذكر الله حتىٰ يكمل من كان خلفه الركعتين

---

(١) راجع حديث صلاة الخوف عند البخاري (٩٤٣) ومسلم (١٢٥ / ٦) نووي .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٠٢ .

الأخيرتين ، وتذهب الطائفة الأولىٰ إلىٰ مكان الطائفة المتخلفة التي تحرس من صلىٰ مع النبي ﷺ وتأتي الطائفة الأخرىٰ وتصلي مع الرسول ﷺ الركعتين الأخريين ويسلم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم يقومون فيصلون الركعتين الباقيتين ، وإذا كانوا في سفر صلت الطائفة الأولىٰ ركعة ، وينتظر النبي ﷺ يقرأ القرآن ، والطائفة الأخرىٰ تأتي وتصلي الركعة الثانية وتذهب إلىٰ مكان الطائفة المتخلفة التي هي في الحراسة فتأتي المتخلفة وتصلي الركعة الثانية مع النبي ﷺ ثم تقوم تقضي ما عليها من الركعة الباقية ويسلم الرسول ﷺ حينما ينتهي من الركعة الثانية .

ترتيب الصلاة معروف أنه فرض ، وأن سلام المأموم لا يكون قبل سلام الإمام في الصلاة العادية لأنه لو سلم قبل الإمام بطلت صلاته بل يجب علىٰ المأموم أن يركع بعد الإمام إذا ركع ، وأن يسجد بعده ، وأن يقوم بعده ، وأن ينخفض بعده وأن يكبر تكبيرة الإحرام بعده ، وهذا النظام يختلف في صلاة الخوف ، فتُركت أركان من قضاء الركعتين ، أو الركعة وسبق الإمام بها وكذلك سلامهم قبل الإمام ، وهذا الأمر لو كان في الصلاة العادية دون خوف لبطلت الصلاة ، ومع ذلك غُضَّ الطرف عنه من أجل المحافظة علىٰ صلاة الجماعة ، فصلاة الجماعة التي يترك من أجلها فروض لافرض واحدكسَبق الإمام ، وقضاء ركعات ، وهو يقرأ يسبقونه ، ويسلمون ، ويذهبون إلىٰ العدو ، و الجماعة التي تُركت فيها هذه الأركان ألا تكون واجبة ؟ شيء تترك واجبات ، وأركان من أجله ، لابد أن يكون واجباً ، والذي يقول لا يكون واجباً لا يقبل كلامه أحد ، ولا يُعقل ، ولا يقبله الفكر . هذا مما استدل به العلماء القائلون بوجوب الصلاة في جماعة والواجب علىٰ المسلمين أن يصلوا في جماعة إلا لأعذار تبيح لهم التخلف عنها ، مثل مرض شديد أو أحد الأفراد عليه حراسة ويخشىٰ أن يترك المكان وفيه أشياء مهمة ، هذا بعد أن يرجع من ذهب يصلي جماعة مع زميله وليس بلازم أن يكون مع الجماعة الأولىٰ ، وله أن يصلي منفرداً إذا صلىٰ أولئك

جماعة فيصلي هو ويصلي معه واحد يتصدق عليه بأن يكون مأموماً معه ، وإذا كان المأموم الذي صلىٰ هو الذي يصلح للقراءة ويجودها فيصلي إماماً ويصلي المفترض التي كانت عليه الحراسة مأموماً ، هذه طريقة للحرص علىٰ صلاة الجماعة في صلاة الخوف ، ومن صلاة الخوف أن العدو إذا هجم بالفعل ولا يقوىٰ قائد الجيش ، ولا الجيش علىٰ أن ينقسموا قسمين ، ولا علىٰ أن يقيموا الصلاة في جماعة لأن العدو يمكن أن يتغلب عليهم ، ويأتيهم من كل جانب من الجوانب ، إذا كانوا كذلك صلوا وهم رجال يمشون علىٰ أرجلهم ، وهم راكبون علىٰ خيولهم وعلىٰ إبلهم ، وعلىٰ حمرهم ، صلوا وهم راكبون ويتكلم كل واحد منهم ، ويحذر كل منهم صاحبه ، ويضرب عدوه بالسيف ، ويستقبل القبلة ويستدبرها ، وهذا قد تجاوز الشرع فيه تجاوزاً كليا للمحافظة علىٰ أداء الصلاة في وقتها ، هذا لما نزلت صلاة الخوف أما قبل أن تنزل صلاة الخوف ، فكان لهم أن يؤخروا الصلاة عن وقتها كما حصل في غزوة الخندق ، وأخروا الصلوات النهارية حتىٰ غربت الشمس فما صلىٰ الرسول ﷺ صلاة العصر إلا بعد أن غربت عليهم الشمس [(١)] .

وفي هذا نزل قوله : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[(٢)] أي صلوا الصلاة العادية التي علمتكم إياها علىٰ لسان الرسول ﷺ وفي عمله ، أما ما دام الخوف

---

(١) ثبت ذلك في أحاديث صحيحة عن عدد من الصحابة منهم :

* ابن مسعود رضي الله عنه رواه مسلم (٦٢٨). وأحمد (١/ ٣٩٢). والترمذي (١٨١) . وغيرهم .

* علىٰ رضي الله عنه . رواه مسلم (٦٢٧) . وأحمد (١/ ٨١ ، ١١٣) .

* حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رواه النسائي (٢/ ١٧) . وأحمد (٣/ ٢٥) .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٠٣ .

شديداً فصلوا رجالاً أو ركباناً ، وقال تعالىٰ في سورة النساء أيضاً عقب صلاة الخوف : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[1] أي يصلي وهو واقف أو علىٰ جنبه مستقبل القبلة ومستدبرها إذا كان العدو أمامه والمسلم يقف له بالمرصاد وكامن له في مكان منخفض ويتحين له الفرصة لكي يصيده بسلاحه فبدلاً من أن يراه الخصم في وجهه فيرميه بالنبال ينزل في مكان منخفض فيحتمي به ثم يدركه ، ويصيده بدلاً من أن الكافر هو الذي يصيد المسلم ويجوز للمسلم أن يصلي راقداً علىٰ جنبه وهو قوي قوة الفيل ، ويصلي علىٰ جنبه خداعاً لهذا الكافر وطلباً لسفك دمه والقضاء عليه ، هذا درس نأخذه من صلاة الخوف .

وهذا بيان لأهمية الصلاة وأنهم يحتاجون إليها وقت الجهاد كما يحتاجون لإقامتها في وقتها في غير وقت الجهاد ، فإذا كانت الصلاة معتنىً بها في الشرع إلىٰ هذا الحد حتىٰ في الجهاد في سبيل الله ، فكيف الحال والرجل آمن مطمئن جالس في بيته في مكيف مع أهله ، وعلىٰ فراش لين سهل ، فكيف الحال وأنا في هذا الأمن والرخاء وهذه النعمة الوفيرة ، يجب علىٰ الإنسان أن يَرعَىٰ حق الله في يُسره ومنشطه ومكرهه في الجهاد وفي غير الجهاد .

ومن هذا يتبين أن صلاة الجماعة واجبة ولا يصح للإنسان أن يترك الصلاة في المسجد مع الجماعة ، وهو قادر علىٰ ذلك إلا لمثل الضرورة التي ذكرت لكم في مسألة النيابة ، أو في حريق مثلاً ماذا يفعل جماعة الإطفاء ماذا يفعلون عندهم ضرورة لو تركوها وذهبوا لصلاة الجماعة ، أوصلوا صلاة الخوف ، قد تشتعل النار وتتغلب علىٰ الجماعة الذين بقوا أمام الحريق ، والحريق لا يقف في وجهه شيئ ولا يخاف ، وهو ليس مثل الكفار إذا كان أمامه جماعة يخاف منهم ، الحريق ليس له قلب ، وليس عنده روح حتىٰ تُرهب وتخاف ، في مثل هذا يتركون الجماعة ولو خرج الوقت ويتركون الصلاة في وقتها ، ويشتغلون باطفاء

(١) سورة النساء ، الآية : ١٠٣ .

الحريق ، وبعد أن ينتهي الحريق ويطفأ يصلون جماعة ، هذا شئ اضطرهم لترك الصلاة في جماعة ، بل اضطرهم لتأخير الصلاة عن وقتها والضرورة تبيح لنا المحظورة التي هي من هذا الجنس وقد مثلت للضرورة .

أما النائم على فراشه ، ويريد أن يتمتع بأهله ويجلس مع أولاده ، ويكمل شرب الشاي ، وتفوته صلاة الجماعة ، أو رجل عنده ضيوف واستحى أن يخرج بهم إلى المسجد ، هذا يستحي من المخلوق ولايستحي من الخالق .

أما ترك الصلاة ففيها رأيان مشهوران ، رأي الجمهور وهو أشهر وأكثر ويكاد يكون إجماعاً وليس بإجماع ، لكن من كثرة القائلين به يكاد يكون إجماعاً هو أن تركها كسلا حتى يخرج وقتها هو كبيرة من الكبائر ويقولون : لتارك الصلاة قم إلى الصلاة ، صلي العصر مثلاً لأن الشمس كادت أن تغيب فإذا هو لم يصل حتى غابت الشمس ، وقال إن شاء الله سأصلي ، خذنا على جناحك ، إذا دخلت الجنة اعمل كذا ، الله يصلحك ، روح عني ، أنا ابُتليتَ أنا كذا ، ويقول كلمات غير طيبة هذا عند جمهورالعلماء يُقتل إذا غابت الشمس لكن يرون أنه يدفن في مقابر المسلمين بعد أن يغسل ، ويكفن ، ويصلى عليه صلاة الجنازة ، هذا الرأي هو أشهر الرأيين .

الرأي الثاني : يقول به جماعة من العلماء يقولون إذا ترك الصلاة كسلاً وفتوراً ، وينبه فلا يصلي ، هذا يقتل عند خروج الوقت ، أي عند مغيب الشمس أو يستتاب ثلاثة أيام ، فإن لم يتب بعد ثلاثة أيام قُتل كفراً ، ولا يصلى عليه صلاة الجنازة ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ويلف في ملابسه ، ويوضع في قبر وحده أو يدفن في مقابر الكفا ر ، ولا يرث ماله المسلمون ، بل يُجعَل ماله في بيت مال المسلمين ، أي يصادر ويسدد منه الدين ، هذا هو الرأي الثاني .

أفيرضى إنسان أن يختلف فيه أئمة المسلمين ؟!

فريق يقول إنه يقتل ، ولكنه مسلم .

وفريق يقول إنه كافر يقتل مرتداً بعد أن يستتاب ثلاثة أيام .

أيرضىٰ مسلم لنفسه بأن يُختَلف فيه هذا الاختلاف؟! هذا لايرضىٰ به عاقل .

هذا هو جملة القول في حكم تارك الصلاة أصلاً ، ولكنه غير جاحد لها وحكم تارك الصلاة في الجماعة من جهة وجوبها عليه لعذر ويوجد فتاوىٰ في هذا الموضوع في الإفتاء ، إذا أرسل من جانبكم رسالة واحد إلىٰ الإفتاء باسم سماحة الرئيس العام الشيخ عبد العزيز بن باز يُطلب منه الفتوىٰ التي هي في حكم ترك الصلاة ، والفتوىٰ التي هي في حكم ترك الصلاة أثناء إطفاء الحريق ، والذي سبق التحدث عنها ، إذا طلبتم منهم الفتاوىٰ في هذا الموضوع ، وفي ترك الصلاة جماعة بغير عذر ، تأتي إليكم الفتوىٰ ، وتعملون منها نشرات وتوزعون منها فيما بينكم .

ودليل آخر لوجوب صلاة الجماعة الرسول عليه الصلاة والسلام علم أن جماعة يتخلفون عن الصلاة أي تكرر هذا منهم عدة مرات ، ويصلون في بيوتهم، وقد يصلون جماعة في البيت ، يصلي بزوجته ، ويصلي بأولاده ، ويعودهم علىٰ الصلاة في البيت بدلاً من الصلاة في المسجد ولو جماعة ، والرسول عليه الصلاة والسلام علم بحال هؤلاء فقال : « **لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام وأن آمر برجل فيصلي بالناس وأن آمر بحطب فيحطب وأن أذهب إلى قوم يصلون في بيوتهم ويتخلفون عن الصلاة في المسجد فأحرق عليهم بيوتهم** » [1] قال العلماء كان سوف يحرقها لولا ما فيها من النساء والصبيان ، أي لولا ما فيها ممن لا تجب عليهم الصلاة جماعة في المسجد لحرقها عليهم ، ولكنه عليه الصلاة والسلام رحم من في البيوت من أرباب الأعذار من الصبيان والنساء، ومن لا يقوىٰ ، ومن لا يجب عليه أن يأتي إلىٰ المسجد من المستضعفين والمرضىٰ ، فرحم هؤلاء وترك تحريق البيوت عليهم ثم كان هذا البلاغ منه علىٰ ملأ من الصحابة

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤) ، ومسلم (٢٥١) .

كافياً لأن يسارع أولئك إلىٰ المسجد ليصلوا الصلوات الخمس جماعة في بيت الله سبحانه وتعالىٰ .

هذا دليل أيضاً من الأدلة ولكني بدأت بما يتصل بالنواحي الحربية بما هو أوثق بجماعتكم من الجماعة الذين جلسوا في بيوتهم في أمن وسلام .

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد ﷺ .

س ٢ : سئل الشيخ : عن الجمع بين الصلاتين في المطر ، هل يشترط أن يكون المطر كثيراً ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله : « يشرع الجمع بين الصلاتين الظهر والعصر تقديماً أو تأخيراً في المطر والمغرب مع العشاء تقديماً أو تأخيراً في المطر الذي يبل الثياب ويحتاج الإنسان معه إلىٰ استعمال المظلة وتصير الأرض زلقة يصعب السير فوقها» .

س ٣ سئل الشيخ : هل يتابع المسبوق الإمام إذا زاد ركعة خامسة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا زاد الإمام خامسة لا يقوم المأموم وراءه ، وإذا قام وراءه عالماً أنها خامسة تبطل صلاته فإن كان جاهلاً يُعَلَّم وتصح صلاته ، ولا يصح للمأموم أن يسلم قبل الإمام إلا في صلاة الخوف . أما المسبوق فإن كان عالماً أنها زائدة لا يتابع فيها الإمام ولا يقضي ما عليه حتىٰ يسلم الإمام ، وإذا لم يعلم وصلاها معه يحسبها ركعة ويكمل » .

س ٤ : سئل الشيخ : هل يصلي المأموم المغرب خلف إمام يصلي العشاء ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يشترط اتحاد الهيئة في اقتداء المأموم فيصح أن تصلي الظهر خلف من يصلي العصر ولكن لا يصح أن تصلي المغرب خلف من يصلي العشاء ، وإذا لم تعلم أنها العشاء فلك أن تنوي الانفصال إذ علمت في أثناء الصلاة كانفصال المأموم خلف معاذ بن جبل ولم ينكره النبي ﷺ » (١) .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري رقم (٧٠١ ، ٧٠٥) وفي مواضع أخرىٰ ومسلم (٤٦٥) ولفظ مسلم أوضح في المقصود .

س ٥ : سئل الشيخ : هل يباح للدارس خارج وطنه القصر والجمع والفطر إذا طالت مدة سفره ؟ جزاكم الله خيراً .

الجواب : أولاً الدراسة في الخارج في بلاد الكفر لا تجوز إلا إذا كانت دولته في حاجة لمثل هذا ، ولن تتمكن من الإتيان بمن يَدرِّس المواد التي تدرس في الخارج ، واضطُّر أن يسافر للقيام بالواجب العام للإسلام والمسلمين بعد أن يكون ممن عصمهم الله جل شأنه بعلم نافع ، وعقيدة صحيحة ، والعمل الصالح ، والاستقامة والصلابة في خلقه وتمسكه بمبدأه ، فيجوز له أن يخرج ليدرس ما تحتاج إليه أمته ، أو ما هو مضطر إليه ولا يجد عوضاً عن الخارج في داخل بلاده ، فإذا ما خرج كانت له رخصة في الجمع بين الصلاتين عند الحاجة إلى ذلك ، وفي قصر الصلاة ولكن متى تكون الرخصة ؟

هذا محل خلاف بين العلماء وجمهور العلماء على تحديد مدة ما خمسة عشر يوماً ، وإما أربعة أيام أو أكثر من أربعة أيام ولو بزمن قليل ، أو خمسة عشر يوماً كما يذكر الحنفية ومن العلماء قلة لا تحدد المدة ، والرأي في هذا رأي اجتهادي ، ولكن الراجح في نظري تحديد المدة بأربعة أيام أو أكثر من أربعة أيام بشيء قليل ، يعني في حدود الأربعة هذا الذي اعتقده ، وهناك محل إجماع بين العلماء إذا كانت المدة غير محدودة ، وهو لا يدري متى يعود وهو في انتظار أن يرجع فهذا محل وفاق بين العلماء في الترخيص له في القصر والجمع بين الصلاتين المشتركين في الوقت مهما طالت المدة ، كما حصل للنبي ﷺ في غزوة تبوك وأمثالها ، هذا الرأي مجمع عليه في هذه الصورة ، الشخص الذي سافر عن بلده ولا يدري متى يعود ويرجع إلى بلده هذا محل وفاق بين العلماء له أن يستمر في الجمع بين الصلاتين المشتركين في الوقت وله أن يقصر الصلاة الرباعية ، أما إذا كان الزمن محدوداً وهو أكثر من أربعة أيام فهذا محل خلاف واجتهاد واختلاف نظر بين الفقهاء ، جمهور الفقهاء يحدد المدة وقليل من العلماء

كابن تيمية وابن القيم لا يحدد المدة بل له أن يقصر ويجمع دائماً ولو مكث سنة أو سنوات ، والسبب في هذا التحديد أولاً : أن السفر اسم لمن هو مسافر بالفعل يعني الذي لا يسمىٰ مقيماً يسمىٰ مسافراً ، فالنازل يسمىٰ مقيماً ، ولو كانت إقامته يوماً واحداً أو نصف يوم هذا هو الأصل ، الأصل أن كلمة سفر اسم للانتقال ـ فما دام منتقلاً يسمىٰ مسافراً ، فإذا نزل واستقر لا يسمىٰ مسافراً ، يسمىٰ مقيماً ، اسمه نازل ومقيم هذا الأصل في كلمة (سفر) من جهة اللغة ، لكن الرسول ﷺ جمع في حجة الوداع بين الصلاتين وقصر ـ جمع وقصر في مدة أربعة أيام فاعتبرت مدة النزول أربعة أيام ، اعتبرت في حكم السفر بالفعل إلحاقاً لها بالسفر الذي هو انتقال بالفعل ، فمن أجل ذلك رُخص للنازل في حدود هذه المدة ، رُخِص له في أن يعمل في صلاته وصومه ـ لو كان في رمضان ـ ما يعمله المسافر المنتقل بالفعل ، وما زاد علىٰ ذلك فهو علىٰ الأصل أي يعتبر المسافر مقيما فلا يقصر ولا يجمع إلا لأسباب أخرىٰ مثل البرد الشديد والمطر الشديد وما إلىٰ ذلك .

هذا هو الأساس ، الأساس يتركب من أمرين الأول : لغوي : وهو أن السفر اسم للتنقل بالفعل فالمنتقل بالفعل هو الذي يقال له مسافر ، ومدة معلومة يعني مسافة معلومة .

والنقطة الثانية : شخص نازل لكنه في حكم المسافر بالفعل وهو الذي أقام أربعة أيام فأكثر ، وذلك من عمل الرسول ﷺ في حجة الوداع ، فإذا جمعت بين المعنىٰ اللغوي وما لحق به من عمل الرسول ﷺ في قصره لما نزل بالأبطح في حجة الوداع ، إذا جمعنا بين الأمرين خرج لنا مذهب الجمهور وهو التحديد بأكثر من أربعة أيام ، فما كان من أربعة أيام فأقل يعتبر في حكم المسافر ، وما زاد ليس في حكم المسافر ، هذا هو توجيه الرأي القائل أن المدة التي تقطع حكم السفر هي إقامة أربعة أيام فأكثر ، بينت الخلاف فيه وكلٌ له نظره واجتهاده .

تحية المسجد[١]

س ٦ : سئل الشيخ : ما حكم صلاة تحية المسجد والإمام يخطب ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : اتفق العلماء على طلب تحية المسجد في الجملة لمن دخل المسجد ، كما اتفقوا على طلب الإنصات والإصغاء للخطيب يوم الجمعة في الجملة أيضاً ، واختلفوا فيما ينبغي لمن دخل والخطيب يخطب للجمعة : فذهب إلى الأولى من الأئمة والاستماع فلا يصلي التحية ؟ أم يصلي التحية . فذهب إلى الأول من الأئمة الأربعة مالك وأبو حنيفة ، وإلى الثاني منهم الشافعي وأحمد [٢] . وهاك مأخذ الفريقين ومنزع المذهبين ، وبيان ما يعطيه الحجاج من الحق :

احتج الأولون أولاً : بعموم قوله تعالى : **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾**[٣] . قالوا : أمر الله تعالى بالإنصات والاستماع للقرآن ، فالخطبة كذلك ، إذ هي قرآن وفي أداء التحية وقتئذ تشاغل وإعراض عن امتثال الأمر ، فلا يجوز .

ثانياً : بقوله عليه الصلاة والسلام : « **إذا قلت لصاحبك : أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت** » [٤] . متفق عليه ، قالوا : اعتبر إرشاده لجليسه إلى الخير ،

---

(١) مقالة للمؤلف رحمه الله بمجلة التوحيد الصادرة في مصر (العدد الخامس) .

(٢) قال النووي في (المجموع) (٤/ ٥٥٢) : « مذاهب العلماء فيمن دخل المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب : مذهبنا (أي الشافعية) أنه يستحب له أن يصلي ركعتين تحية المسجد ويخففهما ويكره تركهما . وبه قال الحسن البصري ، ومكحول ، والمقبري ، وسفيان بن عيينة ، وأبو ثور ، والحميدي ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن المنذر ، وداود ، وآخرون . وقال عطاء بن أبي رباح ، وشريح ، وابن سيرين ، والنخعي ، وقتادة ، ومالك ، والليث ، والثوري ، وأبو حنيفة ، وسعيد بن عبد العزيز ، لا يصلي شيئاً » وقال النووي نحو ذلك في شرح صحيح مسلم (٦/ ١٦٤) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ، باب : الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب (٩٣٤) ومسلم في الجمعة باب الإنصات يوم الجمعة في الخطبة (٨٥١) من حديث أبي هريرة .

وأمره بالمعروف لغواً مع قصر زمنه ، فالتشاغل بالتحية أولىٰ أن يكون لغواً فيمنع .

ثالثاً : بما رواه الطبراني من حديث ابن عمر مرفوعاً : « **إذا دخل أحدكم والإمام على المنبر فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ الإمام** » (١) .

والجواب عن الاثنين الأولين جملة أنها مخصوصة بمن دخل وصلىٰ وجلس فلا يعمه حكمها من دخل ولم يصل ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « **إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما** » (٢) ، فإنه إذا تعارض الخاص والعام قضىٰ بالخاص علىٰ العام .

ويخص الأول : أن إطلاق القول بأن الخطبة قرآن دعوىٰ لا دليل عليها ، نعم يجوز أن يكون فيها منه آية أو أكثر ، ومع ذلك فالحكم للغالب ، **ويخص الثاني**: أن مصلي الركعتين يطلق عليه منصت ، ونظيره في ذلك : ما رواه أبو هريرة في افتتاح الصلاة أن قال : **يا رسول الله، سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول فيه** (٣)؟ فأطلق السكوت علىٰ القول سراً ، فهنا كذلك ، ويخص الثالث : أنه حديث ضعيف ، فيه : أيوب بن نهيك ، قال أبو زرعة وأبو حاتم : إنه منكر الحديث (٤) فلا تقوم به حجة .

رابعاً واستدلوا : بما رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة من طريق

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢ / ١٨٤) « رواه الطبراني في الكبير وفيه أيوب بن نهيك وهو متروك ضعفه جماعة وذكره ابن حبان في الثقات وقال : يخطئ » .

(٢) رواه مسلم في الجمعة باب : التحية والإمام يخطب (٨٧٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الآذان باب ما يقوله بعد التكبير (٧٤٤) . ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة (٥٩٨) .

(٤) قاله ابن حجر في الفتح (٢/ ٤٧٥) .

عبدالله بن بسر قال : « **جاء رجل يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب ، فقال له: «إجلس فقد آذيت** » **وفي رواية** : « **وآنيت** » [١] قالوا : أمره بالجلوس دون التحية فدل على عدم مشروعيتها حينئذ .

والجواب عنه من وجوه : **الأول** : أنه يحتمل أن يكون هذا الرجل قد صلى التحية في مؤخر المسجد على مرأى منه ﷺ ، ثم تقدم ليتمكن من سماع الخطبة فتخطى الأعناق فأنكر عليه .

الثاني : يحتمل أن يكون الرجل دخل في أواخر الخطبة ، وقد ضاق الوقت بحيث لا يتمكن من التحية قبل الإقامة فلا يطالب بها ، ويدل على ذلك ما في بعض الروايات : « **فقد أذيت وآنيت** » أي : أبطأت .

الثالث : أن معنى قوله ﷺ : « اجلس » النهي عن تخطي الأعناق ، بدليل قوله : « فقد آذيت » وأما التحية فقد وكله عليه الصلاة والسلام إلى ما علمه الرجل قبل ذلك من ضرورة التحية ، ومع هذه الاحتمالات لا يقوى الحديث المذكور على الاحتجاج به في محل النزاع ذلك جملة حجج المانعين وقد بينا ما فيها من توجيه واحتمال .

واحتج الآخرون أولاً : بقوله عليه الصلاة والسلام : « **إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع وكعتين وليتجوز فيهما** [٢] » وهو قاض على عموم ما ذكروا من الأدلة ، ولا مطعن فيه ، قال النووي : لا أظن عالماً يبلغه هذا اللفظ صحيحاً فيخالفه [٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود في الجمعة باب تخطي رقاب الناس يوم الجمعة (١١١٨) وليس فيه وأنيت والنسائي في الجمعة باب النهي عن تخطي رقاب الناس والإمام على المنبر يوم الجمعة (٣/ ١٠٣) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في النهي عن تخطي الناس يوم الجمعة (١١١٥) وابن خزيمة (١٨١١) والحاكم (١/ ٢٨٨) وصححه ووافقه الذهبي . قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/ ١٤٤) وضعفه ابن حزم بما لا يقدح . وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٣٢٦) .

(٢) مر تخريجه ، ص ٣٨٧ .

(٣) انظر شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ١٦٤) .

ثانياً احتجوا : بما رواه جابر بن عبد الله قال : جاء رجل والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال : « **صليت يا فلان ؟**» فقال : لا ، قال : « **قم فاركع** » ، وفي رواية : « **فصل ركعتين** » رواه الجماعة [١] ، وهذا الرجل هو : سليك الغطفاني [٢] ، وأجاب المانعون بأنها واقعة حال لا عموم لها . ويدل على اختصاصها بسليك ما روي من حديث أبي سعيد أن الرجل كان في هيئة بذة فقال له : « **أصليت** » ، قال: لا ، قال : « **صلي ركعتين** » ، وحض على الصدقة [٣] . وأيضاً في هذا الحديث عند أحمد أن النبي ﷺ قال : « **إن هذا الرجل دخل في هيئة بذة وأنا أرجو أن يفطن له رجل فيتصدق عليه** » [٤] ، ورد بأن الأصل عدم الخصوصية ، وما ذكروه من قصد الصدقة لا يمنع القصد إلى التحية ـ أيضاً ـ معها فيكون كل منهما جزء علة للأمر ، ولو كان للفت النظر إلى الرجل فحسب لقال : إذا رأيتم ذا بذة فتصدقوه ، أو إذا كان أحدكم ذا بذة فليصل ركعتين حتى ينتبه له فيتصدق عليه .

وأجابوا عن حديث سليك ـ أيضاً ـ بأن النبي ﷺ سكت حتي فرغ سليك في صلاته ، فقد جمع سليك بين التحية والإنصات ، فلم يبق في حديثه حجة لمن أجاز التحية وقتئذ . ورد بأن حديث سكوت النبي ﷺ حتى يفرغ سليك ضعيف ،

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة باب إذا رأى الإمام رجلاً جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين (٩٣٠) ومسلم في الجمعة باب تحية المسجد والإمام يخطب (٨٧٥) . والترمذي في الصلاة باب : ما جاء في الركعتين إذا جاء الرجل والإمام يخطب (٥١٠) وقال (حسن صحيح) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر السابق قال : جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر فقعد سليك قبل أن يصلي فقال له النبي ﷺ أركعت قال : لا ، قال : قم فأدركها .

(٣) أخرجه النسائي في الجمعة باب حث الإمام على الصدقة يوم الجمعة والإمام في الخطبة (٣/ ١٠٦) والترمذي في الصلاة باب ما جاء في الركعتين إذا جاء الرجل والإمام يخطب (٥١١) وقال (حسن صحيح) وابن خزيمة (١٧٩٩) وحسنه الألباني في تعليقه على صحيح ابن خزيمة .

فإن الدارقطني الذي أخرجه من حديث أنس بن مالك قد ضعفه ، وقال الصواب أنه من رواية سليمان التيمي مرسلاً أو معضلاً [١] فلا صحة فيه ، على أنه لو ثبت لكان مخالفاً لقاعدتهم ، فإن العمل بعد الشروع فيه لا يجوز قطعه عندهم ، لا سيما إذا كان واجباً فعلى كلا الأمرين لاحجة لهم فيه ، وقد تعللوا بأجوبة أخرى يأباها النظر فلا داعي إلى سردها .

وبالجملة فلكل منزع ، وقد عرفت وجه الصواب في ذلك ، وهو ضروة[٢] صلاة تحية المسجد للداخل والإمام يخطب للأحاديث الصحيحة الصريحة الثابتة في ذلك مع ضعف جميع الأحاديث التي تمسك به المانعون في الاسناد أو الاستدلال و لا نرى ما يحملنا على ترك الصحيح الثابت ، والتحول عنه إلى

---

(١) أخرجه الدراقطني في الصلاة باب في الركعتين إذا إذا جاء الرجل والإمام يخطب (٢/ ١٥) من طريق عبيد بن محمد العبدي ثنا معتمر عن أبيه عن قتادة عن أنس قال : « دخل رجل من قيس، ورسول الله ﷺ يخطب ، فقال : له النبي ﷺ « قم فاركع ركعتين ، وأمسك عن الخطبة حتى فرغ من صلاته » قال الدراقطني « أسنده عبيد بن محمد العبدي عن معتمر عن أبيه عن قتادة عن أنس ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسل، كذا رواه أحمد بن حنبل وغيره عن معمر » . ثم أخرجه (١/ ١٦) عن أحمد بن حنبل ثنا معتمر عن أبيه قال : جاء رجل والنبي ﷺ يخطب فقال : يا فلان أصليت ؟ قال : لا ، قال، فصل ، ثم انتظره حتى صلى » انظر : فتح الباري (٢/ ٤٧٥) .

و أخرجه أيضاً (١/ ١٦) عن أبي معشر عن محمد بن قيس أن النبي ﷺ حين أمره أن يصلي ركعتين أمسك عن الخطبة حتى فرغ من ركعتيه ، ثم عاد إلى خطبته » قال الدارقطني : « هذا مرسل لاتقوم به الحجة ، وأبو معشر اسمه نجيح وهو ضعيف » . قال العلامة الطيب آبادي رحمه الله في (التعليق المغني على الدارقطني) (١/ ١٦ - ١٧) « وأيضاً هذه الزيادة - إمساكه عن الخطبة - معارضة لقول النبي ﷺ : « إذا جاء أحدكم والإمام يخطب ، أو قد خرج فليصل ركعتين ، وهذا حديث جيد الإسناد متفق على صحته مرويٌ في الصحاح ، ومعارضه ليس مما تقوم به الحجة لضعفه ولإرساله ، فكيف يترك العمل به ؟ بل ترد هذه الزيادة ، والله تعالى أعلم» .

(٢) قال ابن رشد في (بداية المجتهد) (١/ ٤٨٤) « والجمهور على أن ركعتي دخول المسجد مندوب إليها من غير إيجاب وذهب أهل الظاهر إلى وجوبها » والله أعلم .

الضعيف الواهي اللهم إلا العصبية الممقوتة والتقليد الأعمى ، هدانا الله إلى سواء السبيل .

س ٧ : سئل الشيخ : هل يصلي تحية المسجد إذا دخل أثناء آذان الجمعة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « نعم إذا دخل المسلم أثناء أذان الجمعة يصلي تحية المسجد ولا ينتظر حتى يفرغ المؤذن » .

س ٨ :سئل الشيخ : عن إئتمام المسافر بالمقيم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله : « صلى الصحابة المسافرون أربعاً خلف من يصلي أربعاً كما في صلاة ابن مسعود خلف عثمان خلافاً لابن حزم القائل : إن المسافر يجلس في الركعة الثانية ويترك الإمام يتم الأربع ثم يسلم بسلامه وهو خلاف عمل الصحابة » .

ويقول ابن حزم : إذا دخل المسافر في الثالثة أو الرابعة صلى ركعتين وسلم وحجة ابن حزم هي فرضية القصر وبطلان صلاة المسافر إذا أتم » .

س ٩ : سئل الشيخ : عن الاحتباء في خطبة الجمعة هل يدخل فيها إمساك رجل واحدة بيديه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الحبوة يوم الجمعة إذا أمسك رجلاً واحدة بيديه فهي حبوة أيضاً ، منهي عنها لأن العلة أنه يخشى خروج ريح أو نوم » .

س ١٠ : سئل الشيخ : عن معنى كفّ الثوب ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كف الثوب ضمه بعضه إلى بعض وهو جائز إذا كان ذلك حتى يتمكن من السجود . والمنهي عنه هو تشمير الكم حتى لا يتسخ من غبار الأرض . فإذا كان التشمير موجوداً قبل الصلاة فلا حرج عليه ، إنما الحرج أن يكفه خصيصاً عند دخول الصلاة » .

س ١١ : سئل الشيخ رحمه الله تعالى عن بعض المسلمين في غرب تنزانيا يصلون الجمعة ثم يصلون الظهر . فما حكم الجمع بين الصلاتين هاتين ؟

فأجاب رحمه الله تعالى : ثبت أن الجمعة في عهد النبي ﷺ لم تكن تصلي بالمدينة إلا في مسجد واحد ، وأن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يأتون إليه ﷺ من أطراف المدينة ومن العوالي ونحوها ليصلوا معه الجمعة ، واستمر العمل على ذلك في عهد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - فلم يثبت أن أحداً مع في عهده ﷺ ولا في عهد خلفائه الراشدبن - رضي الله عنهم - بالمدينة في غير المسجد النبوي أو في العوالي ونحوها مما هو حول المدينة ، بل كانوا يقصدون إلى المسجد النبوي لإقامة الجمعة فيه لعدم الحاجة في ذلك الوقت إلى إقامتها في أكثر من مسجد[1] ، وعندما وجدت الحاجة تعددت المساجد من أجل ذلك [2] رأى بعض الفقهاء كالمالكية أن من شروط صحة الجمعة أن تكون في مسجد ، مع اختلاف بينهم في شروطه ، ورأى آخرون كالحنفية أنها لا تصح إقامتها إلا في مِصْر تقام فيه

(١) ما ذكره الشيخ مأخوذ بالاستقراء كما قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ١١١ - ١١٢) فقال : (قال الشافعي ولا يجمع في مصر وإن عظم ولا في مساجد إلا في مسجد واحد، وذلك لأن النبي ﷺ والخلفاء بعده لم يفعلوا إلا كذلك) . وقال ابن المنذر في الأوسط (٤/ ١١٦) (أن الناس لم يختلفوا أن الجمعة لم تكن تصلى في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين إلا في مسجد النبي ويعطل سائر المساجد وفي تعطيل الناس الصلاة في مساجدهم يوم الجمعة لصلاة الجمعة واجتماعهم في مسجد واحد أبين البيان بأن الجمعة خلاف سائر الصلوات وأن الجمعة لا تصلى إلا في مكان واحد) .

(٢) وقد أخرج عبد الرزاق في المصنف (٥١٩٠) بسند صحيح عن ابن جريج قلت لعطاء أرأيت أهل البصرة لا يسعهم المسجد الأكبر كيف يصنعون ؟ قال لكل قوم مسجد يجتمعون فيه ، قلت : الحق عليهم التجميع في مساجدهم ثم يجزي ذلك عنهم من التجميع في المسجد الأكبر إن لم يسعهم ؟ قال : نعم) . قال الشيخ الألباني في الأجوبة النافعة (ص/ ٨٢) (ينبغي الحيلولة دون تكثير الجمع والحرص على توحيدها ما أمكن اتباعاً للنبي وأصحابه من بعده وبذلك تتحقق الحكمة من مشروعية صلاة الجمعة وفوائدها أتم تحقيق ، ويقضي على التفرق الحاصل بسبب إقامتها في كل المساجد كبيرها وصغيرها حتى أن بعضها ليكاد أن يكون متلاحقا في بعض البلاد) .

الحدود، وتنفذ فيه أحكام الإسلام مع اختلاف بينهم في تفسير المصر، اعتماداً من الفريقين على ما كان من فعل النبي ﷺ - وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم -، لكن الاستدلال بذلك لما ذهب كل منهما إليه غير صحيح، لأن مجرد الفعل والمداومة عليه إنما يدل على السنة والكمال، لا على توقف الصحة على ذلك، بل دل الدليل على صحتها في قرية وفي غير المسجد، فإن مصعب بن عمير[1] وأسعد بن زراره[2]، جمعا المسليمن بالمدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها، ولم

(١) قال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (١/ ١١٥) (وروى الدارقطني من طريق المغيرة بن عبد الرحمن عن مالك عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال: « **أذن النبي ﷺ الجمعة، قبل أن يهاجر، ولم يستطع أن يجمع بمكة، فكتب إلى مصعب بن عمير: أما بعد؛ فانظر اليوم الذي تهجر فيه اليهود بالزبور، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين** ». قال الشيخ الألباني في (إرواء الغليل) (١/ ٦٨) « سكت عليه الحافظ، ولم أره في سنن الدارقطني فالظاهر أنه في غيره من كتبه، وإسناده حسن إن سلم من دون المغيره، وهو ابن عبد الرحمن ابن الحارث بن عبد الله بن عياش أبو هاشم المخزومي وقد احتج به الشيخان وفيه كلام يسير ».
وروى الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٦٧) رقم (٧٣٣) والأوسط (٦٢٩٤) ببعضه عن أبي مسعود الأنصاري قال: أول من قدم من المهاجرين المدينة مصعب بن عمير، وهو أول من جمع بها يوم الجمعة، جمعهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ، وصلى بهم.
قال الحافظ ابن حجر في (التلخيص) (١/ ١١٥): « وفي إسناده صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف» وأقره الشيخ الألباني في الإرواء (١/ ٦٨). الله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب الجمعة في القرى (١٠٦٩) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها في باب فرض الجمعة (١٠٨٢) وغيرها وقال ابن حجر في (التلخيص الحبير) (١/ ١١٥) «وإسناده حسن».
وحسنه الشيخ الألباني في (إرواء الغليل) (١/ ٦٧). وبينه وبين الحديث السابق مخالفة فإن فيه أن أسعد بن زرارة هو أول من جمع بهم وفي هذا الحديث قال عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب بن مالك أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة قال: لأنه أول من جمع بنا في هَزْم النَّبيت من حَرَّةِ بني بياضة في نقيه يقال له نقيع الخضمات قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال أربعون). وقد جمع ابن حجر بينهما بقوله (ويجمع بينه وبين الأول بأن أسعد كان آمراً، و كان مصعب إماماً).
وقال الشيخ الألباني في (الإرواء) (٣/ ٦٩).
« ويمكن أن يقال أن مصعباً أول من جمع في المدينة نفسها، وأسعد من جمع في بني بياضة وهي قرية على ميل من المدينة). الله أعلم.

تكن حينئذ تقام به الحدود ، ولا تنفذ فيها الأحكام لضعف شوكة المسلمين ، وأقيمت الجمعة بقرية جواثي بالبحرين في عهد النبي ﷺ[١] ، فدل ذلك على أنه لا يشترط المصر ولا المسجد لصحة صلاة الجمعة .

ويرى جمهور العلماء أنه لا يجوز تعددها في البلد الواحد مراعاة لجمع الكلمة ، وإشعاراً بالوحدة ، إلا لحاجة تدعو إلى ذلك ، كتباعد أطراف البلد ، أو ضيق المسجد عن أهله ، أو وجود خصومة بين سكانه ينشأ عنها خطر عند الاجتماع ، فيجوز تعددها بقدر الحاجة ، دفعاً للمشقة ورفعاً للحرج عنهم قال الله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[٢] ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٣] ولأنها صليت في أماكن عند الحاجة ، وعلى هذا يتبين أن الجمعة إذا أقيمت في غير المصر وفنائه كانت باطلة عند الحنفية ، وعلى من صلاها أن يصلي الظهر .

وأن من صلاها في غير مسجد ولو في مصر بطلت جمعته عند المالكية ، ووجب عليه عندهم أن يعيدها جمعة في مسجد ما دام الوقت ، مع استيفاء بقية شروطها وإلا صلاها ظهراً ، وأنها إذا أقيمت في مصر جماعة في مساجد متعددة لغير حاجة صحت عند جمهور الفقهاء ممن صلاها في الجامع العتيق أو ممن سبق بها في غيره ، وبطلت على غيره ، وعند العلم بالتساوي تبطل على الجميع ، ويجب على من بطلت جمعته من هؤلاء أن يصلي ظهراً ، فإن أقيمت في مسجد جماعة بمصر ولم تتعدد به أو تعددت لحاجة تدعو إلى ذلك مع استيفاء باقي شروطها صحت عند الجميع .

ولهذا يعرف أن السبب في صلاة بعضهم الظهر بعد أن صلى الجمعة إنما هو فقد شرط صحة الجمعة في رأيه أو في مذهب من قلده ، مع اتفاق الجميع على أن

---

(١) يشير إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه البخاري في صحيحه رقم (٨٩٢ ، ٤٣٧١) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

الله لم يفرض على المسلمين في كل يوم وليلة إلا خمس صلوات .

وقد تقدم أن اشترط المصر في صحة إقامتها ، أو اشتراط المسجد في صحتها لا ينهض الدليل على إثباته ، وأن المنع من تعددها في البلد الواحد إلا لحاجة يتفق مع ما كان عليه العمل في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين كما يتفق مع الحكمة التي من أجلها شرعت الجمعة ، لكن غاية ما يدل عليه ذلك أنه يسن عدم تعددها في البلد الواحد إلا لحاجة ، وعلى هذا فالصواب أن من صلى الجمعة في المسجد الذي حصل به التعدد في البلد لغير حاجة فصلاته صحيحة وقد أساء لتركه السنة ولا يصلي ظهراً بعد صلاته الجمعة ، والله الموفق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

س ١٢ : سئل الشيخ رحمه الله تعالى : هل صلاة العيد تجزئ عن صلاة الجمعة ؟

اختلف العلماء فيما إذا كان العيد يوم جمعة ، فقال جماعة : من صلى العيد مع الإمام سقطت عنه الجمعة ولا ظهر عليه أيضاً ذلك اليوم ،واستدلوا بما رواه النسائي في سننه « المجتبى » بسنده عن وهب بن كيسان قال : اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير ، فأخر الخروج حتى تعالى النهار ، ثم خرج فخطب فأطال الخطبة، ثم نزل فصلى ، ولم يصل للناس يومئذ الجمعة ، فذكر ذلك لابن عباس رضي الله عنهما ، فقال : أصاب السنة (١) ، وبما رواه أبو داود في سننه بسنده عن عطاء بن أبي رباح قال : صلى بنا ابن الزبير في يوم عيد في يوم جمعة أول النهار، ثم رحنا إلى الجمعة فلم يخرج إلينا فصلينا وحدانا ،وكان ابن عباس بالطائف ، فلما قدم ذكرنا ذلك له ، فقال : أصاب السنة (٢) ، وبما رواه أبو داود أيضاً عن عطاء قال : اجتمع يوم جمعة ويوم فطر على عهد ابن الزبير رضي الله

---

(١) أخرجه النسائي في صلاة العيدين ، باب : الرخصة في التخلف عن الجمعة لمن شهد العيد (٣/ ١٩٤) صححه الألباني في صحيح النسائي (١١٥٠١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب : تفريغ أبواب الجمعة (١٠٧١) .

عنهما فقال : عيدان اجتمعا في يوم واحد ، فجمعهما جميعاً فصلاهما ركعتين بكرة لم يزد عليهما ، حتى صلى العصر [١]، فترك ابن الزبير صلاة الجمعة ذلك اليوم وهو الإمام إذ ذاك وقول ابن عباس : أصاب السنة ، وعدم إنكار أحد من الصحابة عليه ، وعدم خروجه ذلك اليوم عند الزوال لصلاتها أو صلاة الظهر بالناس دليل على سقوطها وسقوط الظهر يومئذ عنه وعمن صلى العيد معه ، بل دليل على سقوطهما عنهم وعن غيرهم ممن لم يصل معه العيد ذلك اليوم .

ثم أن هذه المسألة من مسائل العبادات والعبادات مبنية على التوقيف في مثل ذلك ، فكان عمل ابن الزبير رضي الله عنهما في حكم المرفوع .

لكن قال أبو البركات ابن تيمية في المنتقى عقب ذكر عمل ابن الزبير : قلت : وجه هذا أنه رأي تقدمة الجمعة قبل الزوال فقدمها واجتزأ بها عن العيد . أ هـ[٢] .

ويقال أيضاً إن إسقاط صلاة الجمعة والظهر عمن صلى العيد خارج عن الأصول التي فرضت على المكلفين خمس صلوات في كل يوم وليلة ، وعن الأصول التي دلت على إقامة كل الصلوات في جماعة ، وهؤلاء قد صلوا الجمعة أو الظهر وحدانا حينما لم يخرج لهم ابن الزبير ، وكان المشروع لهم على مقتضى دليلهم ألا يصلوها أصلاً اكتفاء بصلاتهم العيد ، أو أن يصلوها جماعة بمقتضى دليل مشروعية الجماعة في الفرائض .

وقال أكثر الفقهاء : لا يرخص لمن صلى العيد في ترك الجمعة ذلك اليوم ، ولا لغيرهم بل يجب على من توفرت فيه شروط وجوبها أن يصليها ، لأن أدلة وجوبها عامة لم تفرق بين من صلى العيد ذلك اليوم ومن لم يصله ، والأصل بقاء ذلك حتى يثبت من أدلة الشرع ما يدل على خلافه .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب : تفريع أبواب الجمعة (١٠٧٢) .
(٢) انظر نيل الأوطار (٣/ ٣٢١) .

س١٣ : سئل الشيخ : عن رجل بلده مصر وهو يعمل في السعودية فهل يقصر إذا زار مصر؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا أقام المسافر أكثر من أربعة أيام يتم ، وإذا سافر من السعودية إلىٰ مصر يتم من حين يصل بلده » .

س ١٤ : سئل الشيخ : هل يصح أن يصلي ركعتين استخارة عن أمرين مختلفين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يصلي ركعتين للإستخارة عن شيء معين ثم يصلي استخارة عن الأمر الآخر ، وهذا مع الإستشارة أيضاً ولا تجزئ ركعتان عن أمرين مختلفين أو أمر مخير فيه » .

س ١٥ : سئل الشيخ : هل يشرع تكرار الاستخارة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يشرع تكرار الاستخارة إذا لم ينشرح صدره لأحد الأمرين من أول مرة » .

س ١٦ : سئل الشيخ : هل يشرع رفع اليدين في تكبيرات العيدين والجنازة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تكبيرات صلاة العيدين والجنازة لا يشرع فيها رفع اليدين ، وأنا لا أرفع يدي والموقوف علىٰ ابن عمر لا يكفي . ولا يشرع بينهما ذكر أو دعاء » .

س ١٧ : سئل الشيخ : حكم الخروج لصلاة العيد في مسيرات ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الخروج للعيد في مسيرات منظمة مشروع إذا كان علىٰ وجه التعليم ، وإشعار الناس بالصلاة في الخلاء » .

س ١٨ : سئل الشيخ : التكبير الجماعي في صلاة العيد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يكبر الإنسان من البيت إلىٰ المصلىٰ وفي المصلىٰ جهراً فيشرع لكل شخص أن يجهر بالتكبير لحاله بحيث يرتجّ المكان بالتكبير

ويصير عَجًّا .

أما اتفاقهم بحيث يبدأون وينتهون معاً فهذا التكبير الجماعي لم يرد عليه دليل ولذا فهو غير مشروع » .

س ١٩ : سئل الشيخ : هل إقامة الصلاة في الميكرفون أفضل أم بدونه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الإقامة في الميكروفون أفضل ؛ لأن بعض الناس قد يكون غافلاً فتحركه الإقامة » .

س ٢٠ : سئل الشيخ : هل يجوز وضع المصلي نعله أمامه واتخاذه إياها سترة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يصلح النعل سترة . أما إذا خشي عليها السرقة فوضعها أمامه ، فلا بأس » .

س ٢١ : سئل الشيخ : عن تحريك الأصبع بين السجدتين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هو قول الشيخ ابن عثيمين ولا دليل على ذلك والأحاديث الواردة تحمل على التشهد » .

س ٢٢ : سئل الشيخ : معنى الحديث « كان النبي ﷺ إذا سجد يَرُصُّ عقبيه » [(١)] هل يشترط أن يتلامسا ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا . بل معناه يجعلهما قريبين من بعضهما ولا يشترط أن يتلامسا » .

س ٢٣ : سئل الشيخ : عن تحريك الأصبع في التشهد هل يحرك أم يكتفي بالإشارة بدون تحريك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كلاهما سنة عن النبي ﷺ والأفضل التحريك » .

---

(١) رواه ابن خزيمة (٦٥٤) ، والبيهقي (٢/ ١١٦) . والحاكم (١/ ٢٢٨) وصححه ووافقه الذهبي . وهو كما قالا .

س ٢٤ : سئل الشيخ : عن حكم رسم خطوط المساجد لتستوي الصفوف عليها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا كان الناس لا تستقيم صفوفهم إلا بذلك فلا بأس ، أو كان المسجد قد بني منحرفاً عن القبلة ولا تستقيم الصفوف فيه إلا برسم خطوط فلا بأس بذلك إن شاء الله » .

س٢٥ : سئل الشيخ : عن بناء البيوت فوق المساجد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لقد صدرت عن اللجنة فتوىٰ خلاصتها إذا كان البيت سابقاً وطرأ المسجد أسفله فلا بأس ، أما إذا كان المسجد سابقاً فلا يبنىٰ فوقه إلا بشرط خلو البناء فوقه من دورات مياه أو يكون منفعة عامة كمدرسة » .

س ٢٦ : سئل الشيخ : حكم تقدم المسبوقين أو تأخرهم قليلاً بعد تسليم الإمام لئلا يحسب الداخل أن الجماعة ما زالت قائمة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا كان لأجل أن يوسع لنفسه لضيق المكان فما هناك بأس وهو جائز . أما أذا كان لدفع الإيهام فليس مطلوباً شرعاً ، وهناك من هو جالس لم يقم وبعد قليل تختلف هيئتهم » .

س ٢٧ : سئل الشيخ : وقت القيلولة قبل الظهر أو بعده في المنقول من السنة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « قد يكون قبل أن يصلوا الظهر ثم يصلون إذا خفت الحرارة . وقوله ﷺ : **« أبردوا بالظهر »** [١] معناه أنه يقيل من قبل ، فإذا نام بعد الصلاة فلا تعتبر قيلولة » .

س ٢٨ : سئل الشيخ :عن تحية المسجد هل هي سنة أم واجبة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تحية المسجد ليست بواجبة » .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه (٥٣٨) . (٣٢٥٩) . وابن ماجه (٦٧٩) . وأحمد (٣/ ٥٣ ، ٥٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

س ٢٩ : سئل الشيخ : هل يأثم بتركها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تارك السنة المؤكدة عند المالكية يأثم » .

س ٣٠ : سئل الشيخ : ماحكم من تعمد ترك واجب في الصلاة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « من ترك واجباً متعمداً في الصلاة بطلت صلاته» .

س ٣١: سئل الشيخ : إذا خرج من المسجد لحاجة يسيرة ثم رجع . هل تلزمه تحية المسجد؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « من خرج من المسجد لحاجة يسيرة ولم يطل الفاصل ثم عاد إلى المسجد كمن خرج ليكلم إنساناً بالخارج ، أو يشرب ماءً بالخارج لا تلزمه تحية المسجد حتى عند القائلين بالوجوب » .

س ٣٢ : سئل الشيخ : هل تجزئ السنة القبلية عن تحية المسجد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجزئ الجمع بين تحية المسجد وسنة قبلية » .

س ٣٣ : سئل الشيخ : ما حكم من قام من الركعة الثانية إلى الثالثة بدون جلوس للتشهد ثم تذكر فرجع وجلس ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا قام المصلي من الركعة الثانية إلى الثالثة بدون أن يجلس للتشهد ثم عاد إلى الجلوس فبعض العلماء يبطل صلاته ؛ لأن انتقل من فريضة إلى سنة (عند المالكية والشافعية) أو واجب عند الحنفية والحنابلة .

س٣٤ : سئل الشيخ : ما حكم كفّ الشماغ عن الأرض عند السجود ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كف الشماغ عن الأرض عند السجود هو منهي عنه كالشعر وفي الحديث لا يكفت شعراً ولا ثوباً [١] . إذا كان بقصد ألا يتسخ لا يجوز . أما إذا رفعه قبل الصلاة بقصد ألا يشغل ، فهو كفت غير ممنوع » .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٨١٥ ، ٨١٦) وفي غير موضع ومسلم (٤٩٠) . وأبو داود (٨٨٩) . والترمذي (٢٧٣) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

س ٣٥ : سئل الشيخ : هل يجوز للمدرس أن يأمر الطالب بصلاة الراتبة ويعاقبه عليها إذا لم يصلها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « له أن يأمر بأداء الراتبة من باب النصيحة فإذا لم يستجب الطالب فليس له معاقبته » .

س ٣٦ : سئل الشيخ : قراءة بعض سورة السجدة وبعض سورة الإنسان أو السجدة على ركعتين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « خلاف السنة » .

س ٣٧ : سئل الشيخ : عن حكم قلب الغترة في صلاة الاستسقاء ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « في الاستسقاء إذا لم يكن معه رداء قلب الكوت وإن لم يكن معه قلب الغترة ، ولا يصح أن يقلب الطاقية ، ولكن الغترة تقوم مقام الرداء وهذه هيئة مستحبة غير واجبة » .

س ٣٨ : سئل الشيخ : ماذا يقول الإمام عند الجمع لصلاة الكسوف ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « في الكسوف يقول الصلاةَ جامعة ، أو الصلاةُ جامعة ، وجهان صحيحان لغة ، ولكن الرواية بالرفع » .

س ٣٩ : سئل الشيخ : عن حكم تنفل الإمام في مكانه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تنفل المأموم في مكانه بالمسجد بعد صلاة الفريضة لا حرج فيه ، أما الإمام فالأفضل أن يتحول عن مكانه » .

س ٤٠ : سئل الشيخ : عن حكم صلاة الطلاب جماعة في المدرسة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « صلاة الطلاب في المدرسة غلط لا يجوز ولكن يتعين الذهاب إلى المسجد للصلاة هناك » .

س ٤١ : سئل الشيخ : عندما يصلي الطلاب في المدرسة يخصص الصف الأول لفصول معينة فما حكم ذلك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تخصيص الصف الأول في المسجد لفصل معين لا يجوز ، بل الصف الأول لمن سبق فمن سبق له التقدم في الصف ، وإن لم يكن داخلاً في توطين البعير .

س ٤٢ : سئل الشيخ : هل تسقط الجماعة عن المسجون ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « المقيم إقامة جبرية كالسجين تسقط عنه الجماعة في المسجد ، ولكن يصلون جماعة في السجن » .

س ٤٣ : سئل الشيخ : ماتقول فيمن لا يدرك قراءة الفاتحة خلف الإمام لسرعته وتخفيفه؟ وهل من أدرك الإمام راكعا تحسب له ركعة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « دبر حالك وأسرع في القراءة وبعد ذلك لا يصلي خلفه ويعيد الصلاة إذا لم يدرك الفاتحة في كل الركعات . أما إذا فاتته الفاتحة في ركعة واحدة أعاد ركعة واحدة .

ومن أدرك الركوع لا يدرك الركعة وهو رأي قليل من أهل العلم ولي مقال قديم في أول عدد من مجلة الهدي النبوي . قلت فيه : الفاتحة لا تسقط في حق من أدرك الإمام راكعاً وأنا شخصياً إذا رأيت الإمام راكعاً أظل واقفاً ولا أركع حتى يرفع الإمام خروجاً من الخلاف .

وفي حديث أبي بكرة : « **ولا تعُد** » أي عَذَرَهُ فيما مضى لكن بعد ذلك لا يعود إلي احتساب الركعة ركعة وهو رأي ابن حزم وظاهر كلام البخاري ، وهناك فتوى للجنة الدائمة باحتساب الركعة ولم أوقع عليها لاختلافي معهم فيها » .

س ٤٤ : سئل الشيخ : ما حكم اتخاذ السترة للمصلى ؟ وهل يجوز أن يصلي المصلي إلى غير سترة خشية فوات الصف الأول ، إذا انتقل إلى عمود أو غيره ليتخذه سترة؟ وما هو تأويلكم لحديث ابن عباس عند البخاري أنه ﷺ صلى إلى غير جدار ؟ [١] .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « حكم اتخاذ السترة في الصلاة أنه واجب ، ولا يجوز للمصلي أن يصلي إلىٰ غير سترة ؛ من جدار أو عمود أو غيره ولو أدىٰ ذلك إلىٰ فواته من الصلاة في الصف الأول .

وأما الحديث المذكور ، فليس معناه أن النبي ﷺ صلىٰ إلىٰ غير سترة ، وإنما سترته لم تكن جداراً . والسترة ليست الجدار فقط وإنما تكون جداراً وغيره .

وأما الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ صلىٰ في أرض فضاء ليس بين يديه شيء فينظر في اسناده [٢] ، فإن صح كان قرينة تصرف الأوامر بالسترة من الوجوب إلىٰ الندب . وإن لم يصح كان الأمر علىٰ ما ذكرت وهو الوجوب والله أعلم .

س ٤٥ : سئل الشيخ : ما حكم الصلاة خلف إمام يتوسل بالصالحين أو يشرب الدخان ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « من يتوسل بالصالحين لا تصح إمامته ؛ لأنه ممنوع من جهة العقيدة . أما شارب الدخان فتصح إمامته » .

س ٤٦ : سئل الشيخ : ما حكم الصلاة على من مات تاركاً الصلاة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « علىٰ المسلمين ترك الصلاة عليه ؛ لأنه كافر ولو ترك فريضة واحدة عمداً » .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الصلاة (٤٩٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٦٣) . وعزاه لأحمد وأبو يعلي وقال : فيه الحجاج بن أرطاة وهو ضعيف .

س ٤٧ : سئل الشيخ : ماذا يفعل من كان أبوه لا يصلي ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « إذا كان أبوه وأمه لا يصليان يدعوهما ويبرهما ودعوتهما للإسلام هي أحسن ما يفعله تجاههما » .

س ٤٨ : سئل الشيخ : إذا أقيمت الصلاة وهو يصلي نافلة هل يخرج منها لصلاة الفريضة؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « نعم يخرج لأن صلاته تنقطع بذاتها ولا يحتاج إلى تسليم . فيجب أن يخرج من النافلة ويصلي المكتوبة حتى لو بقي منها قليل ؛ لأن صلاته بطلت بذاتها ليس هو الذي يبطلها » .

س ٤٩ : سئل الشيخ : ما حكم حلق تلاوة القرآن بعد صلاة فجر يوم الجمعة ؟

فقال الشيخ : رحمه الله - : « إذا لم يكونوا يخصصون يوم الجمعة ولكنها دائمة في جميع أيام الأسبوع فهي مشروعة » .

س ٥٠ : سئل الشيخ : يقول السائل والدي شيخ كبير السن ومريض جداً . وقد يفقد الذاكرة أحياناً فهل تسقط الصلاة عنه ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « تسقط الصلاة عنه وقت الغفلة والذهول . وينبغي لمن حوله من أولاده أو اخوانه أو غيرهم من أهله وقرابته والمحيطين به أن ينصحوه وينبهوه ليذهب عنه الذهول والغفلة . ينبغي لمن حوله أن ينبهه مساعدة له على أداء الفرض الواجب عليه . فإذا لم يكن عنده من ينبهه فهو معذور وقت غفلته . وإذا انتبه وجب عليه أن يستدرك مافاته » .

س ٥١ : إذا نسي الإمام في صلاة التراويح فلم يسلم في الثانية ثم قام إلى الركعة الثالثة ، ثم عرف أنه أخطأ وأراد أن يصليها أربعاً فهل على المأمومين متابعته ؟ وما الدليل على ذلك ؟

الجواب : عندي أن الأمر في هذا واسع : له أن يستمر وأن يكملها أربعا ،

وله أن يجلس بعد الثالثة الزائدة ويسجد للسهو ، والذي أختاره لنفسي وأراه وأعمل به أن يجلس ودليلي على هذا : « **إنما الأعمال بالنيات** »[١] ، وهو لم يدخل إلا ليصلي ركعتين . فليجلس ، وليتم الركعتين وليسلم . ثم لحديث : « **صلاة الليل مثنى مثنى** »[٢] هذا هو الدليل ، والعلماء يتوسعون في النوافل ما لا يتوسعون في الفريضة ، إذ الفريضة محدودة والنافلة بابها واسع ، هذا هو الحكم الذي أراه والدليل الذي أستدل به « **إنما الأعمال بالنيات** » ، و« **وصلاة الليل مثنى مثنى**»[٣] .

س ٥٢ : هل تجب قراءة الفاتحة في كل ركعة من صلاة الترawيح ؟

الجواب : نعم لا فرق بين النافلة والفريضة ، تجب الفاتحة في كل ركعة من ركعات الفريضة والنافلة ، يجب على المصلي أن يقرأ الفاتحة في كل كعة من الركعات ، والمسبوق فيه خلاف ، الأئمة الأربعة ، والجمهور من غير الأئمة الأربعة أيضاً يقولون أن المسبوق الذي أدرك الإمام في الركوع لا تجب عليه قراءة الفاتحة ، وقليل من العلماء قالوا تجب عليه أيضاً ولا يعتد بالركعة ، هؤلاء قلة من الأئمة ومن غير الأئمة الأربعة فلا فرق بين النافلة كصلاة التراويح والفريضة كصلاة الظهر أو المغرب في أن الفاتحة [٤] فرض على المأموم كالإمام والمنفرد .

---

(١) أخرجه البخاري (١) وفي غير موضع من كتابه ، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب قال ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** . . . » الحديث .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٩٩٠) . ومسلم (٧٤٩) . وأبو داود (١٣٢٦) . والنسائي (٣/ ٢٢٣) . وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢١)[٩٩٠] . ومسلم (٧٤٩) من حديث بن عمر رضي الله عنهما . قال رسول الله ﷺ : « **صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى**» .

(٤) أخرج البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : «**لا صلاة لمن لا يقرأ بفاتحة الكتاب** » . وأخرج مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة عن النبي =

س ٥٣ : سئل الشيخ : بعض الأئمة لا يتركون فرصة للمأمومين لقراءة الفاتحة بعد قراءتهم هم للفاتحة خاصة في صلاة التراويح فهل يجب قراءتها ؟

الجواب : يجب قراءة الفاتحة كما تقدم الكلام في هذا ، ولم يرد نص في أن الإنسان يخص قراءة الفاتحة بسكتة من السكتات ، إنما يجب عليه أن يقرأ الفاتحة وهو يتحين لها الفرصة ، ولكن يقرأها أثناء قراءة الإمام للفاتحة ، أو في قراءة الإمام للسورة ، والأئمة يطولون في التراويح في قراءة القرآن فيقرأها أثناء قراءة الإمام للفاتحة ، أو أثناء قراءته للسورة أما أن يجعل لها سكتة خاصة بين الفاتحة والسورة فإن هذا لم يثبت في حديث والحديث الذي ورد في هذا الأمر لم يثبت[1] .

والذين قالوا بوجوب قراءة الفاتحة ما عينوا لها زمناً ، لكن بعض الناس يتحين الفرصة بوجود سكتة بين السورة والفاتحة ليجمع بين الأمرين ، هذا اجتهاد من المأمومين أما قراءة الفاتحة فليس لها زمن معين في وقفة الإمام ، فليقرأ الفاتحة حين قراءة الإمام لها أو ليقرأها حين قراءة الإمام للسورة أو الآيات التي يقرأها .

س ٥٤ : هل صلاة التارويح ثلاث عشرة ركعة أم اثنتان وعشرون ؟

فأجاب الشيخ رحمه الله تعالى بقوله : ثبت عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة - رضي الله عنها - كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟ فقالت : ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة

= ﷺ قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج (غير تمام) ثلاثاً فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال اقرأ بها في نفسك . . الحديث » .

(١) يشير إلى حديث سمرة بن جندب كان للنبي ﷺ سكتتان ، سكتة حين يكبر ، وسكتة حين يفرغ من قراءته .

أخرجه البخاري في « جزء القراءة » ص ٢٣ ، وأبو داود (٧٧٩) ، والترمذي (٢٥١) ، وابن ماجه وغيرهم وهو ضعيف انظر : السلسلة الضعيفة (٥٤٧) ، وكذا « للإمام سكتتان ، فأتموا القراءة فيهما بفاتحة الكتاب » وقال الألباني في الضعيفة (٥١٦) « لا أصل له » .

ركعة ، يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً ، قالت عائشة - رضي الله عنها - ، فقلت : يارسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : « **يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي** » [(١)] . رواه البخاري في صحيحه ، وثبت عن مسروق أنه سأل عائشة - رضي الله عنها - عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل . فقالت : « **سبع وتسع وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر** » [(٢)] رواه البخاري في صحيحه ، وثبت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : كانت صلاة النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة » [(٣)] يعني بالليل رواه البخاري في صحيحه ، وثبت عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ صلىٰ ليلة في المسجد فصلي بصلاته ناس ، ثم صلىٰ من القابلة فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فلما أصبح قال : « **قد رأيت الذي صنعتم ، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني حشيت أن تفرض عليكم ، وذلك في رمضان** » [(٤)] رواه البخاري ومسلم ، وثبت عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : **كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر ، إحدى عشرة ركعة ، يسلم بين كل ركعتين ، ويوتر بواحدة** » ، رواه مسلم وأبو داود والنسائي [(٥)] .

فمن هذا ونحوه من الأحاديث يتبين أن رسول الله ﷺ لم يزد في صلاة الليل

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة التراويح باب من قام رمضان (٢٠٣٢) .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري رقم (١١٣٩) .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١١٣٨) . ومسلم (٧٦٤) .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد ، باب : تحريض النبي ﷺ علىٰ قيام الليل والنوافل من غير إيجاب (١١٢٩) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦١) .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب : صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة (٧٣٦) وأبو داود في الصلاة باب : في صلاة الليل (١٣٣٧) والنسائي في صلاة باب : إيذان المؤذنين الأئمة (٣٠١٢) .

على إحدى عشرة ركعة كما في حديث عائشة رضي الله عنها ـ ، وثلاث عشرة ركعة كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، وأنه كان ينقص من ذلك أحياناً ، وقد استمر العمل على صلاة الليل إحدى عشرة ركعة في خلافة أبي بكر وصدر من خلافة عمر ـ رضي الله عنهما ـ باتفاق ، ثم اختلف الفقهاء هل صارت صلاة الليل ـ التراويح ـ في شهر رمضان آخر خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ عشرين ركعة سوي الوتر في الجماعة ، أو أن الذي جد هو صلاتها جماعة بعد أن كان المسلمون يصلونها فرادى ، أما عدد الركعات فإحدى عشرة ركعة لم يتغير عما كان عليه من قبل ؟

وسبب اختلافهم في ذلك الاختلاف ما أمر به عمر رضي الله عنه ـ من عدد ركعات التراويح وما فُعل في عهده ، فقد روى مالك في الموطأ عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر ـ رضي الله عنه ـ أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوم بالناس بإحدى عشرة ركعة قال : وقد كان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر »[1] وروى مالك[2] عن يزيد بن رومان بثلاث وعشرين ركعة »[3] ، وأرى أن صلاتها إحدى عشرة ركعة أفضل ، فإنه على تقدير عدم صحة ما روى أنها صليت في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ عشرين أو ثلاث وعشرين ركعة فالأمر ظاهر ، وعلى تقدير صحة صلاتها عشرين أو ثلاث وعشرين ركعة في عمر ـ

---

(١) بُزُوغ الفجر : هي أوائله وأول مايبدو منه . يعني بذلك أنهم كانوا لا يقضون صلاتهم لطول القيام إلا قرب الفجر ـ قاله الباجي في المنتقى (١/ ٢٠٩) .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في الصلاة في رمضان باب : ما جاء في قيام رمضان (٤) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الصلاة في رمضان باب ما جاء في قيام رمضان (٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٩٦) وقد ضعفه النووي في المجموع (٤/ ٣٣١) بقوله (رواه البيهقي ولكنه مرسل فإن يزيد بن رومان لم يدرك عمر » . وكذلك ضعفه العيني في (عمدة القاري) (٥/ ٣٥٧) بقوله (سنده منقطع) .

رضي الله عنه - فالعمل بما ثبت عنه ﷺ وعُمِلَ به في عهد أبي بكر وصدر من خلافة عمر - رضي الله عنهما - مقدم على ما حدث بعدُ باجتهاد ، والخطب في هذه المسألة سهل ، فإنه خلاف في أي العملين أفضل ؟

وأما ما جرىٰ عليه العمل بالمملكة العربية السعودية في صلاة التراويح في عصرنا ، فبعض الأئمة يصليها بالمساجد جماعة إحدىٰ عشرة ركعة ، وبعضهم يصليها بالمساجد جماعة ثلاثاً وعشرين ركعة ، عملاً ببعض ما ثبت في نظرهم من الآثار عن عمر رضي الله عنه .

رابعا : فتاوى الصيام

س ١ : هل الراجح أن لكل بلد رؤية يصوم بها أم يصوم البلد برؤية غيره من البلدان ؟

الجواب : يُرجَحُ أن لكل بلد رؤيتهم .

س ٢ : إذا كان مفتي البلد يعمل بالحساب الفلكي ولا يأخذ بالرؤية ، فماذا نفعل إذا علمنا أن رمضان قد انتهى ، وقد أفطر المسلمون في بلد قريب منا قد بدأوا صومهم معنا ؟

الجواب : قال الشيخ : تفطرون سراً مع المسلمين القريبين منكم والذين قد رأوا الهلال ، وتصلون العيد مع الناس في اليوم التالي درءاً للفتنة .

س ٣ : تختلف بداية شهر رمضان في دولة عنها في الدول الأخرى وكذلك يختلف وقت بداية الفطر فكيف يفعل المسلم هل يصوم مع بلده أم يصوم إذا رأت إحدى الدول الإسلامية الهلال ؟ وماذا تفعل الجالية الإسلامية التي تعيش في إحدى الدول الكافرة ؟

الجواب : إذا كان الإنسان في دولة إسلامية تتراءىٰ الهلال وتعتني به يجب عليه الصوم تبعاً لرؤية دولته ولا يجب عليه أن يتبع دولة أخرىٰ إلا إذا كانت البلد التي يعيش فيها دولة كافرة لا تتراءىٰ الهلال ، وهم جماعة أو جالية إسلامية ولا يتراءون الهلال بأنفسهم فإنهم يصومون مع أقرب دولة إسلامية إليهم تعتني برؤية الهلال ، فيصومون بصومها ويفطرون بفطرها .

فإن كانت هناك جالية إسلامية لها كيان منظم وتعتبر نفسها مستقلة بأمورها كأنها دولة داخل الدولة وتراءوا الهلال فإنهم يصومون برؤية أنفسهم .

ويجدر بالذكر هنا أن مسألة رؤية الهلال وهل رؤية بلد ملزم لكل البلاد الإسلامية أن يصوموا ويفطروا أم أن لكل أهل بلد رؤيتهم الخاصة هذه المسألة من المسائل الإجتهادية التي فيها خلاف بين أئمة الفقهاء وكل يعمل بما يرىٰ .

فإذا كان الإنسان من العلماء فإنه يعمل بما يرىٰ وإن لم يكن الإنسان من العلماء وكان من جمهور الناس وعوامهم فهو يتبع أئمة بلده ، ويتبع العلماء الذي يقوون علىٰ أخذ الأحكام من أدلتها .

والإنسان يعرف حال نفسه من العلم والجهل وينبغي للمرء أن يكون منصفاً في أحواله وأموره وينبغي أن يكون مريداً للحق متبعاً له ولا يتبع الهوىٰ والشيطان .

س ٤ : المسافر بالطائرة إذا غربت الشمس في الأرض يفطر ولكن إذا ارتفعت الطائرة في الفضاء يرى أن الشمس لم تغرب فما يفعل ؟

قال الشيخ رحمه الله : إذا غابت الشمس في الأرض فإن الصائم يفطر ، فإذا ارتفعت الطائرة في الفضاء ، فرأىٰ الشمس لم تغرب استمر علىٰ فطره أما إذا ارتفعت الطائرة قبل الغروب فإنه يستمر صائماً حتىٰ تغيب الشمس في الطائرة .

س ٥ : متى يمسك الإنسان عن الأكل والشرب ؟ هل في بداية آذان الفجر أم في نهايته ؟

الجواب : إذا كان المؤذن الذي يرفع الآذان يتحرىٰ الوقت ويراعيه بدقة بحيث يغلب عليه الظن أن الوقت الصحيح قد دخل فلا يجوز أن يأكل أو يشرب إذا بدأ المؤذن قول الله أكبر وذلك لقول الله تعالىٰ : **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾** (١) وحتىٰ تدل علىٰ الغاية فبعد بدء الآذان لا يصح أكل ولا شرب مادام هناك مراعاة للوقت الشرعي . أما إذا كان يغلب علىٰ ظن المسلم أن الآذان يكون قبل دخول الوقت فيجوز له أن يأكل ويشرب أثناء الآذان . ويعرف الوقت برؤية الإنسان للفجر الصادق أوبإخبار من يعرف هذا ممن يوثق به وبقوله وبخبرته .

ومن التناقض الذي يقع ويصدر من بعض الناس أنه يأكل ويشرب وهو يؤذن

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٧ .

ذلك أنه يعتقد دخول الوقت بدليل أنه يؤذن ثم هو يأكل أو يشرب أثناء الآذان . وتجد بعضهم يأكل ويشرب أثناء الآذان أو بعده ثم يقوم فيصلي ركعتي الفجر وهذا تناقض لأن صلاة سنة الفجر إنما تكون بعد دخول الوقت . فيأكل ويشرب وهذا لا يكون إلا قبل دخول الوقت ويصلي سنة الفجر وهي لا تكون إلا بعد دخول الوقت . وهذا تناقض لا ينبغي أن يصدر والصواب إذا كان يعتقد دخول الوقت إمتنع عن الأكل والشرب ويصلي سنة الفجر إذا كان يعتقد عدم دخول الوقت أكل وشرب ولم يصل سنة الفجر .

س ٦ : إنسان أمنى في نهار رمضان ولكنه عند الإنزال أمسك ذكره حتى لا يخرج منه شيء من المني هل عليه غسل ؟ وهل يصح صيامه ؟

الجواب : نعم يجب عليه الغسل عند كثير من المسلمين . والمني إذا تحرك ينزل على كل حال ، ولا يظل مكانه وإذا احتقن المنيّ وبقي مكانه فإن هذا قد يؤدي إلى تورم الخصية وقد يحتاج فاعله لإجراء عملية أو تناول علاج لمداوة خصيته .

القصد أنه يجب عليه الغسل والقضاء إذا كان ما ذكر في السؤال حقيقة واقعة وإلا فأنا أرى أنه مجرد فرض وتقدير وأنا أنصح المسلمين أن يبتعدوا عن تكليف أسئلة لم توجد ولم تقع أسوة بأصحاب رسول الله ﷺ .

س ٧ : هل يصح استعمال فرشة الأسنان في نهار رمضان ؟

الجواب : يجوز أن يستعمل الإنسان فرشة الأسنان والمعاجين التي ينظفون بها أسنانهم ، إذا احتاج إلى ذلك ، ولكن الأفضل له أن يتسوك بالسواك المعروف وفيه الكفاية والخير . و قد حث عليه النبي ﷺ[1] والدين دين السهولة واليسر وتتسع أحكامه ويسره لجميع المستويات والأحوال فهو دين الغني الذي يجد

(١) قال النبي ﷺ : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة** » . رواه البخاري (٨٨٧) . ومسلم (٢٥٢) . وأحمد (٢/ ٢٤٥) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

الفرشة وما إليها ، ودين الفقير الذي لا يجد إلا السواك المعروف ، أو إصبعه إن لم يجد السواك المعروف ، والأمر واسع ما دام لا ينزل في حلقه شيء مما استاك به .

س ٨ : نزلت يوما إلى مكة ولشدة الحر فيها كنت أضع الثلج في فمي وأنا صائم فهل على حرج ؟

الجواب : إذا لم ينزل منه شيء في الحلق فلا حرج . وخير له أن يضع في منخاره إحتياطاً وبعداً عن المحظور ، أو يضع الثلج على رأسه ، ويغتسل ويتوضأ ، ويكتفي بالمضمضة .

س ٩ : ماذا يلزم الحامل المرضع إذا أفطرتا أياماً في رمضان ؟

الجواب : قال الشيخ رحمه الله تعالى : الحامل والمرضع إذا أفطرت رمضان كله أو بعضه عليها القضاء فقط ، سواء كان خوفها على نفسها ، أو على ولدها ولا تلزمها الفدية والدليل عموم القرآن : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ (١) وهو أحد الأقوال الثلاثة وهذا مرض وهي نكرة عقب شرط فتعم كل مريض .

س ١٠ : امرأة أفطرت في رمضان بسبب نفاسها ثم لم تقضه إلا بعد مرور تسع سنوات لجهل منها ثم قضته بعد أن علمت ، فهل يلزمها شيء أخر أم لا ؟

الجواب : يلزمها فدية عن كل يوم أفطرته ، وهذه الفدية إطعام مسكين عن كل يوم لتأخيرها القضاء . وكان ينبغي لها أن تسأل لكي تتعلم . والمسلم ينبغي أن يكون حريصاً على دينه وحريصاً على التعجيل بالخير والوفاء بما سئلت به الذمة من صيام أو نحوه من الواجبات الشرعية ، وينبغي للمسلم أن يكون حريصاً على دينه بالوفاء مثل هذه المدة الطويلة ، تسع سنوات كاملة والسائلة جاهلة لا تسأل هذا خطأ وتقصير كبير . ولو أن ولدها قد ضل طريقه ولم يصل إلى المنزل أو ضاع منها لصاحت ، وبكت ، وفتشت عنه في كل مكان وسألت

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٤ .

هنا وهناك . ولا تمل السؤال والبحث فكيف تسكت عن أمر دينها والسؤال عنه .

والخلاصة أن مذهب جمع من الصحابة أن الذي يؤخر قضاء ما فاته من رمضان حتى يأتي عليه رمضان الذي بعده أنه يقضي ويفدي عن كل يوم إطعام مسكين .

س ١١ : إذا فات الإنسان صوم الست من شوال لعذر ، هل يشرع له أن يقضيها بعد شوال ؟

قال الشيخ رحمه الله : لا يقضيها حتى ولو فاته صيامها لعذر ، وذلك لأنها مقيدة بكونها في شوال . حتى أن بعض العلماء شدد واشترط أن تكون متصلة متتابعة بعد العيد . والصحيح أنه لا يشترط اتصالها بالعيد . ولا يشترط تتابعها . بل يصح صومها في كل شوال .

س ١٣ : ما معنى صفدت الشياطين ؟

قال الشيخ - رحمه الله - : هي تصفد أي بالأعمال الصالحة أما من عمل أعمالا ردية ، فقد حل قيدها ، وفتح باب وساوسها على نفسه ، فينفك قيد شياطينه بذلك .

صوم يوم عاشوراء

عن عائشة رضي الله عنها ـ قالت : **كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء ، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر**[١] ، ففي الحديث أن النبي ﷺ أمر المسلمين بصيام عاشوراء أمر فرض ووجوب وأرسل من ينادي بذلك في أطراف المدينة وقراها القريبة منها فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : « **أمر النبي ﷺ رجلا من أسلم أن أذن في الناس أن من كان أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فإن اليوم يوم عاشوراء** »[٢] .

فصامه المسلمون في العام الأول للهجرة فرضاً عليهم . وفي السنة الثانية من الهجرة نزلت فريضة صيام رمضان فرفع عنهم فريضة صيام عاشوراء فكان من شاء صامه تطوعاً وقربة ونافلة ومن شاء ترك صيامه كما ذكرت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الحديث السابق .

ثم إن النبي ﷺ نُهِىَ عن مشابهة اليهود . نهاه الله عن مشابهتهم وأمره بمخالفتهم . فأمر النبي ﷺ المسلمين أن يخالفوا اليهود في صيام عاشوراء وذلك أن يصوموا معه يوما قبله أو يضموا إليه يوم بعده .

فإذا كان يوم عاشوراء موافقاً ليوم الجمعة مثلاً نصوم يوم الخميس اليوم السابق ليوم الجمعة أو نصوم الجمعة والسبت . أما اليهود فإنهم يفردون يوم عاشوراء بالصيام . يوماً واحداً .

وقد ذكر بعض أهل العلم أن أكمل الأحوال في صيام يوم عاشوراء أن يصوم المسلم اليوم السابق ليوم عاشوراء ويوم عاشوراء ويوما بعده ثلاثة أيام ، وهذا أجمل وأكمل وأعظم للأجر ، وأعظم في مخالفة اليهود الذين نهانا الرسول ﷺ

(١) رواه البخاري (٢٠٠١) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٧) .

عن مشابهتهم فقال ﷺ : « **من تشبه بقوم فهو منهم** »(١) . فهذا تحذير من الرسول ﷺ يحذرنا فيه من التشبه بالكفار جميعاً من يهود ونصارىٰ وغيرهم من أهل الملل والديانات الأخرىٰ ، ومع هذا التشديد والتحذير الذي يمنع من التشبه بغير المسلمين من اليهود والنصارىٰ وغيرهم فإن كثيراً من المسلمين ، تشبهوا بهم في مجالات كثيرة من الأخلاق والسلوك بل ودخل علىٰ كثير من المسلمين بعض عادات النصارىٰ في عبادتهم وعقائدهم .

وأما عن فضل صيام يوم عاشوراء فقد قال رسول الله ﷺ : « **صوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية** »(٢) .

والإنسان يحتاج إلىٰ ما يكفر الله به خطاياه لأن العبد مهما كان اجتهاده في الطاعة فهو كثير السقطات والخطايا ، فمن الناس من تكون سقطاته وأخطاؤه من قبل لسانه ومنهم تكون أخطاؤه من قبل عينيه ، أو من قبل بعض جوارحه الأخرىٰ . وقد تكون خطاياه من قبل وسوسة الشيطان في صدره . ومنهم من تكون خطايه من قبل بعض شهوات النفس . المهم أنه لا يخلو إنسان من خطأ أو تقصير وتفريط في طاعه الله فمن رحمة الله بعباده أن شرع لهم ما يكفرون به هذه الذنوب من الطاعات والعبادة وأعمال البر المختلفة قال تعالىٰ : ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**﴾(٣) .

وقال ﷺ : « **وأتبع السيئة الحسنة تمحها** »(٤) .

---

(١) حديث حسن : رواه أبو داود (٤٠٣١) . وأحمد (٢/ ٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .
(٢) رواه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه .
(٣) سورة هود ، الآية : ١١٤ .
(٤) قال الألباني في صحيح الجامع (٩٧) « حسن » ، والحديث رواه الترمذي (١٩٨٧) و أحمد (٥/ ١٥٣ ، ١٥٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه . ورواه الترمذي (ما بعد رقم ١٩٨٧) . وأحمد (٥/ ٢٢٨ ، ٢٣٦) من حديث معاذ رضي الله عنه ، وانظر كلام الحافظ ابن رجب عليه في جامع العلوم والحكم حديث رقم (١٨) فإنه مهم .

وقال ﷺ : « **والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار** »[1] .

فمن رحمة الله بعباده أن يسر لنا من أنواع العبادة ما يكفر بها الذنوب فهذا العبد الخطّاء في حاجة إلىٰ كثرة وتنوع المكفرات حتىٰ ينشط كل إنسان في نوع من المكفرات التي يجدها أقرب وأسهل علىٰ نفسه فيطهر بذلك نفسه من الذنوب والمعاصي . ويلقىٰ ربه طاهراً فتتنزل عليه رحمة ربه فىٰ الدنيا والآخرة .

والحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦) . وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٢٣١٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦) ، وفي غير موضع من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه وإسناده منقطع . وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (حديث ٢٩) وراجع الترغيب والترهيب للحافظ المنذري (٢٣) كتاب الأدب باب الترغيب في الصمت إلا عن خير .

التدرج في فرض الصوم

إن من رحمة الله تبارك وتعالىٰ في فرض الأحكام التي قد تشق علىٰ النفس أن يفرضها بالتدريج . فمن ذلك الصوم فقد تدرج في فرضيته ففي أول الأمر فرض صيام يوم عاشوراء فاستمرت فرضيته عاماً واحداً . ثم فرض صيام رمضان بعد ذلك وكان صومه أول الأمر علىٰ التخير فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم يفطره مسكيناً . في السنة الثانية لفرض الصيام صار صيامه عزيمة وارتفع الإطعام قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[1] هذه الآية في التخيير فمن كان قادراً علىٰ الإطعام أطعم ثم قال الله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[2] هذه الآية في عزمة الصيام وإلغاء الإطعام .

وهذا التدرج أيسر علىٰ العباد وأنفع في نقلهم من حال كانوا عليها إلىٰ حال أخرىٰ لم يتعودوها ، وهذا كالطفل تتركه يرضع ، ويرضع ثم يضاف إلىٰ جانب الرضاع الأطعمة سهلة الهضم مع التقليل من الرضاع ثم نتدرج في زيادة الأطعمة وتقليل الإرضاع حتىٰ يتعود علىٰ الأطعمة العادية التي يتغذىٰ عليها الكبار بعد أن كان يأكل أطعمة خاصة تناسبه .

---

(١) سورةالبقرة ، الاية : ١٨٤ .

(٢) سورة البقرة ،الاية : ١٨٥ .

خامسا : فتاوى الاعتكاف

س ١ : سئل الشيخ : هل يصح الاعتكاف على سطح المسجد أو منارته ؟

فقال الشيخ رحمه الله - : يصح الإعتكاف فيه وفي المنارة إذا كان بابها يفتح على داخل المسجد .

سادسا : فتاوى الزكاة

س ١ : سئل الشيخ : عن طريقة حساب الحول في رواتب الموظفين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « في الزكاة : النماء ناتج عن أصل المال فحوله حول أصله وإذا كان مستقلاً وناشئاً من جديد كراتب الموظف فله حول جديد من تاريخ تملكه » .

س ٢ : سئل الشيخ : إذا جمعت صدقات لفقراء معينين ثم اغتنى هؤلاء الفقراء قبل أن تصلهم الصدقة ، فهل يصلح تحويلها إلى فقراء آخرين ؟ وهل يمكن نقلها إلى بلد فيها فقراء محتاجون ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يصح نقلها إلا بإذن من دفعها ، ويصرفها في وجوه البر كمسجد وغيره إذا لم يقف على إذنهم » .

س ٣ : سئل الشيخ : هل يجوز إقامة مشروع بأموال الزكاة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز إقامة مشروع بأموال الزكاة بل تدفع لمستحقيها الذين سماهم الله عز وجل في كتابه » .

س ٤ : سئل الشيخ : إذا كان له زرع وعليه ديون هل يخرج زكاة الزروع ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « زكاة الزروع تجب في المحصول الذي حصده سواء كان عليه دين أم لا .

س ٥ : سئل الشيخ : هل يجوز إخراج الزكاة بدون تقدير ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجوز إخراج ما يتيقن أنه أدى به الواجب وزيادة» .

س ٦ : سئل الشيخ : عن حكم تارك الزكاة ؟ وهل لو تاب تارك الزكاة يزكي عن الأعوام السابقة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا تركها كسلاً ، وكذا ولو ترك الصوم والحج

كسلاً فهو فاسق ويجبر على أدائها وإن كانوا جماعة يحاربون حتى يؤدوا الزكاة . ومن كان تاركا لأداء الزكاة وتاب فإنه يزكي عن الأعوام السابقة ولو استغرقت كل ماله » .

س ٧ : سئل الشيخ : إذا كان لديه أرض يقتنيها ثم ينوي بيعها ؟

فقال الشيخ رحمه الله - : « إذا حال عليها حول من تاريخ طروء نية البيع فعليه زكاتها زكاة عروض التجارة » .

س ٨ : سئل الشيخ : رجل له دين عند آخر ، وحال الحول عليه وليس عند هذا الدائن ما يخرجه زكاة عن دينه فهل يجوز أن يؤخر الزكاة حتى يتقاضى راتبه أو يسوق الله له أي مال فيخرج الزكاة عن دينه الذي له ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « إذا كان له دين عند آخر وحال عليه الحول ، وليس في يده ما يخرج منه الزكاة فإنه يجوز له تأخير إخراج الزكاة حتى يصل إلى يده شيء من المال فيخرج منه وذلك كله إذا كان الدين عند مليك . أما إذا كان الدين عند غير مليك فإنه لا تجب على صاحبه زكاة » .

س ٩ : سئل الشيخ : متى تجب الزكاة على الدائن في دينه ومتى لا تجب عليه ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « تجب الزكاة على الدائن في دينه إذا كان المدين غير معسر ، بل هو مليك ، ولم يكن المدين مماطلا ويستطيع الدائن أن يستخلص حقه منه .

أما إذا كان المدين معسراً ليس عنده ما يسدد به فإن الدائن ليس عليه زكاة ، كذلك إذا كان المدين عنده ما يسدد منه لكنه جبار ، والبلاد التي هم فيها بلاد لا تستخلص الحق لصاحب الحق ، أو كان صاحب الحق في بلاد يستخلصون الحق لصاحبه ، ولكن صاحب الحق ليس عنده من المستندات ما يكفي لإثبات حقه والمطالبة به ، وكان المدين ظالماً ينكر أن عليه دين ففي هذه الحالة لا تجب على الدائن زكاة حتى يستخلص حقه ولا يُسئل عنها ولا يقال متى يدفع الزكاة التي

عليه لأنه لم تجب عليه أصلاً ما دام الحال ما وصفت .

أما إذا كان المدين ملئاً ومعترفاً بالحق ، ويمكن استخلاص الدين منه ، لكن الدائن هو الذي سكت عن حقه وانظر المدين لأنه عند المدين أصون وأحفظ له من السرقة والضياع عما إذا ما كان عنده هو ، فهذا الدائن تجب الزكاة عليه في هذا الدين إذا حال عليه الحول . وإذا حال الحول على الدائن ولم يجد بيده ما يخرج منه الزكاة فإنه ينتظر حتى يوافيه الله بشيء يخرج منه الزكاة سواء كان المرتب أو موسم الحصاد لأحد المحاصيل أو غير ذلك » .

س ١٠ : سئل الشيخ : لي أخ يدرس في مصر وأنا الذي أصرف عليه ووالدي موجود على قيد الحياة ، فهل أستطيع أن أعتبر ما أنفقته على أخي زكاة أم لا ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا تعتبره زكاة وأبوه موجود ، وأبوه واجب أن ينفق عليه . لكن تلك النفقة منك صلة رحم ومساعدة في تخريجه ليقوم بواجب إسلامي في أمته وقومه وأسرته » .

س ١١ : سئل الشيخ : هل يجوز إعطاء القريب الفقير من الزكاة إذا كان خارج بلد المزكي ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هذا يشتمل على سؤالين : سؤال في إعطاء القريب وسؤال : في إخراج الزكاة عن البلد ، أما بالنسبة لكونه قريباً فإذا كان لا تلزم المزكي نفقته جاز أن يعطيه من الزكاة وغير الزكاة ، وأما إذا كان ممن تلزمه نفقته فيواسيه من أصل ماله ولا يعتبر صدقة ،وإن كان فيه أجر فزوجته مثلاً ليست قريبة له ولكن تلزمه نفقتها ،فإعطاؤها من ماله والتوسعة عليها في المعروف خير يؤجر عليه وكذلك إكرامه لأولاده وهم ممن تلزمه نفقتهم يؤجر عليه والوالدان يلزم الولد نفقتهما ، ومع ذلك إكرامهما والإنفاق عليهما فيه أجر كثير ، لكن لا يعطيهما من الزكاة هذا من جهة الأقارب ، أما من جهة نقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر فإذا كان البلد الآخر فيه من له خصوصية ومزية مثل

قريب فقير لا تلزمك نفقته ، فإعطاؤك إياه ونقل صدقتك إليه يقال إنها صدقة وصلة ، اجتمع فيها أمران الصدقة وصلة الرحم فيجوز نقلها لمثل هذا ، وإذا كان من في البلد البعيد غير بلد الذي يخرج الصدقة ، أشد حاجة أرسلها إليه أيضاً ويشترط كذلك أن تصل الزكاة إلىٰ من يستحقها قبل يوم العيد أو تصل قبل صلاة العيد علىٰ أقصىٰ تقدير ، القصد أنها لا تنتقل لبلد آخر إلا لداع يدعو إلىٰ ذلك ، كأن يكون قريباً له أو عفيفاً لا يمد يده ولا ينتبه إليه الناس ، أو يكون أشد حاجة من غيره من أهل البلد أو غير ذلك من الدواعي الشرعية المعتبرة » .

س ١٢ : سئل الشيخ : إذا كان الحلي يعد للإستعمال والزينة فهل تجب فيه الزكاة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : «الرأي الصحيح أنه تجب فيه الزكاة شكراً لنعمة الله . أما إذا كان الحلي متخذاً لوقت الحاجة ينفق منه أو للتجارة فتجب فيه الزكاة بإجماع المسلمين . الذي فيه خلاف هو الذي يتخذ للزينة والاستعمال ، هذا هو الذي فيه خلاف ، والراجح العمل بعموم النصوص في وجوب الزكاة فيه ، أما الذي يُتَّخَذ للتجارة تأخذه وتخزنه عندها فإذا ارتفع السعر باعت ، وسكتت حتىٰ إذا انخفض السعر اشترت فهذه تجارة في المصاغ التي عندها تترصد بها الأسواق لتكسب ، إذا ارتفع السعر باعت ، وإذا انخفض السعر اشترت هذا بإجماع المسلمين تجب فيه الزكاة لأنه سلعة تجارية ، وكذلك إذا كان موضوعاً عندها لا للاستعمال والتحلي به إنما هو لأزمات الدهر فهذا تجب فيه الزكاة بإجماع المسلمين ، ليس هو للزينة والحلية إنما رصيد عندها لوقت الأزمات إذا نزلت استغنت به عن مد يدها للناس هذا تجب فيه الزكاة باتفاق المسلمين ، أما الذي فيه خلاف هو الذي تتخذه المرأة لتتحلىٰ به وتتزين به في المناسبات ، فهذا هو الذي فيه الخلاف وعموم الأدلة تشهد بوجوب الزكاة ، فيه وقياسه علىٰ ملابس الستر ومنزل السكنىٰ خطأ لأن منزل السكن أصله في ذاته لا تجب فيه الزكاة ، والملابس التي تستر بها بدنك وعورتك أصلها في مادتها لا تجب فيه الزكاة بخلاف النقود الأصل فيها أنها تجب فيها الزكاة ، ولا تقاس علىٰ غيرها مما الأصل فيه أنها لا

تجب الزكاة ، وقياس الحلية من الذهب والفضة على الملابس التي تلبسها المرأة هذا قياس فاسد ، لأن الأصل المقيس عليه مادته لا تجب فيه الزكاة بخلاف مادة الذهب والفضة ، فالأصل فيها وجوب الزكاة هذا قياس فاسد والقول الراجح هو الذي ذكرته لكم فيما اتخذ من الذهب والفضة للزينة والمناسبات » .

س ١٣ : سئل الشيخ : هل يجوز إخراج نقود بدل زكاة الفطر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز لأن النقود كانت موجودة عند الصحابة وزكاة الفطر مفروضة ، ومع ذلك لم يخرج واحد منهم نقوداً في ذلك الوقت وسنوات عديدة ليس رمضان واحداً أخرجت فيه زكاة فطر مرة واحدة ، رمضان فرض في السنة الثانية وزكاة الفطر تابعة له فتسع سنوات أو ثمان سنوات على الأقل وزكاة الفطر تخرج حبوباً أو تموراً [(١)] ولا يخرجها واحد من الصحابة نقوداً، ويستمرون هكذا ثم بعد ذلك ينتحلون ليخرجوها نقوداً ، وفي ذلكم الوقت الناس هم الناس الموجودون الآن منهم من يحتاج إلى أكل ، ومنهم من يحتاج إلى كسوة ، ومنهم من يحتاج إلى شراء لحم وخضر ، و مع ذلك تحرى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحددها في أقوات يأكلون منها ، وحاجة الإنسان إلى القوت أكثر من حاجته إلى فاكهة أو ملابس ، حاجته إلى القوت اليومي أكثر من حاجته إلى ذلك ، فاستمرار العمل من الرسول عليه الصلاة والسلام في سنوات عديدة زكاة الفطر على إخراج من غير النقود مع كون الناس هم الناس ، ويحتاجون إلى الأكل وإلى الكسوة وإلى مصاريف أخرى للأولاد ، استمراره على إخراجها مماذُكر في الأحاديث دليل على أن هذا هو المشروع دون سواه ، فان قال قائل ربما لا أجد الفقير الذي يأخذ مني هذا ، نقول له إذا وجدت

(١) أخرج البخاري (١٥٠٣) و (١٥٠٤) ، ومسلم (٩٨٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين .

الفقير الذي يأخذ النقود سوف تجد الفقير الذي يأخذ القوت . والخلاصة أن زكاة الفطر تخرج من أقوات البلد خلافا لأبي حنيفة رحمه الله . ومن خالف القول بهذا الذي ذكرت فهو مخطيء في نظري » .

س ١٤ : سئل الشيخ : هل يصلح الحليب المجفف في زكاة الفطر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « نعم يصلح الحليب المجفف في زكاة الفطر ، لأنه يصلح أن يكون قوتا . والحليب هو أصل الإقط » .

س ١٥ : سئل الشيخ : ما مقدار نصاب زكاة الحلي من الذهب وكيف تُقَدر ؟ هل بالريالات أم من جنس الذهب ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الفضة نصابها أقل فينبغي أن يراعىٰ جانب الفقراء والمساكين ، فيقدرها بما فيه مصلحة للفقراء والمساكين فيكون تقديرها بالفضة لا بالذهب ، وإذا كان الحلي ذهباً وليس فضة قدر ذلك بالذهب هذا له وإن قدره بالفضة كان خيراً فكل جنس يقدر بنوعه فالذهب يقدر يالذهب والفضة تقدر بالفضة ، فإن أراد مراعاة جانب الفقير وقدّر الذهب بالفضة فقد فعل خيراً ووسع في الخير للفقراء والمساكين دون أن يكون ذلك واجباً عليه » .

س ١٦ : سئل الشيخ : هل يجوز شراء أسلحة لمحاربة الكافرين من أموال الزكاة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إن العداوة التي بين المؤمن والكافرين عداوة قديمة مستأصلة ،وأن الخصومة التي بين الفريقين خصومة مستحكمة ، وأن قلوب الكافرين لم تزل ولا تزال تتوهج فيها جمرات الغيظ ،وتشتعل فيها نيران الضغائن والأحقاد ، لا يكاد يخبو لهيبها أو تخمد جمرتها ، بل لا تزال تزداد يوماً بعد يوم ،وتتخذ ألواناً مختلفة من الكيد والتبيت وأشكالاً من الحروب النارية خُفية وجهرة سراً وعلانية ،وما خفي منها أشد ضراوة وأعظم فتكاً بالمسلمين مما ظهر ،ولذا حذرنا الله من موالاتهم واتخاذ بطانة منهم ، قال الله

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [١] .

فتارة تكون المعركة بأسلحة مادية وتدور رحاها في الجو ، أو البحر ، أو على بساط الأرض بالطائرات ، والغواصات ، والدبابات ، وأمثال ذلك من الأسلحة الفتاكة، وتارة تكون نظرية تدور رحاها في عالم الأفكار بإلقاء الشبه ونشر نظريات الإلحاد ونحوها لتشكيك المسلمين في دينهم ، وزلزلة العقيدة الإسلامية في نفوسهم ، ومحو ما في قلوبهم من حق ويقين ، وآونة تكون حرب أعصاب وفتن توهن العزائم ، وتبعث الرعب في القلوب ، وتحطم وحدة المسلمين ، وتفرق جماعتهم بما تلقيه في نفوسهم من بذور الأثرة وأسباب العداوة والبغضاء ، وتجعل بعضهم حربا على بعض إلى غير ذلك من ألوان الكيد والحروب فلا بد للمسلمين أن يواجهوهم بمثل أسلحتهم ، يواجهونهم بأسلحة مادية يضعونها في نحورهم ، ويقضون بها عليهم ويواجهونهم بأدلة علمية يثبتون بها الحق في قلوب المؤمنين ، ويمحون بها الشبه حتى لا تكون فتنة ولا إلحاد ولا حيرة ولا شكوك يواجهونهم بإيجاد يقظة في الأمة الإسلامية ونشر الوعي فيها حتى ينكشف لهم ما بخصومهم من الكيد والدس وحتى لا يغتروا بالبهرج الكاذب والمظاهر الخداعة ولا يأخذ التهريج من نفوسهم مأخذه .

وكل هذه المواجهات والمكافحات أنواع من الجهاد في سبيل الله فيجوز أن يستعان في القيام بها بأموال الزكاة وغيرها من تبرعات المحسنين من أغنياء

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات : ١١٨ ـ ١٢٠ .

المسلمين وبيوت الأموال في الدول الإسلامية عن طريق ولاة الأمور ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الكفر هي السفلىٰ ، وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حَيّ عن بينة وأن الله لسميع عليم .

والله الموفق وصلي الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

سابعاً : الحج

١ـ بناء المسجد الحرام

قال الله تعالىٰ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (١) .

أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام أن يبنىٰ له الكعبة المشرفة في هذا البلد الأمين لتكون قبلة للناس يستقبلونها في صلاتهم ودعائهم ، ويحجون إليها ويطوفون بها وحولها .

وأَعْلَمَ الله إبراهيم عليه السلام بالمكان الذي يقيم فيهْ بناء الكعبة ، وهداه إلىٰ هذا المكان المختار بما شاء من الأمارات والعلامات . وسارع إبراهيم عليه السلام بالرحيل من الشام إلىٰ مكة المكرمة حيث يقيم ولده إسماعيل عليه السلام . فلما رآه إسماعيل قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بولده والولد بوالده . وقال إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر . فقال إسماعيل : اصنع ما أمرك به ربك . قال إبراهيم عليه السلام : وتعينني ؟ قال إسماعيل : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني له بيتاً هاهنا وأشار إلىٰ أكمة مرتفعة عما حولها .

عند ذلك أخذ إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني . حتىٰ إذا ارتفع البناء وصعب علىٰ إبراهيم أن يكمل البناء لارتفاعه وعلوه ، جاء إسماعيل بحجر ووضعه لأبيه ليقوم عليه وهو يبني وهذا الحجر هوالذي يسمىٰ اليوم بالمقام . واستمر إبراهيم

(١) سورة آل عمران ، الآيات : ٩٦ـ٩٧ .

في البناء وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان [١] : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢] .

فاستجاب الله دعاءهما وأراهما المناسك وأمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج إلىٰ بيت الله الحرام قال تعالىٰ : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ [٣] .

فقد عهد الله إلىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببناء البيت وأن يطهراه من كل رجس معنوي أو حسي . وأن يجعلاه خالصاً لوجهه الكريم . ويجنباه الأصنام ، والأوثان ، والأزلام ، والاستقام بهما ، ويطهراه ويجنباه كل شائبة من شوائب الشرك ويصوناه من النجاسة والأقذار ومن غشيان الكفار له ، ومن الضجيج ومنكرات الأصوات . ومن كل ما تأباه النفوس الطاهرة والفطر السليمة وليكون أنسب لجلال الله وتوقيره ، وأدعىٰ لإخلاص القائمين فيه والعابدين وأجلب لخشوعهم وصلاح قلوبهم واتصالها بالله وحده دون أن يقطع عليهم شيء من المنغصات أمر عبادتهم وتبتلهم .

وقد اتفق العلماء علىٰ أن الكعبة شرفها الله أول بيت وضع للناس للعبادة في هذه الأرض لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [٤] .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري رقم (٣٣٦٤) و (٣٣٦٥) .

(٢) سورة البقرة ، الآيات : ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٣) سورة الحج ، الآيات : ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) سورة ال عمران ، الآية : ٩٦ .

ولحديث أبي ذر رضي الله عنه قلت يا رسول الله : « **أي بيت وضع للناس أول؟ قال المسجد الحرام . قلت ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى** »(١) .

ونقل ابن كثير(٢) عن أبي جعفر الباقر أن أول من بني الكعبة هم الملائكة قبل آدم ، وقد روىٰ هذا أيضا عبد الرزاق عن عطاء ، وابن جريج ، وسعيد بن المسيب أن آدم بناها من خمسة أوجه . ثم ذكر عن كعب الأحبار ووهب بن منبه أن أول من بناها شيث ، ولم يذكرا دليلا علىٰ هذا ، وهما إنما يذكران هذا من كتب أهل الكتاب وهذا لا يصدق ولا يكذب . ولا يعتمد عليها ـ يعني هذه الرواية ـ وإن صح حديث في هذا ـ يعني أول من بني الكعبة قبل إبراهيم فعلىٰ العين والرأس . ومع هذا فإن مثل هذا الخلاف لا يبنىٰ عليه شيء من أحكام الشريعة ولا المناسك ولا غيرها . ولا ينبغي تضييع الوقت في مناقشته والاشتغال به . ويجدر بنا أن نقف عند ما صح في الكتاب والسنة من أن أول من رفع بناءها بعد اندثاره هو إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل ، وكان ذلك بأمر الله سبحانه وتعالىٰ وللبيت الحرام مزايا كثيرة فقد جعله الله مباركاً كثير الخير في الدنيا والدين .

وقد ضاعف الله سبحانه وتعالىٰ فيه ثواب الأعمال الصالحات فالصلاة فيه بمائة ألف صلاة في غيره من المساجد (٣) .

وخُصَّ بالوفود إليه للحج والعمرة والطواف به . وجعل الطواف بالبيت صلاة تعظيماً لهذا البيت وتعظيماً لحرماته .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٣٦٦) . ومسلم (٥٢٠) . والنسائي (٢/ ٣٢) . وابن ماجه (٧٥٣) . وأحمد (٥/ ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٣) .

(٣) حديث صحيح : رواه أحمد (٣/ ٥) . وابن حبان (١٠٢٧ زوائد) وقال الحافظ في فتح الباري (٣/ ٨٠) قال ابن عبد البر : اختلف علىٰ ابن الزبير في رفعه ووقفه ، ومن رفعه أحفظ وأثبت ومثله لا يقال بالرأي .

واستجاب الله دعوة خليله إبراهيم فجعل أفئدة كثير من الناس تهوىٰ إليه وإلىٰ ذريته في الحرم ، ورزق أهله ـ أهل الحرم ـ من الطيبات الكثيرة الوفيرة والنعم التي لا حصر لها . وصار بعد هذه الدعوة المباركة من نبي الله وخليله صار المسجد الحرام والبلد الحرام تجبىٰ إليه ثمرات كل شيء فضلاً من الله سبحانه وتعالىٰ وكرماً منه . وبارك لأهل هذا الحرم في طعامهم وشرابهم وبعث منهم رسولا إلىٰ الناس كافة وجعله خاتم النبيين جمعا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ﷺ : « **أنا دعوة أبي إبراهيم** »(١) .

وجعل في البيت الحرام آيات بينات ، ومن دخله كان آمنا فمن دخله معظماً له ، ومن قصده محتسباً وأدىٰ المناسك كما شرع الله كان آمنا من عذاب الله لقوله ﷺ : « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه** »(٢) . ويقول عليه الصلاة والسلام : « **الحج المبرور ليس له ثواباً إلا الجنة** »(٣) .

وأيضاً من دخله كان آمنا من التشفي ، والإنتقام منه من القتل والقتال ، وكان هذا أمراً مستقراً عند العرب ومتعارف عليه حتىٰ قبل الإسلام ، حتىٰ إن الرجل منهم كان يلقىٰ فيه قاتل أبيه وأخيه فلا يقتله ما دام في الحرم ، وحرم الله عز وجل القتال عنده وفيه إلا أن يبدأ أهل العدوان القتال عند الحرم وفي أرض الحرم فيجوز للمسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم القتال والأذىٰ قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾(٤) .

ومن خصائص الحرم أنه لا ينفر الصيد فيه ، ولا تقطع أشجاره ومن مزايا

---

(١) حديث صحيح أنظر صحيح الجامع للألباني (١٤٦٣) .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٠) . ومسلم (١٣٥٠) . وأحمد (٢/ ٢٤٨) .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٧٧٣) . ومسلم (١٣٤٩) . وأحمد (٢/ ٤٦٢) .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٩١ .

هذا البيت أنه أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة للحج إليه واستقباله في الصلاة والدعاء .

ومن مزايا هذا الحرم وخصائصه أن الذي بناه ليس هو إنساناً عادياً بل هو إبراهيم الخليل وكان ذلك بأمر الله وحده وفي هذا ترغيم لأهل الكتابين من اليهود والنصارىٰ الذين لم يرضوا بالبيت الحرام قبلة يصلون إليه ويحجون إليه مع زعمهم الإنتساب إلىٰ إبراهيم وأنهم علىٰ شرعه وما كان ذلك لشيء إلا الإنفة ، والكبر ، والعصبية الجاهلية الممقوته فكيف بعد تركهم هذا وغيره من شرع إبراهيم عليه السلام يزعمون أنهم أولىٰ بإبراهيم من غيرهم وأنهم معظمون له ومتبعون له . يقول الله تعالىٰ مبطلا دعواهم أنهم من إبراهيم ، وأن النصرانية واليهودية التي هم عليها هي كانت دين إبراهيم وملته يرد عليهم ربنا فيقول : ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

فأبطل زعمهم أنهم علىٰ ملته الحنيفية وذلك لأنهم تركوا ملته وشريعته التي أساسها التوحيد ومن أعظم شعائرها تعظيم البيت الحرام وهو أبين التناقض وأوضحه بين الواقع الذي يعيشونه والصراط الذي يسلكونه وبين الدعوىٰ والزعم الذي يزعمونه .

ولما تقادم بنيان الكعبة وصار بنيانها مرتفعاً قدر القامة هدمتها قريش واجتمعوا لبنائها وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين . فجزأوا البنيان أجزاءاً اختص كل جماعة منهم بقسم يبنيه ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود إختصموا فيمن يحمل الحجر الأسود (٢) ويضعه في مكانه الذي سوف يستقر فيه

(١) سورة آل عمران ، الآيات : ٦٥-٦٨ .

(٢) انظر سيرة بن هشام (١/ ١٩٢-١٩٧) .

حتىٰ كاد يكون بينهم حرباً وقتالاً ثم احتكموا إلىٰ أول داخل عليهم وأول قادم إليهم ، وكان نبينا محمد ﷺ أول داخل عليهم فقالوا . هذا الأمين قبلنا به حكما . فقال هلم ثوباً فجيء بثوب فوضع ﷺ الحجر الأسود عليه بيده ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب فرفعوه حتىٰ إذا بلغوا به موضعه رفعه رسول الله ﷺ بيده ووضعه في مكانه ، ثم أتموا بناء الكعبة لكنهم قصرت بهم النفقة فضيقوا بناءها وحسروه عن قواعد إبراهيم عليه السلام من ثلاث جوانب ودخلوا بها من جهة الشمال مقداراً معروفا اليوم بحجر إسماعيل . وظلت الكعبة علىٰ حالها الذي بنته عليها قريش حتىٰ غلب عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما علىٰ مكة فنقض الكعبة ، وبناها علىٰ قواعد إبراهيم عليه السلام وجعل لها بابين بابا شرقياً وبابا غربياً ملصقين بالأرض لقول رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : « **لولا أن قومك حديثوا عهد بكفر لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم ولجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا ولألصقتهما بالأرض** »[1]. وظلت علىٰ حالها الذي بناها عليه ابن الزبير طيلة أمارته رضي الله عنه حتىٰ قتله الحجاج الثقفي فردوها إلىٰ ما كانت عليه قبل ابن الزبير رضي الله عنهما . كما كانت قد بنتها قريش قبل ذلك وكما كانت عليه في عهد عبد الملك بن مروان .

ولما كانت دولة بني العباس وتولي الخلافة هارون الرشيد عزم أن يهدم الكعبة ويؤسسها علىٰ قواعد إبراهيم كما كان فعل عبد الله بن الزبير . فقال له الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ : يا أمير المؤمنين لا تجعل الكعبة ألعوبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها فترك ذلك الرشيد فبقيت علىٰ هذا إلىٰ وقتنا الحاضر والله الموفق وصلي الله وسلم علىٰ نبينا محمد .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٥٨٤) وفي غير موضع . ومسلم (١٣٣٣) والنسائي (٥/ ٢١٤) . وأحمد (٦/ ١١٣) .

٢ـ مواقيت الحج

ذكر الله عز وجل مواقيت الحج في قوله : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [١] ومعناه أن أشهر الحج أشهر معلومات من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، واستمر ذلك حتى أُقر في شريعة خاتم النبيين محمد ﷺ . وهي تبدأ من أول ليلة من شوال باتفاق العلماء وتنتهي بأخر يوم من ذي الحجة كما هو المتبادر من ظاهر الآية لأن أقل الجمع ثلاثة . أو تنتهي بفجر يوم النحر لأنه لا يصح الإحرام بالحج بعده ولأن « **الحج عرفه** » كما قال ﷺ في حديثه [٢]. وقد مضى الوقوف بها بطلوع الفجر .أو ينتهي في يوم العاشر من ذي الحجة لوقوع طواف الإفاضة به غالباً وهو من أركان الحج أو تنتهي بأخر أيام التشريق لوقوع الطواف ورمي الجمار بهذه الأيام . هذه أقوال أئمة الفقهاء ، وظاهر الآية يؤيد الأول منها كما أن هذه الآية تعتبر تفصيلاً وبيناً لقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [٣] وجاءت السنة العملية مبينة لهذه الآية ومقيدة لها ببعض الشهور بالنسبة للحج فليست أشهر العام كلها مواقيت للحج ، وقد جعل الله للحج مواقيت زمنية وبين العلماء هذه المواقيت فلا يصح الإحرام بالحج قبل هذه المواقيت ، كما لا يصح الإحرام به بعدها كما لا تصح صلاة الفريضة قبل وقتها المشروع لها ، وبهذا قال جماعة من العلماء . وقال الشافعي يصح الإحرام به قبله لكنه ينعقد عمرة . وقال جمهور العلماء ينعقد حجا لأن الله قال : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ غير أنه لا يكون كاملاً لمخالفته للسنة . وأياماً كان فإنه ينبغي للمسلم أن يتحرى الصواب في عبادته لربه وأن يؤديها على وجه

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي (٢٩٧٥) وأبو داود (١٩٤٩) . والنسائي (٥/ ٢٥٦) . وابن ماجه (٣٠١٥) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٨٩ .

الكمال إبراء لذمته واحتياطا لدينه ثم حذر سبحانه حجاج بيته الحرام من الأفات التي تحبط أعمالهم فقال سبحانه : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾(١) فمن أحرم بالحج وعقد عليه نيته فيجب عليه أن يصون لسانه لئلا يجلب عليه ما يفسد عليه حجه من الرفث ، والفسوق ، والجدال في الحج .

أما الرفث فهو الجماع ودواعيه ومنه الكلام حول الجماع ووسائله . ولهذا حرم رسول الله ﷺ أن يعقد المحرم نكاحاً لنفسه(٢) أو لغيره فلا يتولى عقداً لنفسه ولا لغيره فهو - يعني الحاج - يضبط شهوة فرجه طيلة أدائه للمناسك حتى تتجمع دواعي قلبه وهمته ووجدانه على هذه العبادة وتتشبع بها روحه ويجد لذتها .

وأما الفسوق فهي جميع المعاصي التي تخرج الإنسان عن حظيرة الروح ونقاوة النفس ومكارم الأخلاق إلى غير ذلك مما حرمه الله جل وعلا على المسلمين عامة و على حجاج بيته خاصة .

وأما الجدال في الحج فهي كلمة جامعة فيدخل فيه تحريم الجدال في وقت الحج بعد أن قضى الله على نسىء الجاهلية وتغيرها مواقع الشهور ، فقال النبي ﷺ : « **أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض** »(٣) فعاد بذلك الحج إلى ميقاته . ويدخل فيه تحريم الجدال في موقف الحج بعد أن قال الله ذلك في قوله : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾(٤)وقد أكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله وعمله والوقوف إنما يكون بعرفه والمزدلفة يوم التاسع من ذي الحجة وليلة العاشر ، ثم المبيت بالمزدلفة ، ويدخل

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٤٠٩) . وأبو داود (١٨٤١) . وأحمد (١/ ٦٤) من حيث عثمان ابن عفان رضي الله عنه مرفرعاً .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٩٧) و مسلم (١٦٧٩) مطولا . وأحمد (٥/ ٣٧ ، ٧٣) وفي غير موضع كلهم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) سورة البقر ،الآية : ١٩٨ .

فيه أيضاً تحريم الجدال في سائر أحكام الحج ومواقفه وذلك إذا جاوز الحد في الجدل والخصومة . أما ما كان من الرغبة في معرفة الصواب ، والوصول إلىٰ الحق مع رعاية الأدب وحقوق الأخوة فهو من الجدال بالتي هي أحسن وقد أباحه الله تعالىٰ في قوله : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[(١)] ، ولم يخص حال دون حال. ومثل هذا النوع من الجدال للوصول للحق مع النية الحسنة ، ومراعاة الأدب وحفظ حقوق الأخوة مثل هذا الجدال واجب أو مندوب .

وكما أن للأشجار والثمار آفات تقضي عليها وتعوق نموها علىٰ الصورة المطلوبة وتخيب آمال الزراع فلا يحصدون ولا يحصلون منها علىٰ الثمرة المرجوة من وراء زراعتها فيورثهم ذلك حسرة وندامة علىٰ ما فرطوا في صيانتها ورعايتها ومقاومة آفاتها ولات ساعة مندم .

فكذلك علىٰ حجاج بيت الله الحرام أن يصونوا حجهم ، وسائر أعمالهم عما يشوبها وينقص أجرها من الرفث ، والفسوق ، والجدال بالباطل حتىٰ يرجعوا من حجهم إلىٰ أهليهم كيوم ولدتهم أمهاتهم سعيهم مشكور ، وذنبهم مغفور قد رضي الله عنهم ورضوا عنه . قال ﷺ : « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من حجه كيوم ولدته أمه** »[(٢)] . وبعد أن حذر الله عز وجل حجاج بيته عن غشيان القبيح قولاً أو فعلاً . حثهم علىٰ التحلي بالجميل فقال : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾[(٣)] فأخبرهم جل شأنه أنه ما من عمل من أعمال الخير يكسبونه إلا وقد أحاط به علماً ، وسيجزيهم عليه جزاء رب كريم لعبد خشع له قلبه ، وأسلم له وجهه .

وقد كان جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم يحجون بغير زاد ويقولون

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .

(٢) سبق تخريجه وهو حديث صحيح .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

نحن المتوكلون ، فأمرهم الله عز وجل أن يتزودوا لحجهم لما في ذلك من صيانة ماء الوجه ، وكف النفس عن المسألة مع عدم تعارض ذلك مع التوكل على الله ، وبين لهم أن حاجتهم إلى التزود للدار الآخرة أعظم من حاجتهم للتزود لسفر الدنيا ، وأن الزاد الذي يصطحب إلى الآخرة هو التقوى . وأن هذا الزاد - التقوى - أفضل أنواع الزاد ، لأنه خير وأبقى ، ولأنه يجلب للعبد السعادة الأبدية، لذا قال الله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[1] . وقد حض الله بهذا الخطاب أولي الألباب لرجاحة عقولهم ، وصفاء قلوبهم ، وأرواحهم من دواعي الأهواء ، ونزوات الشهوات التي تستهوي نفوسهم ، وتنكد أعمالهم ، وتميل بهم عن الجادة وعن الطريق المستقيم .

وقد تحرجت طائفة أخرى من الصحابة من التجارة وكسب المال في موسم الحج واعتقدوا أنهم بذلك يشابهون أهل الجاهلية ، وخشوا أن يؤثر هذا على حجهم أو ينقص أجرهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كانت عكاظ ، ومجنة ، وذي المجاز أسواق في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم، فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ في موسم الحج[2] . فأباح الله في هذه الآية للمحرم والحاج البيع الشراء ، وسائر أنواع الكسب الحلال .

وحث الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة على التزود بخير الزادين زاد الدنيا وزاد الآخرة ، فضلا منه ورحمة ، وحثهم أن يجعلوه أمامهم في سعيهم وكسبهم ، والتوكل على الله والركون إليه وحده ، لا إلى الأسباب العادية ، ففي يده مقاليد الأمور ، فليجعلوا ثقتهم بالله وحده ، لا إله إلا هو لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا معقب لحكمه ولا راد لما قضى وهو على كل شيء قدير .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٩٨ والحديث أخرجه البخاري رقم (٤٥١٩) .

٤ـ الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

أفضتم من عرفات ـ دفعتم مسرعين فىٰ السير منها إلىٰ المزدلفة ، المشعر الحرام ـ المزدلفة كلها ، سُمِّيت بذلك لأنها داخل الحرم .

ويطلق المشعر الحرام أيضا علىٰ جبل موجود بالمزدلفة .

من حيث أفاض الناس : المراد إبراهيم الخليل أو إمام المسلمين أو العرب ما عدا قريشا .

ثبت أنَّ قريشاً غيَّرت العمل فىٰ مواقف الحج عما كان عليه الأمر فىٰ شريعة إبراهيم عليه السلام فمن ذلك أنهم كانوا يقفون بالمزدلفة دون عرفات ويقولون نحن أهل الله فىٰ بلده وقطان بيته الحرام ، وكان سائر العرب وجمهورهم يقفون بعرفات ثم يُفيضون منها إلىٰ المزدلفة ، فلما جاء الإسلام أمر الله جلَّ شأنه حجاج بيته الحرام أن يقفوا بعرفات ثم يدفعوا منها إلىٰ المزدلفة ليذكروا الله فيها عند المشعر الحرام .

روىٰ البخاري في صحيحه من طريق عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كانت قريش ومَنْ دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يُسمُّون الحمس (٢) وسائر الناس يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيّه أن يأتىٰ عرفات ، فيقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسِ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١٨٩ـ١٩٩ .

(٢) رواه البخارىٰ ومسلم والحُمس هم قريش ومن ولدتهم وكنانة وسمُّوا حمساً لأنهم تحمسوا فىٰ دينهم أي تشددوا .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٩ .

وفي ذلك إبطال لما كان من تغيير أهل الجاهلية وتبديلهم للمناسك ، وقضاءٌ على تلاعبهم بها وافتياتهم على شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبيان من الله لعباده أنَّ العبادات توقيفية ، وأنَّ الإعتماد في أصل العمل بها وفي صفتها على الوحي من الله لا على آراء الناس وما تهواه نفوسهم ، قال ﷺ : **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »**(١) .

وفي هاتين الآيتين إثبات لأصل الوقوف بعرفة والنزول بالمزدلفة والكر بها ، وبيان لترتيب الوقوف بهما ، لكن فيهما إجمال بالنسبة لزمن كل منهما وتقديره ، وبيان صفته وهذا هو الشأن في القرآن ، يُنزِّل الله فيه أصول الأحكام في الإيمان والعبادات والمعاملات كقوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(٣) . وقوله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾(٥) . وقوله : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾(٦) .

وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بالبلاغ والبيان ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٧) .

فبيَّن رسول الله ﷺ بقوله وعمله زمنهما وما يفعل فيهما من نُسك وعبادة

---

(١) حديث ضعيف أخرجه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢١) وأعله ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٦٤) بثلاث علل وضعفه وهو كذلك . فالراجح أنه ضعيف وإن قال النووي عنه أنه صحيح .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٢٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٢٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٥٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٤٣ .

(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .

(٧) سورة النحل ، الآية : ٤٤ .

وشرح المناسك في خُطبته في حجة الوداع ، وقال لأصحابه : « **خذوا عنِّي مناسككم** »[(١)] ، وذلك أنه ﷺ مكث بمنى بعد أن صلى بها فجر اليوم التاسع حتى طلعت الشمس ، وأمر بقُبةٍ من شَعَر تُضرب له بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال : « **إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع** » [(٢)] وذكر نصائح ووصايا كثيرة ، ثم أذّن المؤذن ثم أقام فصلّى الظهر بالناس ركعتين ثم أقام فصلى العصر ركعتين ، فقصرهما وجمع بينهما جمع تقديم ، ولم يُصلِّ بينهما شيئاً من النافلة ، ثم ركب ﷺ حتى أتى الموقف فوقف عند صخرات إلى جانب الجبل المعروف اليوم بجبل الرحمة ، ولم يصعد الجبل ولم يصل نافلة بعرفة ولم يصم يومها وقال : « **وقفت هنا وعرفة كلها موقف** » [(٣)] . ثم استقبل القبلة وأخذ يذكر الله تلبية وتسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً ، ولم يزل على ذلك حتى غربت الشمس ، ولم يُصلِّ بها المغرب بل أفاض إلى المزدلفة ، وأخذ بزمام راحلته ، فإذا وجد متسعاً في الطريق أسرع ، وإلا كَفَّها عن السرعة رحمة بالمسلمين ، وكان يشير بيده اليمنى قائلاً : « **أيها الناس السكينة السكينة** » ، ونزل بالطريق فتوضأ وضوءاً خفيفاً وقيل له : الصلاة يا رسول الله ، فقال : « **الصلاة أمامك** »[(٤)] ، واستمر في سيره حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وأقامة

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٩٤٤) . والترمذي (٨٨٦) والنسائي (٥/ ٢٥٨) . وابن ماجه (٣٠٢٣) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢١٨) باب حجة النبي ﷺ ، ومن حديث جابر بن عبد الله بن حرام الأنصارى رضي الله عنهما .

(٣) حديث صحيح لغيره : رواه أحمد (١/ ٧٦ ، ١٥٧) والترمذي (٨٨٥) وأبو داود (١٩٣٥) ، وابن ماجة (٣٠١٠) من حديث علي رضي الله عنه ويشهد له حديث جابر السابق .

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (١٢٨٠) والبخاري (١٦٦٩) .

لكلٍّ منهما وقَصَر العشاء وجمع بينها وبين المغرب جمع تأخير ، ولم يُصلِّ بينهما نافلة ، ثم اضطجع حتىٰ طلع الفجر ، وصلَّىٰ الفجر في أول الوقت بأذان وإقامة، ثم ركب ناقته حتىٰ أتىٰ المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده ، ولم يزل واقفاً حتىٰ أسفَر جداً ثم دفع قبل أن تطلع الشمس حتىٰ أتىٰ بطن مُحسِّر فأسرع حتىٰ جاوزه ، ثم تابع السير حتىٰ أتىٰ جمرة العقبة فرماها من بطن الوادي بسبع حصيات بعد طلوع الشمس يُكبِّر مع كلِّ حصاة (١) .

هذا بيان من رسول الله ﷺ قولاً وعملاً لما ينبغي أن يكون عليه الحجاج في عرفات ، وفي الإفاضة منها ثم في المزدلفة ، وفي الإفاضة منها إلىٰ منىٰ ، وقد اتفق العلماء علىٰ أن الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج ولا يصح حج من تركه عمداً أو نسياناً أو خطأً لحديث الحج عرفة واختلفوا في أقل ما يُجزئ من الوقوف بها .

فذهب الجمهور إلىٰ أنه يجزئ الوقوف بها ساعة ما بين ليل أو نهار بعد الزوال من يوم عرفة ، وذهب طائفة من الفقهاء إلىٰ أنه يجزئ الوقوف بها ساعة من نهار عرفة أو من ليله ـ وهو الظاهر ـ لحديث عروة بن مضرس الطائي قال : قلت : يا رسول الله أتيتك من جبلي طيء ، أكللت مطيتي وأتعبت نفسي ، والله ما بقىٰ من جبل إلا وقفت عليه ، فهل لي من حج ، فقال رسول الله ﷺ : « **من صلى الغداة ههنا ، ثم أقام معنا وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه** » (٢) .

ورأت طائفة أنه لا يجزئ ، إلا وقوف جزء من ليلة النحر ، واتفقوا علىٰ أن من بات بالمزدلفة ليلة النحر ، وجمع فيها بين المغرب والعشاء مع الإمام ، ووقف بعد صلاة الصبح مع الإمام إلىٰ الإسفار بعد الوقوف بعرفة فحجه تام ، واختلفوا في المبيت والوقوف بعد الفجر بعد صلاة الصبح : هل هو من سنن الحج أو

---

(١) انظر حديث جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢١٨) باب حجة النبي ﷺ .

(٢) حديث صحيح رواه النسائي (٣/ ٢٦٢) من حديث عروة بن مضرس . وانظر ترجمته والخلاف في رواية الشعبي عنه في التهذيب لابن حجر (٧/ ١٧٠) .

واجباته أو فرائضه ؟ ، ومهما يكن من الخلاف بين الفقهاء فيما يتعلق بعرفة ومزدلفة فإنه ينبغي للحاج وقد أتعب نفسه ، وبذل ماله ، وترك وطنه وأهله ، وعمله للحج أن يؤدي حجه على الصفة التي كانت من النبي ﷺ في حجه ، تحقيقاً لمعنى الاقتداء به وعملاً بقوله : « **خذوا عنّي مناسككم** » . واحتياطاً لصحة هذه العبادة التي هي ركن من أركان الإسلام ، فليجمع في الوقوف بعرفة بين جزءٍ من ليلة النحر وجزء من نهار عرفة بعد الزوال ، وليبيت بمزدلفة وليُصلٍّ بها المغرب والعشاء والصبح ، إلا إذا كان من جنس الضعفة الذين رخَّص لهم الرسول ﷺ في الإفاضة منها إلى منى بعد منتصف الليل ، ولا ينبغي أن يتساهل في عبادته ويتتبع الرخص فيها وخاصة نسك الحج ، فإنه قد لا يتيسر له إلا مرة واحدة في العمر ، ولا يليق أن يرجع بحج مشوَّةٍ قد انتقص من أطرافه بترك سننه أو واجباته، طلباً للراحة باتباع السهل من أقوال العلماء دون نظر إلى الأدلة الشرعية، بل عليه أن يحرص على الكمال ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليكون حجُّه مبروراً ، فيغفر الله له ويرجع من حجِّه كيوم ولدته أمه وقد طهره الله من الذنوب والآثام [١].

ثم بين الله سبحانه وتعالى اختلاف أحوال الناس وتباين مقاصدهم وأن سعيهم شتى ، فمنهم من الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه وغايةرغبته فهو لا يعمل إلا لها حتى إنه يبتغيها بعمل الآخرة . ولا يلهج لسانه بدعاء ربه إلا لطلب متعها فهذا يوافيه الله حظه في الدينا ، وسيلاقي سوء حسابه في الآخرة لانحراف نيته وسوء قصده ، وليس له في الآخرة من حرث ولا نصيب وذلك هو الخسران المبين قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [٢].

ومنهم من حسن قصده فاسلم وجهه لله وهو محسن ، فاستقامت جوارحه

(١) سبق تخريجه .

(٢) سورة هود ، الآيات : ١٥-١٦ .

وعمل الأعمال الصالحة ، وسأل الله أن يؤتيه في الدنيا حسنة من عافية ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ، ولسان صدق في الآخرين ليكون ذلك غنى لنفسه وعصمه لها من الذل ، ووسيلة إلى السعادة يوم لا ينفع المرء إلا ما قدمت يداه ، كما يضرع إلى ربه أن يكرمه في الآخرة ، فيثبته عند المسألة وييسر حسابه ويؤمنه من أهوال يوم القيامة يوم الفزع الأكبر ، وينجيه من النار ، وأن يدخله الجنة مع الأبرار ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١) .

فياحجاج بيت الله الحرام تذكروا وقوفكم أمام الله في اليوم الآخر ، واجعلوا كل همتكم ونيتكم السعادة الأبدية يوم لقاء الله ، ولا تؤثروا الحياة الدنيا على الآخرة . ولا تنسوا نصيبكم من الدنيا ، وقولوا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يكتب الله لكم الفوز المبين ، ويدخلكم جنات النعيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٢ .

٥ ـ باب في الإكثار من ذكر الله تعالى
أثناء المناسك وبعدها أكثر من ذكـر الآبـاء

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [(١)] .

قضيتم مناسككم : انتهيتم من أداء جميع شعائر الحج وفرغتم من أعماله كلها .

ماله في الآخرة من خلاق : ماله فيها من حظ ولا نصيب من الخير والسعادة .

الحسنة في الدنيا كلمة جامعة تشمل كل ما ينتفع به المؤمن في دنياه وما يكون عونا له على السعادة في أخراه . فيدخل في هذا كل مطلوب دنيوي من عافية ، ودار رحبة ، وزوجه حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل إلى غير ذلك . كل هذا يندرج في حسنة الدنيا .

أما الحسنة في الآخرة : فأعلى ذلك دخول الجنة والنظر ألى وجه الله الكريم ، وما يسبق ذلك من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة .

أما قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ فقد روى ابن جرير وغيره عن جماعة من السلف منهم ابن عباس رضي الله عنهما : « أن أهل الجاهلية كانوا يقفون في المواسم فيقول الرجل منهم كان أبي يطعم الطعام ،

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ٢٠٠ـ٢٠٢ .

ويحمل الحَمَالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله تعالىٰ علىٰ محمد ﷺ قوله ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ فأمر سبحانه وتعالىٰ حجاج بيته الحرام إذا فرغوا من أعمال الحج كلها ، ومن الوقوف بالمشاعر ، وطواف بالبيت ، ونحر للهدي ، ورمي للجمار وغير ذلك ، أمرهم أن يذكروه سبحانه ذكراً كثيراً ، وأن يثنوا عليه بما هو أهل له كذكرهم مفاخر آبائهم ، وما كان منهم من النجدة والكرم ومن أنهم كانوا يطعمون الطعام ويحملون الحمالات ويحملون الديات ، أو أشد ذكراً . فإنه جل شأنه هو أهل الثناء و المجد ، وما كان فيهم أو في أبائهم من خير فهو من الله سبحانه ومن توفيقه ، فهو رب الخير كله سبحانه وتعالىٰ ، وتصريف شئون العباد كلها إليه وبيده ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [1] سبحانه لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع وهو علىٰ كل شيءقدير . ولما كان هو الكريم المنان وكان هو أهل المحامد والثناء ، كان هو أولىٰ بالذكر والحمد والثناء والمجد ، وكان الواجب علىٰ المؤمنين أن يذكروه ، وأن يحمدوه ، وأن يثنوا عليه بما هو أهل له سبحانه . وكان الواجب عليهم أن يُشْعروا قلوبهم محبته وعظمته ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم . وليكون ذلك منهم امتداداً لجني ثمار الحج وابقاءاً لأثاره في القلوب ، وإحياء لذكراه في النفوس . وليقضي به علىٰ العادات الجاهلية ، وما فيها من التعالي والأنانية ، وإثارة الضغائن ، والأحقاد والعداوات ، وغير ذلك من مثيرات الخلاف والنزاع .

ولا يبعد أن يقال إن الإنسان إذا سافر أحس بوحشة الغربة ، وضعف الوحدة، فيذكر المسافر أهله ذكر حنين ، وحاجة إلىٰ الأنس بهم وحاجة إلىٰ القوة والمنعة ، والوجود بين أظهرهم ، فأمر الله حجاج بيته إذا هم فرغوا من حجهم ، وتمكن منهم الحنين إلىٰ أهليهم أمرهم سبحانه أن يذكروه ذكر أنس به ولجوء إلىٰ

(١) سورة فاطر (٢)

كنفه وحماه ، ورهبة منه ورغبة فيما عنده أكثر من ذكرهم لآبائهم ، فإن الأنس به أعظم من كل أنس ، وحماه أحفظ من كل حمىٰ ، وما عنده خير وأبقىٰ .

وقال جماعة من أهل العلم ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ .... ﴾ الآية أن المراد بالذكر الوارد ، هو ذكر الله بالأذكار الواردة عند كل ركن من أركان الحج، كالتلبية عند الإحرام ، والتكبير عند الرمي ، والتسمية عند الذبح وغير ذلك .

وقد جرت سنة الله في تشريعه أن يأمر الناس بالذكر والإستغفار في العبادة ، وبعد الفراغ منها وأن يتبعوها بالذكر ، بالتحميد والتسبيح والتهليل والتكبير . فأمر جل شأنه حجاج بيته الحرام في ختام هذه الآية الأولىٰ أن يذكروه علىٰ الصفة التي هداهم إليها في مشاعر الحج وأنزلها لهم في كتابه وفي سنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم ، وهي التي هدىٰ إليها من قبل إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام وقد كانوا قبل ذلك ضلالا فليؤدوا النسك علىٰ وفق ما شرعه الله تعالىٰ لهم شكراً له علىٰ نعمه البيان والهداية والإرشاد .

وقد أمرهم في ختام الآية الثانية بالإستغفار عند الإفاضة من عرفات إلىٰ المزدلفة ومن المزدلفة إلىٰ منىٰ ، وبعد الفراغ من ذلك . وفتح باب الأمل والرجاء بقبول أعمالهم والتجاوز عن هفواتهم . فهو سبحانه وتعالىٰ واسع المغفرة .

ثامناً : فتاوى الحج

س ١ : سئل الشيخ : هل وجوب الحج على الفور أو التراخي ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ الصحيح : وجوب الحج على المستطيع على الفور .

س ٢ : سئل الشيخ : امرأة لبست القفازين في الإحرام جهلاً بالحكم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ «لا شيء عليها وهي معذورة بجهلها » .

س ٣ : سئل الشيخ : رجل نسي أن يحلق رأسه ولبس المخيط ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « يحلق رأسه وهو لابس المخيط ؛ لأنه لبسه ناسياً فيعفى عنه كالرجل المتضمخ بالخلوق » .

س ٤ : سئل الشيخ : الميقات في العمرة إذا كان سيمر به إلى بلد أخرى كجدة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « يحرم من الميقات ويمكث بجدة ولو عشرين يوماً محرماً كعمل الصحابة يوم الحديبية حيث بقي الصحابة محرمين طيلة المدة التي جرى فيها التفاوض والصلح لأن قصدهم العمرة وإذا كان قصده الأول زيارة أهله بجدة والعمرة تبع جاز له أن يتجاوز الميقات حلالاً ثم يحرم من مكانه إذا هو نوى العمرة » .

س ٥ : سئل الشيخ : إذا اعتمر في أشهر الحج ثم ذهب إلى أمريكا ورجع قبل الحج يلزمه أن يدخل مكة محرماً وتكفيه العمرة السابقة وحجه تمتع ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « نعم » .

س ٦ : سئل الشيخ : الشخص الذي له مصلحة بمكة وليس مريداً للنسك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « له أن يدخل مكة بغير إحرام حتى ولو يوم عرفات وله أن يجاوز الميقات بغير إحرام .

س ٧ : سئل الشيخ : حكم استعمال الصابون ذي الرائحة للمحرم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « لا ينبغي . والأحوط أن عليه فدية » .

س ٨ : سئل الشيخ : هل يجوز سفر المرأة بدون محرم بالطائرة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « لا تسافر المرأة بدون محرم ولوفي الطائرة إلا أن بعض الفقهاء من المالكية ، والشافعية يقولون الرفقة المأمونة تقوم مقام المحرم ، وأنا أحياناً أقول بهذا ، ومعنى الرفقة المأمونة أنها تأمن من شرهم ، وإذا أرادها أحد بسوء فهم أهل قوة وشهامة يدافعون عنها ، مثل أن يكون رجل وزوجته أو رجل وأخته ، ومعهما زوجة رجل مقيم في المكان الذي يريدون السفر إليه قد تكون رفقة مأمونة ولو وصلها أحد محارمها إلى المطار ، وانتظرها محرم لها في المطار الآخر فإننا نكون قد أخذنا بالاحتياط اللازم في سفر المرأة .

س ٩ : سئل الشيخ : عن رمي الجمرات في المرمى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « في رمي الجمرات يكفي غلبة الظن أنه أصاب المرمى ولا يشترط اليقين » .

س ١٠ : سئل الشيخ : عن المبيت بمنى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « المبيت بمنى قيل إنه واجب فيلزم تاركه دم ، وقيل سنة فلا يلزم تاركه شيء ومن قال بالوجوب يكفيه أكثر الليلتين . أما إذا بات ليلة واحدة أوأقل من نصف الليلة فعليه دم » .

س ١١ : سئل الشيخ : هل السفر بالطائرة التي لا تستغرق المسافة إلا ساعتين يعتبر في حكم السفر القصير ؛ لأنه لا يستغرق يوماً وليلة والنبي ﷺ أباح للمرأة السفرالقصير بلا محرم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « بلى هو كذلك » .

س ١٢ : سئل الشيخ : شخص أحرم لطفله من الميقات ثم لم يؤد له مناسك العمرة فلم يطف به ولم يسع ولم يحلق أو يقصر وعاد إلى بلده . فماذا عليه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « عليه أن يعود به إلى مكة فيعيد العمرة إن كانت

عمرة أو يعيد الحج إذا كان حجاً ، ولا دم عليه مادام يجهل الحكم » .

س ١٣ : سئل الشيخ : ما حكم السعي في الحج ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « ركن »

س ١٤ : سئل الشيخ : هل يعتبر الزحام في الرمي في هذا الزمن عذراً للمرأة يجوز لها أن تبيت من يرمي عنها ؟ وأيهما أفضل أن تنيب من يرمي عنها نهاراً ، أو ترمي هي بنفسها ليلاً؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « نعم » يعتبر عذرا لما في مزاحمتها الرجال من انتهاك لحرمتها ، وهي مخيرة بين أن تنيب من يرمي عنها نهاراً أو ترمي هي بنفسها ليلاً .

س ١٥ : سئل الشيخ : شخص جامع امرأته بعد تحلله من إحرامه بالعمرة وقبل تحللها بقص شعرها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « هي تبطل عمرتها ، وعليها دم . وإن كانت عمرة الإسلام الأولى فعليها القضاء » .

س ١٦ : سئل الشيخ : إذا ازدحم الناس فلم يقف بعضهم بعرفة أوالمزدلفة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « من لم يقف بمزدلفة عليه فدية ترك واجب ، وأما من لم يقف بعرفة حتى تغرب الشمس فلا حج له ، ولو اجتمع الناس كلهم ووقفوا بعرفة فإنها ستسعهم » .

س ١٧ : سئل الشيخ : ما حكم مكث المرأة في بلدة ما بدون محرم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « يجوز مكثها بدون محرم ؛ لأن ذلك ليس سفراً . أما السفر فلا تسافر إلا مع محرم أو جمع مأمون من الناس » .

س ١٨ : سئل الشيخ : امرأة أحرمت وعندما وصلت مكة حاضت ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « إن بقيت على إحرامها حتى أدت نسكها فلا شيء

عليها. أما إذا خرجت عن إحرامها فعليها دم » .

س ١٩ : سئل الشيخ : إذا كانت عنده شاه أعدها كأضحية فمرضت . هل يجوز تحويل نيته ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « يصح له ذلك وهو معذور ويضحى بدلها » .

س ٢٠ : سئل الشيخ : هل طواف الوداع للخارج من مكة عموماً ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « يجب فى الحج على الصحيح . ومن أهل العلم من يوجبه على كل من خرج من مكة . ولكن الحديث الذي يُستدل به على هذا ، الخطاب فيه موجه للحجاج يقول الرسول ﷺ : « **لا ينفرن أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت** »[1] . أمر من الرسول ﷺ للحجاج أن يكون آخر عهدهم بالبيت ، فالخطاب خطاب للحجاج وليس خطاباً لسكان مكة ، لأن سكان مكة لا ينفرون منها والخطاب لمن ينفر من مكة يعنى يرحل منها ويسافر ويخرج وهم الحجاج . لهذا كان الرأي الصحيح إيجاب طواف الوداع إنما هو على الحاج وليس على كل ساكن في مكة إذا أراد الخروج منها » .

س ٢١ : سئل الشيخ : هل يجب طواف الوداع على المعتمر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « ليس طواف الوداع بواجب على المعتمر وإن طاف فهو خير . ولم يعرف عن النبي ﷺ أنه طاف طواف الوداع لما اعتمر العمرات التي قبل حجة الوداع ،وإنما طواف الوداع واجب في الحج على الرأي الصحيح» .

س ٢٢ : سئل الشيخ : هل كثرة العمرة في رمضان سنة أو أمر مستحب ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « كلمة سنة أو مستحب كلها قريبة من بعض وهي

---

(١) حديث صحيح : أخرجه مسلم (١٣٢٨) والبخاري (١٧٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

اصطلاحات بين الفقهاء . والعمرة في رمضان خير وإن تكررت ولا حرج في تكرارها . ولم أعلم إلا قليلا من العلماء هم الذين يكرهون تكرار العمرة فى السنة وليس في رمضان وحده . ومن هؤلاء المالكية يكرهون تكرار العمرة في رمضان ، وفي غيره من الشهور بل وفى السنة وليس معهم دليل على هذا الرأي».

تاسعاً : مباحث وفتاوى البيوع

١ـ بحث في الربا

الرِّبا بالقصر : الزيادة ، وهو مصدر ربا الشيء يربو إذا زاد سواء كانت زيادة الشيء في نفسه أم بالنسبة لغيره ، وفي اصطلاح الفقهاء، زيادة أحد عوضين من جنس على الآخر ، أو تأخير بعضه ، في عقد معاوضة على معادن أوأطعمة مخصوصة بيَّنتها السُّنة النبوية .

وقد نص القرآن صريحاً على تحريمه وتوعد مَنْ اقترفه بالمحق وآذنه بالحرب إلا من تاب واكتفى بأخذ رأس ماله فإن الله يتوب عليه . قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴾ (١) .

وبيَّن النبي ﷺ نوعية ربا الفضل وربا النساء وحرَّم كُلاًّ منهما في كثير من الأحاديث منها قوله ﷺ : « **لاتبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ، ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الوَرِق بالوَرِق إلا مثلا بمثل ، ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائباً بناجزة** » رواه البخاري ومسلم (٢) . ومنها قوله ﷺ : « **الذهب**

---

(١) سورة البقرة الآيات [٢٧٥ـ٢٧٩] .

(٢) رواه البخاري (الفتح ٤/ ٢١٧٧) ومسلم (١٥٨٤) . وقوله (لا تشفوا) أي لا تفضلوا والشِّف، الزيادة وقد يطلق أيضاً على النقصان فهو من الأضداد .

بالذهب، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح مثلاً بمثل ، سواء بسواء يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » رواه أحمد ومسلم [1] . وأجمعت الأمة على تحريمه واشتهر ذلك بين المسلمين شهرة تغني عن الاستدلال عليه وصار تحريمه معلوماً من الدين بالضرورة، فمن أنكره فهو كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل كفرا ، إلا إذا كان جاهلاً يتوقعمن مثله جهله فيعذر ويُعلَّم كحديث عهدٍ بكفر ، وما وقع بين الفقهاء من اختلاف فيه فإنما هو في التفاصيل وتطبيق النصوص على الوقائع والجزئيات .

وصرحت السُّنة بستة أنواع يجري فيها الربا وهي المذكورة في رواية أحمد ومسلم السابقة فلذا لم يختلف فيها الفقهاء، وإنما اختلفوا في قياس غيرها عليها بناءعلى الاختلاف في تعليل حكمها ، فمن قال أنه غير معلل قصر تحريم الربا على الأصناف الستة السابقة ، وأقدم من يُروى عنه ذلك قتادة وهو مذهب أهل الظاهر، واختاره ابن عقيل في آخر مصنفاته مع قوله بالقياس ، قال : لأن علل القياسيين في مسألة الربا علل ضعيفة ، وإذا لم تظهر فيه علة امتنع القياس . والذين قالوا أنه معلل اختلفوا في علته فقال عمار وأبو حنيفة : هي الكيل والوزن وهو ظاهر مذهب أحمد ، وخصه الشافعي بالطعام وإن لم يكن مكيلاً ولا موزوناً وهو رواية عن أحمد . وخصه سعيد بن المسيب بالطعام إذا كان مكيلاً أو موزوناً وهو قول للشافعي ورواية عن أحمد . وخصَّه مالك بالقوت وما يصلحه، ورجحه ابن القيِّم فيما ذكر في كتابه إعلام الموقعين . وهذا الخلاف بينهم في علة الربا في البر والشعير والتمر والملح .

والذي يعنينا هنا بيان علة الربا في الذهب والفضة عند الجمهور القائلين بالتعليل مع الترجيح ، وقد ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين ما فيها من خلاف بين

---

(١) مسلم (١٥٨٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

الفقهاء فقال : وأما الدراهم والدنانير فقالت طائفة : العلة فيهما كونهما موزونين ، وهذا مذهب أحمد في إحدىٰ الروايتين عنه ومذهب أبي حنيفة .

وقالت طائفة : العلة فيهما الثمنية ، وهذا قول مالك والشافعي وأحمد في الرواية الأخرىٰ ، وهذا هو الصحيح بل الصواب ، فانهم أجمعوا علىٰ جواز إسلامهما في الموزونات من النحاس والحديد ونحوهما ، فلو كان النحاس والحديد ونحوهما ربويين لم يجز بيعهما إلىٰ أجل بدراهم نقداً ، فإن ما يجري فيه الربا إذا اختلف جنسه جاز التفاضل فيه دون النَّساء ، والعلة إذا انتقضت من غير فرق مؤثر دلَّ علىٰ بطلانها . وأيضا فالتعليل بالوزن ليس فيه مناسبة ، فهو طرد مَحْض ، بخلاف التعليل بالثمنية فإن الدراهم والدنانير أثمان المبيعات ، والثمن هو المعيار الذي به يعرف تقويم الأموال ، فيجب أن يكون محدوداً مضبوطاً لا يرتفع ولا ينخفض ، إذ لو كان الثمن يرتفع وينخفض كالسِّلع لم يكن لنا ثَمنٌ نعتبر به المبيعات ، بل الجميع سِلَع ، وحاجة الناس إلىٰ ثمن يعتبرون به المبيعات حاجة ضرورية عامة ، وذلك لا يمكن إلا بسعر تُعرف به القيمة ، وذلك لا يكون إلا بثَمَن تُقَوَّم به الأشياء ويستمر علىٰ حالة واحدة ولا يقوم هو بغيره ، إذ يصير سلعة يرتفع وينخفض ، فتفسد معاملات الناس ويقع الخُلْف ويشتد الضرر ، كما رأيت من فساد معاملاتهم والضرر اللاحق بهم حين اتخذت الفلوس سلعة تعد للربح ، فعم الضرر وحصل الظلم ، ولو جُعلَتْ ثمناً واحدا لا يزداد ولا ينقص بل تُقَوَّم بها الأشياء ولا تقوم هي بغيرها لَصَلُح أمر الناس ، فلو أبيح ربا الفضل في الدراهم والدنانير ـ مثل أن يعطي صحاحاً ويأخذ مكسرة ، أو خفافاً ويأخذ ثقالاً أكثر منها ـ لصارت مُتَّجَرا ، أو جرَّ ذلك إلىٰ ربا النساء فيها ولا بد ، فالأثمان لا تقصد لأعيانها بل يقصد التوصل بها إلىٰ السِّلع ، فإذا صارت في أنفسها سِلَعاً تقصد لأعيانها فسد أمر الناس ، وهذا معنىً معقول يختص بالنقود لا يتعدىٰ إلىٰ سائر الموزونات . أهـ[1] .

---

(١) انظر إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨) .

ثم ذكر ابن القيم أن ربا الفضل حُرِّم تحريم الذرائع ، وأن ربا النَّساء حُرِّم تحريم المقاصد ، فكان تحريم ربا الفضل وإن كان من الكبائر أخف من تحريم ربا النَّساء ، ولذلك استثنىٰ منه بيع المصوغ والحلية المباحين بجنسهما من الدارهم والدنانير نقداً مع التفاضل لشدة الحاجة إلىٰ استعمالها ، ولا يمكن تكليف كل إنسان أن يصنع لنفسه ولا يعقل إهدار الصنعة ببيعها بجنسها من الدارهم والدنانير وزناً ولا يعقل إبطال هذه الصناعة ، ومن الحرج تكليفها المعاوضة مع اختلاف الجنس ، وبيَّن أن الضرورة الداعية إلىٰ استثناء العرايا ونحوها مما رُخِّص فيه من فروع الفقه، وأورد اعتراضات منها أنه يلزم علىٰ ذلك جواز بيع الفرع بأصله متفاضلاً كالخبز بالبر . فالتزم جوازه ، ومنها أنه يلزم جواز الزيادة في معاوضة الرديئة من الفضة بالجيدة منها لتقابل الزيادة الجودة ، وأجاب عن ذلك بالفروق بأن الجودة هنا طبيعية والصناعة كسبية ، فأورد عليه الدارهم والدنانير المضروبة مع المكسرة، فأجاب بالفرق أيضاً فإن السكّة لا تتقوم فيها الصناعة للمصلحة العامة المقصودة منها وهي أن تكون معياراً للناس فلا تقابل بالزيادة في العرف وإلا لفسدت المعاملة بخلاف المصوغ فإن العرف جرىٰ بتقويم زيادة الصناعة فيه وليس في تقويمها نقض للمصلحة العامة ولا إفساد المعاملة للناس .

وقد يناقش نقد ابن القيم تعليل الربا في النقدين بالوزن بأنه لا إجماع علىٰ جواز إسلام الذهب أو الفضة في الحديد والنحاس والرصاص ونحوها من الموزونات ، فإن من الحنابلة مَنْ منع من ذلك ، وجعلها ربوية بناء علىٰ أن العلة الوزن كما في إحدىٰ الروايتين عن أحمد ، أما علىٰ الرواية الأخرىٰ وهي تعليل الربا في النقدين بالثمنية فيجوز إسلامهما في الحديد ونحوه من الموزونات [1] .

وقد يناقش أيضاً تعليل الربا في النقدين بالثمنية بأنه غير منعكس ، فإن التفاضل محرم باتفاق في المعاوضة بين أفراد الجنس الواحد من الأجناس

(١) انظر مبحث الربا في الجزء الثاني من إعلام الموقعين لابن القيم ـ رحمه الله .

الأربعة، البر والشعير والتمر والملح وإن كانت يداً بيد ، وكذا النَّساء محرم باتفاق في المعاوضة بينها وان اختلف الجنس وليس منها ما هو ثمن عرفًا ، فوُجِدَ الحكم ولم توجد علة الثمنية ، ويمكن أن يجاب بأن الحكم بتحريم الربا واحد بالجنس لا بالشخص ، فيصح تعليله في كل نوع بعلة ، فيعلل تحريم الربا في النقدين بالثمينة، ويعلل تحريم الربا في الأربعة المذكورة بكونها قوتاً مثلاً وكل منهما علة مطردة منعكسه فيما جعلت علة فيه .

وقد يناقش التعليل بالثمينة أيضاً بأنها قاصرة غير متعدية مستنبطة ، ليست منصوصاً علىٰ عليَّتها ولا مجمعاً عليها ، فلا يصح التعليل بها لعدم الفائدة . ويجاب أن فائدة التعليل غير منحصرة في التعدية ،فإن الحكم إذا كان معقول المعنىٰ كان أدعىٰ إلىٰ الإنقياد وأسرع إلىٰ القبول ، وأيضاً يمتنع بتقدير ظهور وصف آخر في محل العلة القاصرة تعدية الحكم به دون ترجيحه علىٰ القاصرة إلىٰ فوائد آخرىٰ للتعليل ، فصح التعليل بها [1] .

---

(١) انظر المجموع للنووي ، ومبحث العلة القاصرة من كتاب إحكام الأحكام للآمدي .

عاشراً : فتاوى البيوع

س ١ : سئل الشيخ : عن حكم بيع الماء ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا حاز الماء بتعبه ووضعه في قربة فله بيعه . وكذلك حافر البئر له بيعه . أما الماء النابع فهو غير مملوك لأحد ولا يحل بيعه كماء العيون والمطر ، وكذلك الكلأ إذا استنبته إنسان فهو ملك له ، لكن الكلأ الذي نبت بنفسه في البرّيَّة وكون الناس شركاء في النار يفيد أن البترول داخل في ذلك لأنه قابل للاشتعال فهو ملك للناس جميعاً ، ويتولى تنظيمه وليُّ الأمر ، وهو خارج بنفسه ولذلك يصنعون له شيء يمنعه من التدفق ، ولذلك لا زكاة فيه ؛ لأنه ملك للأمة جميعاً فهو كمال بيت المال لا زكاة فيه .

س ٢ : سئل الشيخ : عن دفع ريالات في البنك وأخذ شيك يرسل بالبريد لِيُصرف من بلد أخرى بعملة أخرى كالجنيه بما يعادل قيمة الريالات المدفوعة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « في التحويل يعتبر الشيك قبضاً فيصح » .

س ٣ : سئل الشيخ : مبادلة الريالات الورقية بالريالات الحديدية مع التفاضل عشرة من تلك بتسع من هذه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز ؛ لأنه فيها ربا كلها ريالات » .

س ٤ : سئل الشيخ : ما حكم الأرباح من البنوك الربوية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا وضع مال في بنك ربوي يأخذ رأس ماله والأرباح يُنفقها في مصارف الصدقة ووجوه الخير » .

س ٥ : سئل الشيخ : الشراء بالتقسيط ممن يعرض للسلعة سعرين نقداً وتقسيطاً ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجوز إن لم يتفرقوا من المجلس ، وإلا قد اتفقوا على أحد الأمرين ، والشيخ ناصر يمنعه ويقول : هما بيعتين في بيعة ، وليس كذلك هذا اسمه عرضان وليس بيعين .

س ٦ : سئل الشيخ : فقه حديث لا يحوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها [١] ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « سنده ضعيف[١] والمرأة مالكة لمالها لا يحجر عليها إلا إذا كان فيها سفاهة فيحجر عليها وهو صريح القرآن ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾[٢] أي إذا أعطت زوجها أو صديقاتها أو أقاربها فلهم أكله هنيئاً مريئاً » .

س ٧ : سئل الشيخ : عن البيع في المسجد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يصح مجرد عرض سلعة أو تعاقد على بيع أو إجازة في المسجد حتى لو كان البيع يتم خارجه » .

س ٨ : سئل الشيخ : البيع والشراء في المقابر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « مباح » ولكن الأفضل والأولى أن نضع الأمر المناسب في المكان المناسب . فالمقابر أماكن يزورها المسلم يرق فيها قلبه ويتذكر الآخرة ويحتقر أمر الدنيا » .

س ٩ : سئل الشيخ : ما حكم من يعمل حارساً أو فرّاشاً في مؤسسة ربوية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز أن يقدم الشاي أو القهوة لمن يكتب الربا ، ولا يجوز أن يعمل لديها أي عمل حتى ولو أدى ذلك إلى أن يعمل حمّالاً في السوق ، سواءٌ كانت هذه المؤسسة ربوية تبعاً للحكومة أو للجن أو الإنس كله سواء . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[٣] والذي يحمل الورق الذي فيه الربا من مكتب إلى مكتب آخر مثل كاتب الربا وحاسبه .

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٣٨) وقد رواه النسائي وأحمد وابن ماجه من حديث عمروبن شعيب عن أبيه عن جده وهذا سند حسن عند كثير من أهل العلم وله شاهد من حديث كعب بن مالك وسنده ضعيف .

(٢) سرورة النساء ، الآية : ٤ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

س ١٠ : سئل الشيخ : إذا حولت الحكومة راتبي على بنك ربوي؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « لا بأس أن تستلم هذا المبلغ من البنك الربوى ؛ لأن هذا المبلغ راتب على عملك والبنك هذا عمله ولا مانع من ذلك » .

س ١١ : سئل الشيخ : تحويل المال في البنوك ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « تحويل المال في البنوك بمعنى أنك تدفع هنا ريالات وتستلمها دولارات أو جنيهات في مصر أو أمريكا فهذا جائز ، وهم ينزلون الشيك الذي تأخذه منزلة القبض . فأنت قبضت العوض عن المال الذي دفعته » .

س ١٢ : سئل الشيخ : هل دفع الرشوة جائز ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « دفع الرشوة جائز للتخلص من الضرر الذي وقع عليك ظلما أو لاستخلاص حقك الذي لا تستطيع تحصيله إلا بالرشوة بشرط أن تأمن من حدوث ضرر أشد كأن يسجنوك أو يعاقبوك » .

س ١٣ : سئل الشيخ : إذا قال تاجر في مصر لشخص يعمل هنا وأنت نازل احمل لي هذا الجهاز لأنك ستعفى من الجمرك ، لأنه جهاز واحد وأعطيك مبلغاً من المال مقابل حملك إياه وتسببك في إعفائي من الجمرك ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « لا يجوز هذا ولكن يجوز أن يحمل له من باب الإحسان بدون أجر » .

س ١٤ : سئل الشيخ : هل يجوز للمستأجر إذا خرج قبل انقضاء المدة أن يؤجر السكن لآخر ينتفع به ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : « يجوز أن يؤجرها لمثله بحيث لا يفسد في الشقة ولو بأكثر وإذا أجرها لمثله لا يشترط إذن المالك » .

س ١٥ : سئل الشيخ : حكم من اقترض مبلغاً من المال بالجنيه المصري على أن يرده بالريال؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ « الأصل أنه يرده مصرياً فإن لم يتمكن رده يصرفه من عملة أخرىٰ ، ومعنىٰ لم يتمكن أن العملة انقرضت أو بطل التعامل بها » .

س ١٦ : سئل الشيخ : رجلان وأمهما في منزل كان قد استأجره أبوهما المتوفي فاتفق أحدهما مع الآخر أن يدفع له مبلغاً من المال مقابل أن يخرج من السكن ويبحث عن مسكن آخر بدون علم المالك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا كان بنيَّة خلو الرجل فلا يجوز ، وإذا كان نظير انتفاع أحد الشريكين بحصة الآخر في الإيجار يجوز » .

س ١٧ : سئل الشيخ : إذا اختلط مال شخص بمال آخر وديعة عنده ليعمل فيه ويربح ولم يدرِكم الربح ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هذا غالط في العمل في مال المسلمين إذا كان يغلط في حساب الربح ، ولكن إذا كان مال شخص استسمحه ، وإذا كان مال المسلمين اجتهد في التصدق به علىٰ أكثر التقديرين للربح ، ويكتفي لنفسه بأقل تقدير » .

س ١٨ : سئل الشيخ : ما حكم السلم فى العمارات ، المقاول أو صاحب العقار يصف العقار الذي سوف يبنيه ، ويتقاضى جزءاً من ثمن البناء ممن يريد الشراء فيه ويستعين بهذا المبلغ الذي قبضه في بناء المبنى ثم يسلمه للمشترين حسب الإتفاق؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجوز هذا ولا حرج فيه وعامة بيع الشقق في مصر كذلك ، ولا بأس » .

س ١٩ : سئل الشيخ : هل يجوز بيع سيارة بالتقسيط ويشترط إذا لم يسدد الأقساط وأراد إعادة السيارة يقتطع جزءاً من الثمن مقابل انتفاعه باستعمال السيارة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هذا غلط يسترد مبلغه كاملاً ويجوز للبائع أن يأخذ رهناً إذا تأخر المشتري باع المرهون واسترد الثمن » .

س ٢٠ : سئل الشيخ : عن الشروط الجزائية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « تجوز في حالات خاصة كعقد المقاول إذا تأخر في تسليم الصفقة أو عند التعاقد مع المدرسين أو الموظفين يجوز مجازاتهم بخصم أو إلغاء العقد عند المخالفات » .

س ٢١ : سئل الشيخ : محل بيع قطع الغيار يبيع العامل فيه القطعة رخيصة لصديقه ولا يتقاضى الأجر على التركيب ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز إلا بإذن صاحب العمل أما إذا لم يتقاضى الأجر على التركيب بعد نهاية الدوام فلا حرج ، أما أثناء الداوم فلا إذا كان متعاقداً مع صاحب العمل على أن يركب والأجر لصاحب العمل » .

س ٢٢ : سئل الشيخ : عن رجل من البدو اغتصب إبلاً وعندما حضرته الوفاة أوصى ابنه أن يردها ، وابنه لا يعرف أصحابها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يقوّم ثمن الإبل الآن ، أي يوم الرد لا يوم الاغتصاب ويتصدق به على الفقراء وينفقه في مصالح المسلمين » .

س ٢٣ : سئل الشيخ : عن المساهمات في الشركات والبنوك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « المساهمات كلها محل ريبة لا يساهم الإنسان في أي شركة من الشركات إلا على طريقة المضاربة بنسبة من الربح » .

وموضوع المساهمات في الشركات والبنوك سيبحث إن شاء الله في هيئة كبار العلماء .

س ٢٤ : سئل الشيخ : ما حكم مبادلة عيار ١٨ بذهب عيار ٢١ ، أو ٢٤ علماً بأنه قد يخلط الذهب بنحاس أو فضة بنسب متفاوتة في هذه العيارات ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « ما دام يبادل ذهباً بذهب فلا بد من تساوي الوزن. فمثلاً عشرة جرامات من عيار ١٨ بمثلها عشرة جرامات من عيار ٢١ ولو تفاوت نسبة ما خلط به » .

س ٢٥ : سئل الشيخ : بائع الجملة هل يجوز أن يبيع لبعض الناس بسعر ولبعضهم بسعر آخر؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « نعم يجوز » .

س ٢٦ : سئل الشيخ : بعض البنوك يعلن عن نفسه أنه بنك إسلامي ، ولا يتعامل بالربا فهل يكفي هذا للإيداع فيه أم لا بد من البحث والتأكد من صحة ذلك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا بد من التأكد والبحث عن كون البنك لا يتعامل بالربا » .

س ٢٧ : سئل الشيخ : هل يجوز ترك المال في بنك ربوي كوديعة بدون فوائد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز وضع المال في بنك يتعامل بالربا لا وديعة ولا غيرها » .

س ٢٨ : سئل الشيخ : هل يجوز بيع حق استعمال الهاتف والذي حصل عليه من الحكومة؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز ولو بما كلفه من مال ؛ لأن هذا الحق ملك الدولة » .

س ٢٩ : سئل الشيخ : عن حكم بيع عقود العمل ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا يجوز ولا يشترئ عقد عمل ولو كان محتاجاً ومن تركه عوضه الله » .

س ٣٠ : سئل الشيخ : عن حكم التورق (وهو شراء سلعة بالتقسيط وبيعها نقداً بأقل لغير من اشتراها منه) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « التورق جائز » .

س ٣١ : سئل الشيخ : عن حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا تعين هو لتعليم القرآن كان واجباً عليه ولم يجز له أخذ الأجرة على واجب . أما إذا لم يجب عليه بعينه تعليم القرآن فيجوز له أن يأخذ أجرة في حدود ما يكفيه من النفقات . أما إذا لم يكن محتاجاً فلا يجوز أخذ الأجرة » .

س ٣٢ : سئل الشيخ : بعضهم يتورع عن تجارة الذهب لكثرة المخالفات فيها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « هذا غلط ، بل يتاجر بالوجه الشرعي من غير ربا» .

س ٣٣ : سئل الشيخ : حكم أخذ الذهب بدون دفع قيمته ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا كان قيمته نقوداً لا يجوز . أما إذا كان ذهبا مقابل بُرٍّ أو قماش فيجوز الأجل » .

س ٣٤ : سئل الشيخ : (خلو الرجل) وتقبيل المحلات ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « خلو الرجل لا يجوز وتقبيل المحلات يجوز » .

س ٣٥ : سئل الشيخ : ما حكم البيع والشراء من الكفار ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كان النبي ﷺ يسوي بينهم ، وبين المسلمين في البيع والشراء ، وكان يشتري من اليهود مثل ما يشتري من المسلمين » .

س ٣٦ : سئل الشيخ : عن أخذ الأجر على الطاعة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « أخذ الأجر الدنيوي على الطاعة لا يقدح في

الإخلاص ولكن ينقص الأجر ، وهذا منصوص عليه في الجهاد إذا استعجل الغنيمة [١] ، فإذا كان الدافع له على الطاعة هو وجه الله أو الأمران معاً فهو مخلص . أما إذا كان مقصده المال فقط بحيث إذا نقص منه شيء من المال يترك هذه الطاعة فلا ثواب له . لكن إذا كان معذوراً فلا إثم عليه . إذا امتنع من فعل الطاعة لأنهم لم يعطوه أجرته المالية . ولا يتوقف أجره الأخروي على كون أجره الدنيوي كبيراً أو صغيراً بل يتوقف على مدى حاجة الناس إليه وحاجتهم إلى من ينشر الخير بينهم ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ [٢] الآية . . . فيها عدم استواء الأجر بحسب وقت الإنفاق .

س ٣٧ : سئل الشيخ : عن الشروط في العقود كاشتراط إكمال المرأة تعليمها في عقد الزواج ، واشتراط عدم التدريس دروساً خاصة بعد الداوم في المدارس ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هو ملزم بالوفاء ؛ لحديث « **أحق الشروط وأن توفوا به ما استحللتم به الفروج** » [٣] ما لم يطرأ ما يمنع من الوفاء بالشروط فيعذر .

واشتراط عدم التدريس خارج الداوم شرط ملزم ، ولو لغير طلابه سداً للذرائع . وكذلك اشتراط ألا يعمل تاجراً مثلاً بعد الدوام وطاعة ولي الأمر فيما نصح به حفظا للنظام ملزمة كقوانين المرور ؛ إذ ليس فيها نص بخصوصها لولي الأمر وضع جزاءات بشرط أن تكون عادية . وإذا كان عارفاً بعدم الجواز وفعل وتقاضى على ذلك أجر فعليه دين في ذمته مثل المبلغ الذي تقاضاه ، أما إذا كان جاهلاً بالحكم فلا شيء عليه وهو معذور فيما سبق » .

---

(١) يشير الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى قول النبي ﷺ : « **ما من غازية أوسرية تغزو في سبيل الله فيهيبون من الغنيمة، إلا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة . ويبقى لهم الثلث . وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم** » رواه مسلم (١٩٠٦) . وأحمد (٢/ ٦٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ١٠ .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢١ ، ٥١٥١) . ومسلم (١٤١٨) والترمذي (١١٢٧) . وأبو داود (٢١٣٩) . والنسائي (٦/ ٩٢) وابن ماجة (١٩٥٤) . وأحمد (٤/ ١٤٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً .

حادي عشر : فتاوى النكاح

س ١ : سئل الشيخ : هل يجوز الزواج بالكتابية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « السورة التي فيها إباحة الزواج بالكتابية هي سورة المائدة ، وهي نفس السورة التي فيها أن النصارىٰ كفروا لقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1] ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾[2] خلافاً لعمر رضي الله عنه اذ لم يطاوعه الصحابة » .

س ٢ : سئل الشيخ : عن الزواج من النصارى ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « عند المذاهب الثلاثة يباح الزواج من نساء اليهود والنصارىٰ سواء عدلوا إلىٰ الأسوأ ، أو الأحسن ما دامت تنتسب إلي النصرانية أو اليهودية » .

س ٣ : سئل الشيخ : الذهب الذي يعطيه الزوج لامرأته ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « الذهب الذي أعطاه الزوج لامرأته يكون من حقها . وإذا لم يكن هناك اتفاق فعليه مهرٌ غير الذهب ويعتبر الذهب هدية » .

س ٤ : سئل الشيخ : ما حكم الزواج بزوجة ثانية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « حكم الزواج بثانية يختلف من شخص لآخر كل إنسان أدرىٰ بحاله » .

س ٥ : سئل الشيخ : رجل رضع من زوجته هل تحرم عليه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « يجوز له ذلك لأن لبنها حلال ، وله أن يتغذىٰ عليه إلىٰ أن يموت ولا يترتب عليه تحريم ؛ لأنه ليس في الحولين » .

س ٦ : سئل الشيخ : ماهي الرضعات التي تحرم الزواج ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « كل مصة تعتبر رضعة ولو كانت في مجلس

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٧ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٧٣ .

واحد ، ولو مص مصة ثم انفصل عن الثدي بسبب برغوث قرصه فهي واحدة ، ولا يشترط كون الرضعات مشبعات ومصة اللبن إذا دخلت الأمعاء فقد فتقتها » .

س ٧ : سئل الشيخ : امرأة رضعت مع أخت لي من الرضاعة ، ولها أخوان أكبر منها هل هم إخواني أم لا مع أن هذه الأخت رضعت من أمي ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « أختك من أمك من الرضاعة لها أخوان أو أخوات ، إن كان رضاعتهم مع أختك من الرضاعة من أمك إذا رضعوا من أمك فهم إخوانك من أمك ، ولا يحتاجون إذا كانوا رضعوا قبلها أو بعدها ، إخوانها من الرضاعة أو أخواتها من الرضاعة إذا رضع أولئك من أمك أيضاً فهؤلاء إخوانك من أمك إذا كان الرضاعة خمس رضعات [1] في الحولين ، وأما إذا رضعوا مع أختك من الرضاعة من إمرأة أخرىٰ ، أختك من الرضاعة رضعت من أمك ورضعت من إمرأة أخرىٰ ، فليسوا إخواناً لك من الرضاعة ولا أخوات لك من الرضاعة هم أخوات أختك من الرضاعة إن كان رضاعهم مع أختك من الرضاعة من إمرأة أخرىٰ وليسوا إخواناً لك ولا أخوات لك من الرضاعة ، وأما إذا رضعوا من أمك أو من أختك أو من بنتك فهم محارم لك من الرضاعة .

س ٨ : سئل الشيخ : إذا أسلمت فتاة في دولة كافرة وأولياؤها كفار ، وتريد أن تتزوج من رجل مسلم فمن يكون وليها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « إذا كانت الدولة كافرة ، والأولياءكفار ، والفتاة مسلمة ، وتريد أن تتزوج فوليها هو القاضي المسلم الذي يتولىٰ عقد الزواج » .

---

(١) أخرج مسلم (١٤٥٢) من حديث عائشة أنها قالت فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم بخمس معلومات فتوفىٰ رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن » .
قال النووي في شرح مسلم (١٠/ ٢٩) وقولها (فتوفىٰ رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتىٰ أنه ﷺ توفىٰ وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ، ويجعلها قرآنا متلواً لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا علىٰ أن هذا لا يتلىٰ » .

ثاني عاشر : فتاوى الطلاق

س ١ : سئل الشيخ : عن الرجل إذا قال لزوجته : إذا فعلت كذا فأنت عليّ كأمي وأختي وفعلت هذا الشيء ناسية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : عليه كفارة يمين . أما إذا لم تكن ناسية فهو ظهار ؛ لأن الناس معذورون بالنسيان قال تعالىٰ ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[1] .

س ٢ : سئل الشيخ : عن كفارة الظهار ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : كفارة الظهار ـ إذا كان عاجزاً عن الصيام ـ ثلاثون صاعاً من طعام ، أو يحضر ستين مسكيناً ويطعمهم ، أو يذهب بهم إلىٰ مطعم ويطلب لهم طعاماً من جنس ما يأكله .

س ٣ : سئل الشيخ : عن انفصال الخاطب عن مخطوبته ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا قدر الانفصال بين الخاطب والمخطوبة ينظر إذا كان السبب من جهته فليس له شيء مما أعطاها ، ولو كان لعيب فيها ظهر له . أما إذا كان من جهتها هي فيرجع ويأخذ ما أعطاها .

س ٤ : سئل الشيخ : عن امرأة زوجها تارك للصلاة وشارب للخمر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لها أن تطلب الطلاق ؛ لأن ترك الصلاة ولو كسلاً كفر علىٰ الصحيح والسكّير قد يقتلها أو يقتل ولدها .

أما بالنسبة للمهرفإن كانت هي طالبة للطلاق واعتبره القاضي خلعاً فإنها تفتدي نفسها بمبلغ من المال تدفعه له ، وإذا ألزمه القاضي بتطليقها أخذت مهرها كاملاوعليه النفقة والسكنىٰ مدة العدة ، والحضانة حق لها أن تحتضن ولدها سبع سنين وقد تصل إلىٰ تسع إذا رأىٰ القاضي ذلك .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

ثانياً

مباحث في

القرآن الكريم وتفسيره



١- مبحث في القرآن الكريم وكيف نقل إلينا

أولاً: القرآن ولم سمي قرآناً ، وكيف نقل إلينا .

القرآن في الأصل مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا ، ومعناه في اللغة الجمع والضم . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (١) وقرآنه أي قراءته ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٢) أي جمعناه لك في صدرك ، فاتبع ذلك الذي جمع تلاوة وبلاغاً وعملاً ، وقد صار علماً بالغلبة علىٰ الكتاب العزيز في عرف علماء الشرع ، ويعرف بأنه كلام الله الذي أنزله علىٰ محمد ﷺ ، ليتعبد الناس بتلاوته وبأحكامه، وليكون آية له علىٰ رسالته ، تحدىٰ به قومه . وطالبهم أن يأتوا بمثله، فإذا عجزوا دل ذلك علىٰ صدقه فيما ادعاه من الرسالة .

وسمي قرآنا لجمعه ما تحتاج إليه الأمة في سعادتها وصلاحها عاجلاً وآجلاً من عقائد وعبادات ، وأخلاق ونظم المعاملات قال تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾(٣) ، وقال ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤)ولما فيه من الجمع بين السور والآيات .

وعلىٰ هذا لا تسمىٰ الأحاديث النبوية قرآناً لأن ألفاظها من الرسول وإن كان معناها وحياً . ولا تسمىٰ الكتب الأولىٰ كالتوراة قرآنا لنزولها علىٰ غيره من الأنبياء ولا يسمىٰ الحديث القدسي قرآناً لأنه ليس مما يتعبد بتلاوته ولا هو آية تحدىٰ بها الرسول أمته .

القراءة المتواترة ما وافقت العربية ورسم المصاحف العثمانية وتواتر نقلها.

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٧ .

(٢) سورة القيامة الآية ١٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٨٩ .

والقراءة الشاذة ما نقلت أحاداً على أنها قرآن ، وقيل فيها أنها ما وراء السبعة، وقيل ما وراء العشرة كقراءة ابن مسعود ﴿ **فصيام ثلاثة أيام متتابعات** ﴾ ، وقراءته ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهم** ﴾ وقد اختلف في القراءة الشاذة هل تسمى قرآناً أم لا ؟ والجمهور على أنها ليست بقرآن لعدم تواترها . ثم اختلفوا في الإحتجاج بها فقيل أنها حجة تثبت بها الأحكام ، فإنها إن كانت قرآنا فلا إشكال فيها يمنع من كونها وحياً ، فإذا رويت من طريق صحيح كانت حجة كسائر الأحاديث الثابتة، وبذلك وجب التتابع في صيام كفارة اليمين ، وقيل ليست بحجة وبيانه أن الرسول ﷺ كان واجبا عليه أن يعلم القرآن من أمته جماعة تقوم بهم الحجة القاطعة لبلوغهم عدد التواتر ، وإذا كان كذلك لم يتصور منهم التواطؤ على عدم نقل ما سمعوه من القرآن وعلى هذا فمن انفرد بقراءة فإن نقلها على أنها قرآن فهو مخطيء ، وإلا فهي إما مذهب فهمه من القرآن ، أو خبر أحاد ومع التردد بينهما لا يصح الاحتجاج . وأجيب عن ذلك بتسليم تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام من أمته جماعة تقوم بهم الحجة ولا تتواطأ على ترك ما سمعت ، لكن يكفي في عدم تواطئها على الترك نقل البعض وإن كان أحاداً فيكون ذلك قرآناً وعلى تقدير أن ناقله لم يسمه قرآناً فهو كحديث نبوي أو قدسي فكان حجة تثبت بها الأحكام لأنه خبر عن المعصوم .

أنزل الله القرآن وجعله خاتم الكتب السماوية كما جعل نبيه محمداً ﷺ خاتم الأنبياء ، وجعل إليه بيان القرآن وتفصيل آياته وأحكامه بقوله وعمله وسيرته قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [1] ووعد سبحانه الأمة بحفظ كتابه وتكفل لها ببقاء دينه لتقوم بهاالحجة دائماً وتسقط المعاذير حيث لا نبي بعد محمد ﷺ ، ولا تشريع بعد تشريعه حتى يرث الله

(١) سورة النحل ، الآية : ٤٤ .

الأرض ومن عليها ، قال تعالىٰ : ﴿ **إن نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون** ﴾ [١] فقيض سبحانه لهذا الكتاب المبين من يحفظه من الزيادة فيه أو النقص منه ، ومن التقديم والتأخير في آياته ، أو كلماته ، وتحريف ألفاظه ، أو معانيه بسوء فهمها وبيانها بغير ما قصد منها ، وأريد بها من التأويلات الباطلة ، والآراء الزائفة قصداً أو غير قصد . فما من عصر من العصور إلا وفيه من أئمة الدين ، وأهل البصيرة فيه من ينفي عن كتاب الله ويدفع عن سنة رسوله ﷺ ما كاد به أعداء الإسلام لهذا الدين الحنيف من تأويلات ادخلوا بها الريب والشكوك علىٰ من يستهويهم زخرف القول ومن شبهات موهوا بها علىٰ ضعفاء العقول ، إنجازاً من الله لوعيده في كتابه وتصديقاً لقول نبيه ﷺ « **لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق ظاهرة ..** » [٢] الحديث وإبقاء للحجة علىٰ الخلق وحفظاً لهذا النور وهذه الهداية رحمة بالعباد .

نقل القرآن تواتراً ووصوله إلينا حفظا وكتابة

٢ـ وصوله إلينا تواتراً بطريق الحفظ

كلف الله سبحانه النبي ﷺ بأداء ما حمله من الآيات والوحي ، فبلغ رسالة ربه امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [٣] وقد نصح للأمة وبيّن لها غاية البيان ، فكان يعلم أصحابه ما نزل عليه من القرآن تلاوة له وحفظاً ودراسة لمعانيه وكان يأخذهم بالعمل بما فيه ، وبذلك جمع الله لهم بين حفظ أصل الدين وفهم نصوصه وسلامة العقيدة وحسن

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٩

(٢) ورد عن جميع الصحابة رضي الله عنهم ، وهو حديث متواتر كما نص علىٰ ذلك غير واحد من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط (١/ ٦٩) . والكتاني في نظم المتناثر (٩٣) والألباني في صلاة العيدين (ص٣٩ ، ٤٠) والسلسلة الصحيحة رقم (٢٧٠) .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٦٧ .

السيرة كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لا يتجاوزونها حتىٰ يتعلموها وما فيها من العلم والعمل . قال فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا [١] .

وكثر حفظة القرآن من الصحابة من المهاجرين والأنصار ، الرجال منهم والنساء ، فمن المهاجرين الخلفاء الراشدين ، وحفصة وأم سلمة وغيرهم ، من الأنصار معاذ ابن جبل وأبي كعب وأبو زيد قيس بن السكن الخزرجي ، وزيد بن ثابت وغير هؤلاء كثير ، كالذين قتلوا ببئر معونة وكانوا زهاء سبعين رجلا ، وكالقراء الذين استحر بهم القتل في موقعة اليمامة وغيرها ، وكان بعض هؤلاء قد أخذ القرآن من النبي ﷺ مباشرة غضاً طرياً وحفظه في حياته ، وبعضهم أخذ بعضه عن النبي ﷺ وأخذ بقيته من إخوانه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع التفاوت بينهم في ذلك والأحاديث الصحيحة في حفظ من ذكر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم مستفيضه كحديث « **خذوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب** » [٢] ، ثم قاموا بواجب البلاغ وعنوا بتبليغ من أدركهم من التابعين كتاب الله قراءة وبيانا ، وقد تقدم ذلك عن أبي عبد الرحمن السلمي . وقال مجاهد : عرضت المصحف علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلىٰ خاتمته اوقفه عند كل آية ، وأسأله عنها فحفظ التابعون رضي الله عنهم القرآن وفهموه ممن سبقهم وساعدهم علىٰ ذلك ما قام به أبو بكر ثم عثمان رضي الله عنه من جمع المصحف علىٰ ما سيجيء بيانه . وهكذا استمر حفظ أهل كل عصر لكتاب الله واشتدت عناية المسلمين به حتىٰ حفظه الصبيان في الكتاتيب ، وفي الوقت الحاضر مع بعد العهد بين نزول القرآن لو أراد أحد أن يجمع القرآن

(١) رواه ابن جرير في (تفسيره) ١١/ ٢٤٥ .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٩٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً .

من الصدور من دون اعتماد على المصاحف لوجد في كل دولة من الدول الإسلامية جماعة كثيرة تمليه من حفظها دون رجوع إلى المكتوب لديها والحاضر شاهد عيان بذلك لمن أنصف ، ولو لم يكن سوى ذلك في نقل القران لكان كافياً في ثبوت التواتر ، فكيف وقد نقل إلينا متواتراً أيضاً بطريق الكتابة وإليك بيانه :

٣ـ وصوله إلينا متواتراً بطريق الكتابة

كما عني النبي ﷺ بتبليغ القرآن بالمشافهة وضبطه بالتلاوة والدراسة ، عني بتبليغه بالكتابة أيضاً ، فكان كلما نزل عليه الوحي بالقرآن دعا كاتبه وأملى عليه ما أنزل فكتبه في الصحاف والأكتاف ونحوها ، مما كان يستعمل للكتابة في عهدهم . ثبت أنه لما نزل عليه قوله تعالى ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** ﴾ [١] قال النبي ﷺ للبراء : « **ادع لي زيدا يجيء باللوح والدواة والكتف** » [٢] . . . إلخ . رواه أصحاب السنن ، ولم تكن الكتابة وقفاً على زيد بن ثابت ، بل كان لرسول الله ﷺ كثير من الكتاب منهم في الجملة الخلفاء الراشدون ، والزبير بن العوام ، وخالد بن سعيد العاص وأخوه ابان، وحنظلة بن الربيع الأسدي ، ومعيقيب ابن أبي فاطمة ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وكل هؤلاء من قريش أسلموا قبل الفتح وكتبوا له الوحي وكتب له بالمدينة أُبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، إلا أن زيدا كان أكثر الصحابة كتابة لرسول الله ﷺ . وبذلك اشتهر ومن أجله اختاره أبو بكر وعمر لجمع القرآن ورضيه المسلمون ، فقام بذلك خير قيام مع الإستعانة بإخوانه من الصحابة رضي الله عليهم كما هو واضح في بحث جمع القرآن .

---

(١) سورة النساء ، الأية : ٩٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسيرالقرآن في باب . من سورة النساء (٣٠ ، ٢١) وقال حسن صحيح .

جمع القرآن

٤ـ جمعه في عهد أبو بكر

توفي رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ في صدور أصحابه ومكتوب في اللخاف والأكتاف ونحوهما ، ولم يكن جمعه على هيئة كتاب واحد حيث لم تدع الحاجة إلى ذلك لوجود ه ﷺ بين أظهرهم وتوجههم إليه في كل ما اختلفوا فيه ، وتوفر هممهم على حفظه وغير ذلك مما يساعد على صيانته من التحريف والأمن عليه من الضياع .

فلما كان عهد أبي بكر واشتدت الفتنة ، وكانت حروب الردة وقتل كثير من القراء في موقعة اليمامة ، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر رضي الله عنهما أن يجمع القرآن ، وبعد نقاش اقتنع أبو بكر بما أشار به عمر ، فأرسل إلى زيد بن ثابت وعرض عليه جمع القرآن ، وراجعه في ذلك حتى شرح الله صدره لما شرح له صدر أبي بكر رضي الله عنهم ، روى البخاري وغيره أن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة [١] ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر بن الخطاب أتاني فقال إن القتل قد استحر[٢] بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك .

---

(١) مقتل أهل اليمامة : أي عقب قتل أهل اليمامة . والمراد بأهل اليمامة هنا من قتل بها من الصحابة في الواقعة مع مسيلمة الكذاب ، وكان من شأنها ان مسيلمة ادعى النبوة وقوي أمره بعد موت النبي ﷺبإرتداد كثيرمن العرب ، فجهز إليه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جمع كثير من الصحابة فحاربوه أشد محاربة ، إلى أن خذله الله وقتله ، وقتل في غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة قيل سبعمائة وقيل أكثر . قاله الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) [٩/ ١٢] .

(٢) استحرى أي اشتد وكثر (فتح الباري ٩/ ١٢) .

ورأيت في ذلك الذي رأي عمر . قال زيد : قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان علي أثقل مما أمراني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ . قال : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتتبعت القرآن من العصب[1] واللخاف [2] وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة بن ثابت الأنصاري لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[3] حتىٰ خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتىٰ توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر [4] ، وبهذا يتبين فضل أبي بكر وعمر وزيد ومن أعانهم علىٰ جمع القرآن رضي الله عنهم فإنهم بذلك قد حفظوا لنا أصل الدين كما حفظوه بالجهاد في سبيل الله .

وفي قراءة الكثير من الصحابة له بعد جمعه علىٰ النحو الذي جمعه عليه زيد ومن أعانه تقرير للجمع ، والإجماع علىٰ صحته ومن قرأ بقراءة أخرىٰ فإنما اختار لنفسه حرفاً من الحروف السبعة التي بها نزل القرآن من غير أن ينكر علىٰ مبدأ الجمع أو ما جمع .

٥ ـ جمع عثمان القرآن وكتابة المصاحف وإرسالها إلى الأمصار

ثبت أن القرآن أنزل علىٰ سبعة أحرف بدليل ما روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « **أقرأني جبريل القرآن على حرف ، فراجعته ، فلم أزل**

---

(١) العصب : جريدة النخل فتح الباري (٩/ ١٤) .

(٢) اللخاف : الحجارة الرقاق فتح الباري (٩/ ١٤) .

(٣) سورة التوبة ، الاية : ١٢٨ .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب جمع القرآن (٩٨٦) .

أستزيده ويزيدني حتى إلى سبعة أحرف » [١] رواه البخاري . وأذن ﷺ لكل من أصحابه أن يقرأ بما أخذ عنه من تلك الأحرف ، تيسيراً لهم ، وتخفيفاً عنهم ، ولم يكن بينهم من الإختلاف ، ما يدعو إلى المنع من ذلك لقلته ، وإجتماع الصحابة ، وقلة عددهم بالنسبة لمن بعدهم ، ولوجود الرسول ﷺ بين أظهرهم ورجوعهم إليه فيما اختلفوا فيه ، ولم تدع الحاجة في عهد أبي بكر وعمر أيضاً لأكثر من جمع القران من غير ترتيب السور ، ولا إلى إلزام الناس أن يقرأوا بحرف واحد من السبعة . ولما انتهت الخلا فة إلى عثمان رضي الله عنه ، وكثر المسلمون وانتشروا في البلاد ، وكانت موقعه أرمينية وأذربيجان ظهر لحذيفة بن اليمان كثرة اختلافهم في القراءة ، ففزع من ذلك ، وأرسل إلى عثمان رضي الله عنه يشير عليه أن يحفظ كتاب الله بما يراه قبل أن يختلف المسلمون فيه كما اختلف اليهود والنصاري في كتابهم ، فقام رضي الله عنه بذلك خير مقام على النحو المذكور فيما رواه البخاري من حديث **« أن حذيفة رضي الله عنه قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القرآن ، فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب ، كاختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »** [٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب : أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٩٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب جمع القرآن (٤٩٨٧) والترمذي في تفسير القرآن باب في سورة التوبة (٣١٠٤) .

قال ابن شهاب : وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها ، فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (١) « فألحقناها في سورتها في المصحف » (٢) .

ولا ضير على عثمان رضي الله عنه في أن يلزم الناس بقراءة القرآن على حرف واحد وترك سائر الأحرف السبعة التي أقرأهم إياها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها ، وقد أوضح ابن جرير هذا بقوله : إن أمره إياهم لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من تقوم بنقله الحجة ، ويقطع خبره العذر . ويزيل الشك من قراءة الأمة ، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض الأحرف السبعة ، وإذا كان ذلك كذلك لم يكن القيام بتركهم نقل جميع القراءات السبع تاركين مايكون يجب عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من العقل مافعلوا إذ كان الذي فعلوا من ذلك كان هو النظر للإسلام وأهله فكان القيام بفعل الواجب عليهم بهم أولى من فعل مالو فعلوه كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة من ذلك ، فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف ، وجره ونصبه ، وتسكين حرف ، وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة فمن معنى قول النبي ﷺ « أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » بمعزل ، لأنه معلوم أنه لا حرف من حروف القرآن مما اختلف القراءة في قراءته بهذا المعنى يوجب المراء به كفر المماري به في قول أحد من علماء الأمة ، وقد أوجب عليه الصلاة والسلام بالمراء الكفر من الوجه الذي تنازع فيه المتنازعون إليه وتظاهرت عنه بذلك الرواية . .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب جمع القرآن (٤٩٨٨) .

٦ـ فضل كلام الله وفضل تلاوته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وبعد . .

فإن فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على عباده . وإن أفضل ذكر يذكر به الإنسان ربه هو كتاب الله ، يتلوه العبد خاشعا ، ضارعا متدبراً لمعانيه ، مرتلا لألفاظه ، جالساً جلسة أدب لأنه إنما يناجي ربه، ويذكره بكلامه وهو أفضل الكلام ، كما أنه سبحانه وتعالى أفضل وأعظم من كل شيء ولا يشبهه شيء .

وقد بين الرسول ﷺ فضيلة القرآن وفضيلة من يقرأه ، وقسم الناس في قراءته إلى قسمين :

القسم الأول : من جود القرآن وأحسن تلاوته ومَرَنَ في تلاوته ، فهذا جعله النبي ﷺ في صفوف الملائكة البررة .

القسم الثاني : وهو صنف لم يَلِنْ لسانه بتلاوة القرآن ، والقرآن عليه ثقيل ، وهو يُتعتع فيه ، ويجاهد نفسه ليكون من المرتلين له ، وهو شاق عليه ينطق به بصعوبة فهذا له أجران . أجر على التلاوة ، وأجر على مجاهدته لنفسه ، وفي هذا يقول النبي ﷺ : « **الماهر بالقرآن مع السفرة والكرام البررة . والذي يقرأه ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران** »[1] .

فبين النبي ﷺ أن لكل تال للقرآن أجراً ، إذا كان من أحد هذين الصنفين وإن

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري رقم (٤٩٣٧) . ومسلم (١٤٥٤) . والترمذي (٢٩٠٤) وابن ماجة (٢٧٧٩) . وأحمد (٤٨/٦ ، ٩٤ ، ٩٨) كلهم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

كان أجر أحدهم يربو على الآخر ، ولكل واحد منهم منزلة تناسبه . ولا يحرم أحد الثواب من عند الله ما ابتغى وجه الله بتلاوته . والإنسان في تلاوته للقرآن وتعلمه للعلوم من أي نوع ، يشبه الولد الصغير ، يبدأ رضيعا ولا يقوى على الطعام العادي . ثم يبدأ يحاكي الناس في الحديث ، ويكون الحديث عليه صعب والكلام عليه شاق ولا يزال يحاكي الناس في حديثهم حتى يصير بإذن الله خطيباً أو محاضراً ، أو عالماً كبير يخف على لسانه الكلام ، ويخف على فكره مايريد أن يتكلم به أو يستنبطه بتفكيره من كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ أو غير ذلك مما يقرأه أو يسمعه أو يراه من السنن الكونية التي أودعها الله في هذا الكون .

فكذلكم الإنسان لا يحقر نفسه في تلاوته القرآن ، فإنه مهما كان حاله في صعوبة التلاوة عليه إبتداء فهو بالمران ، وبالمداومة ، والاستمرار ومحاكاته لمن يحسنون التلاوة سيصير إن شاء الله مرتلا لكتاب الله خير ترتيل . والأمر يحتاج إلى وقت ومثابرة ومجاهدة للنفس .

وقد بين الرسول ﷺ أن القرآن قد يذهب عن فكر الإنسان وتغيب بعض آياته عن الذاكرة إذا الإنسان توانى في قراءته أومراجعته لبعض الوقت . ولهذا أمر النبي ﷺ المسلمين أن يتعهدوا القرآن بالتلاوة خشية أن يتفلت من قلوبهم ، وأن ينسوه فقال ﷺ : **« تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده ، لهو أشد تفصيا من قلوب الرجال من الإبل من عقالها »** [1] .

فالإبل إذا كانت في عقولها ، كل منها في عقال فإنها تحاول التخلص والتحرر من هذه العقول والقيود . كذلك القرآن إذا أهمل الإنسان تلاوته وفترت همته عن مراجعته ذهب عنه وغاب عن فكره ، فلا يكاد يقرأ إلا وتجده يخطيء في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٠٣٣) . ومسلم (٧٩١) وأحمد (٤/ ٣٩٧) كلهم من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً .

القراءة فحثنا النبي ﷺ على تعهده حتى نكون على ذكر من كتاب الله سبحانه وتعالى . والناس إذا كانوا يعشقون شعر أحد من الناس فانهم يضبطونه ويحفظونه وكذلك هم يضبطون النظريات الهندسية ، والأصول الصحية ، ويضبطون الكلمات الفقهية . والسنن الكونية ، والظواهر الجوية وأسباب ذلك كله ، يضبطون هذا وغيره ليتكسبوا به مالاً أو منصباً أو غير ذلك من الأغراض فإذا كانت لهم هذه الهمة وبذل الجهد في تحصيل وتأصيل هذه العلوم وغيرها ، فكتاب الله أولى بالاجتهاد وبذل الوقت ، فإن ما يناله الإنسان من وراء إجادته لكتاب الله أرفع وأنفع وأعظم لمكانة المسلم ودرجته عند الله في الآخرة . وليعلم المسلم أن القران هر أعظم الزاد الذي يتزوده المسلم ليوم القيامة .

إن الإعتناء بكتاب الله تلاوة ، وحفظا ، وتدبراً لمعاني آياته ووقوفاً على طريقة تلاوته تلاوة صحيحة ، والنطق به على مقتضى القواعد والضوابط التي نقلها لنا القراء والمحفظون لكتاب الله من الإدغام والغنة والمد والإظهار وغيره الإعتناء بكتاب الله على هذا النحو هومن أعظم القربات وهذا كله مع الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العمل . فإذا أضاف المسلم إلى الإعتناء بتلاوة القرآن بإخلاص إذا أضاف إلى ذلك العمل بالقرآن والسير على منهجه والتخلق بأخلاقه كان ذلك أرفع لدرجته وأعظم لثوابه وأجره .

وليعلم أن من أمور التلاوة مالا يمكن فهمه أو العمل به إلا عن طريق التلقي ، والمحاكاة للقراء المتقنين الضابطين لكتاب الله الذين نقلوه لنا خلفا عن سلف . تلقوه حفظا وتلقوه ضبطا لأحكام تلاوته . وفق الله الجميع لما يحب ويرضى .

٧ـ التكبير عقب قصار المفصل

قد اختلف العلماء في بعض المسائل المتعلقة بالتلاوة منها مسألة التكبير عقب قصار المفصل ، من سورة الضحىٰ إلىٰ نهاية القرآن ، إلىٰ سورة الناس ، فمنهم من رأىٰ التكبير واقتصر علىٰ كلمة الله أكبر بعد قراءة كل سورة من (الضحىٰ) إلىٰ آخر القرآن ، ومنهم من رأىٰ أن يقول الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، واقتصر علىٰ هذا . ومنهم من زاد ولله الحمد .

وهؤلاءالذين رأوا جواز التكبير استندوا إلىٰ آثار وردت في جوازه عن القراء، قراء السلف . ومنهم من استند إلىٰ الحديث المرفوع الذي ورد من طريق أحمد البزي بسنده إلىٰ النبي ﷺ . لكن أحمد البزي (١) وإن كان ثبتا في القراءة إلا أنه في الحديث ضعيف ، فأبو حاتم قد ضعفه وقال لا أحدث عنه ، وكذلك ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال هو منكر الحديث . من أجل هذا لم يكبر جماعة من العلماءعند الإنتهاء من قراءة قصار المفصل ، لكن جرىٰ العمل عند جماهير القراء علىٰ التكبير . ولما بلغ هذا الإمام الشافعي ارتضاه ، وصححه وهذا شجع كثيراً من القراءعلىٰ أن يكبروا عقب هذه السور ، وقد ذكر هذا المعنىٰ ابن كثير في تفسيره وأقصد بابن كثير أبا الفداء المفسر المتوفىٰ سنة ٧٧٤هـ ولست أقصد ابن كثير القاريء . فإن ابن كثير المفسر هذا متأخر (٢) . أما ابن كثير القاريء

---

(١) هذا الحديث رواه الحاكم (٣/ ٣٠٤) وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي بقوله : البزي قد تُكلم فيه . وقال ابن كثير المفسر هذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إماماً في القراءات ، فأما الحديث فقد ضعفه . . . الخ وذكر الكلام المذكور أعلاه انظر التفسير (٤/ ٥٢١) . وانظرالجرح والتعديل (٢/ ٧١) .

(٢) ابن كثير أبو الفداء هو : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن درع القرشي من بني حصيلة ، ولد سنة إحدىٰ وسبعمائة وقد وصفه الداودي بقوله كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه =

فهذا قديم[١] متقدم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ إلا شخصان فقط .

نرجع إلى ما كنا بصدد الكلام عليه وهو أن من أراد المزيد من الكلام على مسألة التكبير فليرجع إلى تفسير ابن كثير عند أول تفسير سورة الضحى . وليرجع أيضا إلى كتاب الإتقان في علوم القرآن . وكذلك كتاب الاستذكار لابن عبد البر . وغير ذلك من كتب المؤلفة في علوم القرآن .

٨ ـ الإجتماع والدعاء عند ختم القرآن

لم يعرف عن النبي ﷺ أنه كان إذا ختم القرآن نصب مجلساً وجمع فيه أهله أو بعضهم ودعا . إنما عرف هذا عن أنس بن مالك وبعض الصحابة الآخرين كابن عباس . فكان أنس رضي الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا الله سبحانه بما هم في حاجة إليه .

وكذلك رُوي عن ابن عباس أنه كان إذا علم أن أحداً من عباد وقراء الصحابة أوشك على ختم القرآن أرسل إلى بعض الناس من أصحابه وقال لهم إن فلانا سوف ينتهي من ختم القرآن هذا اليوم أو هذه الليلة فلنأته ، فيأتونه ويجتمعون عنده ويدعون الله سبحانه وتعالى بما يتيسر من الدعاء بما فيه خير الدنيا والآخرة من غير أن يتكلفوا دعاء معيناً لذلك . وإنما يدعو كل إنسان بما يحتاج فهذا يدعو بالذرية الصالحة ، وهذا يدعو بالغنى ، وهذا يدعو بالشفاء ، وهذا يدعو على ظالم قد تسلط عليه أوتسبب له في ضرر وأذى لحق به أو بأحد من أهله وأحبابه وهكذا . ومن هذا المفهوم تجد أن الأدعية التي نقلت عن الصحابة أو عن العلماء

= يعترفون له بذلك وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ ، قليل النسيان وكان فقيها جيد الفهم . صحيح الذهن يحفظ التنبيه ، ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر ، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه . طبقات المفسرين (١٤/ ١١١).

(١) عبد الله بن كثير القارىء الداري ، المكي ، أبومعبد القارىء ، أحد الأئمة قرأ على مجاهد ، صدرق ، من السادسة . مات سنة عشرين ومائة .

مختلفة وليست على صفة ولفظ واحد لأن الحاجات ليست واحدة .

وكان بعضهم يتوسل إلى الله بتلاوته لكلامه وكتابه الذي هو القرآن ، وهذه التلاوة من العمل الصالح الذي يجوز التوسل به . وربما توسلوا أيضا بأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته وهو توسل مشروع أيضا والإخلاص لله في كل عمل تلاوة أو دعاء أو غير ذلك هو الأصل الذي تقبل به الأعمال وتجاب به الدعوات . وأسأل الله لي ولكم التوفيق لما يحب ويرضى وصلي الله وسلم على عبده ورسوله محمد .

٩ـ حكم القراءة بالأحرف السبعة

وسئل الشيخ رحمه الله تعالى عن : حكم القراءة بالأحرف السبعة في الصلاة وفي غيرها ؟

فأجاب بقول : أراد أبو بكر بن مجاهد أن يجمع المشهور من قراءات قراء العراقين والحرمين والشام ، لأنهم الذين عنوا أكثر من غيرهم بنصوص الشريعة حفظاً لها وفهماً لفقهها وإعداد الوسائل التي يتوقف فهمها عليها ، فجمع على رأس المائة الثالثة ببغداد قراءات سبعة من أئمة القراءة المشهورين بهذه الأمصار ، ليوافق عدد الحروف التي في حديث « **أنزل القرآن على سبعة أحرف** » [1] ، وكان أول من جمع قراءة هؤلاء ولم يعتقد هو ولا غيره أن هذه القراءات هي الأحرف السبعة ، ولا منع أحد آنذاك القراءة بغير قراءاتهم : بل قال بعض أئمة القراء : لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قرائها في زمانه في رأس المائتين ، بل يجوز لمن ثبت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة الزيات ، أو قراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي ، ونحوهما كما ثبتت لديه قراءة حمزة أن يقرأ بها بلا نزاع من العلماء المعتبرين بل أكثر العلماء الذين أدركوا قراءة حمزة كأحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة كانوا يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع ونحوه من أهل البصرة على قراءة حمزة ، وكان الأئمة من قراء العراق الذين ثبت لديهم قراءة العشرة ، يجمعون ذلك في الكتب تأليفاً ، ويقرءون بأيها في الصلاة وفي غيرها ، وهذا متفق عليه بين العلماء ، وإنما ينكر على من قرأ بقراءة لم تثبت عنده ، ولم يكن عالماً بها ، فإن القراءة سنة متبعة ، فمن علم منها شيئاً قرأ به ، وليس لأحد أن ينكر عليه ذلك ، ومن جهل منها شيئاً حرم عليه القراءة به سواء كان من القراءات السبعة أو غيرها .

---

(١) حديث صحيح . رواه البخاري (٤٩٩١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .
ورواه البخاري أيضاً (٤٩٩٢) من حديث ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً .

٢ ـ إن الأحرف السبعة لا تتناقض بل تتحد في أصل معناها أحياناً ، وتختلف اختلاف تنوع أحياناً لا اختلاف تضاد ، فتفيد كل آية حكما ، وتكون كل قراءة بالنسبة للأخرىٰ كالآية بالنسبة لآية أخرىٰ ، والجميع حق فيما أفاد من الأحكام لا يجوز لأحد أن ينكره أو يترك العمل به .

٣ ـ **مصحف عثمان** رضي الله عنه هو أحد الأحرف السبعة ، وهو موافق للعرضة الأخيرة ، وقال طوائف من القراء والفقهاء ، وعلماء الكلام إن مصحف عثمان مشتمل علىٰ الأحرف السبعة ، إذ لا يجوز أن تهمل الأمة نقل شيء من هذه الأحرف ، وحيث اتفقوا في خلافة عثمان علىٰ نقل هذا المصحف دون سواه دل ذلك علىٰ أنه مشتمل علىٰ الأحرف السبعة ، وأيضاً لو كانت خارجة عن رسم المصحف لنهىٰ عن القراءة بها ، لكن لم ينه عن القراءة بأي حرف منها ، فكان داخلاً في رسم المصحف ، وأجيب عن ذلك بما ذكره ابن جرير في مقدمة تفسيره من أنه ليس من الواجب نقل كل حرف من الأحرف السبعة ، بل يكفي حفظ القرآن في حرف منها ، وقد اختير الحرف الموافق للعرضة الأخيرة ، ولم تكن القراءة بالأحرف السبعة واجبة علىٰ كل واحد من الأمة ،و لا علىٰ كل الأمة بحيث لا يفوتها في جملتها حرف منها ، فإن القراءات نزلت رخصة لهم ، وتسهيلاً عليهم ، فلما سهلت عليهم القراءة بحرف واحد اتفقوا علىٰ حرف منها دفعاً لخطر الفرقة .

٤ ـ **ترتيب السور** لم يكن واجباً عليهم منصوصاً ، بل كان باجتهاد الصحابة ، بخلاف ترتيب الآيات في السورة ، فإنه توقيفي .

٥ ـ **أمثلة للقراءات :**

أ ـ **﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى ﴾** .

ب ـ **﴿ إن كانت إلا رقبة واحدة فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴾** .

وهما عن ابن مسعود رضي الله عنه .

٦ ـ **الخلاف في القراءة بما خرج عن رسم المصحف العثماني :**

روي عن كل من مالك وأحمد رويتان :

جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها ، لأن الصحابة والتابعين كانوا يقرءون بها في الصلاة .

والرواية الثانية : المنع لأنها ليست من الحروف السبعة ، لأنها لم تثبت متواترة ، وبتقدير ثبوتها متواترة فهي منسوخة بالعرضة الأخيرة ، التي رُوجعت في مصحف عثمان رضي الله عنه ، ونقل عن أبي البركات ابن تيمية المنع من القراءة بها في القراءة الواجبة والجواز في غير الواجبة ، وبذلك تعرف الرد على من يدعي الإتفاق على المنع من القراءة بما خرج عن رسم المصحف .

قال القاضي أبو بكر ابن الباقلاني : يجب القطع بنفي قرآنية مالم يثبت من القراءات أنه من الأحرف السبعة ، وجمهور العلماء على أنه لا يجب القطع بالنفي ، ولذلك جوزوا القراءة بها في الصلاة مطلقاً أو في غير الواجب ، ولم يكفر من أثبت البسملة قرآناً بين كل سورتين للفصل ، وعلى أنها آية أو بعض آية من كل سورة .

أبواب التفسير

١ـ تفسير مختصر لسورة الفاتحة [١]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ [٢] .

هذه السورة تسمى سورة الفاتحة ، وتسمى أم القرآن ، وهي مجملة فصلت القرآن كله ، تشتمل على تبيين الأسماء والصفات في الآيات الثلاث الأولى ، وتشتمل على تبيين العبادة في قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وعلى الدعاء الذي في ختام السورة ، وتشتمل على الولاء والبراء في قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ .

وهي على قصرها تشمل المطالب التي جاء القرآن بتفسيرها مما ذكرت من الأنواع الثلاثة .

ففي مطلع هذه السورة يعلمنا الله جل شأنه كيف نحمده . ونثني عليه الثناء كله فقال سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

ثم علمنا كيف نمجده بقوله سبحانه ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

ثم علمنا أن نخصه بالعبادة لا نصرف منها شيئاً إلى غيره سبحانه فنعبده بما شرع ، وكما شرع ، ونخلص له في ذلك كما أمرنا سبحانه بقوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ [٣] .

---

(١) نقلاً من شريط مسجل .

(٢) سورة الفاتحة الآيات : ١ـ٧ .

(٣) سورة الكافرون .

وقال سبحانه معلماً لنا أن نقول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بمعنى أن لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك .

ثم علمنا كيف ندعوه ونَضَرع إليه ، ونطلب منه ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة ، وما يصلنا به ويقوي الصلة بين المؤمنين به ، وكيف نتبرأ ممن حاد عن طريقه فغضب عليه وأضله عن سواء السبيل ، فأمرنا أن نقول ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ والمغضوب عليهم هم كل من علم ، وكان على بينة من أمر دينه ، وعلى بينة من الحق وبصيرة منه ، ومع ذلك حاد عنه ولم يسلك الطريق الحق ، فكل من كان على هذا النحو فهو ممن غضب الله عليهم .

ومن أول هؤلاء اليهود الذين عَرَفوا الحق وحادوا عنه ، وقد سُئِل بعض اليهود عن الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينه وبين قومه فقالوا : إنا نعلمُ أنه رسول أكثر مما نعرف عن نسبنا لآبائنا ، فنسبه لأبيه قد يكون مدخولا ، أما البينة الصريحة الصحيحة فهي مُثبتة لرسالة نبينا محمد ﷺ فهو على بينة من رسالة النبي ﷺ ، ومعرفته بذلك أقوى من معرفته بنسبه لأبيه ، ومع ذلك حاد عن الطريق المستقيم .

هؤلاء الذين كانوا على بينة من الحق ومعرفة به ثم حادوا عنه يقال لهم المغضوب عليهم ، ومن الأضلين في هذا اليهود عليهم لعائن الله .

أما الضالون فهم كل جماعة جهلت الحق وطريق الصواب ، وكانت في أمر عملها على غير بصيرة من دينها ، ويمثل هؤلاءالنصارى ، فهم الضالون كما ورد هذا في حديث عن النبي ﷺ : بين أن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم النصارى [1] .

(١) يشير الشيخ رحمه الله إلى حديث عدي بن حاتم الذي أخرجه الإمام أحمد [٤/ ٣٧٨ ، ٣٧٩] والترمذي [٢٩٥٤] وغيرهما وهو حديث حسن أوصحيح من مجموع طرقه . انظر التسهيل=

وهذا من التفسير الجزئي أي من باب التمثيل لمن غضب الله عليهم ، والتمثيل لمن أضلهم الله عن سواء السبيل .

والآيات الأخيرة بينت الطائفة التي تجب مُوالاتُها ، والسير في طريقها ومُوَاخاتُها ، وهم الذين سلكوا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء، والصالحين فهؤلاء رفقاءالخير وطريقهم طريق الحق والصواب ، وهم الذين يجب على المسلم أن يواليهم ، وأن ينشد طريقهم ، وأن يسلك سبيلهم رجاءأن يرحمه الله جل شأنه في الدنيا والآخرة .

أما الفريق الثاني فهو الذي يجب البراءة منه ، وهم الفريق المغضوب عليه ، والفريق الضال لسواء السبيل .

هؤلاء هم الذين يجب على المسلم أن يتبرأ منهم ، عقيدة وعملا ، وأن يمتلىء قلبه ببغضهم إلا بمقدار ما يدعوهم إلى الحق ، ويبين لهم الصواب لأن البلاغ واجب ، ولابد منه ، إقامة للحجة ، وإعذاراً إليهم حتى لا يكون لهم على الله حجة بعد البلاغ والبيان .

هذه السورة جاء في فضلها حديث قدسي وأحاديث نبوية ، أما الحديث القدسي الذي قسمها أقساماً ، وأشار إلى معناها إجمالاً ، وبين الكثير من فضلها، ومكانتها من الإسلام فقد قال فيه النبي ﷺ عن ربه : « **قال الله تعالى قَسَمتُ الصلاة أى الفاتحة ، بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل .**

فإذا قال العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله تعالى : حمدني عبدي .

وإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله تعالى أثنى عليّ عبدي .

وإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله تعالى : مجدني عبدي .

= لتأويل التنزيل في تفسير سورة الفاتحة للشيخ مصطفى العدوي - حفظه الله تعالى - [١٢٥ ، ١٢٦] .

وإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال الله : هذه بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل » [١] .

يريد بالنصف الأول خطابه تعالى عباده بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمهم أن يقولوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، فهذا حق الله من عباده .

ويريد من النصف الثاني الذي لعبده . ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي لا نستعين إلا بك فهذا حق العبد على ربه أن يستجيب منه إذا دعاه ، وأن يحقق رجاءه فيه في حدود مصلحته وما يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة .

وإذا قال العبد : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ إلى آخر السورة . قال الله تعالى : هذه لعبدي ولعبدي ماسأل .

فسمى الله سبحانه هذه السورة الصلاة إيذاناً بأنها ركن من أركان الصلاة .

ولذلك لا تصح صلاةُ المسلم إلا إذا قرأ الفاتحة [٢] في الصلاة الجهرية ، والسرية إماماً ، ومنفرداً ومأموماً هذا هو الرأي الصحيح عند فقهاء المسلمين وأئمتهم ، ولا تجزئُ الصلاة ولا تصح من المصلي إذا لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب ، لأن الله جل شأنه سماها الصلاة ، فجعلها نفس الصلاة إيذاناً منه سبحانه ، بأن لها شأنها في إقام الصلاة وإجزائها .

وهذه السورة فيها إثبات لأسماء الله وصفاته ، وإلى ذلكم الإشارة في

---

(١) حديث صحيح : رواه مسلم (٣٩٥) . وأبو داود (٨٢١) . والترمذي (٢٩٥٣) . وأحمد (٢/ ٢٤١ ، ٢٨٥ ، ٤٦٠) . كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرج البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : **« لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »** . وأخرج مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **« من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثاً غير تمام فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراءالإمام فقال : اقرأ بها في نفسك ... الحديث »** .

الآيات الأولىٰ .

فقد سمىٰ الله نفسه باسمه الذي لا يُسمىٰ به غيره ، وهو كلمة الله ، ثم وصف لفظَ الجلالة بأنه الرب للعالمين جميعاً ، الملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات ، والجمادات من سماوات وأراضين ، رب العالمين جميعاً .

ثم وصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم وسمىٰ نفسه بذلك .

ثم وصف نفسه سبحانه بأنه مالكُ يوم الدين ، ويوم الدين هو يوم القيامة ، فكما ملَكَ الدنيا وصرفها ودبرها علىٰ مقتضىٰ حكمته ، وعلىٰ طبق علمه سبحانه وتعالىٰ ملك الآخرة ، وهي دار الجزاء ليجزي فيها كل نفس بما عملت من خير أو شر .

فهذا فيه إشارةً إجمالية إلىٰ صفات الجلال والكمال التي وصف الله تعالىٰ نفسه بها .

ثم ذكر حق عباده عليه ، وحقه علىٰ عباده ، ثم ختم السورة بالولاء والبراء ، ليبين لنا من يجب علينا أن نواليَه وأن نؤاخيَه ، ومن يجب علينا أن نعاديه ، وأن نتنكب طريقه ، فإنه طريق السوء والشر طريق الهلاك والتبار .

هذه السورة ورد في فضلها عن النبي ﷺ أنه دخل المسجد يوماً ما فوجد أبا سعيد بن المعلىٰ يصلي نافلة ، فنادىٰ فحار أبو سعيد بن المعلىٰ ، هل يجيبه أو يستمر في صلاته ، وغَلَبَ جانب الاستمرار في صلاته طاعة لله ، وإيثاراً لجانبه ، ولما انتهىٰ من صلاته جاء إلىٰ النبي ﷺ إستجابة لندائه ، وإن كان بعد فترة ، فقال له : « **يا أبا سعيد ألم أنادك ؟** » فقال : بلىٰ ولكني كنت أصلي ، قال له : « **إن الله تعالى قال في محكم كتابه** » : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ (١) فبين له أنه كان يجب عليه أن يجيب النبي ﷺ ، ولكن أبا سعيد آثر

(١) سورة الأنفال ، الاية رقم ٢٤ .

جانب الاستمرار في صلاته اجتهاداً منه ، فله الأجر عند الله على عمله واجتهاده .

ثم قال له : « **يا أبا سعيد لأعلمنك سورة من القرآن هي أفضل القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي القرآن العظيم** »[(١)] . ثم سكت النبي ﷺ ولم يعلمه ، لم يعجل بتعليمه السورة وأخذ في طريقه إلى باب المسجد فلما اقترب من باب المسجد قال له أبو سعيد : يارسول الله ألم تقل لأعلمنك سورة هذ كذا وهي كذا؟ فقال : بلى ثم قال له : هي سورة الفاتحة وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[(٢)] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ الآيات السبع التي تكونت منها سورة الفاتحة ، سميت مثاني لما فيها من الثناء على الله جل شأنه ، ولأنها تتكرر قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة ، فلتكرارها في الصلاة في كل ركعة ، ولاشتمالها على الثناء على الله سُميَت في نص القرآن السبع المثاني ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ وهذا من عطف العام على الخاص ، ويدخل فيه سورة الفاتحة .

فهي سبع آيات من القرآن ، وهي داخلة في قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ . وهي أفضل القرآن .

فهذا بيان من النبي ﷺ لفضل الفاتحة ، ولمكانتها عند الله جل شأنه ، مع كونها كلام الله ، وكلامُ الله خير الكلام ، وفضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله على عباده ، وشتان ما بين الله وبين عباده فالفرق شاسع .

وكذلكم الفضل واسع ولا يقدر قدره إلا الله ، كما لا يقدر قدر الله إلا الله فلا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) ، وفي عدة مواضع من صحيحه وأبو داود (٣٥١) ، والنسائي (٢/ ١٣٩) وغيرها .

(٢) سورة الحجر ، الآية رقم ٨٧ .

يقدر قدر كلامه إلا هو ، ولا يقدر قدر الفاتحة خاصة إلا الذي تكلم بها وأنزلها على رسوله ﷺ .

فهذا من فضائل الفاتحة التي بينها الرسول ﷺ ، كما بين فضلها الله سبحانه في الحديث القدسي الذي ذكرناه .

ومما جاء في فضل الفاتحة والانتفاع بها ، الرقية بها حتى ولو كان من رُقي بها كافراً ، فقد ثبت في حديث البخاري [1] أن سرية من سرايا النبي ﷺ أرسلها الرسول ﷺ في مهمة فنزلت في طريقها على قوم من الكفار عُتَاة فاستضافوهم ، فأبى أولئك الكفار أن يضيفوا صحابة رسول الله ﷺ لما بينهم وبين أولئك الصحابة من العداوة والبغضاء ، وما في قلب الإنسان يظهر في أعماله ، وعلى جوارحه وفي فلتات لسانه .

---

(١) أخرج البخاري (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راق ؟ إن في الماء رجلاً لديغاً أو سليماً ، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ ، فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجراً ، حتى قدموا المدينة ، فقالوا : يارسول الله ، أخذ على كتاب الله أجراً ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله** » .

وأخرج البخاري (٥٧٤٩) حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن أبي المتوكل « عن أبي سعيد أن رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا في سفرة سافروها حتى نزلوا في حي من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يُضيِّفوهم . فلدغ سيد ذلك الحي ، فسعوا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم ، لعلَّه أن يكون عند بعضهم شيء . فأتوهم فقالوا : ياأيها الرهط ، إن سيدنا لُدغ ، فسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فهل عند أحد منكم شيء؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إني لراق ، ولكن لقد استضفناكم فلم تُضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً . فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق فجعل يتفل ويقرأ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى لكأنما نشط من عقال ؛ فانطلق يمشي . قال : فأوفوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا. فقال الذي رقى : لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ فنذكر له الذي كان ، فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ، فقال : وما يدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسموا واضربوا لي معكم بسهم » .

فهؤلاء قابلوا استضافة الصحابة رضي الله عنهم بالتنكر لهم ، فذهب عنهم صحابة رسول الله ﷺ .

وجزاءً لهم على موقفهم السيء من الصحابة رضوان الله عليهم ، وعقوبة لهم سلط الله على سيدهم حشرة لدغته ، فطلبوا له العلاج بكل ما يستطيعون فلم يفلحوا ، واضطروا إلي أن يذهبوا إلى صحابة رسول الله ﷺ في منزلهم الذي نزلوا فيه ، ليستعينوا بهم على علاج لديغهم ، وقالوا لهم القصة أنهم طلبوا له العلاج بكل شيء لا ينفعه شيء فهل عندكم من علاج ؟ فقال أبو سعيد الخدري ، وهو تقريباً أصغرهم سناً ، لكنه يحفظ الكثير من القرآن قال : والله إن عندي له علاجاً ، ولكني لستُ بفاعل حتى تجعلوا لنا جُعلا فإنا استضفناكم فلم تضيفونا ، فجعلوا لهم جُعلا على أن يأتي أبو سعيد إليه ليقوم بعلاجه ، والشفاء بيد الله لا بيد أبي سعيد الخدري ، وذهب معهم إلى اللديغ ، وقرأ عليه سورة الفاتحة مرة واحدة فقام كأنما هو جمل نُشِط من عقال ، كأنما هو جمل حُل عقاله . والجمل معروف عند العرب ، بأنه قوي فإذا حُلَ عقاله ، وكان أمامه أقوى رجل دفعه بصدره فوقع على ظهره، وليس به بأس كأنه لم يُلدغ ، فأعطوهم الجُعل ، وكان قطيعاً من الغنم ، وكان يكفي الصحابة أعداداً قليلة من الغنم لو أنهم كانوا قد أضافوهم أول الأمر لكن رزقهم الله هذا الرزق الواسع . ثم ارتابوا وقالوا فيما بينهم فقد يكون هذا كسباً غير حلال ، والصحابة رضوان الله عليهم عُرِف فيهم التحرى للكسب الحلال ، وعرف فيهم الصلاح ، وتقوى الله سبحانه وتعالى ، فقالوا لا نأكل حتى نسأل رسول الله ﷺ .

فلما رجعوا سألوا الرسول ﷺ فقال لأبي سعيد « **ما يدريك أنها رقية ؟** » فقال شيء ألقاه الله في رُوعِي ، والرُوع القلب والرَوع بالفتح الخوف .

فإبراهيم لما جاءته الملائكة وأوجس خيفة منهم أخذه روع ، وأخذته المخافة ثم ذهب عنه الروع لما عرف حقيقة الأمر .

القصد أن الرَوْع الخوف والرُوع هو القلب ، فقال أبو سعيد هذ شيء ألقاه الله في روعي ، وهذا مثل مايلقىٰ في قلب بعض الطيبين ، بأن فلاناً سوف يأتي من السفر هذا مجرد إحساس باطني لا يفيد اليقين ، لكنه يدفع الإنسان إلىٰ أن يتحدث عما جال في خاطره ، وإن كان لا يسمىٰ علما لكنه هواجس وخواطر تجول في صدره ولا يسمىٰ علم الغيب .

فالرسول ﷺ قال لهم جواباً عن سؤالهم هل هذا من الكسب الحلال أو الكسب الحرام ؟ قال : « **إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله** » يريد بهذا أن العلاج قد يكون بالكي ، وقد يكون بسحب السم من اللديغ من المكان الذي لُدغ فيه .

وكيف يسحب السم منه ، يُشَرطَ جلده فيخرج الدم ، أو يُمتص طبياً ، وقد يكون برقية ، وقد يكون بدعوة له ، وهناك أنواع كثيرة للعلاج ، منها الرقية بقراءة القرآن التي ترتب عليها الشفاء ، وصاحبها أحق بالأجر من الشخص الذي يعالج علاجاً مادياً مثل الطبيب أوغيره .

فهذا بيان من النبي ﷺ لمشروعية الرقية بالفاتحة . وهذا بيان لنتيجة الرقية التي بها شفاء هذا وإن كان كافرا .

وليس المراد بهذا الحديث أن يأخذ الإنسان أجراً علىٰ تلاوة القرآن مثل الصييت [١] أو أن يأحذ أجراً علىٰ قراءة القرآن علىٰ الأموات ، فإن هذا لم يفعله رسول الله ﷺ ، وهو معلم البشر ، وهو المبلغ عن ربه سبحانه وتعالىٰ .

فقراءة القرآن علىٰ الأموات رجاء أن يرحمهم الله بدعة من البدع ، وأخذ أجر علىٰ تلاوة القرآن أيضاً لا يجوز .

والكفار الذين أعطوا الصحابة قطيعاً من الغنم ، لم يعطوهم إياه حباً للقرآن

---

(١) الصييت هو الذي يقرأ القرآن بعد وفاة الميت سواء في المنزل أو في مكان يجتمع فيه الناس للعزاء وسماع هذا الصييت .

أو حباً فيه ، أو حباً للقاريء ، وللمسلمين وللإسلام ، بل القرآن أبغض إليهم من كل شيء ، والصحابة أبغض إليهم من كل شيء ، ورسولهم أبغض إليهم من كل شيء ، ومع ذلك دفعوا الأجر ، فالأجر ليس للتلاوة وإنما هو للعلاج . ولم يدفعوا الأجر إلا بعد الشفاء لأنهم جعلوه على الشفاء ـ لا على التلاوة .

فالاستدلال بهذه الجملة من الحديث على جواز تلاوة القرآن ، على الأموات رحمة لهم ، أو الاستدلال بها على مجرد تلاوة القرآن وأخذ أجر عليه لاستماع الناس إليه ، لا يجوز ولا يصح وهو من تحريف الكلم عن مواضعه ، وهذا من فوائد هذا الحديث إلى جانب الفائدة الجليلة التي بينها النبي ﷺ بين بها منزلة القرآن ومكانته من غيره من القربات ومكانة الفاتحة من سائر القرآن .

هذا بيان لجانب آخر من جوانب فضيلة سورة الفاتحة ، وذكرت من قبل فضيلتها وأنها جُعلت فرضاً في كل من ركعات الصلاة بخلاف السورة التي بعدها فإنها من سنن الصلاة لو تركها المصلي تكون صلاته صحيحة ، أما الفاتحة فلو تركها كانت صلاته باطلة .

والقرآن كله خير وفضله على كلام البشر كفضل الله على عباده ، وأسأل الله جل شأنه أن يبصرنا بديننا ، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وأن يجعله لأرواحنا دواء، وأن يجعله مصدر تشريعنا ، وأن يستميل قلوبنا إليه حتى لا نُحَكِّمَ سواه وسوى سنة رسوله ﷺ ، فإن من أخذ بهما أخذ بالحق ، وكان على بينة وبصيرة من أمر دينه مع ربه ومع المخلوقات ، وكان حبيباً لله في الدنيا والآخرة سعيداً في دنياه وفي آخرته .

٢ـ من مقاصد سورة المائدة [١]

هذه سورة من سور القرآن الكريم ، وسوف نتناولها بما يتضح به وحدة السورة والمقصد الذي تدور آياتها حوله ، وأحب أن أتكلم عن نماذج من مقاصد بعض السور لتكون فاتحة لمعرفة مقاصد السور وتكون معينة للإنسان على فهم المحور الذي تدور عليه أحكام السورة . واخترت لهذا : أولاً سورة العقود ، وثانياً سورة الأحزاب وإن اتسع الوقت فستكون سورة الصافات ، أو أخرى أقصر منها إن شاء الله تعالى .

يذكر الله جل شأنه في مطلع سورة العقود هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [٢] .

هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى ما تدور حوله الآيات ، وتدور حوله الأحكام التي تضمنتها هذه السورة ، فالله يأمرنا في هذه الآية بالوفاء بالعقود ، والعقود هي المواثيق ، والعهود كلها ترجع إلى معنى واحد هو الاتفاق الذي يكون بين العبد وربه ، ميثاق يأخذه الله جلّ شأنه على عبده ، وقد تكون إتفاقات تجري بين إنسان وآخر في بيع وشراء ، في مواعيدٍ ، أو في جهاد وحروب ، أو في أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . فكلمة العقود كلمة جامعة عامة شاملة ، تشمل كل الإتفاقات التي تكون فيما بين العباد على الخير ، و تشمل ما أخذه الله جل شأنه على عباده من عهود التكاليف التي كلّف بها خلقه ، وما سيأتي في السورة يدور حول هذا ، كل ما في السورة من التفاصيل دائر حول قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ وحول مذمة من نقض العقود وخانها وجزاء من وفىّ بها ووقف

(١) أصل هذه المادة العلمية محاضرة للشيخ عبد الرزاق ، وقد تم تسجيلها في حينها ، وقمت بتفريغ أشرطتها مع تصرف يسير .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١

عندها ويتبين هذا بالتفاصيل الآتية أو بذكر شيء من التفاصيل الآتية في قوله تعالىٰ في الآية الثانية من هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [١] .

فهذه الآية فيها عقد وميثاق علىٰ المسلمين بعد أن تمكنوا في الأرض وصارت لهم دولة ، وبعد أن أكمل الله لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ، وصاروا بإمكانهم أن يثأروا لأنفسهم ، وأن ينتقموا ممن سبب لهم أذىٰ ، يأخذ الله تعالىٰ عليهم أن لا يقابلوا السيئة بالسيئة ، وأن لا يعتدوا علىٰ القاصدين لبيت الله الحرام إلىٰ غير هذا مما ذكره الله في هذه الآية ، وخاصة ما تُحدِّث العبدُ به نفسه من أن يثأر لنفسه ممن ارتكب جريمة في شأنه واعتدىٰ عليه في سابق حياته ، فيبين الله جل شأنه في هذا العهد الذي أخذه علىٰ عباده الموحدين أنه لا ينبغي لهم أن يحملهم ما سبق من الكفار من صدهم المسلمين في السنة السادسة من الهجرة عن بيت الله الحرام ، ومن موقفهم السيِّئ سنة الفتح عند دخول مكة ، يبيِّن لهم أنه لا ينبغي أن يحملهم ما سبق من أولئكم الكافرين علىٰ أن يعتدوا علىٰ الكافرين وأن يثأروا لأنفسهم منهم ، وليجعلوا نعمة الله بإقدارهم لهم علىٰ الانتقام من عدوهم ، ونعمة الله جل شأنه علىٰ هذا الإقدار بالعفو عن أولئك الذين سبقت منهم السيئات وتقدم منهم الأذىٰ والضرر للمسلمين في صدهم عن بيت الله الحرام ، وهذا منتهىٰ العدل الإسلامي وهو تناسي ما سبق من السيئات بعد أن تمكن المسلم من إقامة العدل ، فلا يرعىٰ حظ نفسه بل يقف موقفاً يرضىٰ به ربه ويتألف به قلوب من سبقت منهم إساءة له فيقول تعالىٰ : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢

لا تحملكم عداوة قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ثم أمرهم بأن يتعاونوا عموماً على البر والتقوى وحذرهم من أن يتعاونوا على الإثم والعدوان، وحذرهم شديد بأسه وأليم عقابه إن هم نقضوا عهده وخانوا ما أخذه عليهم من هذا التكليف وأمثاله فيشتد بهم بأسه ، وحذرهم في ذلك بقوله سبحانه : ﴿واتقوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

ثم بيَّن لهم تفصيل أشياء مما حرَّم عليهم ، واستثنى من هذا أشياء فقال : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ﴾[١] .

فكان هذا تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيد ﴾[٢] .

فالآية الأولى إجمال وهذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّه ﴾[٣] ، وآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾[٤] . إلى آخرها فيهما تفصيل أو بعض التفصيل لما أجمل في الآية الأولى ، فهذا من الأدب أو من المقاصد التي اشتملت عليها الآية الأولى من هذه السورة .

ثم ذكر سبحانه وتعالى عهداً آخر أخذه على عباده الموحدين من أحكام الوضوء وأحكام الغسل وذكر تفصيل هذا في آية﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[٥] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

(٥) سورة المائدة ، الآية : ٦ .

ثم قال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ (١) .

فأوجب عليهم أن يتذكروا مواثيق الله سبحانه التي أخذها عليهم إجمالاً في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

وتفصيلاً فيما ذكره من تفاصيل القرآن ، في هذه السورة وغيرها وما بينته سنتة رسول الله ﷺ .

ميثاق ثالث ذكره جل شأنه في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

فأوجب عليهم سبحانه أن يرعوا العدالة وأن يوفوا بالعهد والميثاق ، وأن لا تكون الخصومة متسلطة علىٰ نفوسهم تسلطاً يجور بهم عن الجادة ويحملهم علىٰ نقض ما أخذه الله عليهم من عهد وميثاق ، ولا يجرمنكم شنآن قوم ـ أي عداوة قوم ـ علىٰ أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ ، وأنذرهم وحذرهم من نقض العهد والميثاق بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم ذكر العِدَة الطيبة والجزاء الكريم ، العِدَة الطيبة لمن وفَّىٰ بالعهد والميثاق والوعيد الشديد لمن لم يف بذلك بل خان ونقض فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٣) .

هذه منزلة أخرىٰ ، أو مرحلة أخرىٰ ثالثة في تفصيل قوله تعالىٰ في مطلع السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٧ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(٣) سورة المائدة ، الآيات : ٩ ـ ١٠ .

ميثاق رابع ، فيه تفصيل لمطلع السورة يذكّر الله عباده نعمته عليهم برد كيد خصومهم ، ومكر أعدائهم في محاولة سفك دم رسول الله ﷺ وإيذاء المسلمين في شخص رسول الله ﷺ ، فكف أيدي هؤلاء جميعاً وأبطل كيدهم وأحبط سعيهم ، وشردهم عن بلادهم فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وذلك أن بني النضير دبروا لرسول الله ﷺ تدبيراً سيئاً ، وذلك حينما جاء إليهم يطلب منهم شيئاً من المال يستعين به في بعض المصالح فوعدوه خيراً وهم يضمرون الفتك به وأجلسوه تحت جدار ، وصعد بعضهم فوق البيت ليرمي عليه حجراً يقضي عليه، فأوحى الله إليه أن يقوم فقام وقد أرسل بعض أصحابه إلى المدينة فذهب إلى جهة المدينة وبلغ أصحابه وجمعوا جموعهم ، وجاء إلى بني النضير محارباً لهم إستجابة لأمر الله جل شأنه ، ثم رضوا بأن يخرجوا من ديارهم فأذن لهم في ذلك بأمر الله جل شأنه ، وأذن لهم في أن يأخذوا من أموالهم ما حملت حمولاتهم وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ . هم بنو النضير ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

هذه وما سواه من آيات سورة الحشر فيه تفصيل لما ذكر الله في هذه الآية التي أخذ فيها العهد والميثاق على المؤمنين أن لا يعتدوا بل عليهم أن يلزموا العدالة فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾(٣) .

---

(١) سورة المائدة ، الاية : ١١ .

(٢) سورة الحشر ، الاية : ٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ١١ .

يعني بسفك دم رسول الله ﷺ بهذا التدبير الذي دبره بنو النضير ، واليهود كما هو مشهور عند العالم لا عند المسلمين فقط هم سوسة تنخر في عظام الأمم فهم في كل دولة من الأمم يسعون فساداً في الأرض ويدبرون التدبير السيِّئ ويمكرون المكر السيِّئ ويعيشون كالنباتات الطفيلية في سائر الدول ، ومن تدبيرهم السيِّئ ما دبروه في هذا الحادث لرسول الله ﷺ رغبة منهم في القضاء عليه .

ثم بدأ الله جلَّ شأنه بدءاً جديداً ، وذكر لنا لوناً آخر من العهود والمواثيق ليست عهوداً أخذها على المسلمين كالعهود التي مضى تفصيلها بل عهوداً أخذت على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعلى أمثالهم فلم يكن منهم إلا التبرمُ لها والتنكر لها ونقضها شر نقض ، فنزل بهم بأس الله وعذابه فهذا مما يتصل بمبدأ السورة أولاً ، يتصل بها من جهة أنه نقض للعهود والمواثيق نقضاً أفسدوا به الأرض واستوجبوا به مقت الله وغضبه ، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ (١) . فالآية في العهود والمواثيق التي هي في الآية الأولى .

وقال جل شأنه : ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ﴾ .

هذا هو العهد ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ .

أي عظمتموهم وأيدتموهم ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (٢) .

هذه العِدَة الجميلة التي وعدها من وفَّى بهذا العهد الذي فصَّله في الجملة السابقة ، ثم هدد وأنذر مَنْ نقض العهد والميثاق فقال : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٢ .

وقد نقض هؤلاء العهد والميثاق فأصابهم الله شر إصابة وقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (١) .

وهذا شأن السيئات وهذه هي عدالة الله جل شأنه مَنْ كسب سيئة نُكت في قلبه نكتة سوداء وبقدر تلك السيئة ، فإذا ما تكاثرت منه السيئات طبع الله علىٰ قلبه وجعل عليه الران حتىٰ يصير قلبه متبلداً أو كالحجر الصلب لا يتأثر بموعظة ولا يعتبر بعبرة ولا تنفذ إليه نصيحة ، بل يكون منه الصدود والإعراض عما يوجَّه إليه من آيات القرآن ومن الحجج والبراهين والمواعظ والعبر ، فلا أدلة تُناجي بها العقول ، ولا مواعظ وعبر تؤثر في عواطفه ووجدانه وذلكم لما طبع علىٰ قلبه وكان عليه من الران والحجاب الذي يحول بينه وبين الدلائل والبراهين فلا ينصاع لها بل يحول بين قلبه ، وبين وجدانه وعاطفته ، وبين المواعظ والعبر حيث قد مسخ الله فطرته فجعل قلبه قاسياً يقول الله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (٢) .

ثم ذكر الله جل شأنه الصنف الثاني بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ . أيضاً أخذ علىٰ الطائفة الأخرىٰ ، طائفة النصارىٰ عهداً وميثاقاً ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (٣) نقضوا أيضاً العهد والميثاق ، القصد أن الله ذكر في هذه الآيات أنه أخذ عهوداً ومواثيق علىٰ اليهود والنصارىٰ بتكاليف كلفهم بها فوقفوا منها موقف الخائن ، وقفوا منها موقف الغادر المستهتر الذي لا يبالي لعهد الله وميثاقه بالاً ولا يلفت له نظراً وليس لله وقار في قلوبهم ، فأصابهم الله باللعنة وقساوة القلوب ، وأصابهم بنسيانهم الكثير من حظوظهم ، ثم ذكر الله جل شأنه أنه بيَّن لهم ما أخفوا من التكاليف وما حرَّفوا من نصوص كتبهم التي أنزلها الله عليهم ، أنزلها الله علىٰ موسىٰ ، وعيسىٰ ، وعلىٰ داود . بيَّن أنه أرسل إليهم

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٣ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٣ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ١٤ .

رسولاً فجاءهم هذا الرسول وبيَّن ما كانوا يخفون من كتاب الله ، فإنهم كانوا يجزأونه أجزاءً فيخفون بعضه ويبدون بعضه ، تبعاً للهوىٰ ، فما رأوه في مصلحتهم ومتفقاً مع هواهم أعلنوه ونشروه بين الأميين والرعية العوام وما كان مخالفاً لأغراضهم وأهوائهم أخفوه ، يقول تعالىٰ في هذه الآية : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (١) إلىٰ آخر الآيات .

فذكر جل شأنه أن هذا الذي جاءهم علىٰ يد رسول الله محمد ﷺ من العهود والمواثيق تكشف أحوالهم فيجب عليهم حينئذ أن يعتبروا وأن يخشوا الفضيحة من كشف الوحي الذي ينزل علىٰ رسول الله ﷺ لما دبروه ولما خانوا فيه ، كما عليهم أن يرتدعوا وأن يعملوا بالحق وأن يتبعوا رضوان الله جل شأنه ويسيروا علىٰ الصراط المستقيم لكنهم أبوا إلا اللجاج والعناد وإلا نقض العهد والميثاق فنقضوا عهد الله في وحدانيته وفي كماله وانتقصوه بنسبة الولد له كما قال الله عنهم : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٢) .

ورد عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٢) .

عيسىٰ لا يملك شيئاً من الوجود ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ومريم أُمّه لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، عيسىٰ يحتاج إلىٰ الطعام والشراب وإلىٰ أن يقضي من شأنه ويتخلص من فضلات طعامه ، ومريم أيضاً صدِّيقة إنسانة تأكل وتشرب وتحتاج إلىٰ أن تتخلص من فضلات الطعام الذي تناولته فيقول الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(٢) .

من يملك لعيسىٰ ولأمه التخلص من مقت الله وغضبه إذا أراد أن يهلكهما

---

(١) سورة المائدة ، الآيات : ١٥ ـ ١٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٧ .

وأن يقضي عليهما في هذه الحياة فكيف يصلحان لأن يكونا آلهة مع الله أو من دون الله ؟! .

ويبين أن ملك السموات والأرض إليه سبحانه فإنه يخلق ما يشاء ، فمن يخلق ما يشاء كيف يحتاج إلى ولد يولد منه وله مَنْ في السموات والأرض ، وكيف يكون له منها الولد ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ .

أي ولداً وزوجة ﴿ لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ (٢) .

القصد أن نسبة النصارى الولد إلى الله في قولهم عيسى ابن الله ، أو ولد الله ، والزوجة لله في قولهم إنه اتخذ مريم له هذا من نقض العهد والميثاق في أصل من أصول الدين وهو أصل التوحيد وإثبات الكمال لله وحده وتنزيه الله سبحانه عن الصاحبة والولد ، ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ (٣) .

فهذا نوع من أنواع نقض العهود والمواثيق وقد ردَّ الله عليهم إجمالياً وتفاصيل القرآن فيها تفاصيل الردود لمثل هذا .

فالله سبحانه وتعالى ذكر نقضاً أيضاً للعهود عن اليهود والنصارى فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (٤) .

فنسبوا إليه أنفسهم على أنهم أبناء الله ويقول اليهود : نحن أبناء الله ، ويقول النصارى : نحن أبناء الله . هذا أكثر من دعواهم بنوة عيسى لله ، جعلوا كل

(١) سورة الزمر ، الآية : ٤ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآيات : ١٧-١٨ .
(٣) سورة الجن ، الآية : ٣ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ١٨ .

النصارىٰ علىٰ كثرتهم ، وكل اليهود علىٰ كثرتهم أبناء ، وزادوا أن قالوا وأحباء لله . فهذا من نقضهم للعهود والمواثيق ، فالله تعالىٰ منزه عن الولد كما تقدم في الآية ذكراً أو أنثىٰ فهو سبحانه منزه عن الولد علىٰ الإطلاق ، ثم ميزان محبة الله لعباده الاستقامة علىٰ الجادة والطريق السوي واليهود والنصارىٰ قد انحرفوا عن الجادة وغيَّروا وبدَّلوا فيما أنزل عليهم من الكتب السماوية فكيف يدَّعون زوراً وبهتاناً أنهم أحباء الله سبحانه وتعالىٰ ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ .

قال تعالىٰ في الرد عليهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ .

إلىٰ آخر ما ذكر من الآيات ، هذا أيضاً من نقض العهود والمواثيق التي تضمن أصلها ما أمر الله به من الوفاء في الآية الأولىٰ من مطلع السورة ، بعد هذا ذكر الله جل شأنه شيئاً من جنس ما مضىٰ يقول : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[1] .

رسول جاء لإسقاط المعاذير ولإقامة الحجة حتىٰ لا يقولوا ما جاءنا بشير ولانذير حتىٰ نتعرف منه الحق فنحن معذورون ، يقول جاءكم الرسول علىٰ فترة من الرُّسل فهذا تكذيب للعهود والمواثيق التي أمر الله بالوفاء بها في مطلع السورة في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

ثم ذكر جلَّ شأنه أن بني إسرائيل مهما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون وملائه ، وما أنعم الله عليهم من إرسال موسىٰ إليهم وإنجائهم من الضلالة ، ومع ما أنعم الله عليهم من إهلاك خصومهم نعمة أخرىٰ ، فإن الإنسان إذا نجىٰ من خصمه ، وخصمه لا يزال حياً فتوسوس له نفسه بأنه سيأتي عليه يوم من الأيام يفتح له الطريق إلىٰ التسلط عليه وإلىٰ التمكن منه فيسومه سوء العذاب في مستقبل حياته كما سامه من قبل سوء العذاب ، فبيَّن الله جل شأنه أنه أنعم علىٰ

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٩ .

اليهود ، أنعم على بني إسرائيل الذين هم قوم موسى لأنه جعلهم أئمة وأنه مكنهم في الأرض وأنه جعلهم ملوكاً بعد أن أنجاهم من عدوهم وخصمهم ، بيَّن سبحانه وتعالى أنهم لما أمرهم موسى أن يدخلوا بيت المقدس ، وهذا أمر من الله وعهد وميثاق أخذه على قوم موسى فأمر موسى قومه أن يدخلوا بيت المقدس وأن يجعلوه وطناً لهم ، وأن يقيموا دولة فتية لهم في بيت المقدس ، وجاءهم رجلان قد عرفا أخبار سكان بيت المقدس من الجبارين جاءا إلى موسى وقالا لقوم موسى لو أنكم تجمعتم وتعاونتم وتآزرتم ثم هجمتم هجمة رجل واحد على أولئكم الجبارين لفتح الله عليكم بيت المقدس ، ولمكنكم من رقاب هؤلاء ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾(١) .

فأبوا أيضاً بالرغم من هذه البشارة المباركة فموسى قال . وهارون قال ، وبعض الجماعة من بني إسرائيل قالوا : فانتهى أمر بني إسرائيل إلى أن يقولوا لموسى ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢) .

وماذا يصنع موسى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

هذا شأن بني إسرائيل مع موسى أرادوا أن يتحكموا فيه ويقولون : نريد أكلا طيبا فجاءهم بالمن والسلوى فقالوا : هذا لا يصلح لنا ، نريد عدساً وبصلاً وثوماً، قال هذا أزين لكم . أتتبدلون الطيب بالخبيث ؟؟ قالوا : ما نريد إلا هذا، قال : اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ، ثم يضرب الحجر فتخرج منه العيون على عدد الأسباط ، إثنا عشر سبطاً ، كل سبط له عين حتى لا تتزاحم أكثر من جماعة

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢٣ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢٥ .

على عين واحدة وهي تشرب فيتنازعوا ويختلفوا ثم بعد ذلك يتنكرون لموسى ، لذلك ابتلى الله هؤلاء على نقضهم العهد والميثاق بأن شردهم أربعين سنة يتيهون في الأرض قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (١) .

وليست محرَّمة عليهم أربعين سنة فقط ، بل إلى جانب ذلك عدم الإستقرار يتيهون في الأرض . القصد أن هذه القصة من عند قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) . إلى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ (٣) .

يذكرهم بفضل الله عليهم حتى إذا ذكروا هذا انبعثت نفوسهم بالوفاء لأوامره، ولكن قلوبهم صلدة لم تتأثر ولم تتذكر فضل الله عليها فلذلك تنكروا لموسى عليه السلام ،هذه القصة إلى آية (التيه) التي ذكر الله فيها عقوبته لهم بالتيه والتشريد ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ، فيها عهد أخذه الله على بني إسرائيل ، على اليهود ، وكيف أنهم لما عصوا ونقضوا عهد الله عليهم ، عوقبوا على ذلك فهي توضيح وتفسير ، ومثال على وجوب الوفاء بالعقود الذي أكد الله عليه في مطلع السورة وطالب المؤمنين به . وكيف أن الله عاقب من لم يراع عهده ولم يف بميثاقه .

عهد آخر ذكره الله في قصة ابني آدم (٤) وهو أن الله خلق آدم وبنيه من بعده وفطرهم على الخير ، ولم يداخلهم شر . ولم يعرفوا الشر والفساد ولا سبق فيهم قتل نفس قبل هذا . وقتل النفس من أعظم الجرائم وأشنعها . وآدم نبي والأولاد-

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآيات : ٢٠-٢١ .

(٤) انظر سورة المائدة ، الآية : ٣٧ وما بعدها .

أولاده - تربوا في بيت نبوة مع صفاء ونقاء الفطرة ، يعرفون شريعة الله ويسيرون عليها وكانت إذ ذاك غضة طرية لم يشبها طمس ولا ضياع ولا تحريف ، ويعلمون جميعاً ما في الشريعة من عصمة دم المسلم ، وحرمة سفك الدم وحرمة إزهاق النفوس والأرواح، ومع ذلك خان أحد ابنى آدم العهد فقتل أخاه . فهذا أيضاً من نقض العهد والميثاق والتجرؤ على سفك الدم الحرام وهو أعظم الذنوب بعد الشرك بالله وهذا راجع إلى الآية الأولى في السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

ثم بعد ذلك يأتي الحديث عن المحاربين لله ورسوله ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)، القاطعين للطرق الذين لا يسلم الناس من شرهم ولا من أذاهم ، فلا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، ولا على أعراضهم ، ولا يتركون صالحا لصلاحه ولا باراً لبره، إنما يؤذون الجميع . فهذا الصنف من شر الناس نقضاً للعهد والميثاق . لأنهم يعتدون على كل ما فيه عهد من الله بالمحافظة عليه وصيانته . فالأموال مصونة إلا بحقها ، والنفوس من أعظم الأمور صوناً وحرزاً ، والأعراض من أعظم الأمور صونا وحرزاً ، فهؤلاء يعتدون على هذه الأمور المصونة ، ويروعون الآمنين ويعطلون مصالح العباد التي فيها صلاح عيشهم في الدنيا والآخرة . فهم يعطلون الضرب في الأرض والسعي على الرزق ، ويعطلون التزوار في الله ، والرحلة في طلب العلم ، والسفر للحج والعمرة ، ويعطلون التنقل لصلة الأرحام . وهذه المحاربة وهذا الإفساد في الأرض هي نوع من نقض العهود التي أخذها على عباده وأمرهم بالوفاء بها والمحافظة عليها في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ثم بين سبحانه عقوبة هذا النوع من ناقضي العهود وناكثي الوعود فحد لهم الحد الرادع الذي يناسب فعلتهم .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣٣ .

ثم حذر المؤمنين أن يسلكوا هذا السبيل المسخط للرب فقال ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كنقضة العهود من بني إسرائيل ولا تنكروا لرسولكم ولا لشريعة ربكم . ولا تتوانوا عن الجهاد في سبيله كما توانى اليهود عن جهاد أعدائهم أعداء الله ولم يدخلوا الأرض المقدسة التي فيها المسجد المعظم عندهم ولم ينصروا موسى عليه السلام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١) .

اتقوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه . والوسيلة هي العمل الصالح الذي يرضى الله ويقرب العبد من ربه ويصله به ، والبعد عن المنكرات والمعاصي التي يحصل بها للعبد ضد ذلك من البعد ، والطرد ، والجفاء بين العبد وبين ربه سبحانه . فعلى المسلمين أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة المشروعة التي هي العمل الصالح وترك الشر والسوء وهجر السيئات .

ثم ذكر ربنا عز وجل نوع آخر من المفسدين في الأرض الناقضين للعهود والمواثيق وهم السراق اللصوص ، وبين سبحانه وتعالى حدهم وعقوبتهم في الدنيا والآخرة إلا من تاب منهم وأصلح فإن الله يغفر له ذنبه ويتوب عليه في قوله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) هذا له صله بما سبق من الحديث عن اليهود الذين كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه ، فمن كان منهم الغني ذو الجاه والقوة والمنعة من عشيرة وأهل وقبيلة ، تركوه وأهملوا إقامة الحد عليه مراعاة لمكانه وغناه وقوته ، وإذا سرق فيهم الضعيف الذي لا يهاب عاقبوه وأقاموا عليه الحد . وهذا يعني أن إقامة الحد على السُّراق كان موجوداً ومشرعاً في التوراة ، وفي دين اليهود قبل أن يبدلوا ويحروفوا ، وقد لعن الرسول ﷺ

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٨ .

اليهود وحذر قومه المؤمنين من أن يسلكوا سبيلهم ، ودربهم وأن يجاروهم في منهجهم وذلك عندما سرقت إمرأة مخزومية شريفة في قومها وجيهة في أهلها ، فأرادوا أن يشفع لها أحد عند رسول الله ﷺ فلا يقيم عليها الحد ، ولا يقطع يدها وإن عاقبها بأي عقوبة أخرىٰ مالية ، فلم يجدوا من له الجرأة علىٰ هذه الشفاعة عند رسول الله ﷺ غير أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه رضي الله عنه وعن أبيه . فلما كلم أسامة رسول الله ﷺ كلاما فيه شفاعة لهذه المرأة التي استوجبت الحد غضب رسول الله ﷺ ورد شفاعته وقال : « **أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟** » يكرر ذلك منكراً علىٰ أسامة هذه الشفاعة الغير مشروعة والتي لا تجوز ثم قال : رسول الله ﷺ : « **إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف (القوي) تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . ثم قال ﷺ والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها أو كما قال ﷺ** »[1] . فذكر الله عز وجل هذا الحد (حد السرقة) عند الكلام علىٰ اليهود ونقضهم للعهود والمواثيق لأن نقضهم للعهد في هذا الأمر وهذه القضية موجود أيضاً فهو يتفق مع أول هذه السورة التي ذكر الله فيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

ويذكر الله عز وجل في هذه السورة واقعة أخرىٰ عن اليهود فيها نقضهم للعهد والميثاق ، وأنهم وقعت فيهم واقعة زنا فأرادوا أن يحتالوا حيلة ليخرجوا من إقامة الحد علىٰ هذين الذانيين . وكان الحد عندهم في الشريعة المنزلة المحكمة هو حد الرجم للمحصنين وحد الجلد للبكرين أما الشريعة المحرفة التي كتبها لهم أحبار السوء فهي غير ذلك ، فيها نوع من الإيذاء الخفيف الذي لا يتفق مع بشاعة الفعل وشناعته . ففي شرعهم الذي كتبوه بأيديهم ، وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله فيه ؛ التحميم وهو طلاء وجه كل من الزاني والزانية بطلاء أسود

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٤٧٥) وفي غير موضع ومسلم (١٦٨٨) . وأبو داود (٤٣٧٣) والترمذي (١٤٣٠) .

ويركبوهما على دابتين وجه كل منهما إلى مؤخرة الدابة ، ويطوفون بهما أرجاء المكان قرية ، أو مدينة ، أو غيرها من المكان الذي يسكنون فيه ، مع الجلد مائة جلدة ولا يقيمون حد الله في جريمة الزنا . فلما وقعت هذه الواقعة فيهم وزنا رجل بامرأة منهم أرادوا أن يتهربوا من إقامة الحد الإلهي الذي شرعه لهم وهو رجمهما إذ كانا محصنين . فاتفقوا على أن يأتوا رسول الله ﷺ ويعرضوا عليه القضية فإن هو حكم بحكم مخفف لا يصل إلى الرجم أخذوا به وعذرهم عند الله أنهمو عملوا بحكم نبي مرسل هم على يقين من نبوته - وإن لم يتبعوه وإن لم يؤمنوا به حسداً وكبراً - وإن هو حكم فيهم بحكم الرجم تركوا حكمه ورجعوا إلى حكمهم المبتدع المخترع ، يقولون بعضهم لبعض : ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (١) .

هم أصحاب هوى إن جاءهم ما يتفق مع هواهم أخذوا به وطبقوه ، وإن كان الأمر على غير أهوائهم أعرضوا وصدوا ، فاتخذوا بذلك أهوائهم آلهه من دون الله فما اتفق وهواهم أخذوا وعملوا به ، وما خالفهم تركوه . اليهود كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (٢) ويأكلون منهم الأموال فيأكلونها بالباطل ، ويستحلون الرشوة ، ويستحلون بالباطل أموال العوام ؛ وهم كل من دون اليهود ويزعمون أنه لا مؤاخذة عليهم في ذلك . وفي هذا نقض للعهد الذي أخذ عليهم بألا يأكلوا أموال الناس بالباطل ، وألا يأكلوا السحت ، ولا يأكلوا الربا فنقضوا عهد الله في ذلك كما قال الله عنهم ﴿سَمَّاعُون لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٥ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٤٢ .

المهم أنهم ذهبوا إلىٰ رسول الله ﷺ في تلك القضية ـ الزنا ـ فلما حكم فيها رسول الله ﷺ بما أراه الله وبما كان في شريعتهم المحكمة المنزلة لا المحرفة المبدلة وجاء الحكم علىٰ غير ما تهواه نفوسهم لم يقبلوا الحكم . مع أنهم الذين اختاروه حكما ومع أن الحكم متفق وشرعهم المنزل ومصدقا لما عندهم ، ومع ذلك كله لم يقبلوا حكمه ولم يأخذوا بقضائه فأنكر الله عليهم ذلك في قوله ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) فهذا ما أُخذ علىٰ اليهود من العهود والمواثيق ثم هم نقضوه . فلاهم عملوا بما في التوارة الذي هو كتابهم وشرعهم ، ولا بما حكم الرسول وقضىٰ ، وهو مصدق لما معهم ولما في أيدهم وهو أيضاً في التوراة . المقصود أن هذا كله ذكر لبعض أخبار بني إسرائيل التي فيها نقضهم للعهود والمواثيق وهذا يتفق ووصية الله للمؤمنين وأمره لهم بأن يوفوا بالعهود ولا يسلكوا سبيل من نقض وخان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .

بعد أن ذكر الله خيانة اليهود والنصارىٰ لما أخذ عليهم من عهود ومواثيق ، انتقلت السورة إلىٰ ذكر تحذير من الله عز وجل لعباده المؤمنين الموحدين ، يحذرهم ربهم من المواربة والمخادعة ، ومن الموالاة لأعداء الله من اليهود والنصارىٰ الذين لا يراعون عهود الله ومواثيقه ، فكيف يركن المؤمنون إليهم وحذرهم بأنه لا ينبغي لهم وقد آمنوا بالله وسوله وصدقوا بما جاءهم من الحق والأخبار عن اليهود والنصارىٰ حذرهم بأنه لا ينبغي لهم أن يسلكوا مسلكهم ولا يدخلوا مدخلهم وتتابعت آيات الله جل شأنه في هذا فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٢) فليوال بعضكم بعضاً ، وليحذر كل منكم أن يوالي يهودياً ولا نصرانياً ، فما ذكره عز وجل من

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٥١ .

فضائح اليهود كافٍ في أن يدخل الوحشة والحذر منهم في قلوب المؤمنين . وفيه تنفير لقلوب المسلمين منهم حتىٰ لا يركنوا إليهم ولا يخالطوهم مخالطة مودة وموالاة ، فتنقل منهم هذه الصفات الذميمة التي استوجبوا عليها اللعنة والغضب والمقت من الله ، حتىٰ لا تنتقل هذه الصفات الذميمة إلىٰ المؤمنين بطول العشرة والإلفة . بل الواجب أن يحد المسلمون معاملتهم لليهود والنصارىٰ إلىٰ أضيق حد ، وإن وجد تعامل فعلىٰ قدر الحاجة والضرورة لا محبة ولا إعجاباً ، فإن فيهم من المذام والنقص مع الله ومع عباد الله ما لا يدع مجالا لمحبة ولا موالاة ولا إعجاب . بل البراءة من اليهود ومن كل أعداء الله واجب علىٰ المؤمنين .

قال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فمن عمل بهذا الأمر ولم يوال يهودياً ولا نصرانياً فقد وفىٰ بهذا العهد وذاك العقد الذي أمر الله بالوفاء به في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ومن ولاهم فقد نقض العهد ، وكان في معناه وسلوكه هذا يهودياً ونصرانيا صفته صفتهم ومعناه معناهم ، وإن كان مسلما بالاسم والانتماء ، وإن ادعىٰ أنه موحد ثم خاطبهم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فبين سبحانه وتعالىٰ أن موالاة اليهود والنصارىٰ قد تنتهي بالإنسان إلىٰ الخروج من الإسلام والإيمان بالله . فيبدأ بموالاة خفيفة ثم تزداد وتتدرج إلىٰ أن تنتهي به من حيث يشعر أولا يشعر إلىٰ الردة والخروج من حظيرة الإسلام نعوذ بالله من ذلك . فإذا ارتد إنسان بعد أن كان مؤمناً مسلما موحداً فالله غني عنه ولن يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئاً ، وسيأتي الله بأقوام وجماعات أخرىٰ فيهديهم إلىٰ هذا الدين ويملأ قلوبهم بالإيمان يقومون علىٰ أمر هذا الدين فيحبون

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .

المؤمنين إخوانهم ويوالونهم ، وينصرونهم ويعادون الكفار على اختلاف مناهجهم ومللهم من يهود ونصارى وأهل شرك وأهل إلحاد ، يعادون الكفار جميعا ويجافونهم ويقومون بالجهاد في سبيل الله بكل ما يملكون من نفس ومال وغير ذلك من الوسائل التي تناسب الحال ، ولا يخافون من أحد من أعداء الله خوفا يجعلهم يوالونه . فالمؤمنون الذين يوفون بعهد الله وميثاقه من جنس أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، من جنس خالد ابن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من الصحابة المخلصين والتابعين لهم بإخلاص وإحسان على مر العصور والدهور والسنين إلى يوم الدين ، رضي الله عنهم أجمعين .

وبين الله للمؤمنين أن وليهم ليس هو اليهود والنصارى الذين لا أمان لهم ولا عهد ولا ميثاق ، إنما وليهم وناصرهم ومؤيدهم هو الله وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

وقد وعدهم الله وعداً طيباً إن هم وفوا بهذا العهد وهذا الميثاق إن تخلصوا من ولاية اليهود والنصارى وكل الكفار والمشركين . وإن هم قصروا ولايتهم على الله ورسوله وعلى إخوانهم المؤمنين من أهل ملتهم ، من أهل الإيمان والتقى، إن هم وفوا بهذا العهد والميثاق وعدهم أن يكتب لهم الفلاح والفوز في الدارين والغلبة على أعدائهم والنصر عليهم والظفر بهم وبما يمتلكون قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٦ .

٣ـ تفسير سورة الأنبياء إجمالاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وبعد :

فكل سورة من سور القرآن الكريم لها وحدة تدور عليها آياتها . ونتناول هذا إجمالاً في سورة الأنبياء .

لقد كان الكفار يعتقدون أن النبوة لا تكون في بشر ، إنما إذا أراد الله أن يرسل أحداً أرسله من الملائكة . أما البشرية والرسالة والنبوة فبينهما تناف . وهذه السورة جاءت لبيان أن البشرية لا تتنافى مع الرسالة . ودلل الله سبحانه وتعالى على هذه المُسَلَّمة في هذه السورة بذكر كثير من الأنبياء ، فذكر كل نبي من هؤلاء الذين ذكرهم وذكر فيه صفة أو أكثر من الصفات التي تعلن بشريته وتدل عليها كل الدلالة . وبدأ الكلام في هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾[1] فبين أنه بشر وأنه سيموت كما مات من قبله من البشر . وأن بشريته بإنتهاء أجله ، هو أمر مشترك بينه وبين غيره من جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين .

ثم بدأ بذكر الأنبياء نبياً بعد نبي . ذكر موسى وهارون[2] ، والعرب وقريش يسمعون في أسفارهم عن موسى وهارون لأنهم كانوا يسافرون في متاجرهم إلى الشام ويعرفون من بني اسرائيل أشياء عن موسى وهارون ، ففي الشام كان يعيش كثير من اليهود كما كان يعيش كثير منهم حول المدينة . وكان يعيش كثير منهم في اليمن والعرب كانوا يسافرون أيضا إلى اليمن للتجارة .

---

(١) سورة الأنبياء (٣٤)

(٢) اقرأ الآية (٤٨) من السورة .

فبدأ سبحانه وتعالىٰ بذكر موسىٰ وهارون وأنهم كانوا من الأنبياء ، وقد اشتهر أمرهم في بني إسرائيل ، وكذلك في العرب لكثرة إختلاطهم باليهود والنصارىٰ في أسفارهم ، وتجاراتهم ، ومساكنتهم لهم كما هو الحال للعرب الذين يسكنون المدينة ومن حولها . وقد كان موسىٰ وهارون من البشر ، فليس هناك غرابة ولابعد في أن يكون محمدٌ ﷺ نبياً ورسولا وهو من البشر .

ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ ابراهيم الخليل عليه السلام وذكر قصته وأنه أوذي وألقي به في النار ، ولكن الله تعالىٰ نجاه من النار ، ثم خرج من داره مهاجراً إلىٰ الله، وهذا شأن البشر لا الملك . إنسان يؤذىٰ ويؤخذ ويقهر ويغلب علىٰ أمره ، ويلقىٰ به في النار لا يكون مالكا ، لأنه لو كان ملكاً لصعد إلىٰ السماء ، ولا يتمكن منه . فكان ابراهيم بشراً بشهادة الأحداث التىٰ جرت عليه ، وكان رسولا نبيا لا يختلف في ذلك . فمحمد ﷺ أيضا بشر لا تمنعه البشرية من أن يكون رسولا نبياً.

ثم ذكر سبحانه بعد هذا لوطاً [(١)] الذي أوذي ، وهجم عليه قومه في بيته لما سمعوا أن عنده ضيوفاً فيهم الجمال والبهاء ، وكان قومه يأتون الذكران ويهجرون النساء ، ابتلوا بهذه المعصية وهذه الفاحشة كما سماها الله تعالىٰ في كتابه .

وكانت الملائكة قد أتوا لوطاً في صورة شبان حسان ولم يعلم لوط أنهم ملائكة . وسكتوا عن لوط ولم يخبروه بحقيقتهم وأمهله الله أيضا فلم يخبره بشيء ولا أوحىٰ إليه شيئا لتتبين بشريته وعجزه ، وأنه لا يعلم شيئا ولا يقدر علىٰ شيء ، حتىٰ خشىٰ عليهم من قومه وأعلن عن ضعفه في مواجهة قومه وعن ضعفه في حماية ضيوفه فقال معبراً عن هذا بقوله الذىٰ حكاه الله تعالىٰ ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ يقول لقومه الذين جاءوا يراودونه علىٰ ضيفه الذين

(١) إقرأالآية (٧١) إلىٰ الآية (٧٧)

ظنوهم بشراً وكذلك ظنهم لوط عليه السلام يقول لقومه ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾(١) لأهلكتكم وعاقبتكم فعند هذا قالت الملائكة ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا ﴾(٢) فكانت مفاجأةً للوط عليه السلام عندما عرف حقيقة أمرهم وأنهم ملائكة . فأمرته الملائكة أن يسرىٰ بأهله من الليل أي يخرج من البلد ولم يؤمن معه إلا عدد قليل من أهله . وخرج وأهله وإمرأته استجابة لأمر الله ولوحيه الذي جاءته به الملائكة وشاء الله سبحانه للمرأة ـ امرأة لوط ـ أن تتخلف وتتأخر قليلا عن زوجها في السير وأن تلتفت إلىٰ خلفها ، إلىٰ قومها فأصابها ما أصاب قومها من العذاب والهلاك . جاء جبريل واقتلع الأرض من تحتهم ورفعها إلىٰ أعلىٰ ثم قلبها بمن فيها . وجعل عالىٰ الأرض سافلها وهذا يتناسب مع ما اقترفه قوم لوط من قلب الفطرة والخلقة ، وهجر النساء الحلال اللائي جُعلن مقضىٰ الشهوات وحرث للأولاد واستبدالهن بالرجال .

ثم ذكر الله قصة نوح عليه السلام (٣) وأنه دعا قومه إلىٰ الله وإلىٰ توحيده سبحانه وجرب معهم وسائل شتىٰ في الدعوة إلا أن بيئة قومه كانت من البيئات الردية ، فلم تُجدِ معهم الدعوة إلىٰ الإسلام والتوحيد ، دعا قومه جماعة بعد جماعة ، وطائفة بعد طائفة ، وجيلاً بعد جيل وهكذا طيلة فترة تسعمائة وخمسين سنة ، تسعة قرون مضت وهو يدعوهم إلىٰ لا إله إلا الله . أمره الله أن يصنع سفينة ففعل وكلما مر عليه ملأ وجماعة من قومه سخروا به وسخروا منه . وهو أيضا يسخر منهم ويوقن أن العاقبة له من الله جل شأنه وأن الدمار عليهم . ولما جاء وقت الإهلاك أمره الله أن يركب السفينة ويحمل فيها من آمن معه .

(١)سورة هود (٨٠)

(٢) سورة هود جزء من الآية (٨١)

(٣) إقرأ الآية (٧٦، ٦٧) من السورة (الأنبياء) واقرأ تمام القصة في سورة هود ، ونوح عليهما السلام

فإنتاج وثمرة تسعمائة وخمسين سنة في الدعوة حملهم جميعا في السفينة ومعهم حيواناتهم التي يحتاجون إليها ، حمل هؤلاء جميعا في سفينة واحدة ثم أغرق الله باقي قومه جميعا . فالإيذاء والتسلط الذي وقع من الكفار على نوح عليه السلام وأمر الله له بصناعة السفينة ، وإغراق الله لقومه وإنجاء الله تعالى له ولمن معه من المؤمنين في السفينة ، كان هذا كله عنواناً لبشرية نوح عليه السلام . وقد كان نبياً رسولا فلا يبعد أن يكون محمد من البشر وأن يكون نبياً رسولا .

ثم ذكر داود وسليمان عليهما السلام [1] وما جرى على داود من الخطأ وهو شأن بني آدم ، لأن كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون [2] ، اجتهد داود عليه السلام في الحكم في قضية من القضايا ، وهي قضية الغنم التي نفشت ورعت ، وأكلت حرث قوم غير أصحابها . واجتهد في هذه القضية وأخطأ . وعرضت نفس القضية على سليمان وحكم فيها بالصواب ، وكان حكمه مخالفا لحكم أبيه . وتم لداود أجرٌ على إجتهاده ولو كان مخطئا . وحصل لسليمان أجران لأنه اجتهد وأصاب الحق وحكم في القضية بالصواب .

ثم ذكر الله ما علمه لداود من الصناعات فقد كان يصنع الألات المختلفة وخصوصا الأسلحة الحربية وغير ذلك ، وهذا كله من صفات البشرية سواء ما كان يتعاطاه داود من الصناعات أو ما قد وقع فيه داود من الخطأ في الإجتهاد في الحكم . وقد كان كلٌّ من سليمان وداود نبيا رسولا وقد كانا من البشر بكل ما في البشر من الصفات.فما المانع أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام بشراً ونبياً رسولا !

---

(١) اقرأ من الآية (٧٨) إلى الآية (٨٢) من سورة الأنبياء .

(٢) حديث حسن رواه الترمذي (٢٥٠١) . وابن ماجه (٤٢٥١). أحمد (٣/ ١٩٨) . والحاكم (٤/ ٢٤٤) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله على بن مسعده لين .

ثم انتقلت السورة إلى ذكر أيوب عليه[1] السلام ، وذكر الله عز وجل أنه ابتلاه في صحته وماله وأهله ومرض المرض الشديد . ثم شفاه الله وأعطاه الذرية وأعطاه المال . وهذه أعراض البشرية ، وقد كان نبياً رسولا فلا مانع إذن أن يكون محمدٌ ﷺ من البشر ثم يكون نبياً رسولا .

وذكر الله سبحانه وتعالى ذا النون [2] وقد كان رسولا من عند الله . وذو النون هو يونس بن متى عليه السلام . وإنما سمي ذا النون والنون هو الحوت كان قد إبتلعه فنسب إليه . فذو النون يعني ذا الحوت . وكان يونس في بطن الحوت محفوظاً بإذن الله تعالى . فلم يهضمه الحوت كما يهضم الطعام ، وهذا كان بإذن الله تعالى ، وكما أن يونس عليه السلام لم ينس ذكر الله تعالى في هذا المكان الموحش فقد حفظه الله تعالى من شدائد ومحن وكروب في الظلمات ، ومن أسباب الموت والهلاك التي توفرت وتداعت عليه . لكن الله سبحانه وتعالى عطّل أسباب الهلاك كلها عن أن تعمل عملها في يونس ، وظل يونس حياً بإذن الله تعالى ومحفوظا ومصاناً من كل الأذى حتى نجاه الله جل شأنه .

فما حصل ليونس عليه السلام يدل على أنه بشر وأعراض البشرية ظاهرة فيه وواضحة ، وكان رسولا نبياً ودعا قومه إلى الإيمان والتوحيد ، وإلى طاعة الله وعبوديته فصدوا وأعرضوا ولم يستجيبوا حتى حزن يونس عليه السلام على ذلك، وضاق صدره وخرج من بين أظهرهم ظناً منه عليه السلام أنه مخير بين الإقامة بينهم والرحيل عنهم على حسب ما يراه من المصلحة في ذلك فخرج من بين أظهرهم في الوقت الذي أوشك الإيمان أن يدخل إلى قلوبهم . وظن أن الله لن يضيق عليه في هذا الخروج . فخرج وركب سفينة لتنقله بعيداً عن قومه فثقلت بهم السفينة وحاصرتهم أمواج البحر حتى كادوا يغرقون جميعا ، فأرادوا تخفيف حمولة السفينة . وليس أحد من ركاب السفينة أولى في النجاة من الأخر

(١ ، ٢) اقرأ الآية (٨٣-٨٨) .

فاقترعوا واستهموا فيمن يلقون من الركاب فيكون ضحية وفداء للآخرين ، فقُرع يونس عليه السلام فرموه في البحر فوقع في ضيق أشد من الضيق الذي كان فيه بين ظهراني قومه ، إذ أصبح في ظلمات البحر والحوت والليل وغير ذلك من ظلمات . وفي الظلمات سبح يونس ربه عز وجل ودعاه ، واعترف علىٰ نفسه بالظلم والتقصير فقال ﴿ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) فحفظه الله تعالىٰ ونجاه من هذه الظلمات كما سبق الإشارة إليه فسياق هذه القصة وما فيها يدل بما لا يدع مجالا للشك علىٰ بشرية يونس عليه السلام وأنه كان رسولا نبياً فمحمد ﷺ وهو من البشر كان نبياً ورسولا . وكما لم تمنع البشرية يونس من النبوة والرسالة لا تمنع بشرية محمد من أن يكون نبياً ورسولا عليهم جميعا الصلاة والسلام .

ثم جاء بعد هذا ذكر زكريا عليه السلام (٢) وهو أحد أنبياء بني إسرائيل . وكانت زوجته عقيما لا تلد و قد بلغ من الكبر عتياً أي بلغ سناً لا يستطيع معه أن يأتي النساء لكبر سنه وضعف قوته لكنه لما رأىٰ مريم عليها السلام وعبادتها لربها تبارك وتعالىٰ وأن أثر هذه العبادة والتقوىٰ ظهر في الدنيا قبل الأخرة ، وأنه كان يأتيها رزقها بكرة وعشيا وفي كل حين . ووجد منها أشياء هي خوارق للعادات التي يعرفها في البشر ، لما رأىٰ الصلاح في مريم اشتاقت نفسه للولد الذي يرىٰ فيه الصلاح والتقوىٰ . فرغب إلىٰ ربه تعالي وطلب منه أن يعطيه الولد فاستجاب الله تعالىٰ لدعائه ولبىٰ رغبته ووعده بالولد . ولكن زكريا يريد أن يطمئن ويزداد إيمانا بموعود الله له لأنه بُشِّر هو وزوجته بالولد في حالة لا تسمح لهما بالإنجاب في عُرف البشر ، وما جرت به عادتهم ، فلذلك يريد أن يزداد إطمئناناً وإيمانا إذ هو لا ينكر علىٰ ربه أن يخلق ما يشاء ، لأنه سبحانه وتعالىٰ القادر علىٰ كل شيء ولا يعجزه شيء ولذلك قال ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأنبياء آية : (٨٧) .

(٢) اقرأ الآية (٨٩ـ ٩٠)من السورة .

(٣)سورة آل عمران (٤٠) .

ثم ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾(١) وفي الآية الأخرىٰ ﴿ إِلاَّ رَمْزًا ﴾(٢) فكان إذا أراد أن يتكلم مع الناس في الكلام العادي لا يستطيع ذلك طيلة هذه المدة ، ولا يستطيع أن ينطق وإنما يفهمهم ما يريد بالإشارة والرمز ولم يكن هذا لعيب في آلة نطقه ، ولا لمرض طرأ عليه وإنما هذا آية من الآيات ، ولذلك فهو إذا أراد أن يسبح وأراد الذكر انطلق لسانه أما إذا أراد الحديث مع الناس انعقد لسانه فكان هذا أيضا آية من آيات البشرية . وقد ذكر الله تعالىٰ شيئا من الأسباب العادية التي يرتب عليها الولد يقول سبحانه ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ ، ما جعلها تلد وهي علىٰ حالها ووضعها ، ولكن أصلحها الله للحمل والوضع وأزال ما كان بها من عقم ومن أسباب تمنع حملها . فقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ في زوجة زكريا استعداد للحمل ولذلك قال تعالىٰ ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ فالله سبحانه وتعالىٰ اوجد الأسباب العادية فيها بعد أن كانت مفقودة .

وذكر الله عنهم هذا في القرآن فقال تعالىٰ ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾(٣) فلم تصبح علي حالها الأول الذي كانت عليه قبل أن تحمل بل هُيئت تهيئة تصلح معها للحمل ، فكان زكريا أعجز من أن يهب لنفسه ولداً بل طلب من الله أن يعطيه الولد وأن يمنحه إياه فهذا عنوان البشرية ، ومع ذلك كان رسولا وكان من البشر ومحمدرسول الله وهو من البشر ولا غرابة ولا بعد في هذا .

أما مريم عليها السلام فلم تكن نبية ولكن وهب الله لها عيسىٰ عليه السلام . وحملت بدون زوج . والله الذي أصلح زوجة زكريا فصارت تستطيع الحمل بعد أن لم تكن تستطيعه ، هو الذي جعل مريم تحمل بدون زوج بإذنه تعالىٰ وذكر الله

---

(١) سورة مريم (١٠) .

(٢) سورة آل عمران (٤١)

(٣) سورة الأنبياء (٩٠) .

سبحانه هذا في القرآن فقال ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (١) .

فالقصد أن كل هؤلاء جميعا من البشر وقد وصفهم الله تعالى بذلك وأظهر فيهم أعراض البشرية . قد كانوا رسلا وأنبياء أو صديقين مصطفين فلا يستبعد أن يكون محمد ﷺ نبياً رسولا وهو من البشر .

لقد وصف الكفار الرسول عليه الصلاة والسلام بصفات كثيرة مفتراة عليه وليست من صفته ، ولا من خلقه رموه بالسحر والكذب والكهانة . ووصفوه بالبشرية كما ورد في أول السورة في قوله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(٢) ﴿ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فكيف يكون رسولاً فذكر الله أنبياء قبل رسول الله ﷺ ولا شك في نبوتهم ، وقد ذكر الله عز وجل لهم من الأعراض ما لا يدع مجالا للشك في بشريتهم .

والعرب كانوا يعرفون أن هؤلاء المذكورين في السورة أنبياء ورسل فقد كان العرب أهل أسفار وتجارة ، وقد ذكر الله عز وجل أنهم كانت لهم رحلتان جنوباً في الشتاء وشمالاً في الصيف . ومن خلال هاتين الرحلتين وغيرهما عرف العرب هؤلاء الأنبياء والرسل وعرفوا قصصهم بالمخالطة مع الأقوام الأخرين في البلاد التى كانوا يسافرون ويتجرون إليها . فذكر لهم أمثالا تاريخية في بشر صاروا رسلا . والواقع شاهد برسالتهم . فيرد عليهم إنكار رسالة محمد من أجل بشريته في قولهم ﴿ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(٣)فكيف يكون نبيا رسولا ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُو﴾ (٤) ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٥) أسروا النجوى فبين الله لرسوله ﷺ أنه يعلم السر وأخفى وهو السميع

(١) سورة الأنبياء (٩١) .

(٢) سورة الأنبياء (٢ ، ٣) .

(٣ ، ٤) سورة الأنبياء (٣) .

(٥) سورة الأنبياء (٤) .

كامل السمع عليم كامل العلم ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ [(١)] أخلاط في الكلام ، مخبول يتكلم كلام المخابيل ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ ﴾ [(٢)] كذاب ، ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [(٣)] الشاعر مثل الكهان الذين يلفقون الكلام ويكذبون فيه ويبالغون ، ويقولون أعذب الشعر أكذبه ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [(٤)] . الله عز وجل ذكر البشرية بعد ذلك فقال ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [(٥)] . ثم ذكر قصص الأنبياء ثم ختم السورة بمثل ما بدأ به فقال ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [(٦)] .

يعني أنا بشر ولكن يوحىٰ إلي ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [(٧)] وما يوعدون هو ما يطالبون به من الأيات والمعجزات وربما كان ما يوعدون يعني يوم القيامة ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [(٨)] وهو نظير قوله تعالىٰ في أول السورة ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [(٩)] وبعده يقول سبحانه ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [(١٠)] لعله فتنة لكم ومتاع إلىٰ أجل مسمىٰ ثم الله يقضي بإنهاء الدنيا وافنائها كما يشاء وكما يريد . ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [(١١)] افصل بيننا ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [(١٢)] والذي وصفوه به في صدر السورة أن ما جاء به من الوحىٰ

(١ ـ ٤) سورة الأنبياء (٥) .

(٥) سورة الأنبياء (٣٤) .

(٦) سورة الأنبياء (١٠٨) .

(٧) سورة الأنبياء (١٠٩) .

(٨) سورة الأنبياء (١١٠) .

(٩) سورة الأنبياء (٤) .

(١٠) سورة الأنبياء (١١١) .

(١١) سورة الأنبياء (١١٢) .

(١٢) سورة الأنبياء (١١٢) .

أضغاث أحلام وأنه قد افتراه ، وأنه شاعر ، وأنه ساحر وأنه مجنون وغير ذلك مما ألصقوه به من الأوصاف التي ذكروها ورموه بها في أول السورة وهو منها براء. وبهذا يعرف أن للسورة وحدة تدور الآيات حولها وهي هنا إثبات أن البشرية غير منافية للرسالة وذلك بذكر كثير من الأنبياء الذين شهد الواقع وشهدت الأمم بأنهم رسل . وقد ثبتت نبوتهم تاريخيا حتى عند العرب . قد كان العرب يتمسحون باليهود ، لأنهم أهل كتاب وبعضهم كان يرسل أولاد ه إلى اليهود ليعيشوا بينهم وينالون منهم البركة.

وهكذا نجد أن أول السورة وأخرها يرتبط بعضه مع بعض في وحدة مشتركة. وهذه السورة مكية . وكغيرها من السور المكية في القرآن فإنها ترتكز على الأصول الثلاثة ، إثبات التوحيد والدعوة إليه ، واثبات وقوع اليوم الآخر وإقامة الأدلة عليه ، إثبات الرسالة وبيان عدم منافاتها للبشرية .

وأسأل الله جل شأنه لي ولكم التوفيق والسداد . وأن يجعل القران العظيم ربيع قلوبنا ، وطهارة لنفوسنا إنه سبحانه وتعالى مجيب الدعاء . وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد .

س١ : سئل الشيخ : ما معنى نفشت فيه غنم القوم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إنتشرت فيه غنم القوم وأكلت . فحكم أن الغنم تدفع إلى أصحاب الحرث فينتفعون منها بكل نفع فيكون لهم أولادها وألبانها وغير ذلك من منافعها ويقومون برعايتها في حين يقوم أهل الغنم بإصلاح الحرث والقيام برعايته ورعايته حتى يرجع إلى الحال التي كانت عليها قبل أن تنفش فيه الغنم . فيرجع كل شيء إلى أصحابه فيأخذ أهل الحرث حرثهم ويأخذ أهل الغنم غنمهم.

٤ـ تفسير سورة الإنفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .

فإن الله تعالى شأنه قد ذكرنا بالآخرة وما فيها من أهوال ، من أول بدئها عند تخريب الدنيا إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وكرر هذا في كثير من سور القرآن الكريم ليعتبر الناس ويتذكروا ، ويتقوا ربهم فيطيعوه ويخشوه .

ومن السور التي ذكر الله جل شأنه فيها أخبار يوم القيامة سورة الإنفطار ، وسورة التكوير وغيرها من السور كثير من سور القرآن تتناول هذا الموضوع .

وسورة الإنفطار قد بين الله فيها أنواعاً من أهوال يوم القيامة :

أولا : حالة التخريب التي تلحق هذه الحياة الدنيا عند نهايتها ، وبدء يوم القيامة الذي يحاسب فيه العباد ويجازيهم فيه على أعمالهم .

ثانيا : نفي أن يكون هناك من قبل الرب ما يغتر به المخلوق اغتراراً يعذر به .

ثالثا : بيان أن كثير من الناس كذب بيوم الدين مع وجود الأدلة والبراهين

الواضحة التي تمنع ذلك التكذيب .

رابعا : تقسيم الناس إلىٰ أهل نعيم وأهل جحيم ، إلىٰ أبرار وإلىٰ فجار .

أما الأمر الأول : فذكر الله عز وجل فيه قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾(١) ومعنىٰ انفطرت يفسرها قوله تعالىٰ في السورة الأخرىٰ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (٢) فانفطرت معناها انشقت . انفطر : انشق . وفطر البئر : حفرها وشقها يطلب خروج الماء منها .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ (٣) يعني تساقطت عند فقد التوازن . الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يفقدها توازنها وتماسكها ، ويخل نظامها . فتختل بعد انتظام ، وتظلم بعد أن كانت نيرة .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ (٤) الأرض وما فيها من مياه لها نظام تسير عليه نظمها الله جل شأنه ، فجعل بعضها يبساً ، وبعضها ماء . والماء بعضه حلو وبعضه مر . وجعل بين البحرين حاجزاً لمصلحة العباد ، ورحمة بهم كما قال سبحانه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ (٥) بين الملح والعذب برزخ من اليابس فلا يبغي الملح علىٰ العذب، ولا العذب علىٰ الملح . فيظل كل منهما في مكانه محتفظا بخواصه لمصلحة العباد ومنفعتهم .

أما عند قيام الساعة يفجر الله اليبس حتىٰ يختلط الملح بالعذب ، فلا يصلح لبقاء العالم ، وينتهي اليبس الذي كان يعيش عليه الناس . تنشق الأرض وتتفجر منها المياه . ويصير الكل مالحاً .

---

(١) سورة الانفطار ، الآية : ١ .

(٢) سورة الإنشقاق ، الآية : ١ .

(٣) سورة الإنفطار ، الآية : ٢ .

(٤) سورة الإنفطار ، الآية : ٣ .

(٥) سورة الرحمن ، الآية : ٢٠ .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ (١) بعث ما فيها من الأموات وأخرج ما فيها من الكنوز ويصبح ما في باطنها ظاهراً على سطحها . ويبعث العباد أحياءً بعد أن ماتوا ، والله قاد على كل شيء . عند ذلك تعلم كل نفس ما قدمت من أعمال وما أخرت من خير وشر . من خير فعلت تثاب عليه ، ومن شرتركت تثاب عليه . ومن خير تركت وشرفعل فتعاقب عليه . أو ما قدمت من أعمال وصدقات . وما أخرت من تركات وأموال .

وفي هذا اليوم تتطايرالصحف ، كل أحد يأخذ صحيفة أعماله إما بيمينه أو بشماله . فيفرح أهل الخير ويهنأ بعضهم بعضا . أما الأشقياء فيتمنوا ألا يكونوا قد خلقوا ، وكانوا يتمنون ألا يكونوا قد بعثوا . وألا يكون هناك حساب ، ولا عذاب، ولا نعيم . هذا هو الأمر الأول . وهي أحداث تقع عند قيام الساعة ، وعلم كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وما قدمت وأخرت من خير أو شر عندما تتناول صحيفتها باليمن أو بالشمال .

الأمر الثاني : هو أنه ليس هناك من الله جل شأنه لا من صفاته ولا من أفعاله ما يغتر به المرءحتى يكفر بنعمة الله ، وحتى يخرج من دينه ويتعدى حدوده . بل هناك ما يوجب على العبد أن يقومّ أخلاقه وأن يستقيم على الشريعة التي بعث الله بها رسله صلى الله عليهم وسلم يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (٢) يعني أي شيء غرك بربك الكريم ، والكريم شأنه أنه حكيم في عطائه وفي منعه ، لا يعطي إلا من يستحق العطاء أو كانت الحكمة والمصلحة في اعطائه . ولا يمنع إلا ما كانت الحكمة في منعه . هذا هو الكريم .

---

(١) سورة الإنفطار ، الآية : ٤ .

(٢) سورة الإنفطار ، الآية : ٦ ، ٧ .

أما السفيه : الذي لا حكمة عنده فقد يحسن إلىٰ المسيء فيعطيه ، وقد يسيء إلىٰ المحسن فيمنعه ، فعمل السفيه وتصرفه لا يستند إلىٰ علم بالمصلحة ولا يستند حكمة في العطاء والمنع . ولكن الله عز وجل كريم وحكيم وعليم ومن حكمته أنه يضع كرمه في أهل طاعته ، وأن يضع عقوبته في أهل معصيته ، فكرمه سبحانه وتعالىٰ ليس سبباً ولا ينبغي أن يكون سبباً في غواية الناس وضلالهم بل يجب علىٰ العباد أن يشكروه وأن يعبدوه وحده لا شريك له . وأن يتجنبوا معصيته شكراً له سبحانه وتعالىٰ علىٰ جوده وكرمه الذي أكرمهم به ، فقد خلقهم في أحسن صورة وفي أحسن تقويم وكرمهم كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[١] .

فمقتضىٰ أن كرَّمهم أن يستقيم العباد علىٰ شريعة الله التي بعث بها رسله . فإن مصلحتهم في ذلك ، وفي ذلك سعادتهم وهدايتهم وكان مقتضىٰ كرمه أن يستقيموا علىٰ شرعه سبحانه ، وأن يسلكوا سبيل طاعته . قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [٢] خلقهم فعدلهم فصاروا في أكمل هيئة وأحسن تقويم قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [٣] تناسق وتكامل بين الأعضاء والأجهزة ، وفكر وعقل يميز بين الطيب والخبيث ، بين الخير والشر ، ثم شريعة تكمل إدراكه وتميزه بين ما ينفعه وبين ما يضره ، هذا كله إحسان منه سبحانه وتعالىٰ إلىٰ خلقه ، وإلىٰ عباده ، وكان مقتضىٰ هذا الإحسان الشكر والإمتنان ، لا الجحود والنكران .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[٤] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠ .

(٣) سورة التين ، الآية : ٤ .

(٤) سورة الإنفطار ، الآية : ٦-٨.

ثم ذكر الله جل شأنه **الأمر الثالث** وهو أن كثير من العباد كذب باليوم الآخر وكفر به ، بدلوا نعمة الله كفرا ، مع أن الله جل شأنه قد ذكرهم في كتابه وعلى ألسنة رسله بأنه جعل عليهم ملائكة كرام كاتبين يكتبون ما يفعلون ، يكتبون عندهم في صحف ويسجلون فيها الحسنات والسيئات زيادة على علم الله المحيط بما كان وما لم يكن وما سيكون ، ومحيط بأعمالهم وأحوالهم . فعلمه محيط وهو مطلع وشاهد على ما ظهر منهم وما خفي وكان هذا كافيا ،ومع هذا رتب ملائكة يكتبون ويسجلون أفعال العباد وما عملوا من خير وشر كما قال الله تعالى : ﴿ كلا ﴾ وهي كلمة زجر تزجرهم عن الإغترار بكرم الله سبحانه وتعالى ، وأن إقرارهم بكرم الله سبحانه وتعالى يوجب عليهم عكس ذلك . فكأنه يقول انزجروا عن اغتراركم بربكم .

ثم انتقل سبحانه وتعالى إلى الإخبار عن تكذيب بعض الناس بيوم القيامة مع وجود ما يمنع من هذا التكذيب فيقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[١] هم يكتبون عن بينة وعن بصيرة . كما قال تعالى :

في آية أخرى في سورة ق والقرآن المجيد ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٢] ما يلفظ أي إنسان من قول يتكلم به إلا لديه وعنده ملك رقيب يراقب أعماله ، أعمال الخير ، وملك أخر يراقب أعمال الشر و عتيد يعني دائم . وفي هذا ما يدعو العبد إلى الإبتعاد عن المعاصي والشر ، ويدعوه إلى الإقبال على ما يرضي الله ربه تبارك وتعالى .

والأمر الرابع وهو إنقسام الناس إلى فريقين أبرار وفجار ، أهل نعيم وأهل جحيم وهذا في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[٣] .

---

(١) سورة الإنفطار ، الآية : ١٠-١٢ .

(٢) سورة ق ، الآية : ١٨ .

(٣) سورة الإنفطار ، الآية : ١٣ ، ١٤ .

الأبرار هنا كلمة جامعة تشمل كل من آمن حتىٰ من ارتكب بعض المعاصي من المؤمنين . فهم ناجون وفائزون حتىٰ وإن كان منهم من يعذبون علىٰ معاصيهم ، إلا أنهم لا يخلدون في نار جهنم ،بل يغفر الله لهم ويرحمهم ويشفِّعُ فيهم الشافعين .

المقصود أن الأبرار كلمة جامعة لأهل الإيمان الذين قسمهم الله في السور الأخرىٰ إلىٰ قسمين . فتشمل كلمة الأبرار أصحاب اليمين والسابقين المذكورين في سورة الواقعة .

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ هذا قسم الكفار الذين يدخلون النار في أول الأمر ، ويصلون سعيراً ، وييأسون من الخروج من جهنم ، لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ،بل يخلدون فيها أبد الآبدين .

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (١) يوم القيامة ذلك اليوم الذي لا تصريف لأحد في شيء ، أما في الدنيا فالناس يتصرفون في بعض الأمور بما شاء الله وأذن لهم . أما يوم القيامة فلا تصرف لأحد في شيء ولا ملكية لأحد في أمر بل التصريف لله وحده لا شريك له .

ومعنىٰ يصلونها يعني يقاسون عذابها وسعيرها وشدائدها وأهوالها وما فيها من بلاء وعذاب .

﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم يدين الله كل نفس بما كسبت ، ومعنىٰ يدين يعني يحاسب ويجازي .

قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ (٢) يعني لا يخرجون منها ولا يقبل منهم فدية ولا عذر . فالفجار لا يغيبون عنها . ثم هول وفخم أمر يوم القيامة فقال

---

(١) سورة الإنفطار ، الآية : ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة الإنفطار ، الآية : ١٦ .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١) يقول الله أنت لا تستطيع أن تتصور وتتخيل مافي يوم الدين من الأهول العظام والشدائد والفزع، يوم يعطى كل ذي حق حقه . أنت لا تستطيع أن تحيط بكل ما فيه من دقائق وتفاصيل . والذي يعلم حقيقته وتفاصيله ، وما فيه إنما هو الله وحده لا شريك له ، ثم بين الله جل شأنه أن الإحاطة به وتصريف الأمور يومئذ أمر مختص به .

يقول ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (٢) لله وحده لا شريك له . الله يذكرنا بأهوال يوم القيامة من بدء تخريب العالم إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . وأنه وحده هو المتصرف في هذا اليوم لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، بل الكل خائف ومشفق حتى أعظم الخلق جميعا هو رسول الله ﷺ عندما يريد أن يشفع عند الله لصرف الناس من الموقف وهوله إلى مستقرهم ومثواهم ، وعندما يريد أن يشفع هذه الشفاعة يذهب فيسجد تحت العرش معلنا العبودية لله وحده لا شريك له ، ليبين للناس أنه لا يشفع بحوله وقوته ﷺ ، إنما يشفع بذله وخضوعه وعبوديته لله سبحانه وتعالى ، ثم تكون الشفاعة بعد إذنه ومشيئته سبحانه وتعالى . وفي هذا تكريم للنبي ﷺ ، حيث يقبل شفاعته ويجيبه إلى طلبه فيرحم العباد ويبدأ الحساب .

فهذا خير خلق الله ﷺ عندما يأتيه أهل الموقف ليشفع بعد أن يكونوا قد ذهبوا قبله إلى آدم وإلى أولي العزم من الرسل . عندما يأتي أهل الموقف رسول الله ﷺ ليشفع فيهم ويقول أنا لها ، أنا لها ، مع هذا يسجد تحت العرش إعلانا وإظهاراً للعبودية ، ثم يثني على ربه ويمجده ، ويحمده بمحامد تفتح عليه وقتئذ . ولا يرفع رأسه حتى يقول الله ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعط وعند ذلك يبدأ في الشفاعة (١) .

---

(١) سورة الإنفطار ، الآية : ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة الإنفطار ، الآية : ١٩ .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٦٥٦٥) ، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

موقف العباد أمام ربهم يوم القيامة موقف العبودية والذل والخضوع له سبحانه . فلا يملك الشفاعة عند الله أحد من العباد إلا بعد مشيئته ، فهو سبحانه لا شريك له ، هو الذي يملك الشفاعة ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [١] . ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [٢] هذا هو الحال الذي يكون عليه العباد يوم القيامة فالله سبحانه وتعالى يذكرنا بيوم القيامة في كثير من الآيات والسور في القرآن الكريم .

من وقت لآخر يذكرنا به بأمور نعيشها ونمارسها في أمور حياتنا ومعيشتنا . فالنار التي نشعلها لكي ننتفع بها في الدنيا هذه النار تذكرنا بيوم القيامة ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [٣] .

فلو أن الناس كلما شاهدوا النار أو أشعلوها تذكروا نار الآخرة ، وتذكروا أن نار الآخرة أضعاف أضعاف نار الدنيا وأن نار الدنيا هي فقط رمز لنار الآخرة ونار الآخرة فوقها بمراحل ومدد لو تذكر الناس هذا لحيت قلوبهم ولكان ذلك من خير الوعظ والتذكير لهم .

كذلك الله سبحانه وتعالى يأتينا بألوان من الحر والبرد ، فالحر يذكرنا بحر جهنم والبرد يذكرنا بالزمهرير الذي يكون في جهنم أيضاً . ففي جهنم يعذب بعض الناس بالزمهرير والبرد ، وما بردنا في الدنيا الذي نستعد له في الشتاء بشيء في مقابل حرارة جهنم وبرد الزمهرير يوم القيامة . هذه أيضا من المذكرات التي يرسلها لنا أو وضعها لنا في الكون الذي نعيش فيه . فيجب علينا أن نتدبر آيات القرآن وأن نتعظ بالآيات الكونية التي تذكرنا بيوم القيامة .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .

(٣) سورة الواقعة ، الآية : ٧١-٧٤ .

ومن ذلكم المرض الذي يشرف به الإنسان على الموت ، ثم يتراجع عن معاصيه ، ويعطي الله العهود والمواثيق بأن يطيع الله ولا يعصيه ، لكنه بعد أن يعافيه الله ، ويشعر بالقوة يرجع إلى ما كان عليه من المعاصي والتفريط في الطاعات .

المذكرات كثيرة منها الكوني ، ومنها الشرعي القولي ، ومنها الخطب والمواعظ وغيرها ، ومع ذلك نجد كثيراً من العباد يرتكس في المعاصي ويفرط في الطاعات وفي أوامر الله سبحانه وتعالى .

فيجب علينا معشر الإخوة أن نتدبر الآيات الكونية والآيات الشرعية عسى أن نستقيم على الطاعة وعسى أن نجد فيها لذة تدفعنا إلى المزيد منها وصلى الله وسلم على سيدنا محمد . والحمد لله رب العالمين .

٥ـ آيات من سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وبارك على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد . .

فأنصح نفسي وإخواني بقول الله جل شأنه ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (١) .

وفي هذه الآيات ذكر الله عز وجل ثلاث موضوعات :

الأول : النصح للإنسان وارشاده إلى ما ينفعه في دنياه وفي أخراه .

الثاني : التذكير بطبيعة الإنسان وتحليل هذه الطبيعة الإنسانية .

الثالث : أن هذا الموضوع الأول وهذا الموضوع الثاني هما من الأمور المتقدمة في الكتب التي أنزلها الله على خليله إبراهيم عليه السلام ، وعلى عبده وكليمه موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام . وأنزل تقريرهذا أيضا في القرآن الكريم الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ .

أما الأمر الأول : فالله جل شأنه أخبره أن الفلاح والفوز ملازم تمام الملازمة ، ومتقرر في حكم الله تعالى لمن تزكى وتطهر من الشرك والمعاصي ، ونمى أعماله الصالحة بتقوى الله جل شأنه ، فعلا لما أمر الله به سبحانه ولما أمر به رسوله ﷺ ، وبعداً عما نهى الله سبحانه وتعالى عنه وبعداً عما نهى عنه رسوله ﷺ . وذكراً لأسماء الله جل شأنه وما له من العظمة والوقار . فذكر أسمائه جل علاه يورث في القلب إيمانا وجلالا وهيبة تنبع من المعاني التي يفهمها العبد من ذكر هذه

---

(١) سورة الأعلى (١٤ـ١٩) .

الأسماء المقدسة وإستحضارها في نفسه . فذكر العبد لبعض أسمائه مثل اسمه الرحمن ، والرحيم ، واسمه العليم والحكيم ، والغفور والودود وغيرها من هذه الأسماء تملأ قلب ابن آدم بالخير والطاعة والإقبال على الله .

ومن ذكر اسم الله الجبار ، وذكر اسم الله المنتقم وتيقن أنه سبحانه شديد البطش ، وشديد العقاب ، وأدار في خاطره آثار هذه الأسماء في الخلق ، وفي الناس سابقهم وحاضرهم ، واستحضرما في هذه الأسماءمن معنى الجبروتية والعقوبة لكل من خالف أمره ، فإن قلب العبد يمتلأ هيبة وخوفاً ، وخشية من ربه سبحانه وتعالى فيدفعه ، هذا الذكر لأسمائه التي فيها معاني الرحمة واللطف والإحسان والمغفرة والعطف للإنسان يدفعه إلى محبة الله والإقبال على طاعته وحده سبحانه وتعالى .

وذكْر الإنسان لأسماء الله التي فيها معنى الجبروتية والإنتقام والبطش ، ذكر الإنسان لهذه الأسماء ولهذه المعاني يملأ قلب العبد خوفاً وذلا لله عز وجل .

فالمحبة والخوف الذان يتولدان من معرفة أسماء الله هما ضروريان لاستقامة العبد وطاعته لربه وبعده عن معصيته .

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ قد أفلح وفاز من تزكى وتطهر من الشرك ورواجس الشرك . وزكى نفسه أيضا بإلزامها بالطاعات والقربات . وزكى نفسه أيضا ونماها بذكره لأسماء الله فلما فعل هذا وهذا صلى لله الفرائض وصلى لله النوافل . فقوله تعالى : ﴿ فَصَلَّى ﴾ تشمل كل أنواع الصلوات من فرائض ونوافل ورتب ذلك على ذكر الإنسان لربه لأن الذكر إذا تشبعت به النفس ، وخالطت بشاشته القلب أثمر هذه الثمرة المباركة . وهي الإقبال على الطاعات التي من أهمها الصلوات فرضاً ونفلاً .

أما الأمر الثاني فهو تحديد طبيعة الأنس ، وبيان السنة الكونية في إقبال الناس

على الدنيا أكثر من إقبالهم على الآخرة وأكثر من إقبالهم على العمل للآخرة. يقول الله تعالى في هذا ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ بل تقدمون الأعمال التي تكسبكم مالا ونفعا دنيويا عاجلا وجاها ووجاهة ومناصب في الدنيا تقدمون هذا وتؤثرونه وتولونه جل إهتمامكم وتبذلون فيه معظم سعيكم وجهدكم ، وتهملون العمل لما ينفعكم في الآخرة من الأعمال الصالحات وترك المنكرات هذه هي طبيعة الناس . والواقع يصدق هذا ، وكلام الله حق وصدق ولا يحتاج إلى برهان ليدل على صدقه فواقع الناس هو على وفق ما قال الله ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

فإذا نظرنا في واقع الناس وجدنا أكثرهم كافراً . ويقول الله جل شأنه ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ثم إذا نظرت في واقع المؤمنين وجدت أن الإنحراف قد دخل على الكثير منهم وخاصة في عهدنا ، ولا ندري ماذا سيكون بعد عهدنا . ربما يكون انحرافهم أشد وأخبث . المقصود أن فيمن يؤمن بالله واليوم الآخر انحراف عن طاعة الله ، وتقصير في أداءالواجبات من الصلوات والزكاة وغيرها من أنواع القربات وفيهم جرأة على معاصي الله ، والتشبه بأعداء الله وبمن غضب الله عليه ولعنه ، في ملبسهم ومطعمهم ومشربهم وغيرذلك من أمورهم ، وتفكيرهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وفي المسلمين كذلك من يعرض عن هدي النبي ﷺ وشرعه في كثير من التصرفات والسلوكيات والأخلاقيات اليومية .

فالأسماء إسلامية ، والسلوكية بعيدة عن الإسلام وهذا مصداق لقول الله جل شأنه﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ثم حث الله جل شأنه على العمل للآخرة فقال ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فالواجب على المسلمين أن يجهدوا أنفسهم في العمل للآخرة . إذ خيرات الدنيا ومتعها قليلة إلى جانب ما في الآخرة من النعيم المقيم .

---
(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠٣ .

ثم إن متع الدنيا زائله فانية ومتع الآخرة ونعيمها مقيم ، ومتع الدنيا وملذاتها تشوبها التكدير والتنغيص ولا يصفو فيها عيش لأحد مهما كان من أمره وأمر ما يملك من وسائل الملك ونعيم العيش ، لابد وأن يعتريه التكدير أما نعيم الآخرة فسيكون خاليامن الكدر ، خالصا من المنغصات .

ثم إن متع الدنيا وملذاتها مع كونها زائلة وفانية ومصحوبة بالكدر والتنغيص في كل أحوالها كسبا وإستعمالا واستمتاعاً ، فإنه يعقبها الحساب والتقصي على كل صغيرة وكبيرة منها . ولابد من جزاء ثوابا أو عقابا على هذه المتع والملذات كما قال سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1] وقال ﷺ « **لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وماذا عمل في علمه** »[2] .

وهذا تحليل لطبيعة الإنسان وبيان لما يجب أن يكون عليه الإنسان في دنياه ، وما يجلب له السعادة والخير في دنياه وأخراه ، فيسعد في الحياة الدنيا باتباعه لشريعة الله ، ويسعد السعادة الأبدية في أخراه . فيقول تعالى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ . والأخرة خير وأبقى فينبغي أن يكون حال المسلم عكس ما هو عليه حال الناس فيجب أن يصرف همته للعمل من أجل سعادته في الأخرة ، وإن عمل شيئا لأمر دنياه يحسن فيه النية وأنه إنما يفعل ذلك للإستعانة به على طاعة الله وتنفيذ الأوامر . والتقرب إلى الله عز وجل بما كسب وحصل من أمور الدنيا ، فينوي بكسبه عفة نفسه وأولاده عن الإحتياج والسؤال والمذلة لغير الله تعالى .

فإن العبد إذا أحسن النية وقصد قصداً طيباً في عمل المباح فإنه يتحول بالنية

(١) سورة التكاثر (٨) .

(٢) حديث حسن لغيره رواه الترمذي (٢٤١٨) بإسناد ضعيف عن ابن مسعود وله شاهد باسناد حسن رواه الترمذي (٥٤١٩) من حديث أبي برزة الأسلمي .

إلىٰ قربة وطاعة وعمل صالح والنبي ﷺ يقول « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى** »(١) .

وأما القضية الأخيرة فهي بيان إلىٰ أن هذا الحكم الذي ذكره الله جل شأنه في هذه الآيات ليس حكما خاصا بهذه الأمة وإنما هوحكم متقرر أنزله الله في الكتب الماضية . وقرره الله أيضا في كتابه الذىٰ أنزله علىٰ رسوله محمد ﷺ فهذه سنته التي لا تتبدل ولا تتغير في تشريعه وفي حكمه . وقضاءه الشرعي ﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى** ﴾ أي أن ما ذكر من الأخبار والأحكام التي تُليت في هذه الآيات في الصحف الأولي . ما هي ؟ هي تلك الصحف التي أنزلها الله علىٰ رسوليه ابراهيم الخليل عليه السلام وصحف موسىٰ بن عمران عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام وهي التوراة .فهي عظات وعبر قد تقررت في القديم والحديث من الشرائع ـ وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١) وفي غير موضع . ومسلم (١٩٠٧) .

٦ـ تفسير مختصر لسورة الكوثر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾(١) .

هذه السورة أنزلها الله جل شأنه على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حينما رماه قومه المشركون بأنه أبتر ، وذلك أن الله جل شأنه ابتلاه في أولاده الذكور فماتوا جميعاً ؛ فقالوا : إنه أبتر لإنقطاع نسله ، وكانوا يعتبرون الذكور هم النسل ، وهم الأساس ، وهم العصبة ، الذين يحيون ذكراه بعد وفاته ، والذين قالوا هذا عدةٌ من كبار المشركين ووجهائهم كأبي لهب ، والعاص بن وائل، وكعب ابن الأشرف وغير هؤلاء ، القصد أنهم جملة اتفقت كلمتهم على أن ذكرى رسول الله ﷺ ستموت بموته لأنه لم يعش له ابن بل ماتوا جميعاً ، فالله سبحانه وتعالى كذبهم في هذا ، وبشره بأنه قد أعطاه فضلاً منه وإحساناً وأعطاه الخير الكثير الذي منه الكوثر ، الذي أخبر به رسوله ﷺ ، وورد على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام ذكره في الأحاديث الصحيحة . ومنها النبوة ، ومن ذلك ذكره عليه الصلاة والسلام في الأذان والإقامة ، وذكره بالرسالة كذكر الله سبحانه وتعالى بالوحدانية ، وأعطاه غير ذلك من الخيرات التي لا تحصى ولا تعد، منها ما عجله له في الدنيا من نصروتأييد وكثرة أتباع ، وانتشار دينه وبقائه حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فكذبهم بما أعطاه من البُشرَيات العديدة العاجلة والآجلة ، وأمره أن يشكر هذه النعمة بإخلاص العبادة له فلا يُصلى إلا له ، ولا يُنسك النسك إلا له وحده لا شريك له ، ولا يُذبح إلا له سبحانه وتعالى مخلصاً له القربات ، وبين له أيضاً أنه إلى جانب هذه البشريات وإلى جانب ما

---

(١) سورة الكوثر ، الآيات : ١ـ٣ .

أمره به من الشكر وإخلاص القربات له ، بين له أن أعداءه وخصومه هم البُتر الذين تنقطع ذكراهم ويخسرون الدنيا والأخرة .

فأما البشرى بالخير الكثير في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فالكوثر هو الخير الكثير ، ومنه الحوض المورود الذي يعطاه النبي ﷺ يوم القيامة ، وأما الشكر على نعمة هذه البشريات التي بشره الله بها فقد تضمنتها الآية الوسطى من هذه الآيات الثلاث في قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ، أما النعمة الكبرى التي أنعم عليه فهي العقوبة التي عاقب بها خصومه من أبي جهل ، وأبي لهب ، والعاص بن وائل ، وكعب بن الأشرف ، وما إلى أولئك من عقبة بن أبي معيط وأمثالهم من الذين جرت على ألسنتهم هذه الكلمة الردية الخبيثة من أنه سينقطع ذكره بوفاته ، فذكر الله جل شأنه أن شانئه ومبغضه هو الأبتر المنقطع ذكره في الدنيا الخاسر في الدنيا ، والأخرة فقال : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ ، فالأيات ؛ آية بالبشرى بالخير ، وآية فيما أوجبه الله عليه من الشكر بالإخلاص في القربات له سبحانه وتعالى وهي قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ، والآية الثالثة هي : ما أصيب به خصومه من الذكر بعد وفاتهم وخسرانهم الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ ، وهذا أمر عام وسنة الله في خلقه أن القائم بالحق ينصره الله تعالى ، ويبقي ذكراه وإن لم يكن له أولاد . والذكرى المعتبرة ما كان سببها الصلاح في الدنيا وتؤدي بصاحبها إلى السعادة في الآخرة . الصلاح في الدنيا ظاهراً وباطنا ، عقيدة وعملا . وتكون نتيجتها السعادة العاجلة والأجلة .

٧ ـ : فتاوى التفسير

س ١ : سئل الشيخ : عن تفسير قوله تعالي : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ (١) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : أي توفيقها ، ولو حرف امتناع لا متناع ، أى امتنع إيتاء الله كل نفس هداية التوفيق لا متناع مشيئته ذلك ، فالمراد بالهداية التي لم يشأ الله أن يؤتيها لكل النفوس هي هداية التوفيق والإسعاد وليست هداية التبيين والإرشاد .

س ٢ : سئل الشيخ :عن قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٢) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هو يخلف العباد ولا يخلفه أحد ، وقوله ﴿ **خلائف الأرض** ﴾ بعضكم يخلف بعضاً .

س ٣ : سئل الشيخ :عن قوله تعالى ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ... ﴾ (٣) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : جلد الإنسان الذي يطيع الله تعالىٰ يموت ويتجدد جلدٌ غيره بخلايا أخرىٰ في أثناء حياة الإنسان فكذلك العصاة يبدلهم الله تعالىٰ جلوداً من هذا النوع ولو لم يعصوا الله تعالىٰ فيها ثم إن الخوض في ذلك تدخل في شأن الله تعالىٰ لا يجوز ، وسوء أدب من العبد أن يتدخل في شأن الله الخاص به .

س ٤ : سئل الشيخ : عن قوله تعالى ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٤) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : خلق الإبل غريب ومأخوذ منها طريقة بناء المساجد علىٰ صورة القبة بلا أعمدة كجامع السلطان حسن بمصر والمقصود بالنظر وهو

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ١٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٥٦ .

(٤) سورة الغاشية ، الآية : ١٧ .

وسيلة إلى الفكر كبقية أبواب الحس ، كالحواس الخمسة .

س ٥ : سئل الشيخ : عن الفرق بين الكفر والفسوق والعصيان في قوله تعالى : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ (١) ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : الإنسان مفطور على الخير بحيث أنه إذا لم تؤثر فيه البيئة اختار الخير لحديث : « **كل مولود يولد على الفطرة** » (٢) وحديث : « **إني خلقت عبادي حنفاء كلهم** » (٣) وهو شامل لفطرته على الخير في الجسم والخلق والعقيدة ولا يعارض قوله تعالى ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٤) ؛ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (٥) لأن هذا طارئ بدليل قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (٦) .

س ٦ : سئل الشيخ : عن معنى حديث : « أبى الله أن يجعل لقاتل مؤمن توبة » ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : دلَّ القرآن على أن للقاتل توبة في سورة الفرقان قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾(٧) إلى قوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ... ﴾ (٨) الآيات .

ولكن حق المقتول لا يسقط إلا بعفوه أو أخذه بحقه يوم القيامة من حسنات القاتل . أما حق الله فتنفع فيه التوبة وحق أولياء الدم تنفع فيه الدية .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٧ .

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٩٠) رقم (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) ، وأحمد (٤ / ١٦٢) .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٥٣ .

(٥) سورة الحزاب ، الآية : ٧٢ .

(٦) سورة التين ، الآيات : ٤ ـ ٥ .

(٧) سورة الفرقان ، الآية : ٦٨ .

(٨) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

س ٧ : سئل الشيخ : عن معنى الآية : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾[1]؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هو الطفل غير المميز الذي لا يعرف الحسن من القبيح ، ولا يعرف ما تعاب به المرأة وما يستحسن منها ويكون الطفل كذلك غالباً قبل سن السابعة .

س ٨ : سئل الشيخ : عن الاستئذان المذكور في سورة النور ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : الاستئذان المذكور في سورة النور للمحارم وللأجنبي من باب أولىٰ ؛ لأنه أفحش .

---

(١) سورة النور ، الآية : ٣١ .

رابعاً

الحديث النبوي

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ شرح حديث الحلال بيّن والحرام بيّن

يقول الرسول ﷺ : « **إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع في الشبهات يوشك أن يقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » (١) .

في هذا الحديث يقسم الرسول ﷺ الأشياء وأعمال الناس ثلاثة أقسام : **قسم بين حله** وواضح أنه من الحلال لصراحة الدليل الذي يدل على حله ، ولحسن فهم الإنسان ، وحسن تطبيق الإنسان .

وقسم آخر يتبين أنه محرم لصراحة الأدلة التي تدل على تحريمه مع حسن تطبيق الإنسان لما فهمه من الدليل على ما يأتيه من أعمال أو يحدثه من أعمال .

وقسم ثالث دائر بين الحلال والحرام ولا يتضح لأي قسم منهما ينتمي لخفاء الدليل الذي يدل عليه ولغموض فيه ، إما آية فيها إجمال وإما حديث فيه إجمال فيشتبه أمر فهمه على من يبحث فيه ، وعلى من اطلع عليه قراءة أو سماعاً فيشتبه أمره عليه فلا يدري هل هذا يدل على الحل ، أم هو يدل على الحرمة فمن أجل الاشتباه لم يعرف الناظر فيه أنه من قبيل الحلال الصرف أو من قبيل الحرام الصرف ، أو عرف الحكم إلا أنه اشتبه عليه أمر في التطبيق ، فعند التطبيق لم يدر عن هذه الجزئية هل تنطبق عليها قاعدة الحلال أو تنطبق عليها قاعدة الحرام . فمن أجل ذلك جاء الاشتباه .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٢) . ومسلم (١٥٩٩) . وأبو داود (٣٣٢٩) والترمذي (١٢٠٥) . وأحمد (٤/ ٢٦٧ ، ٢٦٩) كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

هذه هي القسام الثلاثة : فما وضح حله أمره بين ، ويجوز للإنسان أن يقدم عليه . وما وضح تحريمه لا يجوز للإنسان أن يقدم عليه ، أما ما اشتبه أمره فهو موضوع هذا الحديث الذي ذكرنا عن رسول الله ﷺ .

وقد ذكر فيه العلماء أراء فمنهم من يقول : إن الذي اشتبه أمره من أعمال الناس أو من الأحكام هو الذي اختلف فيه العلماء فمنهم من أباح ومنهم من منع . أو هو خلاف الأولى ، أو هو المكروه .

وكما ذكرت لكم أن المشتبه يرجع إلى اشتباه الدليل وغموضه أو الإجمال فيه ، أولا يرجع إلى فهم الحكم لكن الاشتباه وقع في التطبيق ، فعند التطبيق تشتبه عليه مسألة أو جزئية هل تندرج في الحلال أم تندرج في الحرام . ومثال ذلك : المداينات العشر أحدى عشر هل هذه الجزئية من المبايعات من قبل الربا المحرم كما يقول بهذا كثير من العلماء أو جمهور العلماء والفقهاء ، أو هي من البيع لأجل .

وكذا المداينات المعروفة أن الإنسان قد يأخذ صفقة من شخص لا يريد من الصفقة أن يستهلكها لنفسه ، إنما يريد من ورائها أن يأخذ مبلغا من المال لينتفع به ، فيأخذ الصفقة ويعدها ويعتبر عدها وهي محلها قبضاً ثم يأخذ عنها ثمنا من صاحب المحل . هل هذا يعتبر ربا ؟ أو يعتبر بيعا . فكثير من الفقهاء يراه ربا . وأن القصد إنها حيلة إلى دفع القليل ليأخذ الكثير . وأخذ القليل ليدفع عنه كثيراً ، فهو بيع ذهب بذهب أو فضة بفضة إلا أنهم جعلوا بين هذا وهذا سلعة يسميها ابن عباس حريرة . فليس المقصود الصفقة ، إنما المقصود بيع فضة بفضة أكثر منها أو ذهب بذهب أكثر منه ، أو ورق من الأوراق التي تمثل الفضة أو الذهب مثل النقود ، بيع القليل منها بالكثير ، أما الصفقة فاعتبرت حيلة من الحيل يتوصل بها إلى أخذ الكثير عن القليل والمعاوضة بالكثير عن القليل ، ويكون هذا من باب الربا . فهذا مما اختلف فيه الفقهاء . والاختلاف فيه اختلاف في

التطبيق. تطبيق نصوص الربا على هذه الصورة . فهم اتفقوا على أن الربا محرم إلا أن هذه الجزئية هل تدخل في قبيل الربا ، أو تدخل من قبيل المبايعات والالتزام بالصفقات فهو من باب البيوع ، بيوع السلع ، أم هو من باب بيوع نقد بنقد .

هذا مما اختلف فيه الفقهاء في التطبيق مع الإتفاق على أن الربا محرم وأنه لا يجوز بيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا مثلا بمثل يداً بيد ، لكنهم اختلفوا من جهة التطبيق لا من جهة التقسيم والدليل ، فينبغي للإنسان أن يتجنب مثل هذا وأن يتقي موضوع الاشتباه حتى لا يقع في الحرام الصحيح ، لإجترائه على الحرام المختلف فيه . وفي هذا ينصحنا الرسول ﷺ بقوله : « **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه** » فقد إستبرأ لدينه بالبعد أي طلب التنزيه لدينه ولعقيدته ولعمله ، ببعده عما اشتبه عليه هل هو من قبيل الحلال أمن قبيل الحرام .

ومثال آخر على المتشابه أو المشتبه ، الإنسان إذا اشتبه في امرأة هل رضاعه معها وصل إلى درجة التحريم ، أو دون درجةالتحريم فهي حلال له . هذا اشتباه في التطبيق أيضاً . هل الرضاع حصل ولا بد. هل بلغ عدد الرضعات خمس رضعات فتحرم أو لم يبلغ فتكون حلالا . فالخير والورع أن يتقي هذه الجزئية وأن يتزوج بغيرها من النساء وهن كثيرات والحمد لله ، ولن يعدم امرأة أخرى تتفق مع حاله وتكون صالحة دينية أيضا . وبعده عن هذه المرأة التي اشتبه حالها هو عمل بوصية رسوله ﷺ « **فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه** » فهو في تركه لهذه المرأة استبرأ لعرضه وطلب لنزاهة دينه .

ومن هذا أيضاً ، الاختلاف في العدة للمطلقة هل هي ثلاث حيضات أو هي ثلاث أطهار ؟

انقسم أصحاب المذاهب الأربعة إلى قسمين : المالكية والشافعية يقولون إن العدة ثلاثة أطهار فإذا مضى الطهر الذي طلقها فيه ، ثم الطهر الذي بعده ، ثم دخلت في الطهر الثالث يقولون إنها حلت للأزواج بمجرد أنها تدخل في الطهر

الثالث .

الحنابلة والحنفية يقولون : إن المراد بالقروء في القرآن في قوله تعالىٰ : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (١) المراد بها الحيض فإذا طلقها في الطهر ثم حاضت حيضة ، ثم طهرت ، ثم حاضت الحيضة الثانية ، ثم طهرت منها ، فلا تحل بالطهر الثالث حتىٰ ترىٰ الحيضة الثالثة . فرعاية الخلاف بين العلماء ورعاية الاحتياط في الفروج ، وفي الزواج ينبغي له أن يمشي علىٰ مذهب الحنفية والحنابلة فلا يتزوج المرأة المطلقة حتىٰ ترىٰ الحيضة الثالثة بعد طلاقها . وهذا أبعد أمد تكون بعد حلالا علىٰ المذاهب كلها . ولا يختلف مسلم مع آخر أنها بعد الحيضة الثالثة يحل العقد عليها والزواج بها . والأخذ بأبعد أمد أبرأ للدين والعرض وأبعد عن ارتكاب الأمر المشتبه وأخذ بنصيحة النبي ﷺ في قوله : «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**» . ومن هذا الباب ما ثبت أن النبي ﷺ كان يسير في طريق فوجد تمرة فأخذها ومسحها وأبىٰ أن يأكلها ، عف عنها ﷺ ، وقال لأصحابه : «**كلوها فلولا أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها**» (٢) هذه التمرة في الأصل مجهولة هل هي من الصدقات أم لا ؟ ولكن هذا احتياط وورع من النبي ﷺ ، فلم يأكلها خشية أن تكون من الصدقة .

ومن باب الإحتياط والورع ما حكاه النبي ﷺ : «**أنه اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة ذهب ، فقال الذي اشترى العقار للرجل الذي باع العقار : خذ ذهبك إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب. وقال الذي باع العقار : إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذي تحاكما إليه . ألكما ولد ؟ قال أحدهما :لي غلام وقال الآخر : لي جارية ، قال :**

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٨ .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٥٥) ، (٢٤٣١) . ومسلم (١٠٧١) وأحمد (٣/ ١١٩ ، ١٣٢) . وأبو داود (١٦٥١) كلهم من حديث أنس رضي الله عنه .

أنكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا عليهما منه وتصدقا » [١] فكلا الرجلين تورع عن أخذ المال والإنفاق منه لأنه حصلت شبهة في هذا المال هل هو حلال لأحدهما أم حرام، فما كان من الرجلين إلا أنهما ابتعدا عن المال حتى حكم فيه هذا الحكم بهذا التصرف في هذا المال ، ومن وقع في الشبهات يوشك أن يقع في الحرام ، من وقع فيما ارتاب فيه ،واجترأ على ذلك ، ولم يبال بذلك ، يوشك ويقرب أن يجترأ على المحرم فيقع فيه ، وهذا دليل على وجوب سد الذرائع والطرق الموصلة إلى الحرام . وقد قال رسول الله ﷺ في حديث آخر : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » [٢] دع ما تشك فيه إلى ما تتيقنه . وتعلم أنه حلال لا غبار عليه .

ثم يقول الرسول ﷺ : « **ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى ، يوشك أن يواقعه** » كان عظماء العرب في الجاهلية يحمون لأنفسهم مناطق يحرمون على غيرهم الرعى فيها . فإذا حمى أحدهم منطقة فإنه يحظر على غيره أن يرعى فيها إبله أو بقره و غنمه . فإذا حمى أحد الملوك أو الوجهاء أو العظماء الذين لهم سطوة وقوة مكاناً ، وجاء إنسان يرعى حول هذا الحمى غنمه أو إبله ، فإنه لربما شردت أحدها ودخلت هذا الحمى فيتعرض بذلك لعقاب وبطش صاحب هذا الحمى .

كذلك من يقع في الشبهات فهو مقترب من الحمى ودانٍ منه ، وهو على وشك أن يقع في الحرام لأن حمى الله محارمه فهو - يعني الواقع في الشبهات - مثله كمثل هذا الراعي الذي يرعى حول الحمى .

ثم نبهنا رسول الله ﷺ إلى أن الأصل في صلاح الإنسان واستقامة جوارحه وسعادته وسلامته في أعماله ، وبعده عما حرم الله وامتثاله ما أمر الله ، العماد في

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٤٧٢) .

(٢) حديث صحيح رواه أحمد (١/ ٢٠٠) . وابن حبان (٥١٢ ، ٥١٣) موارد من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما .

هذا صلاح القلب واستقامته ، فإذا صلح القلب واستقامت أحواله وصفا وأخلص وعرف الحق من الباطل ، إستقامت جميع الجوارح . وإذا فسد القلب جهلا ، وعدم معرفة بالحق ، وعدم معرفة بالحلال والحرام ، وفرط في استبانة ذلك ، أو عرف الحلال والحرام ولكنه لم يبال به فترك الحلال وتجرأ علىٰ الحرام ، وكثرت بدعه فجوارحه جوارح فاسدة لا تستقيم علىٰ الجادة ، ولا علىٰ ما شرع الله سبحانه وتعالىٰ . وبين رسول الله ﷺ هذا في قوله : « **ألا أن في الجس مضغة** » والمضغة قدر ما يمضغه الإنسان ، وهي قطعة صغيره الحجم ، ومع صغر حجم هذه المضغة إلا أن خطرها عظيم ومنفعتها جليلة ، وإذا فسدت سببت فساد باقي الأعضاء والجوارح وهذه المضغة هي القلب « **إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله** » . وأسأل الله أن يبصرنا بالهدىٰ وأن يهدينا إليه وأن يثبتنا عليه وأسأله سبحانه وتعالىٰ أن يبصرنا بالضلال وأن يجنبنا إياه وأن يجعل بيننا وبينه حاجزاً . والحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلم علىٰ سيدنا محمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢ـ شرح حديث

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »(١) .

قال الشيخ رحمه الله تعالى :

المسلم الحقيقي الذي تظهر عليه آثار الإسلام و شعائره وأماراته هو الذي يكف أذىٰ لسانه ويده عن المسلمين . فلا يصل إلىٰ المسلمين منه إلا الخير والمعروف .

وفي واقع المسلمين اليوم قد تجد الرجل محافظاً علىٰ أداء الصلاة في وقتها ، وقد تجده يؤدي حق الله في ماله ، فيدفع الزكاة المفروضة ، وقد يزيد عليها وقد تجده مسارعاً في الخيرات يضرب في أبواب الخير المختلفة بسهم وقد يكون معوانا للناس، يسعىٰ في قضاء حوائجهم ، وقد تجده من حجاج بيت الله الحرام ومن عماره ، ولكن مع هذا الخير كله قد تجده لا يحكم لسانه ولا يملك زمامه ، فينفلت منه لسانه فيقع في أعراض الناس ويمزق لحومهم . فلا يستطيع أن يملك لسانه عن السب والشتم واللعن والنبي ﷺ يقول : « **ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان، ولا الفاحش ، ولا البذئ** »(٢) .

وقد تجد الرجل مع ما فيه من الخير والصلاح لا يملك لسانه عن الغيبه والنميمة ، ولا يملكه عن شهادة الزور وقول الزور ، وقد لا يكف لسانه عن همز الناس ولمزهم . فيجره لسانه ويوقعه في كثير من الأخطاء والبلايا . فمثل هذا النوع من الناس ، قد فقد صفة من أبرز وأهم صفات المسلم الحقيقي .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٠) . ومسلم (٤٠) . وأحمد (٢/ ١٦٣) .

(٢) حديث صحيح : رواه أحمد (١/ ٤٠٥ ، ٤١٦) . والترمذي (١٩٧٨) . والبخاري في الأدب المفرد (٣١٢) . من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

وهناك نوع آخر من المسلمين يختلف عن النوع السابق ، فقد تجده يُحْكِمُ لسانه ويُقلُ به الكلام ، ولكنه يؤذي المسلمين بيده ، فيضرب بيده أبدان المسلمين، ويعتدي على أموالهم، فيسرقهم ، أو يسلبهم حقوقهم ، أو يظلمهم، فهذا أيضا قد فقد أمارة من الأمارات الظاهرة التي تدل على إسلام المرء وعلى إيمانه .

وعلى هذا فلا يكتمل إسلام عبد حتى يحب المسلمين ، ويترك إيذاءهم بلسانه ، ويترك إيذاءهم بيده . ولا يتم إسلام عبد وإيمانه حتى يشغل لسانه في الأعمال التي يكون فيها نفع له في الدنيا والآخرة ، فيعمل لسانه في تلاوة كتاب الله وفي ذكره سبحانه وتعالى ، ويعمل بلسانه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونشر العلم النافع ، أو تقديم النصيحة والمشورة المفيدة النافعة ، وغير ذلك من المصالح التي تعود بالنفع العاجل على المرء وعلى إخوانه المسلمين .

ولو تحقق أن كف المسلم لسانه عن إيذاء الناس ، وكف يده كذلك عن إيذاء الناس فلا يكسب بيده شراً ، وإنما يعملها في الخير والنفع ، ولو تحقق هذا لصار المسلم آمنا في سفره وفي إقامته ، وفي بيته وخارج بيته ،ولصار مجتمع المسلمين، مجتمعاً فاضلاً على ما يحب الله ورسوله وقول النبي ﷺ : « **والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » معناه أن الهجرة المطلوبة من كل مسلم هي ترك وهجر المعاصي والسيئات التي نهى الله عنها ونهى عنها رسوله ﷺ .

والهجرة تطلق على معنيين : الأول هجرة المكان . والثاني : هجرة الحال .

فالهجرة المكانية هي الإنتقال من دار الكفر التي يغلب الكفر على أهلها وعلى أحكامها وعلى حكامها ، ولا يستطيع الإنسان فيها أن يقيم شعائر دينه ، ولا يأمن فيها على دينه ونفسه وعرضه فينتقل من هذا المكان ومن هذه الدار إلى دار أخرى تنتفي فيها هذه المثالب ويستطيع أن يقيم فيها المسلم آمناً على دينه

ونفسه وعرضه ، فيستطيع أن يقيم فيها دينه دون خوف أو تهديد . وهذا النوع من الهجرة هو ما حصل من النبي ﷺ ومن المسلمين عندما انتقلوا من مكة المكرمة إلىٰ المدينة النبوية حيث كان الكفر وقتها غالب علىٰ أهل مكة وكانوا يؤذون المسلمين ويضيقون عليهم في أمور دينهم .

وهذه الهجرة هي التي عناها النبي ﷺ بقوله : « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** »[١] ذلك لأن الناس لا يزال منهم قسمان قسم من أهل الخير والصلاح ، وقسم من أهل الشر والضلال والفساد فإن غلب أهل الخير علىٰ أهل الشر والفساد في عهد من العهود أو في مكان من الأماكن فهذا هو المراد وذلك هو المطلوب . وفي مثل هذا المجتمع الذي يقوىٰ فيه أهل الخير والصلاح يستطيع الإنسان المسلم أن يقيم دينه ويعبد ربه ويأمن علىٰ نفسه وعرضه وتسمىٰ هذه الدار دار إسلام وإيمان .

وفي بعض العهود والأوقات والأماكن قد يضعف أهل الإسلام والإيمان ، وتضعف شوكة أهل الصلاح ، ويقوىٰ عليهم أهل الشر والفساد ، فيضعف المسلم عن إقامة دينه ولا يأمن علىٰ نفسه ولا علىٰ عرضه فحينئذ يجب علىٰ المسلم أن يبحث عن مكان وبيئة أصلح من هذه ، فيهاجر إليها ويترك هذا المكان الذي تسلط فيه أهل الكفر والضلال وقويت شوكتهم فيه . وتسمىٰ هذه الدار دار كفر .

وأما الهجرة الثانية أو النوع والقسم الثاني فهو هجرة الحال وقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » فالهجرة بهذا المعنىٰ أن يهجر المسلم السيئات والمعاصي وأن ينتقل من حال المعصية والبعد عن الله ومخالفة أمره والتجرؤ علىٰ حرماته إلىٰ حال آخر ، وهو

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد (١/ ١٩٢) .

حال الإقلاع عن المعاصي والذنوب وحال القرب من الله والوقوف عند حدوده .

والهجرة بالمعنى الأخير وهو ترك ما نهى الله عنه تشمل النوع السابق بالمعنى الأخير ، وهو ترك ما نهى الله عنه تشمل النوع السابق وبيان ذلك أن مما نهى الله أن يقيم المسلم في دار الكفر مقهوراً مغلوباً وهو قادر على ترك هذا المكان إلى غيره مما هو آمن وأصلح منه . فتكون هجرته بهجران ما نهى الله عنه وهو الإقامة بين ظهراني الكفار .

سئل الشيخ : ما هو حديث « دعاء الكرب » [١] ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : روى البخاري ومسلم حديث دعاء الكرب ونصه : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم[٢] .

---

(١) الكرب : قال الحافظ في الفتح الكرب بفتح الكاف وسكون الراء هو ما يدهم المرء مما يأخذ بنفسه فيغمه ويحزنه (١١/ ١٥٠) .

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٣٤٦) . ومسلم (٢٧٣٠) . من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . قال النووي في شرح مسلم (٧/ ٤٧) « وهو حديث جليل ينبغي الإعتناء به والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة » .

خامساً

فتاوى الحجاب واللباس والتصوير



خامساً : فتاوى الحجاب واللباس والتصوير

س ١ : سئل الشيخ : ما هي عورة المرأة المسلمة على المسلمة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : عورة المرأة المسلمة ما بين السرة والركبة مع العلم أن في المسألة أقوالاً أخرىٰ ويصح للمسلمة أن ترضع أمام المسلمة الأخرىٰ .

س ٢ : سئل الشيخ : عن عورة الأمة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : عورة الأمة من السرة إلىٰ الركبة سواءٌ كانت للخدمة أم ربة سرير للتسري ، وهذا ظاهر الآية في سورة الأحزاب وهو مذهب المالكية .

س ٣ : سئل الشيخ : هل يصح أن تتزين المرأة بكامل زينتها وهي مغطاة بجلباب سابغ وتحته كحل وخضاب وحلي وكله مستور ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لا حرج في ذلك بل هي متزينة لزوجها وللنساء وليست متزينة للرجال الأجانب ، وما دام لا يبدو منها شيء فلا حرج . أما إذا كان الجلباب زينة في نفسه لكونه لامعاً ولافتاً للنظر فهذا يحرم .

س ٤ : سئل الشيخ : عما تكشفه المرأة لمحارمها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يجوز للمرأة أن تكشف لمحارمها ما يبدو منها غالبا عند الخدمة كالرأس والعنق واليدين والقدمين .

س ٥ : سئل الشيخ : عن صفة العمامة النبوية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : صفة العمامة النبوية لفافة تلف حول الرأس .

أما الغترة أو الشماغ فليست واردة في السنة بل هي من باب العادات . أما العمامة فهي الواردة في السنة .

س ٦ : سئل الشيخ : عن لبس المرأة البنطلون ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا لبست المرأة البنطلون وفوقه ملابس سابغة فلا

تشبه فيه بالرجال ما دامت تلبسه أسفل ملابسها ، ولكن التشبه الذي يُمنع إذا لم تلبس فوقه شيئاً .

س ٧ : سئل الشيخ : هل يصح إهداء الحرير إلى قريب كافر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يصح ، فقد فعله عمر رضي الله عنه . واحتفاظ الإنسان بملابس خاصة للجمعة والمناسبات أمر طيب وهو من فعل الرسول ﷺ .

س ٨ : سئل الشيخ : هل يجوز إرضاع المرأة طفلها أمام المرأة أو أمام محرم من محارمها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يجوز لو كانت مسلمة . أما كتابية فالأظهر ألا تكشف أمامها لقوله تعالىٰ : ﴿ **أو نسائهن** ﴾ أما ظهور الأطراف ، الرجل إلىٰ الركبة والذراعان أمام المحارم ليس بمحرم له لأنه لا يجوز أن يرىٰ ما عدا ما بين السرة والركبة .

س ٩ : سئل الشيخ : عن لباس الشهرة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لباس الشهرة هو اللباس الذي يجعلهم يضحكون عليك ويستهزئون بك ولو لبست كما يلبسون فلا حرج .

س ١٠ : سئل الشيخ : هل لبس المنطلون أو لبس الساعة في اليسار يعتبر من التشبه بالكفار؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : اللباس الذي يعتبر تشبها بالكفار هو الذي من خصائصهم بحيث لو رآك أحد به حسبك كافراً أما ما عدا ذلك فيجوز لبسه وارتداؤه .

س ١١ : سئل الشيخ : إذا ألبست الأم البنت فستانا قصيراً وعمرها ثمان سنوات ، ورآها الأب ولم يتكلم مع العلم أنه لا يرضى بلبس القصير ، فهل يأثم في ذلك ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : كلاهما آثم ؛ الأب مسئول عن البيت كله عن الزوجة وعن البنت ، فهو آثم ويجب عليه أن ينصح زوجته أم البنت ، وأن

ينصح البنت ، والأم آثمة لأنها راعية [١] علىٰ بناتها ورضيت بهذا لبنتها ، فكلاهما متعاون علىٰ الإثم والعدوان ، ومهمة الرجل أوسع من مهمة المرأة في هذا لأنه قيم علىٰ البيت كله علىٰ زوجته وعلىٰ بنته ، أما الأم فمهمتها ضيقة لأنها راعية في بيتها علىٰ بناتها وعلىٰ أولادها الذكور ، فدائرة رعاية الأم أضيق من دائرة رعاية الأب ، والقصد أن كليهما أثم لتعاونهما علىٰ الإثم والعدوان ، وتعويد البنت علىٰ الشر من صغرها أمر لا يجوز .

س ١٢ : سئل الشيخ : أعرف أخ مهندس ، وهو رسام ماهر وبارع ، فنصحته أن يتجه لتصوير الأمور الطبيعية مثل الكواكب ، والنجوم ، والأمطار ، والنباتات وغيرها مما يظهر قدرة الله وإعجازه في خلقه فوافق وسُر بذلك ، وقال لي أن أرسل له أفكاراً بهذا المعنى السابق وهو بدوره يحولها إلى صور ، ويكتب بجوار كل صورة الآية أو الآيات التي تعبر عنها . فهل هذا أمر جائز ومشروع أم لا ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يجوز التصوير إذا لم يكن صورة إنسان أو حيوان أو طير أو غيرها من صور ذات الأرواح .

أما تصوير ما فيه روح فأكثر أهل العلم علىٰ تحريمه . وعلىٰ هذا فلا يجوز تصويره إلا إذا كانت الصورة يُحتاج إليها لضرورة وحاجة كجواز السفر والبطاقة والهوية ، وأوراق الإلتحاق بالمدارس والجامعات ، وغيرها من المصالح التي يُحتاج فيها إلىٰ معرفة الأشخاص وتميز بعضهم من بعض ، وكذلك كل مصلحة معتبرة شرعاً ولا يمكن أن تتم إلا بالصورة فيجوز التصور ، والتصوير لأجلها وكذلك يجوز تصوير المجرمين والمشبوهين ، وتوزيع صورهم علىٰ الدوائر والنقاط والهيئات التي تساعد في ضبطهم والإمساك بهم لاتقاء شرهم أو

---

(١) حديث صحيح : أخرجه البخاري (٧١٣٨) ، ومسلم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤل عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤل عن رعيته . والمرأة راعية على بعلها وولده وهي مسولة عنهم . والعبد راع على مال سيده وهو مسؤل عنه . ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته » .

معاقبتهم علىٰ شرورهم بما يستحقون .

أما تصوير الزعماء ، والفضلاء ، والوجهاء ، والصلحاء فلا يجوز لما قد يكون في تصويرهم من التعظيم ، والإفتتان بهم لا سيما وأن لهم مكانة في القلوب . فيخشىٰ من أن يعظمهم الناس ويؤلهونهم ، وقد سمعنا في بعض الدول أنه عندما يرىٰ الناس صورة زعميهم أو معظمهم فإنهم ينحنون أمام صورته . وأصل الشرك في بني آدم كان سببه تصوير الصالحين ، ثم تعظيم هذه الصور ثم الافتتان بها وتأليهها ثم صنع تماثيل ونصب علىٰ هيئتها ثم عبادة هذه النصب والتماثيل .

أما صور الفنانين والفنانات فهي محرمة من عدة أوجه من ذلك أنها من جملة ذوات الأرواح التي ورد النهي عن تصويرها ، وكذلك لما يكون في صور هؤلاء من العري والخلاعة التي تثير الغرائز والشهوات عند الشباب وغيرهم . وفي تصويريهم تشجيع لما هم فيه من الباطل والمجون .

أما الصور التذكارية التي يكون فيها الإنسان مع بعض الزملاء والمحبين فهي محل اشتباه والأجدر بالإنسان المسلم والأولىٰ به تركها وعدم فعلها لأنها من جملة الصور ذوات الأرواح . والإنسان إذا ترك المشتبهات خشية الوقوع في الحرام والمكروه فقد استبرأ لدينه وعرضه كما قال الرسول ﷺ .

س ١٣ : سئل الشيخ : عن حكم التصوير ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : التصوير المجسد حرام باتفاق العلماء ، ونعني بالتصوير المجسد نحت تماثيل لبعض ذوات الأرواح من إنسان أو حيوان أو طير أو غير ذلك مما فيه روح .

ويشتد التحريم إذا كانت هذه التماثيل والنصب المنحوتة لأُناس معظمين كالملوك والأمراء والعلماء والصلحاء لأن تعلق القلوب بهم أكثر من غيرهم ممن هو دونهم .

أما التصوير الشمسي لذوات الأرواح فهو محرم وممنوع ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله ، ولأن فاعله من أظلم الناس ، ولأنه يمنع من دخول ملائكة الرحمة والبركة إلى المكان الذي تكون به هذه الصور ، ولأن تصوير ذوات الأرواح من المعظمين كالأمراء والعلماء ونحوهم هو ذريعة وسبب ووسيلة للشرك ، وقد حدث هذا في الأمم السابقة . وهناك من الصور ما يجتمع فيه أكثر من سبب لتحريمه كما ذكرنا في صور المعظمين من ملوك وعلماء ونحوهم فهي محرمة لأنها من ذوات الأرواح ، ولأنها ربما تكون وسيلة للإفتتان بها وتعظيمها وقد سمعنا شيئاً من ذلك في بعض الشعوب المعاصرة من أنهم ينحنون أمام صورة من يعظمونه من رئيس أو كبير أو غيره .

وكصور الممثلات والمغنيات التي تظهر في الجرائد والصحف ، فإن فيها من أسباب التحريم أنها مضاهاه لخلق الله وهو محرم وملعون فاعله كما سبق ، ولأن فيها صرف لقلوب الخلق عما فيه نفعهم ومصلحتهم من التعلق بالله والإشتغال بذكره . وكذلك في تصوير هؤلاء المغنيات والممثلات فتنة من نوع آحر وهي فتنة الشهوة في صور هؤلاء فقد تكون صوراً عارية بادية المفاتن ، وفي أجمل هيئة وأحسن زينة ، مما يثير كوامن النفوس ويثير الغرائز والشهوات لا سيما عند الشباب الذين يمعن كثير منهم النظر إلى هذه الصور ويعلقونها أو يقتنونها لكي يستمتعوا برؤيتها والتلذذ بمفاتنها وإشباع غرائزهم بطريقة محرمة فهذا في التحريم أشد من غيره من أنواع التصوير التي يكون التحريم فيها لسبب واحد والله أعلم .

س ١٤ : سئل الشيخ : ما رأيكم في ملابس الأطفال التي يكون عليها صور ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لا يجوز بيعها ولا شراؤها ، أما إلباس الوالدين أطفالهم أثوابا فيها صور فإنه يجوز ، لأن لبس الأطفال لهذه الملابس امتهان لها ، لما يقع منهم من بول وغائط وغيره في هذه الملابس .

س ١٥ : سئل الشيخ : ما رأيكم في شراء السجاد الذي يكون عليه صور ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : السجاد يشترىٰ لذاته لا للصورة التي عليه فيجوز شراء هذا السجاد ، والاحتياط واجب علىٰ المسلم ، فينبغي أن يتجنب شراء ما يشتبه في حرمته فضلا عما تتضح حرمته ، وإذا كان مثل هذا السجاد في البيت فيجوز استعماله لأنه بما فيه من الصور ممتهن .

س ١٦ : سئل الشيخ : ما رأيكم في الكتب التي تحتوي على صور ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يلزم طمس هذه الصور ، أو طمس وجهها ، ولا يكفي وضع خط يفصل الرأس عن الجسد .

سادساً

مباحث الدعوة إلى الله

والعلم والأخلاق وفتاويها

١ـ الطريقة المثلى للدعوة إلى الله

الحلقة الأولى

تختلف أحوال الدعاة إلىٰ الله في أداء مهمتهم ، فبينما يكون بعضهم خبيراً بجوهر الموضوع ، ملمّاً بأطرافه ، محسناً للأداء والتعبير عما أراد ، منسقاً لنقاط الموضوع ، مقدِّماً منها ما يجب أن يُقدَّم ، مراعياً لظروف السامعين وأحوالهم ، في حين يكون البعض الآخر محسناً في بعض النواحي دون بعض .

وقد خلق الله الإنسان مختاراً ، وأودع فيه غريزة حب الإستطلاع ، وطبعه علىٰ النّفرة من النقص ، والفرار منه ، والرغبة في الدرجات العليا ، وطلب المزيد مما ينهض به في حياته ، ويرفع مستواه ، وجعل فيه استعداداً للتأثر بما يرىٰ ويسمع ومحاكاة ما يجده في بيئته من الخير ، اللهم إلا من مُسِخَتْ فطرته ، وانسلخ مما هو الأصل في إنسانيّته .

وخير طريق يحتذيه الدّعاة في القيام بمهمتهم ، وأمثل منهاج يسلكونُه في استمالة قلوب الناس إلىٰ الخير ، والإعذار إلىٰ من لم يستجب للحق بعد بيان الحجة ، وإقامة البرهان هو طريق الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، ومنهاجهم في دعوتهم إلىٰ الله بقولهم المفصل وسيرتهم الحميدة .

وفيما يلي ، إلماعة من سيرة رسول الله وخليله إبراهيم ، ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

كان إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، مثلاً أعلىٰ في صدق اللهجة ، والإيمان بما يدعو إليه من التوحيد ، وشرائع الإسلام ، والتصديق به علىٰ وجه اطمائنت به نفسه ، ورسخ في سويداء قلبه ، وقد أثنىٰ الله عليه بذلك في مُحكم

كتابه في مطلع الحديث عنه حينما قام يدعو أباه إلىٰ الوحيد فقال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [١] .

فعلىٰ الداعي إلىٰ الحق أن يكون مؤمناً به ، مخلصاً لما يدعو إليه ، صادق اللهجة فيه ، وإلا انكشف سرّه ، وافتضح أمره ، فإن ثياب الزور تشفّ عمّا وراءها ، وعند ذلك يكون وبالاً علىٰ الدعوة .

بدأ إبراهيم الخليل بأبيه في الدعوة إلىٰ التوحيد ، فإنه أقرب الناس إليه وألصقُهم به ، فكان أولىٰ بمعروفه ، وبرّه ، وإحسانه ، وإلىٰ جانب ذلك رداءاً له إذا استجاب لدعوته وظهراً له يحميه بدافع أخوّة الإيمان ، وعصبية النسب .

قال - تعالىٰ - في وصفه إبراهيم في دعوته : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [٢] . وقد تلَّطف معه في الدعوة ، فذكَّره بما بينهما من الرِّحم ، ووشائج النسب ، استمالة لقلبه ، وتنبيهاً له إلىٰ أنه لو كذَّبَ علىٰ الناس جميعاً ما طابت نفسه بالكذب عليه ، وأنه لو غشّهم جميعاً لم يكن منه إلا النصح له لما بينهما من أواصر القربىٰ والنسب .

وبدأ دعوته لأبيه بالتوحيد الذي هو أصل الدين ، وجوهر الشرائع السماوية، وعليه تقوم فروع الإسلام ، وبه صلاح القلب ، وبصلاحه تصلح سائر الجوارح ، وتستقيم أحوالها .

« ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » [٣] . وسلك في دعوته إلىٰ التوحيد طريق الاستدلال عليه

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٤١ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٤٢ .

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضىٰ الله عنهما وقد سبق شرحه في باب الأحاديث النبوية .

بأن ما يعبده أبوه وقومه لا يسمعهم إذا دعوه لكشف غمة ، أو تفريج كربة ، ولا يراهم إذا عبدوه ، وتضرعوا إليه ، ولا يجلب لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضراً ، وإذا كان لا يرجىٰ نفعه ، ولا يخشىٰ بأسه ، فكيف يستحق أن يعبد ، أو يتقرب إليه ؟ !! وبذلك أقام عليهم الحجة ، وقطع عذرهم .

فيجب علىٰ من يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر أن يقتفي أثر إبراهيم الخليل في دعوته ، فيتلطف مع من يدعوهم ، ويسوسهم حسب ما تقتضيه أحوالهم ، ويبدأ بأقرب الناس إليه ، وأولاهم بإرشاده ، ويقدم الإرشاد إلي عقيدة التوحيد ، ويركز الحديث فيها ، ويقيم علىٰ ذلك الدليل ليقنعهم بالحجة ، ويسقط أعذارهم .

ادعىٰ إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، أن الله آتاه من العلم ما لم يؤت أباه ، و لا ليفخر بذلك ، أو يتعالىٰ علىٰ أبيه وإلا لكان ذلك خلقاً ذميماً ، ينفر الناس من حوله ، ويمقتونه من أجله ، بل ادعىٰ ذلك ليلفت النظر إلىٰ وجوب الإصغاء إليه ، واتباعه فيما جاء به من الحق المبين ، ليهديهم به إلىٰ الصراط المستقيم .

قال ـ تعالىٰ ـ في وصفه إبراهيم في دعوته : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (١) .

نهىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أباه عن طاعة الشيطان في وسوسته ، واتباعه فيما يسوله ، ويزينه له من الشرك بالله ، وسائر المنكرات ، فإن طاعته له ، وإسلام قياده إليه عبادة له من دون الله ، ونبّه أباه إلىٰ عصيان الشيطان لربه ، وتمرده عليه ، وإذن فليس علىٰ هدىٰ في وسوسته ، ولا يزين للناس إلا ما هو شر وضلال .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٤٣ .

قال - تعالىٰ - في وصف دعوة خليله : ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾[١] . فعلىٰ الداعية إلىٰ الحق أن يكشف الغطاء عن معنىٰ العبادة ، ويزيدها إيضاحاً حماية لعقيدة التوحيد ، وبياناً لأصولها ، ويستعمل أسلوب التنفير من عبادة غير الله اقتداء بخليل الرحمن ، عليه الصلاة والسلام .

أنذر إبراهيم أباه إنذار المتلطف معه ، المشفق عليه ، بأنه يخشىٰ عليه مغبة شركه ، وعاقبة عبادته للشيطان ، وطاعته له ، فيعذبه الله علىٰ ذلك ، ولا يجد ممن تولاهم بالعبادة من يدفع عنه بأس الله وعذابه .

قال - تعالىٰ - في وصف إبراهيم في دعوته : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[٢] .

فعلىٰ الداعية أن يستعمل أسلوب الإنذار ، والتخويف من سوء العواقب ، والتذكير بعذاب الله ، وأليم عقابه يوم يتبرأ دعاة السوء ممن غرّوا بهم ، ويتمنىٰ المخدعون بزخرف القول أن لو عادوا إلىٰ الدنيا ، فيتبرأوا من دعاة السوء كما تبرأوا منهم يوم القيامة ، وأنّىٰ لهم ذلك ؟ !

لا تأثير للدعوة إلىٰ الحق وإن كانت صادقة إلا إذا وجدت آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وفطرة سليمة لم تفسدها الأهواء ، ولذا لم يستجب لإبراهيم أبوه، بل أنذره لئن لم ينته ليرجمنه ، وأمره بهجره مليا ، فصبر إبراهيم علىٰ أذاه ، وقابل سيئته بالحسنة ، وقال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾[٣] . واعتزلهم وما يدعون من دون الله ، بعداً عن الفتنة ، إذ لم يستطع القضاء عليها ، وأملاً في أن يجد لدعوته أرضاً خصبة ، فوهب الله له إسحاق ، ويعقوب ، وجعل كلاًّ منهما نبياً ، جزاء وفاقاً بصدقه في الدعوة ، وإخلاصه فيها ، وصبره علىٰ الأذىٰ

(١) سورة مريم ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٤٥ .

(٣) سورة مريم ، الآية : ٤٧ .

في سبيل نشرها ، وهجره للشرك وأهله ، اتقاء للشرّ ، وبعداً عن مواطنه ومظاهره .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾[١] .

فعلى الدعاة أن يتذرّعوا بالصبر ، وسعة الصدر ، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة ، وأن لا ينتقموا لأنفسهم ما استطاعوا إلى العفو سبيلاً ، لكن إذا انتهكت حرمات الشريعة انتصفوا لها ، وأخذوا على أيدي العابثين ، وعليهم أن يهجروا الشرّ وأهله ، إذا لم يمكنهم إزالته أو تخفيفه ، خشية أن تصيبهم الفتنة ، أو يعمهم البلاء ، أو تكون مخالطتهم حجة عليهم ، أو معرَّة لهم ، وذريعة للنيل منهم ، وعدم الاستماع لنصائحهم ، و عليهم أن يتحروا المجالس التي يرجى فيها قول الحق ، والله الموفق .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٤٦ .

٢ـ الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله

الحلقة الثانية

عُني إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الإسلام ، ووجه جل همَّه وأعظم عنايته إلى إيضاح التوحيد وبيانه وإقامة الحجة عليه ، فبدأبه وكرر الدعوة إليه ، مع اختلاف لهجته في ذلك لينا وشدة ، وذكر أنواعاً من الأدلة على التوحيد ، وسلك طرقاً شتى في الإستدلال بها عليه ، إتماماً لإقامة الحجة ، وزيادة في الإعذار إلى الأمة ، وأملاً في أن يجد كل نوع منها أو وجه من وجوه الإستدلال بها منفذاً إلى قلوب جماعة ، فإن الناس مختلفون في مداركهم ومتفاوتون في طبائعهم وأفهامهم قوة وضعفا ، لينا وصلابة ، وإنصافاً للحق وعناداً وصدوداً عنه ، فما يجدي من الأدلة وطرق الإستدلال بها مع طائفة قد لا يؤثر على طائفة أخرى .

وفيما يلي بيان ذلك :

أنكر إبراهيم عليه الصلاةوالسلام على أبيه آزر أن يتخذ أصناماً آلهة ، ولم يقرن ذلك فيما ذكر الله عنه في سورة « الأنعام » بما يخفف من وطأة الإنكار على نحو ما ذكر الله سبحانه عنه في سورة « مريم » حيث مهد فيها قبل الإنكار بندائه بقلب الأبوة ، ولما أشرك قومه مع أبيه في الحكم كان أشد لهجة وإنكاراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1] ، فحكم عليهم بالجهل المبين وعمى البصائر ، وذلك ليثير عواطفهم ويدفع بهم إلى التفكير فيمن يستحق أن يعبدوه مخلصين له الدين ولا يشركوا به شيئاً ، أهو من بيده كل شيء وهو ولي نعمتهم ، أم الهياكل الأرضية والسماوية وهي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، ولا تغني عنهم من الله شيئا ، ثم عسى أن

(١) سورة الأنعام، الآية : ٧٤ .

تجد هذه الإثارة من قومه وأبيه قلوباً واعية تحفظ عنه ما يقول ، وعقولاً رشيدة تفقه ما سمعت من البلاغ وإحساساً مرهفاً ، فتتأثر بذلك وتستجيب إلىٰ دعوة الحق ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] .

بصر الله عز وجل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالدلائل الكونية الدالة علىٰ وحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته ، فأراه آياته في ملكوت السموات والأرض ، ليعلم حقيقة التوحيد ، أو ليزداد علماً به ويقيناً إلىٰ يقينه ، وأرشده إلىٰ وجه الاستدلال بها ، وكيف يسلك طريقها في البلاغ أوالبيان ومناظرة الخصوم ، ليفصل بذلك بين الحق والباطل ويلزمهم الحجة والبرهان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2] .

كان قوم إبراهيم الخليل صابئة يعبدون الكواكب السيارة ، يقيمون لها الهياكل في الأرض من الأحجار ونحوها ، وكانوا يعظمونها ويتقربون إليها بالذبائح وغيرها ، وكانوا يستغيثون بها ويضرعون إليها ، فناظرهم عليه السلام في ذلك ، ولم يشأ أن يسلك في هذه المناظرة طريق الاستدلال الإيجابي المباشر علىٰ أن الله لا ربَّ غيره ولا إله سواه ، بل جعل دعوىٰ قومه وعقيدتهم الشركية موضوع بحثه ونقاشه معهم ، وفرضها فرض المستدل لما لا يعتقده ، ثم يكر عليه بالنقض والإبطال ، ويكشف عن وجه الحق .

---

(١) سورة ق ، الآية : ٣٧ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٧٥ـ٧٩ .

فحينما أظلم الليل ورأي إبراهيم عليه الصلاة والسلام النجم قال : هذا ربي فرضا وتقديرا ، أو أهذا ربي ؟ فلما غاب عن أعين الناس علم أنه مسخر ليس أمره إليه ، بل إلىٰ مدبر حكيم يصرِّفه كيف يشاء . أما الرب فأمره إلىٰ نفسه ، بل أمر غيره إليه ، وهو دائم لا يحول ولا يزول ، بيده مقاليد الأمور وهو علىٰ كل شيء قدير .

ثم انتقل في البحث إلىٰ كوكب أخر ، هو في نظرهم أضوء ، وفي مرآىٰ أعينهم أكبر حجماً ، وهو القمر ، فلما رآه طالعاً قال : هذا ربي ، فرضاً منه لذلك وتقديراً ، أو أهذا ربي ؟ فلما ذهب عن أعين الناظرين تبين أنه ليس بالرب الذي يجب أن تألهه القلوب ، ويضرع إليه العباد في السراء والضراء ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويستهدونه فيهديهم إلىٰ سواء السبيل ، ولذا قال : لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين .

ثم انتقل بهم إلىٰ معبود آخر لهم أكبر جرما من النجم ومن القمر ، وأعظم ضياءً منهما وهو الشمس ، فلما رأىٰ الشمس بازغة قال : هذا ربي ، فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين ، فاستدل بما يعرض لها من غيرها علىٰ أنها مأمورة بأمر ربها ، وأنها مدبرة مسخرة بتسخير خالقها .

فإذا كانت هذه الكواكب الثلاثة أرفع من الكواكب السيارة شأنا ، وأعلىٰ قدراً ، وأعم نفعاً عندهم ، وقد قضت لوازمُها بانتفاء سمات الربوبية والألوهية عنها ، وأحالت أن تستوجب لنفسها حقاً في العبادة والتقرب إليها ، فما عداها من سائرالكواكب أبعد من أن يكون له حظ ما في الربوبية أو الألوهية ، وأحرىٰ بنفي ذلك عنه ، واستحالته عليه ، لذا أعلن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ختام المناظرة براءته مما يزعمون من الشركاء ، وأسلم وجهه لله وحده الذي فطر السماوات والأرض ، وأبدع خلقهما دون شريك أو ظهير يعنيه في ذلك ،

وضمن إعلان النتيجة الإستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، فإن ما فيه من البراءة من الشركاء نظير نفي الإلهية الحقة عن الشركاء في كلمة التوحيد ، وما فيه من إسلام وجهه لله نظير الإستثناء في كلمة التوحيد ، لدلالته على إثبات الإلهية الحقة لله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (١) ، وهذا الضرب من الإستدلال قد سلك سبيله في المناظرة كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، وقد جاء في الكتاب والسنة كثيراً لكن على منهج العرب في حديثهم وطريقتهم في المناظرة والحجاج ، فإن رسالة نبينا محمد ﷺ قد بدأت في العرب ، وبلغتهم نزل القرآن على طريق الصناعة المنطقية ، حيث يقولون في مثل هذا الموضع إجمالاً : لو كانت هذه الكواكب أرباباً أو آلهة ما حالت وزالت ، لكنها تحول وتزول ، فليست أربابا ، فإن الله حي دائم لا يحول ولا يزول .

فللداعية إلى الإسلام أن يسلك هذه الطريقة ـ طريقة إبراهيم عليه السلام ـ حسبما تقتضيه الحال ، فيتنزل مع مناظرة من دعاة الباطل ، ويفرض دعواه واقعة، ويرتب عليها لوازمها الباطلة وآثارها الفاسدة ، ثم يكر عليها بالنقص والإبطال ، وقد توجب عليه الأحوال والظروف سلوكها والدعوة بها أحياناً ، فإن الدعوة إلى الحق كما تكون بتزيينه وذكر محاسنه للترغيب فيه واستمالة النفوس إليه ، تكون بتشويه الباطل وذكر مساويه ومخازيه ، تنفيراً منه ، ليهرب المبطلون عنه ، وتنفتح قلوبهم للحق ، فيلتزموه .

هذا ، وقد ذهب جماعة من المفسرين وغيرهم إلى ما تقدم من أن حديث إبراهيم في شأن الكواكب مع قومه كان على سبيل المناظرة والحوار مع المشركين ، ليقيم عليهم الحجة لا ليكسب هدي بعد حيرة ، ولا ليستفيد علماً بعد شك ، واختار ذلك ابن كثير في تفسيره ، فقال : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الزخرف ، الآيات : ٢٦ ، ٢٧ .

كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السبع المتحيزة . . ثم قال : وكيف يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام . وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٣) .

ثم استدل بنصوص خلق الناس على الفطرة السليمة كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (٤)، وحديث « **كل مولود على الفطرة** » (٥) . . . والحديث القدسي « **إني خلقت عبادي حنفاء** » (٦) ثم قال : فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل ـ الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين ـ ناظراً في هذا المقام ، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب ، ومما يؤكد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا ؛ قوله

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيات : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة النحل ، الآيات : ١٢٠ـ١٢٣ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٦١ .

(٤) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٣) و (١٣٥٩) وفي غير موضع ومسلم (٤٧١٤) . والترمذي (٢١٣٩) . من حديث أبي هريرة .

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار .

تعالىٰ : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ (١) . انتهىٰ مع تصرف .

ويؤيده أيضاً ما ذكر في مطلع هذه الآيات من دعوة إبراهيم لأبيه وقومه إلىٰ التوحيد ، وإنكاره ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام التي كانت تماثيل وهياكل رمزية للكواكب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ، فبدأالآيات بالتوحيد والبراءة من الشرك وختمها بذلك ، فدل علىٰ أنه كان مؤمناً بذلك موقناً به أولاً وآخراً علىٰ السواء ، ويؤيده أيضاً قوله تعالىٰ في ختام المحاجة : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وروىٰ ابن جرير (٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أن مقام إبراهيم في هذه الآيات مقام نظر لا مقام مناظرة ، واختاره واستدل عليه بقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٥)، وذكر محمد بن إسحاق ما يفيد أن ذلك حين خرج إبراهيم من السراب الذي ولدته فيه أمه لما خافت عليه من نمرود بن كنعان . اهـ باختصار .

وبيان ذلك أن إبراهيم كان قبل الرسالة في حيرة في تعيين من يعبده ، وإن كان يعتقد بفطرته السليمة أن للعباد ربا له قدره وعظمته وجلاله وحكمته في تدبيره وتصريف لشئون خلقه ، فنظر في السنن الكونية نظرة اعتبار واستدلال لنفسه ، نظر في النجم ثم الشمس ، ليخرج نفسه من القلق والحيرة إلىٰ العلم

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨٠ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٧٤ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣ .
(٤) انظر تفسير بن جرير الطبري (٧/ ١٥٩) وما بعدها واسناده منقطع ، علىٰ بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما .
(٥) سورة الأنعام ، الآية : ٧٧ .

والهدىٰ والرشاد ، فلم يجد فيها سمات الربوبية ، ولا الصفات التي تستحق بها أن تؤله وتعبد ، وانتهىٰ به نظره واستدلاله لنفسه إلىٰ ما أعلنه أخيراً من البراءة من الشرك والشركاء ، والتوجه لله رب العالمين وحده ، ثم كان مقام دعوته لأبيه وقومه إلىٰ التوحيد ومناظرته لهم فيما كانوا عليه من الشرك بعد الرسالة .

وعلىٰ هذا يستطع الداعية إلىٰ الإسلام أن يجد لنفسه أيضاً قدوة حسنة وأسوة رشيدة في سيرة إبراهيم عليه السلام ، وفي خبر الله عن منهجه في هذه الآيات ، فيبدأ النظر في الآيات الكونية والدلائل الشرعية ، ليعلم الحق في نفسه أولاً ، ثم يتبع ذلك الدعوة إليه ، ليكون في دعوته علىٰ بينة وبصيرة ، فعلىٰ كلا المعنيين لهذه الآيات يجد الداعية إلىٰ الحق في خليل الرحمن مثالاً حسنا يحتذيه ، وميزانا عادلا يزن به عقيدته وعمله ودعوته ويقتفي أثره فيه .

إن دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه وقومه إلىٰ التوحيد مع سلامته وقوة استدلاله عليها ، وحسن سياسته وحكمه واستقامة منهجه فيها لم تجد لديهم قبولا ، لأن قلوبهم في غلاف من العناد والصدود من اللجاج ، فلم تتفتح لدعوة الحق ، ولم تشأ أن تتقبلها ، ولأن عواطفهم متبلدة بل ممسوخة ، قد انحرف بها الهوىٰ وتقليد الآباء وتحكم العادات السيئة عن الجادة وحدة الإعتدال ، فلم تتأثر بالحق ولم تجد لنفسها فيه لذة ولا راحة ، بل ذهبوا يجادلونه في الحق بعد ما تبين ، ويهددونه ويخوفونه أن تصيبه آلهتهم بسوء فلا يحمد العاقبة ، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن ثبت علىٰ الحق واطمأنت به نفسه وازداد إيماناً به ، فأنكر عليهم جدالهم إياه بالباطل ، وتخويفه من خطر آلهتهم ، مع أنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، ولا تدفع عنها بأساً ، وهو يركن إلىٰ الركن الركين ، ويتوكل علىٰ رب العالمين ، وقد أخلص له قلبه وأسلم له وجهه ، وقام بما أمره به من الدعوة إلىٰ الحنفية السمحة ، فهو أحق بالأمن والسلام ممن هددوه وخوفوه ، لكن علىٰ تقدير أن يصيبه مكروه فهو من الله سبحانه ، ابتلاءً وامتحاناً

اقتضته حكمته وعدله، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(١) .

فعليكم معشر الدعاة أن الدعاة أن تثبتوا علىٰ الحق في الدعوة ، وأن تصبروا علىٰ الأذىٰ وألا تنخلع قلوبكم لكيد الكائدين ، وتهديد المعتدين ، وتوكلوا علىٰ الله أسوة بخليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .

لما فات إبراهيم عليه السلام أن يؤمن به قومه فتستقر حياته بين أظهرهم ويشتد عضده بهم ، وتولوه بالأذىٰ وبلغ بهم الكيد له أن ألقوه في النار ، ففر إلىٰ ربه وهاجر طلباً لدعوة قوما آخرين ، لما أصيب بذلك لم يكله الله إلىٰ نفسه ، ولم يحرمه جزاء عمله ، فوهب له من تقر بهم عينه ، وهب له إسحاق ويعقوب ، وجعلهما من أنبيائه وهداهما إلىٰ الصراط المستقيم ، وتتابعت النبوة والرساله من بعده في ذريته إلىٰ أن ختمت بنبوة الرسول الكريم محمد ﷺ .

فيا معشر الدعاة إلىٰ الحق ؛ كونوا واثقين بالله ، مطمئنين إلىٰ صادق وعده ، مؤملين النصر والخير وحسن العواقب ولكن لابد لكم من الإبتلاء بالسراء والضراء ، فاشكروا ربكم علىٰ ما أولاكم من الخير ، واصبروا علىٰ الشدة واللأواء ، وليكن لكم في خليل الرحمن وإخوانه الأنبياء خير أسوة ، فقد ابتلوا فصبروا وشكروا ، فجزاهم الله خير الجزاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨٠ـ٨٢ .

الظَّالِمِينَ﴾[١]، وقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]، والله الموفق ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وأصحابه وسلّم .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآيات : ١٤٦ ـ ١٤٨ .

٣ ـ الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله

الحلقة الثالثة

لم يرسل الله تعالى رسولاً إلا أمره بالتوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢)، وقد عنى الرسل عليهم الصلاة والسلام بذلك ، فبدءوا البلاغ بدعوة أممهم إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا ، وقطعوا فيه شوطاً بعيداً حتى شغلوا به الكثير من أوقات البلاغ ، ولا عجب في ذلك فإن التوحيد أصل الدين وذروة سنامه ، وملاك الإسلام ودعامته الأولى ، لا تصح من إنسان قربة ، ولا يتقبل الله منه عبادة إلا إذا كانت مقرونة بالتوحيد وإخلاص القلب لله وحده ،قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾(٣) ، وقال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٤) .

وقد أرشد الله الناس إلى أيسر الطرق في الدعوة إلى التوحيد وأسهلها، وأقربها إلى معرفة الحق وأعدلها ، وهو الاستدلال بآيات الله وسننه الكونية وتفرده سبحانه بتصريفها وتدبيرها على تفرده بالإلهية واستحقاقه أن يُعبد وحده لا شريك له ، فذلك أهدى سبيلا وأقوم دليلا، وأقوى في إقناع الخصم وإلزامه

---

(١) سورة النحل ، الاية : ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٥ .

(٣) سورة الزمر ، الآيات : ٢ ، ٣ .

(٤) سورة البينة ، الآية : ٥ .

الحجة ، فإنه مقتضى العقل الصريح وموجب الفطرة السليمة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] فرتب سبحانه نهيه إياهم عن اتخاذهم شركاء له في العبادة على علمهم وإقرارهم بأنه تعالى وحده هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم ، وهو الذي جعل الأرض قراراً ، وذللها لهم ليمشوا في جوانبها ، وليبتغوا من فضله ، ورفع السماء بلا عمد وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم ، لينعموا بما آتاهم من النعم وليتمتعوا بما أفاض عليهم من الخيرات لعلهم يتقون ربهم ووليّ نعمتهم ، فيعبدوه وحده لا شريك له مخلصين له الدين ، شكراً له على ما أسبغ عليهم من نعمه وأفاض عليهم من بركاته ، وفي القرآن كثير من النظائر لهاتين الآيتين في بيان أسلوب الدعوة ، ورسم الطريق الناجحة في إقامة الحجة وإلزام الخصم ، لقد سلك الأنبياء والمرسلون هذه الطريقة في دعوتهم أممهم إلى الهدى ودين الحق ، اهتداءً بهدي الله واسترشاداً بإرشاده وهو العليم الحكيم ، ومن أبرزهم في ذلك أولوالعزم من الرسل ، ومنهم إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام .

أرسل الله جل شأنه خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قوم من الفرس عتاة جبارين يعبدون التماثيل ، فأنكر عليهم عكوفهم لها وتقربهم إليها ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾[2] ، ولما لم يكن لديهم حجة يعتمدون عليها في عبادتهم الأصنام بل تعللوا لباطلهم بما وجدوا عليه آباءهم من التقرب إلى التماثيل وعبادتهم إياها ، فألغوا عقولهم وقلدوا آباءهم على غير هدى وبصيرة

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٥١ ، ٥٢ .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ (١) ، فسفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أحلامهم ، وحكم عليهم وعلىٰ آبائهم بالحيرة والضلال المبين ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ، وبين لهم أن التماثيل لا تسمع النداء ، ولا تستجيب الدعاء ، ولا تملك نفعاً ، ولا توقع ضرا ، فلا يليق بعاقل أن يتخذها آلهة مع من فطر السماوات والأرض ، وإليه مقاليد الأمور ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير قال : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

فلما ركبوا رؤوسهم ، وأبو إلااللجاج والعناد ، والعصبية الممقوتة في تقليد الآباء والأجداد أعلن براءته منهم ، وشدة عداوته لهم ولما يعبدون من دون الله ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٤) .

وجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه لابد له من سلوك طريق آخر عملي في إقامة الحجة ؛ ليكون أقوىٰ في الإبانة عن الحق ، وأملك في إلزام الخصم ، يضطرهم به إلىٰ الإعتراف بما هم فيه من ضلال وظلم وانحراف ، فأقسم بالله أن يكيد لأصنامهم وهم عنها غائبون ، وانتهز فرصة خروجهم من البلد لبعض شأنهم ، وذهب إلىٰ آلهتهم خفية لئلا يراه أحد فيصده عن تنفيذ ما أراد ، فجعلهم قطعاً صغاراً إلا كبيراً لهم تركه سالما ، ليكون له ولهم معه شأن عند

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٣ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٤ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ٧٢-٧٤ .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ٧٥-٨٢ .

التحقيق فيما جرىٰ علىٰ أصنامهم ، فلما عادوا إلىٰ منازلهم وشاهدوا ما أصيب بـه آلهتهـم ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (١) ، فلما حضر مجلسهم أخذوا يقررونه بما صنع بآلهتهم ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ فأجابهم بنسبة ما حدث إلىٰ من لا يتأتىٰ منه ، نسبه إلىٰ كبير التماثيل وهو ـ كما يعلم ويعلمون ـ جماد لا حراك به ، ذلك ليرشدهم إلىٰ مكان الخطأ في عكوفهم علىٰ التماثيل ، عبادة لها وتقربا إليها ، ويصرفهم عنها إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له ، ويوحي إليهم بأنه هو الذي كاد لأصنامهم وأنزل بهم ما يكرهون ، وقد أكد ذلك بأمره إياهم أن يسألوا التماثيل عمن أصابهم بالتكسير والتحطيم إن كانوا يملكون جوابا ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ (٢) .

وقد نجحت هذه الطريقة إلىٰ حد ما ، وأوجدت فيهم وعيا ، فثابوا إلىٰ رشدهم وما كان في أصل قرائحهم ، واعترفوا بأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم تماثيل لا تملك لنفسها نفعا ولا تدفع عنها بأساً ، وظلموا إبراهيم عليه السلام بصدهم إياه عن دعوته ، وإعراضهم عما جاءهم به من الآيات البينات علىٰ التوحيد وإخلاص العبادة لله رب العالمين ، لكنهم لم يلبثوا أن ركبوا رؤوسهم ونكصوا علىٰ أعقابهم وارتكسوا في حمأة الضلال والحيرة عصبية لما ورثوه عن آبائهم من الشرك والبهتان المبين ، قال تعالىٰ : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ (٣) .

لقد ازداد طريق الحق وضوحاً وبيانا ، واستحكمت حلقات الحجة لإبراهيم علىٰ أبيه وقومه ، وحق له أن يضيق ذرعاً من صدودهم ، وأن يتأفف ضجراً من

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيات : ٥٩ـ٦١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٦٣ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيات : ٦٤ـ٦٥ .

طغيانهم وشركهم ، وأن ينكر عليهم ذلك إنكاراً صارخاً ، ويرميهم بالخبال وإلغاء العقول ، ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

لقد أخذت الحمية الجاهلية للباطل من نفوس قوم إبراهيم عليه السلام مأخذها ، وتمكنت منهم العصبية لطاغوت التقليد للآباءوالأجداد فيما أصيبوا به من الشرك والانحراف عن الحق حتى ملكت مشاعرهم ، ووجهت عقولهم وأفكارهم إلى شر وجهة ، وصرفتهم عن الحق المبين والصراط المستقيم ، وزينت لهم أن يتخلصوا من إبراهيم عليه السلام ، وينزلوا به أشد العقاب انتصاراً لآلهتهم الباطلة ، وانتقاماً منه جزاءله عما صنع لها من تحطيم وتكسير ، ويعلم الله أنه ما أراد بذلك إلا الخير لهم ، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٢)، لكن يأبى الله إلا أن ينصر رسوله وخليله إبراهيم عليه السلام ، وأن يخذل أعداءه وأعداء دينه ، ويبطل ما كادوا به لأوليائه فيبؤوا بالخسران المبين، إمضاء لسنته العادلة الحكيمة في أوليائه وأعدائه .

قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)

(١) سورة الأنبياء ، الآيات : ٦٦ـ٦٧ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٦٨ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآيات : ٦٩ـ٧٣ .

يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾(٢) .

والله الموفق ، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وسلم .

---

(١) سورة غافر ، الآيات : ٥١-٥٢ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٣ .

الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله

الحلقة الرابعة

يختلف حال الداعية في استدلاله باختلاف حال من يسأله عن قضية أو يحاجه فيها ، فقد يكون مقرا بأصول تلك القضية ، معترفاً بما يوجب عليه التزامها والعمل بها ، فلا يشغل المستدل نفسه بإثبات تلك الأصول وإقامة الحجة عليها ، فقد أغناه اعتراف سائله أو خصمه بها عن الاحتجاج عليها ، بل يوجه عنايته إلى بيان اقتضاء هذه الأصول إثبات دعواه فيما خالفه فيه خصمه ليحمله على موافقته فيها واعتقاده إياها والعمل بها ، من ذلك استدلال الرسل عليهم الصلاة والسلام بما أقر به المشركون من توحيد الربوبية على إثبات ما أنكروه من توحيد الإلهية ، وقد أرشد الله جل شأنه إلى هذا في كثير من آيات القرآن ، وهي أدلة عقلية نقلية في وقت واحد ، ومن ذلك أيضاً احتجاج المسلم على المسلم بقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ (١) ، على حفظ القرآن وصيانة نصوصه وألفاظه من التحريف والتبديل وبقائه بلفظه كما نزل ، ليكون حجة على عباده إلى أن تقوم الساعة ، وهذا دليل نقلي تقوم به الحجة على من آمن ببقاء ما بين دفتي المصحف إلى وقت الخصومة ، لكنه خالف في استمرار حفظه في المستقبل .

وقد يكون السائل شاكا في أصول ما سأل عنه ، طالباً الدليل على تلك الأصول أو منكراً لها حتى إذا ما ثبتت بالحجة ثبت تبعاً لها ما سأل عنه أوأنكره ، فيضطر المستدل إلى إثبات هذه الأصول بالأدلة العقلية ، كالذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه ، فإن إبراهيم عليه السلام استدل على إثبات الربوبية لله بأنه هو الذي يحيي ويميت ، فسلك الكافر في جداله طريق التمويه وادعى لنفسه أنه

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

يحيي ويميت ، وقصد معنىٰ سوىٰ الذي قصد إليه إبراهيم عليه السلام في استدلاله ، فأتاه إبراهيم عليه السلام بآية أخرىٰ من آيات الربوبية علىٰ سبيل المثال لا يجد الكافر سبيلاً إلىٰ التمويه والمغالطة فيها فقال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [1]، وكفرعون فإنه قال لقومه ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [3] وقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [4] ، وذكر الله في آيات من سورة الشعراء محاجة فرعون لموسىٰ عليه السلام في ربه وإنكاره عليه أن يتخذ ربا سواه وإقامة موسىٰ الحجة عليه ، فقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [5] ، فهذا استدلال عقلي استدل فيه بالأثر علىٰ المؤثر ، وبالآيات الكونية علىٰ بارئها ، ولا شك أن ذلك مما يدل عقلاً علىٰ اختصاصه تعالي بالربوبية ، ويلزم من ذلك اختصاصه تعالىٰ بالألوهية . وكذلك منكروا النبوة يستدل عليهم بالمعجزات وخوارق العادات ؛ لإثبات النبوة كما هي سنة الله في رسله عليهم الصلاة والسلام ، فإنه يؤيدهم بالمعجزات التي تدل علي صدقهم في دعوىٰ الرسالة وتقوم بها الحجة علىٰ أممهم .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

(٢) سورة النازعات ، الآية : ٢٤ .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٣٨ .

(٤) سورة غافر ، الآيات : ٣٦-٣٧ .

(٥) سورة الشعراء ، الآيات : ٢٣-٢٩ .

وليس بمجدي في مثل ذلك الاستدلال بالنقول الخبرية المحضة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) ، في إثبات التوحيد ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٢) ، في إثبات الرسالة ، ولا يكفي في محاجة من ينكر بقاء القرآن محفوظاً منذ نزل إلىٰ زمن المحاجة الاستدلال بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ (٣) ، بل الإثبات بذلك مستحيل لما يترتب عليه من الدور السبقي أو التسلسل الممنوع . والذي يتعين الاستدلال به في مثل ذلك الدليل العقلي المحض أو النقلي المتضمن للدليل العقلي ، كالآيات التي استدل بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام علىٰ من حاجه في ربه ، والآيات التي استدل بها موسىٰ علىٰ فرعون ، وكثير من الآيات القرآنية التي استدل بها علىٰ البعث والنشور يوم القيامة ، بل يستدل علىٰ إثبات بقاء القرآن محفوظاً إلىٰ يومنا بنقله نقلاً متواتراً وبكونه معجزة خالدة إلىٰ يوم القيامة ، وإليك بيان ذلك :

١ ـ أما بيان كيفية نقله من حين نزوله وتتابعه نقلاً متواتراً يفيد القطع واليقين، فإن رسول الله ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون له الوحي وغيره ، وكان إذا نزلت عليه سورة أو آيات أو آية أو بعض آية أملىٰ ذلك علىٰ كاتب منهم فكتبه علىٰ ما تيسر له من العسب والحجارة الرقيقة والعظام ونحوها ، واستمر ذلك حتىٰ أكمل الله دينه وأتم علىٰ الأمة الإسلامية نعمته ، ومع ذلك كان النبي ﷺ يقرأ ما نزل عليه منه قراءة تثبتٍ وتفهم ودراسة في الصلاة وغيرها ، وكان ينزل عليه جبريل عليهما الصلاة والسلام فيدارسه القرآن في شهر رمضان ، واستمر ذلك حتىٰ توفاه الله . هذا مع عصمته في البلاغ والتشريع .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقرأون ما نزل من القرآن ويتدارسون فيما

---

(١) سورة الإخلاص ، الآية : ١ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ، الآية : ٢٨ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٩

بينهم فلا يكادون ينتهون مما تعهدوه بالتلاوة والدراسة من السور أو الآيات إلا وقد حفظوه وفهموه وعملوا به ، فجمعوا بذلك بين الحفظ والعلم والعمل ، يعرف ذلك من قرأ في دواوين السنة والسيرة ، وعلم ما فيهما من الأحاديث والآثار ، وكان عنده إلمام بحياة النبي ﷺ وحياة أصحابه رضي الله عنهم ، وعرف مدىٰ عنايتهم بحفظ الدين عامة وحفظ القرآن خاصة .

وقد اشتهر بحفظ القرآن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي ابن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو زيد الأنصاري رضي الله عنهم .

ولما كان يوم اليمامة وكثر القتل فيمن كان في جيش المسلمين من القراء لزيادة حرصهم علىٰ القتال ، وحث بعضهم بعضا عليه بكلمة « يا أهل القرآن » إثارة لشعورهم وغيرتهم علىٰ الإسلام حتىٰ يتسابقوا إلىٰ القتال نصرة لدين الله ـ لما كان ذلك ـ اتفق الصحابة رضي الله عنهم علىٰ جمع القرآن مما كتب فيه ومن صدور الحفاظ الثقات ، فتم ذلك علىٰ أكمل وجه وأحكمه ، وكانت الصحف التي جمع فيها عند أبي بكر خليفة رسول الله إلىٰ أن توفي ، ثم عند عمر أيام خلافته إلىٰ أن توفىٰ رضي الله عنهما ، ثم كانت عند بنته حفصه ، وقد علم أن القرآن نزل علىٰ سبعة أحرف [(١)] « أي لغات » ، وكان كل جماعة من الصحابة يقرءون بحرف منها ، فلما تولىٰ عثمان رضي الله عنه الخلافة أشير عليه أن يجمع القرآن علىٰ حرف واحد من الأحرف السبعة ، فأمر رضي الله عنه بذلك ، وتمت كتابة القرآن علىٰ حرف واحد مما بأيدي القراء الثقات ، وقوبل بالصحف التي كانت

(١) حديث صحيح : رواه البخاري (٤٩٩١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفرعاً .
ورواه البخاري أيضا (٤٩٩٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً .

عند حفصة رضي الله عنها وثبت اتفاقهما ، ونسخ منه مصاحف أرسلها إلىٰ عواصم الإمارات الإسلامية بعد أن قرأه علىٰ الصحابة بين يديه فأقروها رضي الله عنهم ، واحتفظ بالأصل عنده بالمدينة المنورة ، وصار المعتمد عند الصحابة رضي عنهم هذه المصاحف وثبت ثبوتاً يوجب اليقين ويفيد القطع ، بأن ما جمع هو ما نزل علىٰ رسول الله ﷺ ، واستمر العمل عليها إلىٰ يومنا هذا ، تنقلها كل طبقة من الأمة عمن قبلها كتابة وحفظاً ، وقد بلغ عدد من كتبه وحفظه ، في كل طبقة حدًّا فوق التواتر الذي لا يبقىٰ معه موضع لريبة ، ولا يدع مجالاً لشك في أن ما وصلنا هو ما جمعه أبو بكر الصديق أولاً ، ثم عثمان ثانيا رضي الله عنهما .

وهذا في إفادة اليقين كالأخبار الكثيرة عن المدن المشهورة في إفادة اليقين بوجودها ولو لم يكن إجماع الصحابة رضي الله عنهم علىٰ أن ما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر ، وفي المصحف في خلافة عثمان رضي الله عنهما هو القرآن المنزل علىٰ النبي ﷺ مفيداً لليقين لما كان هناك ما يفيد اليقين سوىٰ المحسات ، ولو لم تكن الأخبار عن حفظ القرآن ـ في صدور قراءالمسلمين وعن كتابتهم إياه مع الإحكام والدقة في الضبط فهماً في جميع الطبقات ـ مفيدة لليقين لما كان هناك أخبار تفيد اليقين ، ولو أن إنساناً في عصرنا الحاضر الذي خفت فيه عناية المسلمين بالدين أراد أن يجمع القرآن من أفواه القراءوحفاظ القرآن دون الرجوع إلىٰ ما كتب مخطوطاً أو مطبوعاً أومسجلاً في أشرطة لو سعه ذلك بيسر وسهوله، فكيف بذلك في العصور الإسلامية الزاهرة التي بلغت فيها العناية بالدين أصوله وفروعه شأوا بعيداً وغاية قصوىٰ في النهوض به في شتىٰ جوانبه وجميع نواحيه . إن الواقع لأعظم بينة وأقوىٰ شهيد علىٰ بقاء القرآن محفوظاً نصوصه من يوم نزل إلىٰ وقتنا .

٢ ـ وأما إثبات بقائه محفوظاً بكونه معجزة خالدة إلىٰ يوم القيامة ، فإن ما كان به معجزة ودليلا علىٰ نبوة رسول الله ﷺ زمن نزوله عليه لا يزال قائماً ، فهو

لازال يتحدىٰ العالم أن يأتوا بمثله في فصاحته وبلاغته وقوة أسلوبه وفي أحكام تشريعه وصلاحيته للنهوض بالأمم مع تفاوت طبقاتها واختلاف أحوالها في كل زمان ومكان ، وفي قصصه الصادق عن الأمم السابقة وأخباره عن سائرالغيبيات السابقة واللاحقة ، ولم يأت أحد بمثله حتىٰ وقتنا الحاضر مع بعد العهد بنزوله ، ومضي أكثر من ثلاثة عشر قرنا علىٰ ذلك ، ومع كثرة خصوم الإسلام والمسلمين وشدة مكرهم وكيدهم لهم ، ودأبهم في العمل للقضاء علىٰ هذا الدين ومع تقدم الناس في العلوم الكونية والثقافات المتنوعة ، ويأبىٰ الله إلا أن يحفظ دينه ويعلي كلمته ، ويكتب للقرآن والسنة الصحيحة البقاء ، لتقوم بذلك الحجة علىٰ الناس.

٥ـ الدعوة إلى العلم والعمل [١]

الحمد لله مولىٰ النعم ، وواسع الجود والكرم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دافع النقم ، وكاشف الغمم ، بيده ملكوت السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وخليله ، أرسله الله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ، وكفىٰ بالله شهيداً ، صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحبه . وبعد ، فالعلم نور يتبين به الضار من النافع ، ويتميز به الخبيث من الطيب ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر ، سيما علوم الدين التي تفرق بين الحق والباطل ، والهدىٰ والضلال ، فتبصر العبد بربه ، وتعرفه بحقه سبحانه وحق عباده ، وتكسبه رشداً بعد غي ، وتفتح منه أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وبذلك ينعم في دنياه ، ويسعد السعادة الأبدية في أخراه ، ولا يكاد يعرف إنسان ناجح في الحياة العملية من عبادة ، أو دراسة ، أو كتابة ،أو سياسة ، أو صناعة ، أو زراعة ، أو غير ذلك إلا من كان علىٰ بينة وبصيرة بالوسائل العلمية التي يتوقف عليها عمله .

من هنا كان للعلم مزيته وفضيلته ، ومكانته في الحياة العاجلة والآجلة ، ولهذا سارع في طلبه العقلاء ، وتنافس فيه المتنافسون ، وبه تفاوت الكثير من الناس في منازلهم ودرجاتهم حسب تفاوتهم في مداركهم وتحصيلهم وإنتاجهم ، وبه انتظم الكون ونهضت الأمم ، وكان لمن برز فيه القدح المعلىٰ والمقام الأسمىٰ .

وإنما يكون ذلك لمن سدد الله خطاه ، وبصره بشئون دينه ودنياه ، فعلم وعلّم ، وكان مثالاً يحتذىٰ في قوله وعمله ، وسيرته ، وخلقه ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[٢]، وقال :

---

(١) مقالة للمؤلف بمجلة التوحيد التابعة لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر العدد الخامس السنة الثالثة والعشرون .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٩ .

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (١)، وقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢).

وليست منافع العلم وآثاره ، وأجره وثوابه ، وقفاً على من علم وعلّم ، وألف ودوّن ، بل ينال ذلك بفضل الله ورحمته من أعان عليه بوسائله المتنوعة ، وأسبابه الكثيرة ، من طبع الكتب النافعة ، والرسائل المفيدة ونشرها بين طلاب العلم ، وتيسير طريق وصولها إلى أيديهم ، وإنشاء المباني المناسبة لدراستهم وسكناهم ، وبذل ما يلزم لفقرائهم من النفقات ، والسخاء بما يكفل لهم راحة بالهم ، وتفرغهم لما قصدوا إليه ليتوفروا على الدراسة والتحصيل ، ويتمكنوا من التأليف والتبليغ ، فإن للوسائل حكم مقصدها ، والساعي في الخير كفاعله **«وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، ـ أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »** (٣)، وفي الحديث : **« لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس »** (٤).

---

(١) سورة فاطر ، الآيات : ١٩ : ٢٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآيات : ١٩ : ٢٢ .

(٣) أخرجه البخاري رقم (١) وفي الإيمان باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة (٥٤) من حديث عمر بن الخطاب وفي غير موضع ومسلم (١٩٠٧) .

(٤) أخرجه البخاري في العلم باب الإغتباط في العلم والحكمة (٧٣) ومسلم في صلاة المسافرين(٨١٦) .

ولقد انتدب في عصرنا جماعة من ذوي الوجاهة والثراء للإسهام في نشر العلوم الإسلامية ، وأخذتهم أريحة الكرم والجود ، وهزت مشاعرهم الآيات والأحاديث التي حثت على البلاغ ونشر الدين ، فبذلوا الأموال الطائلة في طبع الكتب والرسائل النافعة ، استجابة لما وقر في قلوبهم من الإيمان الصادق ، وغيرة على الإسلام وأهله ، ورغبة في الأجر والمثوبة عند الله ، وليكون ذلك لهم لسان صدق في الآخرين ، فيقتفي آثارهم من بعدهم من المحسنين ، ويصنع مثل صنيعهم ، وتلهج ألسنتهم بالدعاء بالرحمة والمغفرة لهم .

أسأل الله أن يوزع الجميع إلى شكر نعمه ، ويهب لنا عزيمة صادقة ، وهمة عالية ، ونية صالحة ، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، ويجعل ما ذكر من الثناء والمحامد حافزاً لأهل الخير إلى الإكثار من فعل البر والإحسان وابتغاء مرضاة الله ، وطلباً للحسنى والمثوبة عنده يوم لا ينفع المرء إلا ما قدمت يداه ، إنه جواد كريم رءوف رحيم ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٦ـ من أسباب الإنحراف والصدود عن الحق [١]

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وجميع الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد .

فللصدود عن الحق أسباب عديدة ، وموانع كثيرة ، منها الغرور الفكري ، والتقليد عن غير بينة وبصيرة ، وتحكم العادات السيئة في النفوس ، والإنفة والاستكبار ، والحسد الممقوت ، وطاغوت الافتتان بالمركز والجاه وكثرة المال ، وما إلى ذلك ، وكلها أمراض أخلاقية وبيلة ، وأدواءمستعصية فتاكة ، والحديث عنها يطول ، فليكن حديثي في هذه الحلقة عن الغرور الفكري :

الغرور الفكري هو إعجاب الإنسان بعقله ، وافتتانه برأيه ، وإنزاله فوق منزلته، وإعطاؤه من القداسة ما ليس بأهل له ، حتى يدخل فيما لا يعنيه وما ليس في حدود وسعه ، وحدود طاقته ، فيعارض العبد ربه في خلقه وتشريعه فضلاً عن معارضته لنظرائه ومن هو أوسع منه فكراً وأكثر تجربة من العلماء .

لقد وجد الشيطان منفذا لوسوسته في اغترار قوم في عقولهم وعلومهم فاستهواهم وزين لهم أن يخضوا فيما ليس من شأنهم ، وأن يهجموا على بحث ما ليس في وسعهم بحثه .

من ذلك تفاصيل القضاء والقدر ، وأسماء الله وصفاته وكيفيات ذلك ، فاضطربت أفكارهم ، وتفرقت بهم السبل عن الجادة والصراط المستقيم ، فمنهم من غلا في نفي القدر زعماً منه أنه سلك مسلك العدل و التنزيه لله عن الظلم والجور ، وعارضوا بذلك نصوص الإثبات للقضاء والقدر ، ومنهم من غلا في الإثبات حتى سلب المكلفين إختيارهم وأعمالهم ، زعماً منهم أن نصوص عموم مشئية الله واقتداره تنافي ثبوت الاختيار والكسب للمكلفين ، فعارضوا بذلك

(١) مقالة للمؤلف بمجلة التوعية الصادرة في موسم الحج عام ١٣٩٦ هـ .

الحس وأدلة الشرع والعقل ، ولم يكن من اقتحم باب البحث في كنه الله وكيفيات صفاته فغلوا في ذلك نفياً أو إثباتاً بأهدىٰ سبيلاً من هؤلاء ، بل وقع الجميع في حيرة ومتاهات لا نجاة لهم منها إلا بمعرفتهم قدر أنفسهم ، والحدود التي يجب أن تنتهي إليها أفكارهم ويعلموا أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً ، ويلزموا ما جاء في شريعة الله فما تبين من ذلك وجب اعتقاده ، وما لم يتبين من التفاصيل والكيفيات وجب التسليم له ، والقول بما قال الراسخون في العلم ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (١). وحرم الخوض فيه ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (٢) .

واستهوىٰ الشيطان من هؤلاء المغرورين طائفة أخرىٰ ، فزين لها أن تسن قوانين من عند أنفسها لتتحاكم إليها ، وتفصل بها في خصوماتها ، وسول لها أن تضع قواعد بمحض تفكيرها وهواها ، تنظم بها اقتصادها وسائر معاملاتها ، محادة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وانتقاصاً لتشريعهما وزعماً منها أن تشريع الله لا يصلح للتطبيق والعمل به في عهدهم ، ولا يكفل لهم مصالحهم ، ولا يعالج ما جد من مشاكلهم ، حيث اختلفت الظروف والأحوال عما كانت عليه أيام نزول الوحي واتسع نطاق المعاملات ، وكثرت المشكلات ، فلابد لتنظيم المعاملات ، والفصل في الخصومات من قواعد وقوانين جديدة ، يضعها المفكرون من أهل العصر الواقفون علىٰ أحوال أهله ، المطلعون علىٰ المشاكل العارفون بأسبابها وطرق حلها لترتكز علىٰ واقع الحياة ، وتتناسب مع أحوال الناس وظروفهم الحاضرة ، ومع مستوىٰ ثقافتهم وحضارتهم الراهنة .

فهؤلاء لم يقدروا عقولهم قدرها ، ولم ينزلوها منزلتها ، ولم يقدروا الله

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

حق قدره ، ولم يعرفوا حقيقة شرعه ، ولا طريق تطبيق منهجه وأحكامه ، ولم يعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، فعلم ما كان وما سيكون من اختلاف الأحوال وكثرة المشاكل ، وأنه أنزل شريعة عامة وشاملة ، وقواعد كلية محكمة ، وقدرها بكامل علمه ، وبالغ حكمته فأحسن تقديرها ، قد جعلها صالحة لكل زمان ومكان ، فمهما اختلفت الأزمنة والحضارات ، وتباينت الظروف والأحوال فهي صالحة لتنظيم معاملات العباد وتبادل المنافع بينهم ، والفصل في خصوماتهم وحل مشاكلهم ، وصلاح جميع شئونهم في عبادتهم ومعاملاتهم .

إن العقول التي منحها الله عباده ليعرفوه بها ، وليهتدوا بفهمها لتشريعه إلىٰ ما فيه سعادتهم في العاجل والآجل قد اتخذوا منها خصما لدوداً لله فأنكروا حكمته ، وحسن تدبيره وتقديره ، وضاق صدرهم ذرعاً بتشريعه وأساءوا الظن به فانتقصوه وردوه ، وقد يصابون بذلك وهم لا يدرون ، لأنهم بغرورهم بفكرهم عميت عليهم معالم الحق والعدل فكانوا من الأخسرين أعمالاً ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [1]وكانوا ممن قال الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[2] .

إن الله سبحانه كثيراً ما يذكّر الناس في القرآن بأحوال المعتدين الهالكين، ويحثهم علىٰ أن يسيروا في الأرض لينظروا ما كانوا فيه من قوة ورغد عيش وحضارة ، وبسطة في العلم نظر عظة واعتبار ، ليتنكبوا طريقهم السيء اتقاء لسوء مصيرهم ، ولفت النظر في بعض السور إلىٰ جريمة الغرور الفكري ، لشدة خطره ، وبّين أنه الفتنة الكبرىٰ التي دفعوا بها في صدور الرسل وردوا بها دعوتهم ، ليعرفنا بقصور عقول البشر أنها لا تصلح لمقاومة دعوة الرسل

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٠٤ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٨ ، ٢٩ .

وليحذرنا من خطر الغرور الفكري الذي هلك به من قاوم المرسلين قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

إن اعتبار الإنسان لفكره واعتداده به درجات ، منها المحمود ومنا المذموم ، فما جاوز الحد وبلغ درجة الإعجاب بالرأي والعصبية له ، ودفع الحق به بعد ما يتبين علىٰ نحو ما مضىٰ الحديث عنه فهو الممقوت ، وما وقف بالمفكر عند حده فاعتقد ما فهم من الدليل عن بيّنة وبصيرة ، واعتز به لكونه الحق في نظره دون أن يعارض به صريح كتاب ، ولا صحيح سنة ، ولا اجماع أمة فليس بممقوت ، بل هو الواجب عليه ، وعلىٰ تمسكه به يحمد ، لكن ينبغي له أن ينصف مناظره من نفسه، ويحترم فكر صاحبه كما يجب أن يقابله بمثل هذا الاحترام ليستمر البحث والمناظرة ، ويتبين الحق من قريب مع المحافظة علىٰ الأخوة ، وأواصر المحبة والوئام. والله الموفق . وصلي الله علىٰ نبينا محمد وآله وسلم .

---

(١) سورة غافر ، الآيات : ٨٢ ، ٨٥ .

٧ـ فتاوى الأخلاق وطلب العلم والدعوة

س١ : سئل الشيخ : بماذا تنصح طلبة العلم والدعاة ؟ .

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : الدعاة يدعون إلى ما تعلموا ويبدؤون بالتدرج ، يبدأ بالأهم فالأهم العقيدة قبل الفروع . كما فعل الرسل وينتهز الفرص . كذلك طلبة العلم كما يبدأون غيرهم بالدعوة إلى التوحيد ، فيبدأون هم بتعلم التوحيد قبل الفروع والرسل لم يتعرضوا للفروع في أول الأمر إلا في الفروع الشديدة التي تفشى فيها المخالفة .

شعيب حذر من نقصان المكيال ؛ ولوط حذر من الفاحشة . وهذان الأمران يتصلان بالأخلاق والأخلاق قرينة التوحيد . وفي الفروع يتدرج ، فالربا لم ينزل تشريعه إلا في آخر التشريع ، وشرب الخمر كان تركه صعباً فتأخرت الدعوة إلى تركه . وفي الدعوة إلى العقيدة تدرج ، فالرسول ﷺ لم ينه الصحابة عن الحلف بغير الله إلا مؤخراً ؛ لأنه من باب الوسائل .

وفي هذه الحالة إذا رأى منكراً لم يأت الوقت لبيان حكمه يسكت ولكن لا يدعو إلى المنكر .

س٢ : سئل الشيخ : هل يبدأ بتعليم القرآن قبل غيره من العلوم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : تعلم القرآن في طرق التربية لابن خلدون عند المغاربة طريقتهم البداءة بالقرآن قبل تعلم أي علم ، وطريقة غيرهم أن يصاحب حفظ القرآن حفظ المختصرات وتعلمها ، وكان هذا موجود عند الأولين ، منهم من كان بحراً في الحديث ، وحافظاً للقرآن ، وأجهل من دابة في النحو والعربية .

س٣ : سئل الشيخ : عن حكم تعلم التجويد ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : المطلوب هو التجويد العملي للقرآن وتلاوة

صحيحة . ولو بالتقليد والمحاكاة وهذا الذي كان موجودًا عند الصحابة . أما القواعد التي وضعت فيما بعد لضبط التلاوة فتعلمها فرض كفاية في حق الأمة كلها لابد أن يكون فيهم من يتعلمها لكى يُعلمها . وهى مستحبة لمن بعدهم ممن قد سقط عنهم الفرض الكفائي .

س٤ : سئل الشيخ : هل تنصح بالقراءة والتوسع في علم من العلوم أم تنصح بالقراءة في جميع العلوم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : ذكر الشاطبي في تعميم الملكات وهو مبحث في علم التربية : هل يلزم أن يكون الإنسان قوياً في جميع العلوم ؟ أم لا يلزم ؟ هما قولان :

وذكر أنهم سألوا نحوياً في الفقه ، وهو يقول بتعميم الملكات إذا سها في سجود السهو هل يسجد ؟ قال : لا ، لأن المصغّر لا يُصغّر (قال الشيخ وهذا ليس بدليل) .

س٥: سئل الشيخ : أيهما أفضل الجلوس في حلقات الذكر أم تشيع الجنازة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هذا يختلف باختلاف الحال ، فالجنازة إذا لم تجد من يشيعها كان واجباً على الإنسان أن يمشي فيها ويسعى في تشيعها ، وهذا دون شك أفضل من حلق الذكر .

وإذا وجدت من يشيعها سواه وهو في حاجة إلى العلم ، جلس مجلس العلم وليشيعها من هو عندها .

فالحكم يختلف بإختلاف الحال وبإختلاف حال الإنسان وحاجته . والبصير من يقدر الأمور ويرتبها على حسب أهميتها في الوقت والحال الكائن فيه .

س ٦: سئل الشيخ : انتقد بعضهم كتاب بلوغ المرام لابن حجر ، يقولون فيه أحاديث مبتورة غير كاملة ، وأحاديث أخرى ضعيفة فما رأيكم في هذا الكلام ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يُصلح ما فيه من الخطأ ويؤخذ بما فيه من الصواب

ولا يمنع ما فيه من خطأ من الاستفادة مما فيه من الصواب .

س٧ : سئل الشيخ : أيهما أقرأ زاد المعاد أم المغني ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : زاد المعاد خير من المغني ، لأن ابن القيم متأخر عن ابن قدامة ، ومحقق عنه .

س٨ : سئل الشيخ : ما هو رأي فضيلتكم في كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري رحمه الله ؟ وأيهما أقرأ الترغيب أو رياض الصاحين ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذري هو كتاب جيد لكن ليس انتقاؤه للأحاديث الصحيحة بدرجة رياض الصالحين . فـ (رياض الصالحين) للنووي أنقى حديثا منه . أما كتاب الترغيب والترهيب ففيه أحاديث ضعيفة ، وله اصطلاح خاص به وهو أنه إذا قال في صدر الحديث رُوى أو حُكى أو صيغة من صيغ التمريض المبنية للمجهول فإن ذلك يدل على أن الحديث ضعيف وقد أشار المنذري إلى هذا الإصطلاح في المقدمة .

وله اصطلاح آخر ، ذلك أنه إذا ذكر رجلا أو رجلين من السند قبل الصحابي يُعلم من ذلك أن السند فيه ضعف في الرجل أو الرجلين الذين ذكرهما من السند.

وقد ترجم الحافظ المنذري لهؤلاء الرواة الذين ذكرهم ، وتكلم فيهم في آخر الكتاب ، وبهذا أصبح المنذري رحمه الله معذوراً فيما يذكر من الأحاديث ، وذلك أنه بين حال غالبها ، وحال رجالها المتكلم فيهم ، ثم يبقى دورك أنت تقبل الحديث أولا تقبله . لكن الحكم على الحديث من خلال المصطلحات التي استعملها المنذري يحتاج إلى خبرة في هذا الشأن فمن كان يجد في نفسه هذه الخبرة فلا بأس أن يقرأ في كتاب الترغيب ويستفيد مما فيه ، ومن كان يرى أنه لا تتوفر عنده مثل هذه الخبرة فالأفضل له أن يقرأ في كتاب رياض الصالحين

للنووي، فهو أنقىٰ حديثا من كتاب الترغيب والترهيب و أوضح مسلكا ومنهجا والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد .

س ٩ سئل الشيخ : هل تصح نسبة كتاب النبوات لابن تيمية ؟

فقال الشيخ : ـ رحمه الله : ـ في نظري أنه لابن تيمية ، فالأسلوب أسلوبه ، وأنا لم أحكم أن نسبته لابن تيمية تثبت بخطوط ، فهذا الاستدلال إليه ولا أجعله دليلاً لي لأني لا أعرف الخطوط ،ولا أعرف خط ابن تيمية حتىٰ أطبق علىٰ المخطو ، وكذلك لم أحكم من جهة سلسلة موثوق بها من عهد ابن تيمية إلىٰ يومي هذا ، فليس عندي ذلك السند إنما الذي أستند إليه في هذا معرفتي بأسلوب ابن تيمية ، فإنني إذا قرأت في كتاب لابن جرير الطبري أو ابن تيمية أعرف طريقته في الاستدلال ،وأعرف دورانه وجدله حول الموضوع ،وذلك بكثرة قراءتي لكتبه ،وأنا قرأت كتاب النبوات وأعرف أن الأسلوب أسلوبه وأن كثيراً منه موجود في كتب أثق بأنها كتب ابن تيمية غير هذا الكتاب .



سابعاً

فتاوى ذم البدع

سابعاً : فتاوى ذم البدع

س١ : سئل الشيخ : عن تخصيص ليلة النصف من شعبان بصيام أو قيام ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : كل ما ورد في ليلة النصف من شعبان ضعيف .

س٢ : سئل الشيخ : الأيام الفاضلة والأمكنة الفاضلة . هل تخص بزيارة العبادة وهل يتضاعف فيها الثواب ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا ورد فيها نص يخصها بزيادة عبادة أو يخبر بزيادة ثواب العبادة فيها فبها وإلا فلا يزاد في العبادة فيها عن بقية الأيام .

س٣ : سئل الشيخ : هل من السنة المواظبة على ختم القرآن في التراويح ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : المقصود ختم القرآن في رمضان ، لكن ليس المقصود ختمه في الصلاة . ودعاء ختم القران مخترع وتخصيصه بوتر آخر رمضان لم يرد وتراجع رسالة الشيخ بكر أبو زيد .

س٤ : سئل الشيخ : عن حكم قراءة القرآن جهراً في المحافل والمجامع كحفلات الزواج هل هذا ابتداع ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هذا من البدع جعل افتتاح المجالس رسمياً بتلاوة القرآن حيث لم يرد فيه نص ، فلا يتخذ عادة ، ويجوز فعله أحياناً ، وأنا اختلفت مع هيئة كبار العلماء عندما افتتحوا بتلاوة القرآن الكريم . قلت : هذا بدعة ما حصل هذا من الرسول ﷺ ومجالسه كثيرة ، وهو الإمام المقتدىٰ به . أما إذا كانت موعظة مشتملة علىٰ آيات من القرآن فما عليه حرج .

س٥ : سئل الشيخ : عن التزام « صدق الله العظيم » ختاماًللقراءة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إلتزام هذا القول بعد التلاوة بدعة ؛ لأن الرسول ﷺ وصحابته أقرأ الناس للقرآن ولم ينقل هذا عنهم فهو بدعة .

س٦ : سئل الشيخ : هل هناك بدعة حسنة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : ليس هناك بدعة حسنة . وما يسمونه بدعة حسنة هو من المصالح المرسلة .

س٧ : سئل الشيخ : هل هناك حرج في أن يحدد الإنسان لنفسه صلوات أو أوراد من الذكر والتلاوة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : ما دام هذا التحديد لنفسه ، ولم يدع إليه غيره فلا بأس .

ثامناً

فتاوى متفرقة



فتاوى متفرقة

س ١ : سئل الشيخ : متى يحمل الأمر على الندب والنهي عن التحريم ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : إذا كان الأمر متعلقاً بالضروريات فإنه يحمل على الوجوب وإذا كان متعلقاً بالتحسينات فهو محمول على الندب .

والنهي إذا كان في باب الضروريات أو الحاجيات فهو للتحريم وإن كان في باب التحسينات فهو للكراهة .

وهذه قاعدة ضابطة وإن شئت تفصيل الكلام فيها فارجع إلى كتاب المقاصد من الموافقات - بفتح الفاء - للإمام الشاطبي - رحمه الله - .

س ٢ : سئل الشيخ : هل يجوز الاحتجاج بالحديث الضعيف في مسائل الاعتقاد على سبيل الاحتجاج لمذهب السلف عند فقد دليل صحيح ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : لا يجوز الاحتجاج بالحديث الضعيف لا في العقائد ولا في غيرها .

س ٣ : سئل الشيخ : عن معنى حديث : « لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيعتقه»[1]؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : مهما فعل الولد من المعروف والإحسان إلى والده لا يجزيه في بره له ، ولا يستطيع أن يكافئه على تربيته إياه ، إلا أن يجد الولد والده عبداً فيحرره ، فيكون بذلك قد كافأه بنص الحديث .

أما من قال : إنه لا يكافئه حتى لو أعتقه لحديث أنت ومالك لأبيك . فكيف يعتق المملوك مالكه ؟ فليس بصحيح ؛ لأن ملك الوالد لولده ملك معنوي وليس

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٥١٠) . وأبو داود (٥١٣٧) . وابن ماجه (٣٦٥٩) . وأحمد (٢/ ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٣٧٦) .

حقيقياً لأن الولد لا يكون عبداً لأبيه ، ولكنه مع ذلك مأمور بطاعة أبويه كطاعة العبد لسيده أو أكثر .

س ٤ : سئل الشيخ : ما هي ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لابد من أن يكون المنكر الذي ينهىٰ عنه والمعروف الذي يأمر به مما لا خلاف في كونه معروفا أو منكراً عند جميع العلماءأو بالنصوص الشرعية . كذلك لابد ألا يجلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تعطيل مصلحة أعظم من المعروف المأمور به ، أو جلب مفسدة هي أعظم مما نهىٰ عنه .

ولابد من تحمل الأذىٰ في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الله تعالىٰ : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾[1] وقد أوذي الرسول ﷺ . وتغير المنكر بدون أذىٰ غير موجود في الدنيا » .

س ٥ : سئل الشيخ : عن الفديو ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : الفديو آلة إذا استعملت في الخير فهو خير ،وإذا استعملت في الشر فهو حرام ، هذا من ناحية مشاهدة أشرطتها .

س ٦ : سئل الشيخ : عن القصة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : القصة يشترط أن تكون صدقاً ، وأن يكون هدفها خيراً ، ولا يجوز اختلاق قصة لم تقع .

س ٧ : سئل الشيخ : عن الحكاية ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يصح لك أن تروي حكاية حكاها ابن الجوزي بشرط أن تنسبها إليه . قال ابن الجوزي : حصل كذا وإن كانت كذبا فعهدتها

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٧ .

عليه وإن كانت صدقاً فأجرها له .

س ٨ : سئل الشيخ : ماذا يفعل الإنسان إذا اغتاب شخصا آخر ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : إذا اغتاب رجل آخر يستسمحه إجمالاً يقول :

أخطأت في حقك فسامحني ، ولا يقول له تفصيلاً حتىٰ لا تحصل فتنة وإذا كان في بلد أخرىٰ كتب له .

س ٩ : سئل الشيخ : ما حكم اتهام العلماء بعدم الفهم ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : لا يجوز اتهام عالم من العلماء بأنه لا يفهم الواقع ، هذا تشويه ولا يصح أن يقال أن العلماء أو بعض العلماء لا يدركون الواقع إذا كان الذهن ينصرف إلىٰ علماء بعينهم .

س ١٠ : سئل الشيخ : هل ننال فضل الاجتماع على الطعام بالرغم من استقلال كل واحد بصحن ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : نعم : المقصود بالاجتماع الاجتماع علىٰ المائدة لا الإجتماع علىٰ نفس الصحن .

س ١١ : سئل الشيخ : عند تدريس التربية الإسلامية للنصارى هل يجوز لهم مس المصحف ، وقراءته ويختبرون وترصد لهم الدرجات لعلهم يسلمون ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : لنا فتوىٰ في هذا الموضوع بجواز دخول الكافر مدارس المسلمين ولو كان بوذياً .

س ١٢ : سئل الشيخ : عن زواج الجني بالإنسية ؟ والإنسي بالجنية ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : ممكن ولكن من ادَّعىٰ ذلك فعليه الإثبات .

س ١٣ : سئل الشيخ : عن تشبيك اليدين خلف الظهر ؟

فقال الشيخ - رحمه الله - : هي عادة الأعاجم وهي من المشابهة المنهي عنها .

س ١٤ : سئل الشيخ : عن وقت أذكار المساء ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هناك من يقول : من بعد الظهر ، وهناك من يقول بعد العصر ، وهناك من يقول بعد غروب الشمس .

والراجح عندي : أنها من بعد غروب الشمس كما قال ابن القيم ، وأنا لم أستقص الأذكار حتىٰ أحدد إذا كان بعضها مقيداً بما قبل الغروب . وقوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1] المقصود به الخمس صلوات .

س ١٥ : سئل الشيخ : امرأة متزوجة لا ينبت لها شعر في رأسها . هل لها أن تلبس شعراً مستعاراً بعلم زوجها ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لا يجوز .

س ١٦ : سئل الشيخ : هل يجوز الاستشهاد بكافر في المحكمة في قضية أو الشهادة له ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : نعم ، إذا كانت الشهادة بحق ليست بباطل يجوز أن تستشهد به ، أو تشهد له .

س ١٧ : سئل الشيخ : ما هو الضابط في مسألة الإحسان إلى الكافر الذمي متى تكون من باب الموالاة ؟ ومتى تكون من باب تأليفه على الإسلام ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : حسب نيته . إذا نوىٰ موالاته فهي موالاة ، وإذا نوىٰ تأليفه علىٰ الإسلام فهي تأليف علىٰ الإسلام .

س ١٨ : سئل الشيخ : عن ورقة بن نوفل هل يعتبر صحابياً أو من أهل الفترة ؟ ولِمَ ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا كان قد ثبت إسلامه في زمن الرسول ﷺ فهو صحابي . وقوله : إنه الناموس الأكبر ليس تصريحاً بإسلامه ؛ لأنه قال : إن يدركني يومك ولم يدركه .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٣٠ .

س ١٩ : سئل الشيخ : عن الروائح المخلوطة بالكحول ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لا بأس به ما لم تكن مسكرة والمسكر فيها أنواع مخصصة وهي التي تكسرها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليس كل كحول مسكر فقشر البرتقال فيه كحول لكنه غير مسكر .

س ٢٠ : سئل الشيخ : امرأة باق في عدة وفاة زوجها خمسة أيام ومضى منها أربعة أشهر وخمسة أيام هل يجوز لها الخروج ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لا يجوز لها أن تخرج من بيتها ، ولا أن تسافر إلى الحج ولو كان عمرها عمر نوح .

س ٢١ : سئل الشيخ : عن طريقة التخلص من الورق المكتوب فيه اسم الله ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : المهم ذهاب معالم الكتابة التي تجعلها تقرأ فيصح أن يشق اسم الله ، فيفصل اللامين عن بعضهما ، والرحمن يفصل اللام والراء عن الحاء والميم .

س ٢٢: سئل الشيخ : شخص يلحقه ضرر في ماله إذا لم يشفع له آخر عند من له سلطة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يجب على من يستطيع الشفاعة أن يشفع بدون مقابل لوجه الله ، وإذا لم يشفع إلا بدفع رشوة له فيجوز دفعها لإزالة هذا الضرر، والإثم في هذه الحالة على الآخذ . أما الدافع فمعذور . والله أعلم .

س ٢٣ : سئل الشيخ : هل يلزم تغطية الفواكه والخضروات قبل النوم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : يشرع تغطية الإناء والتسمية عند التغطية سواء أكان شراباً أم طعاماً جامداً ، ويستثنى من ذلك الفاكهة أو الخضروات إذا كانت في قشرتها .

س ٢٤ : سئل الشيخ : عمَّن سها وترك تغطية الطعام فهل يأكل منه ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا سها وترك تغطية الطعام فعليه أن يطعمه للحيوان ولا يأكل منه . وإذا أكل منه فقد أساء إلىٰ نفسه .

س ٢٥ : سئل الشيخ : ما حكم السفر إلى بلاد الكفار للعمل ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا وجد عملاً في بلاد المسلمين لم يجز له السفر إلىٰ بلاد الكفار . وإذا لم يجد يجوز له السفر للعمل هناك بشرط أن يأمن علىٰ نفسه من شُبَهْ الكفار ، فإن لم يأمن فحفظ دينه أولىٰ .

س ٢٦ : سئل الشيخ : ما حكم الأموال التي اكتسبها المسلم من عمله في بلاد الكفار مع فرض أن إقامته فيها محرمة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا كان المال مكتسباً من وجه حلال كالبيع والشراء، فهو حلال .

س ٢٧ : سئل الشيخ : إذا كان الإنسان يعمل المعصية ثم يندم على فعلها ويتوب إلى الله ، ولكن بعد ذلك بمدة يعود إلى هذه المعصية مرة أخرى ، ثم يندم ويتوب ، ثم يعود إليه وهكذا فماذا يفعل ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا علم الله منه الصدق في التوبة والإخلاص ثم طرأ عليه فيما بعد تغير ، وتسلط عليه الشيطان وغير من حاله ، فالله يغفر ما مضىٰ مما قد تاب منه توبة خالصة نصوح ، ولا يعود إليه الذنب الماضي بعودته إلىٰ الذنب مرة أخرىٰ .

أما إذا علم الله منه عدم الصدق في التوبة في المرة الأولىٰ ، فذنبه لم يغفر لعدم الإخلاص في التوبة الأولىٰ ولعدم النصح فيها ، وليس لأنه عاد إلىٰ الذنب مرة أخرىٰ .

س ٢٨ : سئل الشيخ : هل هناك حرج في قولة أدامك الله ، وهل هذه القولة تعارض قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ أم لا ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : لا حرج في أن يقول الإنسان لأخيه آدامك الله ، والدوام ليس معناه أن لا يموت ، والدوام يطلق على طول المدة مثل أطال الله بقاءك ، فالمراد بأدامك الله ، أطال الله بقاءك المراد بها هذا ، ولو قال أطال الله بقاءك كان خيراً منها ، حتى لا يحتاج إلى تأويل فيما يتكلم به ، والكلام الذي لا تكلف فيه ولا يحتاج إلى تأويل خير من الكلام الذي يحتاج إلى تأويل وشرح لمقصده .

س ٢٩ : سئل الشيخ : ما حكم مسح الوجه باليدين بعد الإنتهاء من الدعاء وهل ورد فيه حديث عن النبي ﷺ ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : ليس مسح الوجه بعد الدعاء من السنة بل هو بدعة لأن مسح الوجه باليدين عقب كل دعاء يعتبر نسك وعبادة . وهو لم يثبت أن النبي ﷺ فعله فيكون بدعة في الدين والحديث الذي ورد في هذا ضعيف ولم يصح .

س ٣٠ : سئل الشيخ : رجل كان له دكان يبيع فيه أشرطة الأغاني المنحرفة ، ثم هداه الله وحول المحل إلى بيع أشرطة إسلامية ، فما الحكم في المال الذي كسبه وأكله من بيع الأشرطة المحرمة التي كان يسجلها ويبيعها قبل التوبة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : ما أكله من هذا المال الحرام فإنه يتوب إلى الله ويستغفره . وما أكله يكفيه التوبة وليس في وسعنا إسترجاعه من جوفه ومن بطنه . وما بقي عنده من المواد المحرمة على الأشرطة فيسهل التخلص منها بمحوها ويُسجل عليها قرآن وأذكار ، أو كتاب في التوحيد والعلم . فيسمع حتى يتعلم دينه ، فيترك السوء والشر ويجعل مكانه الخير . وأما ما مضى منه فالله يتوب عليه ، وما بقي من الكسب الحرام ينفقه في وجوه البر ، ليس على سبيل الصدقة

إنما أقول يتخلص منه بانفاقه في وجوه الخير والبر ، لأن الصدقه لا تكون إلا من كسب طيب ولذلك لا نسميه صدقه لكن نسميه تخلصا من كسب حرام . وسوف يكسب أجراً وثواباً على تخلصه من هذا المال إن شاء الله .

س ٣١ : سئل الشيخ : خادمة صغيرة السن حملت طفلة ثم سقطت وماتت فهل عليها دية لهذه الطفلة ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : إذا كانت ماتت من السقطة فعليها الدية وعليها الكفارة لأن هذا قتل خطأ . ولو كانت جاهلة . والدية على العاقلة وهم عصبتها .

تاسعاً

نظرة إلى واقع المسلمين

مايجب عليهم



١ـ التحذير من كيد الأعداء
المتربصين بالأمة الإسلامية

قال رحمه الله تعالى : إن أعداء المسلمين ما فتئوا يكيدون للمسلمين ويحاولون إضعاف قوتهم وتفريق كلمتهم بكل سبيل . فلما أعيتهم الحيل للنيل من الإسلام وأهله بالقوة ، والسيف ، أو بالحجة والبرهان ، عمدوا إلى السلاح النسوي ، سلاح الدس البغيض ، والتلبيس . فلبسوا لذلك لأمة النفاق ، وتدرَّعوا بدروع التقية خشية الظنون والرِّيب ، وخشية أسياف الغيورين من المجاهدين . مستبطنين الكفر والعدوان ، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة .... إن ما ترزخ تحته الأمة الإسلامية اليوم من تفرق في الرأي ، وضعف في الدفاع ، وتأخر إلى الوراء حين يتقدم غيرهم ، ليس كل ذلك إلا نتيجة غفلتهم عن مخططات أعدائهم وبعدهم عن تراث السلف الصالح وسلوكهم لغير خطتهم علماً وعملاً وفي موضع آخر يتحدث الشيخ ـ رحمه الله ـ عن حقيقة العداوة بين المؤمنين والكافرين وطرق مواجهتها فيقول :

إن العداوة التي بين المؤمنين والكافرين عداوة قديمة مستأصلة ، وإن الخصومة التي بين الفريقين خصومة مستحكمة ، وإن قلوب الكافرين لم تزل ولا تزال تتوهج فيها جمرات الغيظ ، وتشتعل فيها نيران الضغائن والأحقاد ، لا يكاد يخبو لهيبها أو تخمد جمرتها ، بل لا تزال تزداد يوماً بعد يوم ، تتخذ ألواناً مختلفة من الكيد والتلبيس ، وأشكالاً من الحروب الضاربة خفية وجهرة ، سراً وعلانية ، وما خفي منها أشد ضراوة ، وأعظم فتكاً بالمسلمين مما ظهر ، ولذا حذرنا الله من موالاتهم واتخاذ بطانة منهم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ

وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (١) .

تارة تكون حرباً مادية تدور رحاها في الجو ، أو البحر ، أو على بساط الأرض ، بالطائرات والغواصات والدبابات وأمثال ذلك من الأسلحة الفتاكة ، وتارة تكون نظرية تدور رحاها في عالم الأفكار بإلقاء الشُّبه ، ونشر نظريات الإلحاد ونحوها لتشكيك المسلمين في دينهم ، وزلزلة العقيدة في نفوسهم ، ومحو ما في قلوبهم من حق ويقين ، وآونة تكون حرب أعصاب وفتن توهن العزائم ، وتبعث الرعب في القلوب ، وتحطم وحدة المسلمين وتفرق جماعتهم بما تلقيه في نفوسهم من بذور الأثرة وأسباب العدواة والبغضاء ، وتجعل بعضهم حرباً على بعض ، إلى غير ذلك من ألوان الكيد والحروب ، فلابد للمسلمين أن يواجهوهم بمثل أسلحتهم ، فيواجهونهم بأسلحة مادية يضعونها في نحورهم ، ويقضون بها عليهم ، ويواجهونهم بأدلة علمية يثبتون بها الحق في قلوب المؤمنين ويمحون الشُّبه حتى لا تكون فتنة ولا إلحاد ، ولا حيرة ولا شكوك ويواجهونهم بإيجاد يقظة في الأمة الإسلامية ، ونشر الوعي فيها حتى ينكشف لهم ما بخصوصهم من الكيد والدس ، وحتى لا يغتروا بالبهرج الكاذب والمظاهر الخداعة ، ولا يأخذ التهريج من نفوسهم مأخذه .

وكل هذه المواجهات والمكافحات أنواع من الجهاد في سبيل الله ، فيجوز أن يستعان في القيام بها بأموال الزكاة وغيرها من تبرعات المحسنين من أغنياء المسلمين ، وبيوت الأموال في الدول الإسلامية عن طريق ولاة الأمور ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الكفر هي السفلى ، وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ، والله الموفق . وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٨ ، ١١٩ .

٢ـ التحذير من الفرقة وآثارها المدمرة

كان الناس أُمَّة واحدة على الحق بما أودع الله فيهم من فطرة الإسلام ، وبما عهد إليهم من الهدى والبيان ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، فاجتالهم الشياطين عن الصراط المستقيم ، وسلكت بهم بُنيَّات الطريق ، فمتزقت وحدتهم واختلفت كلمتهم ، فبعث الله النبيِّين مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً .

قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (٢) .

وقال ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٣) . الحديث ، وقد أمر الله ـ تعالى ـ في كتابه وعلى ألسنة رسله بوحدة الكلمة والاعتصام بشرعه ، وحذَّر من الفرقة والاختلاف ، وبين عاقبة ذلك بما ذكر من أحوال الأمم الماضية ، وما خاق بها من الدمار ، وأصابها من الهلاك ، وحثهم على البيان والبلاغ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نُصرةً للحق ، وإزالة للشبهة ، وإحباطاً لكيد دعاة السوء واستهوائهم النفوس الضعيفة .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٣ .

(٢) سورة الروم . الآية : ٣٠ .

(٣) رواه البخاري (٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٩ .

وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾(١) .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع ، فمذا تعهد إلينا ؟ فقال : « **أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة** »(٢) . إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث .

ومع ذلك دب الخلاف بين الناس ، فما من أمة من الأمم إلا وقد اختلف بهم الأهواء حتىٰ وضع كل لنفسه أصولاً يبني عليها مذهبه وإليها يرجع في خصومته . فتناقضت مذاهبهم ، وصار كلٌّ واحدٍ حرباً علىٰ أخيه ، وشُغل بذلك عن كتاب الله ، وهدىٰ رسوله ﷺ إلا أنه ـ سبحانه ـ جرت سنته واقتضت حكمته أن يُقيِّض للحق في كل عصر جماعة تقوم عليه ، وتهدي الناس إليه ، إنجازاً للوعد بحفظ دينه وإقامة للحجة ، وإسقاطاً للمعاذير ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣) .

وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٤) .

وقال ﷺ : « **افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كُلها في النار إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وستفترق هذه الأمة**

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٣) سورة فاطر ، الآية : ٢٤ .

(٤) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » . وفي رواية ، قالوا : يا رسول الله! مَن الفرقة الناجية ؟ قال : « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي** » . وفي رواية ، قال : « **هي الجماعة يد الله على الجماعة** » . رواه أبو داود والترمذي والنسائي [١] وغيرهم . وفي الحديث : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق** . . . الحديث [٢].

وقد تبين من ذلك أن الفرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة ، وأن شعارها كتاب الله ، وهدىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه سلف الأمة الذين يؤمنون بمُحْكَم النصوص ويعملون بها ، ويردون إليه ما تشابه منها ، وأمّا الفِرق الضالة فشعارها مفارقة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة واتباع الأهواء ، وشرع ما لم يأذن به الله من البدع والآراء الزائفة بناءً علىٰ أصول وضعوها ، يوالون عليها ، ويعادون ، فمن وافقهم عليها أثنوا عليه وقربوه ، وكان في زعمهم من أهل السنة والجماعة ، ومن خالفهم تبرأوا منه ونبذوه وناصبوه العداوة والبغضاء ، وربما رموه بالكفر والخروج من ملة الإسلام لمخالفته لأصولهم الفاسدة .

---

(١) رواه أحمد في مسنده وابن ماجه (٣٩٩٣) وفي الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات .
(٢) رواه البخاري (٧٣١١) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

٣ـ وجوب تنصيب ولي أمر المسلمين
ووجوب طاعته في المعروف

إن إقامة ولي أمر عام للمسلمين يتولى شؤونهم ، وتنتظم به أمورهم ، ويجمع شملهم ، واجب على المسلمين ، فيجب عليهم أن يختاروا من بينهم من يصلح للقيام بواجب الأمة ، وإن لم يكن في الأمة من يصلح لذلك إلاَّ واحداً تعين عليهم أن يُقيموه وليّاً عاماً عليهم ، ويتعين عليه أن يقبل تولي هذا ، حفظاً لكيانها ، وتحقيقاً لما ينهض بها ، سياسة وتدبيراً ، وثقافة وعلماً ، وانتاجاً في السلم والحرب ، والشدة والرخاء ، وفي جميع الأحوال .

والحكمة في ذلك : رعاية مصلحة الأمة ، وصيانتها من أن يدب إليها دبيب الفشل ، فتضعف شوكتها ، وتذهب ريحها ، فيطمع فيها أعداؤها ويستولوا عليها وعلي مرافق حياتها ، ويسخروها لمصالحهم ، ويسومونها سوء العذاب .

وقد شهدت الفطرة بضرورة إقامة ولي عام على المسلمين ، يسهر على مصالحهم ، ويسعى جهده في دفع كيد أعدائهم ، ويبذل وسعه في توحيد كلمتهم ، ولم شعثهم ، بل عرف الإنسان أن اتخاذ القيادة وضرورتها أمر جبلت عليه الحيوانات العجماوات ، فإنا لا نكاد نجد طائفة من الحيوانات على اختلاف أنواعها ، كالنمل والنحل في المأوى وجمع الغذاء ، وكالطيور في الهواء ، والأسماك في الماء ، إلا وقد اتخذت لنفسها قيادة تنظم سيرها وعملها ورئاسة تهيمن على شؤونها وحركاتها ، ولو قدِّر تخلف ذلك كان تخلفه نادراً ، وإذا فقدت القيادة في أُمة من الحيوانات تجدها قد ضربت أطنابها في الفوضى ، وصارت يُضرب بها المثل في الهمجية والتهرج والاضطراب كأُمة الجراد .

وقد زخرت أدلة الكتاب والسنة بالحث الكثير على طاعة ولاة الأمور ، والتحذير الشديد من الخروج عليهم ومنازعتهم . والحديث في أصل الولاية

بالخبر عنها ، وانتظام الأمر بها مبسوط في مصنفات العلماء وهي تنص على أن وجوب تنصيب الولاة والأئمة وهو أمر معروف ، طبعت عليه القبائل والأمم ، كما دلَّ العمل المستمر من النبي ﷺ ، في بعث السرايا على أنه ما بعث سرية إلا وقد أَمَّر عليها أميراً ، وأوصها بطاعته ، ودلَّ عمله في البلاد الإسلامية أنه لم يترك بلداً دون أن يؤمِّر على أهلها أميراً ، ولم يسافر عن المدينة إلا وقد أمَّر عليها أميراً ، فإذا كان هذا شأنه في الولايات الخاصة ، فالولاية العامة ألزم ،والعناية بها أتم وأوجب ، بل لا تكون ولاية خاصة في أُمَّة إلا عن طريق الولاية العامة ومستمدة منها .

س ١ : فضيلة الشيخ في الوقت الذي نرى فيه العالم الإسلامي اليوم من فرقة وانقسام وضياع لمقدسات المسلمين وموالاة لبعض دول الغرب الكافرة ، والبعض الآخر لقوى الشرق يسأل الشباب المسلم عن دوره تجاه أمته الإسلامية حتى تعود للمسلمين عزتهم ومقدساتهم ؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله ـ : الجواب عن هذا نأخذه من تاريخ المسلمين .

أولاً : كيف كثروا بعد أن كانوا قلة ، وكيف اجتمعت قلوبهم على قلب رسول الله ﷺ وكانوا جبهة وقوة بعد ضعف ، وكيف انتصروا على أعدائهم ؟ وبماذا كان هذا الانتصار ؟ وبما كانت هذه الوحدة وهذا التآلف بينهم ؟ وبما كان هذا التآخي ؟ إذا نظرنا في تاريخ المسلمين وجدناهم كالجسد الواحد يتأثر كل فرد منهم بما يصيب أخاه ؛ وكل جانب أو بلد من البلاد التي كان يسكنها المسلمون في الصدر الأول في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والصحابة ، والتابعين ومن تبعهم في القرون الثلاثة الأولى نجدهم جميعاً كانوا وحدة لا تتجزأ ، ويحس كل واحد منهم بإحساس الآخر ، انظر إلى المادة أو الغذاء أو الدينامو إن شئت أن تسميه دينامو الذي بعث في قلوبهم تلكم القوة ، وأنار تلك القلوب وأحياها ، وجعل فيها إن شئت قل الصواريخ التي تصيب أعداءهم ، وإن شئت قل السهام والنبال ، وإن شئت قل السيوف ، أذكر ما شئت من العدد الحربية والقوة القلبية والشجاعة النفسية ، أذكر ما شئت من هذا ، مبعثه أمر واحد وهو الاعتقاد والإيمان بكتاب الله ـ جل شأنه ـ وبما جاء في سنة رسوله ﷺ مما يتصل بأسماء الله وصفاته ،وبما يتصل بتوحيد العبادة والإخلاص فيها لله وحده وبما يتصل بالجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته ونصرة لدينه وإحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل وقضاءاً علي الكفر وأنصاره . و هذا المعنى هو مبعث الإخاء والقوة التي في قلوب المسلمين والشجاعة التي في قلوب المسلمين .

وأضرب لكم مثلاً بأمر واقع في غزوة الحديبية[١] الرسول ﷺ كان معه ألف وأربعمائة مقاتل ، ولما وصل إلى المكان المسمى بالحديبية وهو قريب من وادي فاطمة ، بركت ناقته وأرادوا أن يسيروها بالإكراه فقال : دعوها فإنها مأمورة فتركوها ثم بلغه أن أهل مكة في شدة وفي إباء أن يقبلوا دخوله مكة وأرسل إليهم عثمان بن عفان ليرى شأنهم فتأخر بالرد على النبي ﷺ ووقع في نفوس الكثيرين أنه قُتل أو أسر .

وكان القصد من إرسال عثمان إلى هناك لكي يتبين الأمر ، فلما تأخر وظنوا أنه قتل عاهد النبي ﷺ أصحابه على القتال وألا يفروا من وجه الكفار حتى ولو جاءوا بجميع ما عندهم من قوة ، بايعوه جميعاً وسميت البيعة بيعة الرضوان .

في الوقت نفسه اجتمعت قريش في كيفية مواجهة النبي ﷺ ، وذلك بعد أن أبلغهم بديل بن ورقاء الخزاعي بقوله إني قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولاً فإن شئتم عرضته عليكم ، فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء ، وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته فقال : سمعته يقول إنا لم نأتي لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا أن يخلو بيني وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيدي لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذنَّ أمره .

وعلى أثره بعثت قريش مكرز بن حفص فلما رآه ﷺ قال : هذا الرجل غادر فلما جاء وتكلم ، قال له مثل ما قال لبديل فرجع إلي قريش وأخبرهم .

ثم قال رجل من كنانة اسمه الحليس بن علقمة : دعوني آته فقالوا ائته فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فبعثوا

---

(١) حديث صلح الحديبية أخرجه البخاري (٢٧٣١) ، (٢٧٣٢) .

له الهدي واستقبله القوم يلبون ، فلما رأىٰ ذلك قال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلىٰ أصحابه فقال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرىٰ أن يصدوا وجرىٰ بينه وبين قريش كلام كثير ، فقال عروه بن مسعود الثقفي إن هذا قد عرض عليكم خطه رشد فأقبلوها ودعوني أن آتيه . فأتاه فجعل يكلمه فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل فقال له عروه عند ذلك : أي محمد أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح قومه قبلك ؟ وإن تكن الأخرىٰ فوالله إني لأرىٰ وجوهاً ، وأرىٰ أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك . فقال له أبو بكر : أمصص بظر اللات أنحن نفر عنه ؟ قال : من ذا؟ قالوا : أبو بكر قال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك وجعل يكلم النبي ﷺ ، وكلما كلمه أخذ بلحيته . وكان المغيرة بن شعبة مدججاً بالسلاح واقفاً علىٰ رأس النبي ﷺ وكلما أشار بالسلاح إلىٰ رسول الله ﷺ قال له المغيرة : كف يدك وهدده بقطعها إذا لم يكفها ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : المغيرة . فقال له : يا غدر بالأمس غسلنا سوءتك ، وكف يده ، لكن قال كلمة سيئه هي التي يسمونها اليوم حرب أعصاب ، قال للنبي ﷺ جئت بجيش بعضه غفاري ،وبعضه جهني ، وبعضه من المهاجرين ، وبعضه من الأنصار ، وهم قسمان أوس ، وخزرج ، وبين الفريقين ما بينهما من العداوة والبغضاء في زمن الجاهلية ، وهم أخلاط جئت بهم من كل حدب وصوب ، وهم خليط ، كيف أمنت علي نفسك أن تحارب قومك ويحمي هؤلاء ظهرك ، يريد أن يفتر همة النبي ﷺ وأن يخدعه ، ويخدع قومه حتىٰ يمهد بذلك للصلح والرجوع دون أن يدخل مكة ، ولكن أبو بكر لم يستطيع أن يصبر ، وأن يترك الجواب للنبي ﷺ بل قال له أمصص بظر اللات ، البظر هو الذي يقطع في الختان من البنت ، واللات صنم تعبده قريش ، فقال له ذلك سخرية به واستهزاءً بإلهه وبالكفار جميعاً . إن أخوة الإيمان أقوىٰ من أخوة النسب ، ولننظر إلىٰ هذا

الرباط الروحي ، الرباط القلبي ، رباط الإيمان فإنه يجمع بين القلوب أكثر مما يجمع النسب بين القلوب .

كان الإيمان حلقة اتصال بين المؤمنين كان الإيمان رباطا انبني عليه الإخاء الصادق ، وانبنت عليه الأخوة الصادقة، وإخلاص كلٍّ منهم للآخر ، وإخلاص الجميع لله وحده ، والرضا بقضائه وقدره رضا يجعله لا يجبن عن القتال ، ولا يتأخر عن مواجهة الكفار أعداء الله ، وأعداء المسلمين كما قال تعالىٰ في بداية سورة الممتحمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (1) و كما أمر الله تعالىٰ المسلمين بأن يؤاخي بعضهم بعضاً ، وأن يربطوا بينهم برباط الإيمان ، وأن يجعلوه مقدماً علىٰ النسب ، وقال في سورة براءة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (2) .

فبين أن قلوب المؤمنين يجب أن تكون ممتلئة بحب الله ، وبحب رسول الله ، وبالحب بين المؤمنين فيما بينهم وأن يكون هذا الحب مقدماً علىٰ كل شيء من متاع الدنيا وحطامها ، ومن الأقارب ،و من الأزواج ، ومن الأولاد ، ومن كل شيء إلا الله ورسوله ، وإلا التشريع الإسلامي ، فهذا يجب أن يكون في قلوبهم مقدماً علىٰ كل شيء بهذا حقق الله للمسلمين القوة التي لا يستطيع الكفار أن يدفعوها مهما كان عددهم .

كان الروم كثرة ، والمسلمون قلة ، ومع ذلك انتصروا عليهم كان كسرىٰ ، والفرس قوة في الجاهلية ، وفي صدر الإسلام يخشاهما ويقدرهما الناسُ قدرهما ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يقفوا في وجه المسلمين .

(1) سورة الممتحنة ، الآية : ١ .

(2) سورة التوبة ، الآية : ٢٤ .

وقد بشر الرسول ﷺ بأنهم سينتصررون على الروم ، وأنهم سينتصرون على كسرىٰ ، وأنهم سيسكنون بلادهم ، ويعمرونها بالإسلام ، وأنهم سيأخذون كثيراً من أموالهم ، وتُفْتح عليهم الدنيا بكثرة ، هذا كله نتيجة لما لديهم من إيمان جعله الله جل شأنه حياة لهم وقوة لهم ، فلم يخشوا على أنفسهم من القتال ولا من الجهاد في سبيل الله ، ولم يتفرقوا فيما بينهم ، وكان المشركون يخشون منهم ، وهم على مسافة بعيدة ، وينزل بهم الرعب على مسافات كثيرة فكانوا ينصرون لمجرد السماع ، وهذا من فضل الله جل شأنه جزاءً للمسلمين على ما وهبهم من قوة إيمان ، وقوة إخاء ، وحب في الله ، وبغض في الله ، وعمل بتشريع الله سبحانه وتعالىٰ .

هذا الذي كان في الأول هو العلاج الذي يجب أن يكون اليوم ، ولن تجتمع كلمة المسلمين إلا بمثل ما اجتمعت عليه كلمة آبائهم ، وأجدادهم من المؤمنين الأولين .

هذا هو الطريق الذي رسمه الله وبينه رسوله ﷺ . وعمل به المسلمون الأولون ، فإذا رجع المسلمون إليه في الوقت الحاضر رجع إليهم مجدهم ، ونصرهم ، ووحدتهم ، ورعبوا أعدائهم ، وماداموا على الوضع الذي هم عليه من الفرقة والاختلاف وترك العمل بالشرع وموالاة أعداءالله من الكفار ، ولم يتحولوا عنه لا قدر الله فهم في شر ، وفرقة ، وخصومات وأحقاد ، وضغائن أسأل الله السلامة والعافية .

فهرس إجمالي [١]

الموضوع الصفحة



فهرس إجمالي [٢]

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

ثانيا : مباحث الفقه وفتاويه

ثالثا : مباحث في القرآن

الموضوع الصفحة

رابعا : أبواب التفسير

خامسا : الحديث النبوي

سادسا : فتاوى الحجاب واللباس والتصوير

سابعا : مباحث الدعوة والعلم

ثامنًا : ذم البدع

تاسعًا : فتاوى متفرقة

عاشراً : نظرة إلى واقع المسلمين



الفهرس التفصيلي

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

أولا مباحث وفتاوى العقيدة

١ ـ علم التوحيد

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

فتاوى العقيدة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

أبواب التفسير

فتاوى : التفسير

رابعا : الحديث النبوي

خامسا : فتاوى الحجاب واللباس والتصوير

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * تم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات * *